

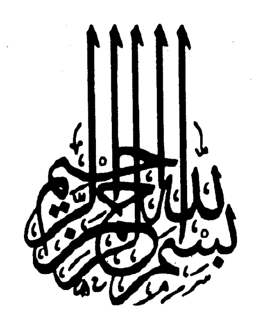
تأليف

أبو الفداء إسماعيل بن كثير

اعتنى به

محمد تامر





اسم الكتاب: قصص الأنبياء

اسم المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن كثير

عدد الصفحات: ٤٣٢

اعتنى به: محمد تامر

الطبعة: الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٢٤٥٤٨ / ٢٠٠٦

مكتبة الأصولي للنشر والتوزيع
دمنهور خلف عمر أفندي
ت: ٠٠٢/٠٤٥/٣٣١١١٣٨ ـ م: ٠٠٢/٠١٠٥٤٠١٣٢٤


قصص الأنبياء

قصة آدم عليه السلام

ما ورد في خلق آدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران :٥٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]. كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات :١٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف :١٨٩]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ (١٧) قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٢١) فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣) قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف :١١-٢٥].

كما قال تعالى في الأية الآخرى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه :٥٥]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ

قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦-٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥٠-٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١١٥-١٢٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٦٧-٨٨].

فهذا ذِكْرُ هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن، وقد تكلمنا على ذلك كله في التفسير، ولْنذكر هاهنا مضمونَ ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات، وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ، واللهُ المستعان.

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] أَعْلَمَ بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يَخْلُف بعضهم بعضًا كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢] فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه [1] بخلق آدم وذريته، كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه [2]، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم، كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين، قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:٣٠].

قيل: علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن، قاله قتادة.

وقال عبد الله بن عمر: كانت الجن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء فبعث الله إليهم جندًا من الملائكة فطردوهم إلى جَزَائر البحور. وعن ابن عباس نحوه.

وعن الحسن: أُلْهِموا ذلك. وقيل: لما اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ، فقيل: أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له: السجل. رواه ابن أبي حاتم عن أبي جعفر الباقر. وقيل: لأنهم علموا أن الأرض لا يُخْلَق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالبًا.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠]. أي نعبدك دائما لا يعصيك منا أحد، فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فها نحن أولاء لا نَفْتُر ليلاً ولا نهارًا.

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]. أي أعلمُ من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون، أي سيوجد منهم الأنبياء والمرْسَلون والصدِّيقون والشهداء والصالحون.

ثم بيَّنَ لهم شرف آدم عليهم في العلم فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١].

قال ابن عباس: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وقال مجاهد: علمه اسم الصَّحْفة وهي الإناء يوضع فيه الطعام، والقِدْر، حتى الفَسْوَة والفُسَيَّة. وقال مجاهد: علمه اسم كل دابة، وكل طير وكل شيء. وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد. وقال الربيع: علمه أسماء الملائكة. وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته.

والصحيح: أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها مُكبَّرها ومُصغَّرها، كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) يقال: نَوَّهَ به: أي شهره ورفع ذكره.

(٢) يعني: قبل إيجاده.

وذكر البخاري هنا ما رواه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام، عن قتادة، عن أنس ابن مالك، عن رسول الله ﷺ، قال: «يُجْمَعُ المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده (١)، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كلِّ شيء» وذكر تمام الحديث (٢).

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٣١]، قال الحسن البصري: لما أراد الله خَلْقَ آدم، قالت الملائكة: لا يخلق ربنا خلقًا إلا كنا أعلم منه. فابتُلوا بهذا، وذلك قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٣١]، وقيل غير ذلك كما بسطناه في التفسير (٣).

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢]، أي سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك (٤). كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة :٢٥٥].

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة :٣٣] أي أعلمُ السرَّ كما أعلم العلانية.

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] ما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة :٣٠] وبقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة :٣٣] المراد بهذا الكلام إبليس حين أسرَّ الكبر والنفاسة (٥) على آدم عليه السلام، قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدي والضحاك والثوري واختاره ابن جرير. وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة :٣٣] قولهم: لن يخلق ربنا خلقًا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه.

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة :٣٤]. هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، كما قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر :٢٩]. فهذه أربع تشريفات: خَلْقُه بيده الكريمة، ونَفْخُه من روحه، وأمْرُ الملائكةِ بالسجود له، وتعليمُه أسماء الأشياء.

ولهذا قال له موسى الكليم (٦) حين اجتمع هو وإياه في الملأ الأعلى وتناظرا كما سيأتي: «أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده،

ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء» (٧). وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم، وكما سيأتي إن شاء الله تعالى. وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝ قَالَ مَا مَنَعَكَ

(١) قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، واللفظ له، ومسلم (١٩٣) وليست عنده هذه اللفظة [وعلمك أسماء كل شيء].
(٣) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٧٠، ٧١).
(٤) أي: من غير أن تعلمه.
(٥) يعني: أنه أنفس منه مادة؛ إذ خلق من نار، وخلق آدم من طين.
(٦) الذي كلمه الله من غير واسطة.
(٧) سبق تخريجه.

أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١١-١٢].

قال الحسن البصري: قاس إبليس، وهو أول من قاس. وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عُبِدَت الشمسُ ولا القمر إلا بالمقاييس، رواهما ابن جرير.

ومعنى هذا أنه نظر بطريق المقايسة بينه وبين آدم، فرأى نفسَه أشرفَ من آدم فامتنع عن السجود له، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود. والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار، ثم هو فاسد في نفسه، فإن الطين أنفع وخير من النار، لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق.

ما ورد في خلق آدم عليه السلام

ثم إن آدم شرّفه الله بخلقه له بيده، ونَفْخِه فيه من روحه، ولهذا أمر الملائكة بالسجود له، كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر:٢٨-٣٥] استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقُّصه لآدم وازدراءه به وترفُّعه عليه مخالفةَ الأمر الإلهي، ومعاندةَ الحق في النص على آدم على التعيين.

وشرع في الاعتذار بما لا يُجدِي عنه شيئًا، وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى في سورة سبحان [١]: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦١-٦٥].

وقال في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف:٥٠] أي: خرج عن طاعة الله عمدًا وعنادًا واستكبارًا عن امتثال أمره، وما ذاك إلا لأنه خانه طبعُه ومادتُه الخبيثة أحوجَ ما كان إليه [٢]، فإنه مخلوق من نار كما قال، وكما جاء في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ، قال: «خُلِقتْ الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصِف لكم» [٣].

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قَطُّ. وقال شهر بن حوشب: كان من الجن، فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جندًا من الملائكة فقاتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار، وكان إبليس ممن أُسِر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك، فلما أُمِرتْ الملائكة بالسجود

---

(١) يعني سورة الإسراء.

(٢) يعني: وهو في حاجة إلى أن يساعده طبعه ومادته على النجاة من هذا الموقف.

(٣) مسلم (٨/٢٢٦).

امتنع إبليس منه .

وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون : كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا . قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل ، وفي رواية عنه : الحارث . قال النقاش : وكنيته أبو كردوس . قال ابن عباس : وكان من حي من الملائكة يقال لهم : الجن ، وكانوا خُزّان الجنان ، وكان من أشرفهم ومن أكثرهم علمًا وعبادة ، وكان من أُولى الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطانًا رجيمًا .

وقال في سورة ص : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص :٧١-٨٥].

وقال في سورة الأعراف : ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف :١٦-١٧] أي بسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم كل مرصد ، ولآتينهم من كل جهة منهم ، فالسعيد مَنْ خالفه والشقيُّ مَنِ اتبعه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو عقيل هو عبد الله بن عقيل الثقفي حدثنا موسى بن المسيب ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن سبرة بن أبي الفاكه قال : سمعت رسول الله ﷺ، قال : «إن الشيطان قعد لابن آدم بأَطْرقه» [(١)] وذكر الحديث كما قدمناه فى صفة إبليس . وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم : أَهُمْ جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات ، وهو قول الجمهور ، أو المراد بهم ملائكة الأرض ، كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس؟ وفيه انقطاع وفي السياق نكارة وإن كان بعض المتأخرين قد رجحه .

ولكن الأظهر من السياقات الأول ، ويدل عليه الحديث : «وأسجد له ملائكته» وهذا عموم أيضًا . والله أعلم . وقوله تعالى لإبليس : ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف :١٣] ، و ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف :١٨] دليل على أنه كان في السماء فَأُمِرَ بالهبوط منها ، والخروج من المنزلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته ، وتَشَبُّهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ، ثم سُلِبَ ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه ، فأُهْبِط إلى الأرض مذءومًا مدحورًا .

وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال : ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة :٣٥].

وقال فى الأعراف : ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٥٢)، والنسائي (٦/ ٢١) كلاهما من طريق هاشم بن القاسم به .

وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٨-١٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١١٦-١٢٠].

وسياق هذه الآيات يقتضي أن خَلْقَ حواء كان قبل دخول آدم إلى الجنة لقوله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]. وهذا قد صرح به إسحاق بن يسار، وهو ظاهر هذه الآيات.

ولكن حكى السدى عن أبي صالح وأبي مالك، وعن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا: أُخْرِج إبليس من الجنة وأُسْكِن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وَحْشى[1] ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومةً فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه. فسألها: ما أنتِ؟ قالت: امرأة. قال: ولم خُلِقْتِ؟ قالت: لتسكن إليَّ، فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولم كانت حواء؟ قال: لأنها خُلقت من شيء حي.

وذكر محمد بن إسحاق، عن ابن عباس: أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولُئِمَ مكانه لحمًا[2].

ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١] . . . ، وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وسنتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وفي الصحيحين من حديث زائدة، عن ميسرة الأشجعي، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «استوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا»[3] هذا لفظ البخاري.

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] فقيل: هي الكَرْم، وروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والشعبي وجعدة بن هبيرة، ومحمد بن قيس، والسدي في رواية عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة، قال: وتزعم يهود أنها الحِنْطة وهذا مروي عن ابن عباس والحسن البصري، ووهب بن منبه، وعطية العوفي، وأبي مالك، ومحارب بن دثار، وعبد الرحمن بن أبي ليلى. وقال وهب: والحبة منه ألين من الزُّبْد وأحلى من العسل.

وقال الثوري عن أبي حصين، عن أبي مالك: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] هي النخلة. وقال

---

(١) الوحشي: الذي يجد الوحشة، وليس له أنيس.

(٢) يعني: سده، يقال: لأم الشيء: أي أصلحه وسده.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٦١)، (٧/ ٣٤)، ومسلم (٤/ ١٧٨).

ابن جريج عن مجاهد: هي التينة، وبه قال قتادة، وابن جرير، وقال أبو العالية: كانت شجرة مَنْ أَكَل منها أَحْدث ولا ينبغي في الجنة حَدَث.

وهذا الخلاف قريب، وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لَعيَّنها لنا، كما في غيرها من المَحَال التي تُبْهَم في القرآن.

وإنما الخلاف الذي ذكروه في أن هذه الجنة التي أدخلها آدم: هل هي في السماء أو في الأرض؟ هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه.

والجمهور على أنها هي التي في السماء، وهي جنة المأوى، لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] والألفُ واللامُ ليستْ للعموم ولا لمعهودٍ لفظي، وإنما تعود على معهود ذهني [(١)]، وهو المستقر شرعًا من جنة المأوى. وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام: «عَلَامَ أخرجتنا ونفسَك في الجنة؟ . . .» الحديث كما سيأتي الكلام عليه.

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي - اسمه سعد بن طارق - عن أبي حازم سلمة بن دينار، وعن أبي هريرة، وأبو مالك عن ربعي، عن حذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: «يُجْمَع الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف [(٢)] لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟» وذكر الحديث بطوله [(٣)]. هذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى، وليست تخلو عن نظر.

وقال آخرون: بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد، لأنه كُلِّف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة، ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوي.

وهذا القول مَحْكِيٌ عن أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، ووهب بن منبه، وسفيان بن عيينة، واختاره ابن قتيبة في «المعارف» والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره، وأفرد له مصنفًا على حدة.

وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله، ونقله أبو عبد الله بن محمد بن عمر الرازي بن خطيب الري في تفسيره عن أبي القاسم البلخي، وأبي مسلم الأصبهاني، ونقله القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية. وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب وممن حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في «الملل والنحل»، وأبو محمد بن عطية في تفسيره

---

(١) المعهود الذهني: يكون حيث يتقدم الاسم المعرف بأل علم في ذهن المخاطب نحو قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] وقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] ونحو قول الطالب لزملائه: حضر المدرس، فالاسم المعرف بأل في كل هذا معهود في ذهن المخاطب من قبل. وأما المعهود اللفظي وهو المعهود الذكري أيضًا، وذلك حيث يتقدم ذكر للاسم المعرف بأل نحو قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥-١٦] ونحو قولك: «سافرنا في باخرة فسارت بنا الباخرة ثلاثة أيام» وقد صرح بعض النحاة بأن فائدة «أل» هنا التنبيه على أن الاسم المعرف بها هو الاسم الأول، إذ لو جيء بالاسم الثاني نكرة لتوهم أنه غيره.

(٢) يعني: حين تقترب وتظهر.

(٣) أخرجه مسلم (١/ ١٢٩).

وأبو عيسى الرماني في تفسيره، وحكى عن الجمهور الأول، وأبو القاسم الراغب، والقاضي الماوردي في تفسيره فقال: واختُلِف في الجنة التي أُسْكِنَاهَا - يعني آدم حواء - على قولين: أحدهما: أنها جنة الخلد. والثاني: أنها جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء.

ومَنْ قال بهذا اختلفوا على قولين: أحدهما: أنها في السماء لأنه أهبطهما منها، وهذا قول الحسن. والثاني: أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نُهِيا عنها دون غيرها من الثمار، وهذا قول ابن يحيى، وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم. والله أعلم بالصواب من ذلك. هذا كلامه.

فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة، وأَشْعَر كلامُه أنه متوقف في المسألة. ولهذا حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره في هذه المسألة أربعةَ أقوال: هذه الثلاثة التي أوردها الماوردي، ورابعها: الوقف. وحكى القول بأنها في السماء وليست جنة المأوى عن أبي علي الجبائي.

وقد أورد أصحاب القولِ الثاني سؤالاً يحتاج مثله إلى جواب، فقالوا: لا شك أن الله سبحانه وتعالى طرد إبليس حين امتنع عن السجود عن الحضرة الإلهية، وأمره بالخروج عنها والهبوط منها وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته، وإنما هو أمر قدري لا يخالف ولا يمانع، ولهذا قال: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف:١٨]، وقال تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣]، وقال تعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧]، والضمير عائدٌ إلى الجنة أو السماء أو المنزلة، وأيا ما كان فمعلوم أنه ليس له الكون قدرًا في المكان الذي طرد منه وأبعد منه، لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز.

قالوا: ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠].

وبقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢٠-٢٢]. الآية.

وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما.

وقد أُجيبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة على سبيل المرور فيها، لا على سبيل الاستقرار بها، وأنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء. وفي الثلاثة نظر، والله أعلم.

ومما احتج به أصحابُ هذه المقالة: ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد في الزيادات [1]، عن هدبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن البصري، عن يحيى ابن ضمرة

---

(١) يعني: في الزيادات التي زادها على مسند أبيه، وهذه الزيادات موجودة الآن في ضمن المسند، وينبغي على من وجد في بداية الإسناد في المسند؛ عبد الله بن أحمد، أن يقول رواه عبد الله بن أحمد في زيادته على المسند، ولا يقول: رواه أحمد. والله أعلم.

السعدي، عن أبي بن كعب، قال: إن آدم لما احتضر (١) اشتهى قِطْفًا من عنب الجنة، فانطلق بنوه ليطلبوه له، فلقيتهم الملائكة فقالوا: أين تريدون يا بني آدم؟ قالوا: إن أبانا اشتهى قطفًا من عنب الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد كُفِيتموه. فانتهوا إليه فقبضت روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل ومِنْ خلفه الملائكةُ ودفنوه، وقالوا: هذه سنتكم في موتاكم. وسيأتي الحديث بسنده، وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام.

قالوا: فلولا أنه كان الوصولُ إلى الجنة التي كان فيها آدم التي اشتهى منها القطف ممكنًا، لما ذهبوا يطلبون ذلك، فدل على أنها في الأرض لا في السماء. والله تعالى أعلم.

قالوا: والاحتجاجُ بأن الألفَ واللامَ في قوله: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩] لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهني مسلم، ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام، فإن آدم خُلِق من الأرض ولم يُنْقَل أنه رفع إلى السماء، وخلق ليكون في الأرض، وبهذا أَعْلَمَ الربُّ الملائكةَ حيث قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

قالوا: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]. . فالألف واللام ليس للعموم، ولم يتقدم معهود لفظي، وإنما هو للمعهود الذهني الذي دل عليه السياق وهو البستان.

قالوا: وذِكْر الهبوط لا يدل على النزول من السماء، قال الله تعالى: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]

وإنما كان في السفينة حين استقرت على الجُودِيّ (٢) ونضب الماء عن وجه الأرض أمر أن يهبط إليها هو ومن معه مباركًا عليه وعليهم.

وقال الله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] الآية . . وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير.

قالوا: ولا مانعَ - بل هو الواقع - أن الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض، ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور، كما قال تعالى ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨] أي لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعُرْي ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩] أي لا يمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس، ولهذا قرن بين هذا وهذا، وبين هذا وهذا، لما بينهما من الملاءمة.

فلما كان منه ما كان مِن أكْله من الشجرة التي نُهِي عنها، أهبط إلى أرض الشقاء والتعب، والنصب والكدر، والسعي والنكد، والابتلاء والاختبار والامتحان، واختلاف السكان دينًا وأخلاقًا وأعمالاً، وقصودًا وإراداتٍ وأقوالاً وأفعالاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. ولا يلزم من هذا أنهم كانوا في السماء كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]، ومعلوم أنهم كانوا فيها ولم

(١) يعني: حضره الموت.

(٢) الجودي: جبل معروف في أرض الموصل.

يكونوا في السماء.

قالوا: وليس هذا القول مُفرَّعًا على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم، ولا تلازم بينهما، فكلُّ مَنْ حُكِيَ عنه هذا القول من السلف وأكثر الخلف، ممن يُثْبِتُ وجود الجنة والنار اليوم [(١)]، كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة:٣٦]أي: عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:٣٦] أي من النعيم والنضرة والسرور، إلى دار التعب والكد والنكد، وذلك بما وسوس لهما وزيَّنه في صدورهما، كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف:٢٠]يقول: ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، أي لو أكلتما منها لصرتما كذلك. ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف:٢١]أي: حلف لهما على ذلك ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١].

كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]أي هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم، واستمرَرْتَ في ملك لا يبيد ولا ينقضي؟ وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع.

والمقصود أن قوله: شجرة الخلد التي إذا أكلت منها خلدت، وقد تكون هي الشجرة التي قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن أبي الضحاك، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها: شجرة الخلد» [(٢)].

وكذا رواه أيضًا عن غندر وحجاج، عن شعبة ورواه أبو داود الطيالسي [(٣)]في مسنده عن شعبة أيضًا به. قال غندر: قلت لشعبة: هي شجرة الخلد؟ قال: ليس فيها هي. تفرد به الإمام أحمد.

وقوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٢] كما قال في طه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه:١٢١] وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم، وهي التي حَثَّتْه [(٤)]على أكلها. والله أعلم.

وعليه يحمل الحديث الذي رواه البخاري: حدثنا بشر بن محمد، حدثنا عبد الله، أنبأنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺنحوه: «لولا بنو إسرائيل لم يَخْنَز [(٥)]اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها» [(٦)]. تفرد به من هذا الوجه، وأخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة به، ورواه أحمد ومسلم عن هارون بن معروف، عن

---

(١)مذهب السلف أن الجنة والنار موجودتان الآن قال تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وقال عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] انظر: مختصر معارج القبول ص (٢٦٣)، والعقيدة الطحاوية ص (٤٢٠).

(٢)أخرجه أحمد (٢/ ٤٥٥، ٤٦٢)، وعبد بن حميد (١٤٥٧)، والدارمي (٢٨٤٢) كلهم من طريق شعبة به.

(٣)أخرجه أحمد (٢/ ٤٥٥)، والطيالسي في مسنده (٢٥٤٧).

(٤)أي حضته ورغبته.

(٥)خنز اللحم: إذا فسد وأنتن.

(٦)أخرجه البخاري (٤/ ١٦١، ١٨٧)، ومسلم (٤/ ١٧٩) من طريق معمر عن همام به..

أبي وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي يونس، عن أبي هريرة به [(١)]. وفي كتاب التوراة التي بأيدي أهل الكتاب: أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها، فأكلت حواء عن قولها، وأطعمت آدم عليه السلام، وليس فيها ذكر لإبليس. فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فوصلا من ورق التين وعملا مآزر، وفيها أنهما كانا عريانين. كذا قال وهب بن منبه: وكان لباسهما نورًا على فرجه وفرجها.

وهذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم، وتحريف وخطأ في التعريب، فإن نقل الكلم من لغة إلى لغة لا يتيسر لكل أحد، ولا سيما ممن لا يكاد يعرف كلام العرب جيدًا، ولا يحيط علمًا بفهم كتابه أيضًا، فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظًا ومعنى.

وقد دل القرآنُ العظيمُ على أنه كان عليهما لباس في قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧] فهذا الذي لا يرد لغيره من الكلام. والله تعالى أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلًا طُوَالًا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سَحُوق [(٢)]، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعره شجرة فنازعها. فناداه الرحمن عز وجل: يا آدم، مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يارب، لا، ولكن استحياء» [(٣)]. وقال الثوري عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] ورق التين. وهذا إسناد صحيح إليه، وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب. وظاهر الآية يقتضي أعم من ذلك، وبتقدير تسليمه فلا يضر. والله تعالى أعلم.

وروى الحافظ ابنُ عساكر من طريق محمد بن إسحاق، عن الحسن بن ذكوان، عن الحسن البصري، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق، ستون ذراعًا كثير الشعر مواري العورة، فلما أصاب الخطيئة في الجنة بدت له سوأته، فخرج من الجنة، فلقيته شجرة فأخذت بناصيته، فناداه ربه: أفرارًا مني يا آدم؟ قال: بل حياء منك يارب مما جئت به» [(٤)].

ثم رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن يحيى بن ضمرة، عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ بنحوه. وهذا أصح، فإن الحسن لم يدرك أُبيًا [(٥)].

ثم أورده أيضًا من طريق خيثمة بن سليمان الأطرابلسي، عن محمد بن عبد الوهاب أبي قرصافة

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٩)، ومسلم (٤/ ١٧٩) به مقتصرًا على: «لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر» وكلام المصنف يوهم بأنهما روياه تامًا وليس كذلك.
(٢) السحوق: الطويلة. الوجيز ص (٣٠٥).
(٣) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٨٣٠٨، ٨٢٩٩) وهو سند منقطع.
(٤) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر (٧/ ٤٠٤) وهو منقطع.
(٥) انظر السابق.

العسقلاني، عن آدم بن أبي إياس، عن شيبان، عن قتادة عن أنس مرفوعًا بنحوه (١).

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣] وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة، وتذلُّل وخضوع واستكانة، وافتقار إليه تعالى في الساعة الراهنة، وهذا السِرّ ما سَرَى في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير في دنياه وأُخراه.

﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]. وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس، وقيل: والحية معهم، أمروا أن يهبطوا من الجنة في حال كونهم متعادين متحاربين. وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ، أنه أمر بقتل الحيات، وقال: «ما سالمناهن منذ حاربناهن» (٢).

وقوله في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣]. وهو أمر لآدم وإبليس، واستتبع آدم حواء، وإبليسُ الحيةَ.

وقيل: هو أمر لهم بصيغة التثنية كما في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. والصحيح أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مُدعٍ ومُدَّعًى عليه، قال: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة في قوله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٦-٣٩]. فقال بعض المفسرين: المراد بالإهباط الأول: الهبوط من الجنة إلى السماء، وبالثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض. وهذا ضعيف لقوله في الأول: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] فدل على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول. والله أعلم. والصحيح أنه كرره لفظًا وإن كان واحدًا، وناط (٣) مع كل مرة حكمًا، فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم، وبالثاني الاشتراط عليهم أنّ مَن تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد، ومن خالفه فهو الشقي، وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الحكيم.

وروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال: أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره، فنزع جبريل التاج عن رأسه، وحل ميكائيل الإكليل (٤) عن جبينه، وتعلق به غصن، فظن آدم أنه قد

---

(١) انظر السابق.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٠)، وأبو داود (٥٢٥٠) كلاهما عن ابن عباس مرفوعًا، وأخرجه الحميدي (١١٥٦)، وأحمد (٢/ ٢٤٧) كلاهما عن ابن عجلان عن بكير عن عجلان عن أبي هريرة مرفوعًا، وأخرجه أحمد (٢/ ٤٣٢، ٥٢٠)، وأبو داود (٥٢٤٨) عن ابن عجلان سمعت أبي بمثل السابق لم يذكر فيه بكيرًا.

(٣) ناط الحكم بكذا: علّقه به. مختار الصحاح ص (٦٨٥).

(٤) الإكليل: عصابة للرأس تزين بالجوهر. الوجيز ص (٥٣٩).

عوجل بالعقوبة، فنكس رأسه يقول: العفو العفو. فقال الله: أفرارًا مني؟ قال: بل حياء منك يا سيدي. وقال الأوزاعي عن حسان - وهو ابن عطية -: مكث آدم في الجنة مائة عام، وفي رواية ستين عامًا، وبكى على الجنة سبعين عامًا، وعلى خطيئته سبعين عامًا، وعلى ولده حين قتل أربعين عامًا. رواه ابن عساكر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن سعيد، عن ابن عباس قال: أُهْبِط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها: «دحنا» بين مكة والطائف.

وعن الحسن قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستميان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان. رواه ابن أبي حاتم أيضًا.

وقال السدي: نزل آدم بالهند، ونزل معه بالحجر الأسود وبقبضة من ورق الجنة، فبثه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك.

وعن ابن عمر قال: أهبط آدم بالصفا، وحواء بالمروة. رواه ابن أبي حاتم أيضًا.

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني عوف، عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى الأشعري، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

وقال الحاكم في مستدركه: أنبأنا أبو بكر بن بالويه، عن محمد بن أحمد بن النضر، عن معاوية بن عمرو، عن زائده، عن عمار بن أبي معاوية البجلي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وفي صحيح مسلم من حديث الزهري عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة: فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها» [١]. وفي الصحيح من وجه آخر: «وفيه تقوم الساعة».

وقال أحمد: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، عن أبي عمار، عن عبد الله بن فروخ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة: فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة» [٢]. على شرط مسلم.

فأما الحديث الذي رواه ابن عساكر من طريق أبي القاسم البغوي: حدثنا محمد بن جعفر الوركاني، حدثنا سعيد بن مسيرة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «هبط آدم وحواء عريانين جميعًا، عليهما ورق الجنة، فأصابه الحر حتى قعد يبكي ويقول لها: يا حواء، قد آذاني الحر، قال: فجاء جبريل بقطن، وأمرها أن تغزل وعَلَّمَها، وأمر آدم بالحياكة [٣] وعلمه أن ينسج» وقال: «كان

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠١، ٤١٨، ٥١٢)، ومسلم (٣/ ٦)، والترمذي (٤٨٨)، والنسائي (٣/ ٨٩)، وفي الكبرى (١٥٨٩) كلهم عن الأعرج به.
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٤٠)، وابن خزيمة (١٧٢٩) به.
(٣) الخياطة.

آدم لم يجامع امرأته في الجنة، حتى هبط منها للخطيئة التي أصابتهما بأكلهما من الشجرة»، قال: «وكان كل واحد منهما ينام على حدة، وينام أحدهما في البطحاء والآخر من ناحية أخرى، حتى أتاه جبريل فأمره أن يأتي أهله»، قال: «وعلمه كيف يأتيها، فلما أتاها جاء جبريل فقال: كيف وجدت امرأتك؟ قال: صالحة»[1]. فإنه حديث غريب ورفعه منكر جدًّا، وقد يكون من كلام بعض السلف، وسعيد بن ميسرة هذا هو: أبو عمران البكري البصري قال فيه البخاري: منكر الحديث وقال ابن حبان: يروي الموضوعات وقال ابن عدي: مُظْلِم الأمر.

وقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:٣٧]. قيل هي: قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف:٢٣]. روى هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب، وخالد بن معدان، وعطاء الخرساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا على بن الحسن بن إشكاب، حدثنا على بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «قال آدم عليه السلام: أرأيت يا رب إن تبت ورجعت أعائدى[2] إلى الجنة؟ قال: نعم. فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[البقرة:٣٧]»[3]. وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال الكلمات: «اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الراحمين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب على، إنك أنت التواب الرحيم».

وروى الحاكم في مستدركه من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[البقرة:٣٧] قال: قال آدم: يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قيل له: بلى، ونفخت في من روحك؟ قيل له: بلى، وعطست فقلت يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى، وكتبت على أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى، قال: أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى الحاكم أيضًا والبيهقي وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده، عن عمر بن الخطاب قال: قال قال رسول الله ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي. فقال الله: فكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه بعد؟. فقال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك». قال البيهقي: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف، والله

(١) تاريخ دمشق (٧/ ٤١٣)، وهو حديث موضوع. (٢) يعني: أتعيدني.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم [٤٠٦] وهو حديث موضوع. انظر السلسلة الضعيفة (٢٥).

أعلم.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]

ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النجار، عن يحيي بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حاج موسى آدم عليهما السلام فقال له: أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم. قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله على قبل أن يخلقني، أو قدره على قبل أن يخلقني؟». قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى»[(١)].

وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد. والنسائي عن محمد بن عبد الله بن يزيد، عن أيوب ابن النجار به. قال أبو مسعود الدمشقي: ولم يخرجا عنه في الصحيحين سواه.

وقد رواه أحمد، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة. ورواه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟. فقال له آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، تلومني على أمر قدر على قبل أن أخلق؟». قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى مرتين».

قلت: وقد روى هذا الحديث البخاري ومسلم من حديث الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة».

قال: «فقال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه تلومني على عمل أعمله، كتبه الله على قبل أن يخلق السماوات والأرض؟». قال: «فحج آدم موسى»[(٣)].

وقد رواه الترمذي والنسائي[(٤)] جميعًا عن يحيى بن حبيب بن عدي، عن معمر بن سليمان، عن

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٨، ٢٨٧)، والبخاري (٦/ ١٢١)، ومسلم (٨/ ٥٠)، والنسائي في الكبرى (١١/ ١٥٣٦١ تحفة) كلهم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن به.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٤) ومسلم (٨/ ٥١) كلاهما من طريق عبد الرزاق به.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٩)، والترمذي (٢١٣٤)، والنسائي في الكبرى (٩/ ١٢٣٦٠، ١٢٣٨٩ تحفة) كلهم من طريق سليمان عن أبي صالح به.

(٤) أخرجه الترمذي (٢١٣٤)، ولم أقف عليه عند النسائي من هذا الطريق.

أبيه، عن الأعمش به. قال الترمذي: وهو غريب من حديث سليمان التيمي، عن الأعمش. قال: وقد رواه بعضهم عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد.

قال: هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده، عن محمد بن المثنى، عن معاذ بن أسد، عن الفضل بن موسى، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد.

ورواه البزار [(١)] **أيضًا**: حدثنا عمرو بن علي الفلاس، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أو أبي سعيد، عن النبي ﷺ فذكر نحوه.

وقال أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو، سمع طاووسًا، سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. قال له آدم: يا موسى أنت اصطفاك الله بكلامه وقال مرة: برسالته وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن يخلقني بأربعين سنة». قال: «حج آدم موسى، حج آدم موسى، حج آدم موسى» [(٢)].

هكذا رواه البخاري عن علي بن المديني عن سفيان، قال: حفظناه من عمرو عن طاووس، قال: سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟. فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى» هكذا ثلاثًا [(٣)].

وقال سفيان: حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ مثله [(٤)].

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه من عشر طرق، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه [(٥)].

وقال أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد، عن عمار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لقي آدم موسى، فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك الجنة، ثم فعلت ما فعلت؟. فقال: أنت موسى الذي كلمك الله واصطفاك برسالته، وأنزل عليك التوراة، أنا أقدم أم الذكر؟ قال: لا، بل الذكر. فحج آدم موسى» [(٦)].

---

(١) أخرجه البزار (٢١٤٧).

(٢) أخرجه الحميدي (١١١٥)، وأحمد (٢/ ٢٤٨)، والبخاري (٨/ ١٥٧)، ومسلم (٨/ ٤٩)، وأبو داود (٤٧٠١)، وابن ماجه (٨٠) والنسائي في الكبرى (١٠/ ١٣٥٢٩ تحفة) كلهم من طريق سفيان به.

(٣) السابق.

(٤) أخرجه مالك في موطئه (٥٦٠)، والحميدي (١١١٦)، والبخاري (٨/ ١٥٧)، ومسلم (٨/ ٤٩) كلهم عن أبي الزناد به.

(٥) انظر تخريج الحديث قبل السابق، ولعل المصنف أراد أنه رواه الجماعة إلا الترمذي فإنهم رووه من طرق مختلفة وهي عن علي بن عبد الله، ومحمد بن حاتم، وإبراهيم بن دينار، وابن أبي عمر، وأحمد ابن عبدة، ومسدد، وأحمد بن صالح، وهشام بن عمار، ويعقوب بن حميد بن كاسب، ومحمد بن عبد الله: جميعهم عن سفيان بن عيينة به.

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٤٦٤).

قال أحمد: وحدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، وحميد، عن الحسن، عن رجل - قال حماد: أظنه جندب بن عبد الله البجلي - عن النبي ﷺ قال: «لقي آدم موسى» فذكر معناه. تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا الحسين، حدثنا جرير هو ابن حازم، عن محمد هو ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقي آدم موسى فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، ثم صنعت ما صنعت؟». قال آدم لموسى: أنت الذي كلمه الله، وأنزل عليه التوراة؟. قال نعم. قال: فهل تجده مكتوبًا على قبل أن أخلق؟. قال: نعم. قال: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»[1].

وكذا رواه حماد بن زيد، عن أيوب، وهشام، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رفعه. وكذا رواه علي بن عاصم، عن خالد، وهشام، عن محمد بن سيرين، وهذا على شرطهما من هذه الوجوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني أنس ابن عياض، عن الحارث بن أبي ذباب، عن يزيد بن هرمز، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى. قال موسى: أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك؟ قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجيا، فبكم وجدت الله كتب التوراة؟ قال موسى: بأربعين عامًا. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتب على أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟». قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى»[2].

قال الحارث: وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ.

وقد رواه مسلم عن إسحاق بن موسى الأنصاري، عن أنس بن عياض، عن الحارث ابن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن يزيد بن هرمز والأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه[3].

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى لآدم: يا آدم أنت الذي أدخلت ذريتك النار. فقال آدم: يا موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، وأنزل عليك التوراة، فهل وجدت أني أهبط؟ قال: نعم. قال فحجه آدم»[4]. وهذا على شرطهما ولم يخرجاه من هذا الوجه، وفي قوله -: «أدخلت ذريتك النار» - نكارة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٢) من طريق جرير عن محمد بن سيرين به. وأخرجه أحمد (٢/ ٢٦٨، ٤٤٨)، والبخاري (٦/ ١٢٠)، ومسلم (٥/ ٥١) كلهم من طريق محمد بن سيرين به، ليس من طريق جرير.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١٣٥٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (٨/ ٥٠) به.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٨) به.

فهذه طرق هذا الحديث عن أبي هريرة، رواه عنه حميد بن عبد الرحمن، وذكوان أبو صالح السمان، وطاووس بن كيسان، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وعمار بن أبي عمار، ومحمد بن سيرين، وهمام بن منبه، ويزيد بن هرمز، وأبو سلمة بن عبد الرحمن.

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: حدثنا الحارث بن مسكين المصري، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة. فأراه آدم عليه السلام. فقال له: أنت آدم؟ فقال آدم: نعم. فقال: أنت الذي نفخ الله فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك الأسماء كلها؟، قال: نعم. قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟. فقال له آدم: من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ أنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب، فلم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟، قال: نعم. قال: تلومني على أمر قد سبق من الله عز وجل القضاء به قبل؟! قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى» (١).
ورواه أبو داود عن أحمد بن صالح المصري، عن ابن وهب به (٢).

قال أبو يعلى: وحدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعي، حدثنا عمران، عن الرديني، عن أبي مجلز، عن يحيى بن يعمر، عن ابن عمر، عن عمر قال أبو محمد: أكبر ظني أنه رفعه قال: «التقى آدم وموسى فقال موسى لآدم: أنت أبو البشر، أسكنك الله جنته، وأسجد لك ملائكته. قال آدم: يا موسى أما تجده على مكتوبًا؟. قال: فحج آدم موسى، فحج آدم موسى». وهذا الإسناد أيضًا لا بأس به، والله أعلم. وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، ورواية الإمام أحمد له عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن رجل. قال حماد: أظنه جندب بن عبد الله البجلي، عن النبي ﷺ: «لقي آدم موسى» فذكر معناه (٣).

وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث:

فرده قوم من القدرية لما تضمن من إثبات القدر السابق. واحتج به قوم من الجبرية، وهو ظاهر لهم بادي الرأي حيث قال: «فحج آدم موسى» لما احتج عليه بتقديم كتابه، وسيأتي الجواب عن هذا.

وقال آخرون: إنما حجه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.
وقيل: إنما حجه لأنه أكبر منه وأقدم. وقيل: لأنه أبوه. وقيل: لأنهما في شريعتين متغايرتين.
وقيل: لأنهما في دار البرزخ، وقد انقطع التكليف فيما يزعمونه.

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٤٣). (٢) أخرجه أبو داود (٤٧٠٢) به.
(٣) سبق تخريجه.

والتحقيق: أن هذا الحديث روى بألفاظ كثيرة بعضها مروي بالمعنى وفيه نظر. ومدار معظمها في الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة، فقال له آدم: أنا لم أخرجكم، وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة، والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق، هو الله عز وجل، فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إلى أكثر من إني نهيت عن الأكل من شجرة فأكلت منها، وكون الإخراج مترتبًا على ذلك ليس من فعلي، فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة، وإنما كان هذا من قدر الله وصُنْعِه، وله الحكمة في ذلك، فلهذا حج آدم موسى. ومن كذب بهذا الحديث فمعاند؛ لأنه متواتر عن أبي هريرة رضي الله عنه، وناهيك به عدالة وحفظًا وإتقانًا. ثم هو مروي عن غيره من الصحابة كما ذكرنا.

ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفًا، فهو بعيد عن اللفظ والمعنى، وما فيهم من هو أقوى مسلكًا من الجبرية. وفيما قالوه نظر من وجوه:

أحدها: أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب عنه فاعله.

الثاني: أنه قد قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها، وقد سأل الله في ذلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ [القصص:١٦]

الثالث: أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد، لا نفتح هذا لكل من لِيمَ على أمر قد فعله، فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود. ولو كان القدرُ حجةً لاحتجَّ به كلُّ أحدٍ على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار، وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة، فلهذا قال من قال من العلماء، بأن جواب آدم إنما كان احتجاجًا بالقدر على المصيبة لا المعصية [١]. والله تعالى أعلم.

ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم عليه السلام

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثني قسامة بن زهير، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض. فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك» [٢].

---

(١) قال في شرح العقيدة الطحاوية ص (١٤٧): الصحيح أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وهو كان أعلم بربه وذنبه، بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر، فإنه باطل. وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة، فإن القدر يحتج به عند المصائب، لا عند المعائب. وهذا المعنى أحسن ما قيل.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٠، ٤٠٦)، وعبد بن حميد (٥٤٩)، وأبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥) كلهم حدثنا عوف به.

ورواه أيضًا عن هوذة، عن عوف، عن قسامة بن زهير، سمعت الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»[١].

وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه، من حديث عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن قسامة بن زهير المازني البصري، عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن النبي ﷺ بنحوه[٢]، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: فبعث الله عز وجل جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني، فرجع ولم يأخذها، وقال: رب إنها عاذت بك فأعذتها.

فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل. فبعث ملك الموت فعاذت منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين. فصعد به فبل التراب حتى عاد طينًا لازبًا، واللازب: هو الذي يلزق بعضه ببعض، ثم قال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢]. فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه، فخلقه بشرًا، فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه، وكان أشدهم منه فزعًا إبليس، فكان يمر به فيضربه، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة[٣]، فذلك حين يقول: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ويقول: لأمر ما خلقت، ودخل من فيه وخرج من دبره وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف، لئن سلطت عليه لأهلكنه.

فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس، فقالت الملائكة: قل: الحمد لله، فقال: الحمد لله. فقال له الله: رحمك ربك.

فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، وذلك حين يقول الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠-٣١] وذكر تمام القصة. ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث، وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات. فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس، أن

---

(١) انظر السابق. (٢) أخرجه ابن حبان (٦١٦٠).
(٣) أي صوت فيه ترجيع. انظر مختار الصحاح ص (٣٦٨)، الوجيز ص (٣٦٨).

النبي ﷺ قال: «لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك» [١].

وقال ابن حبان في صحيحه: حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس، فقال: الحمد لله رب العالمين. فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله» [٢].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا حبان بن هلال، حدثنا مبارك بن فضالة، عن عبيد الله، عن حبيب، عن حفص هو ابن عاصم بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب عن أبي هريرة رفعه قال: «لما خلق الله آدم عطس، فقال: الحمد لله. فقال له ربه: رحمك ربك يا آدم» [٣]. وهذا الإسناد لا بأس به، ولم يخرجوه. وقال عمر بن عبد العزيز: لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم إسرافيل، فآتاه الله أن كتب القرآن في جبهته. رواه ابن عساكر. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا عمرو بن محمد، عن إسماعيل ابن رافع المقبري، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من تراب، ثم جعله طينًا ثم تركه حتى إذا كان حمأً مسنونًا [٤] خلقه وصوره، ثم تركه حتى إذ كان صلصالاً كالفخار قال: فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم.

ثم نفخ الله فيه من روحه فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه، فعطس فلقاه الله رحمة به، فقال الله: يرحمك ربك، ثم قال الله: يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل لهم السلام عليكم، فانظر ماذا يقولون؟ فجاء فسلم عليهم فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقال يا آدم! هذه تحيتك وتحية ذريتك. قال يا رب وما ذريتي؟ قال: اختر يدي يا آدم. قال: أختار يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين، فبسط كفه فإذا من هو كائن من ذريته في كف الرحمن، فإذا رجال منهم أفواههم النور، وإذا رجل يعجب آدم نوره، قال: يا رب من هذا؟ قال: ابنك داود. قال: يا رب فكم جعلت له من العمر؟ قال: جعلت له ستين. قال: يا رب فأتم له من عمري حتى يكون عمره مائة سنة. ففعل الله ذلك، وأشهد على ذلك. فلما نفد عُمْرُ آدم بعث الله ملك الموت، فقال آدم: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال له الملك: أو لم تعطها ابنك داود؟ فجحد ذلك فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته» [٥].

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار، والترمذي، والنسائي في «اليوم والليلة» من حديث صفوان بن عيسى، عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٢، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٥٤)، وعبد بن حميد (١٣٨٦) ومسلم (٨/ ٣١) كلهم من طريق حماد بن سلمة به

(٢) أخرجه ابن حبان (٦١٦٥).

(٣) أخرجه ابن حبان (٦١٦٤).

(٤) الحمأ المسنون: هو الطين المتغير لونه وريحه من طول مكثه. انظر تفسير السعدي ص (٣٨٤).

(٥) أخرجه أبو يعلي في مسنده (٦٥٨٠)، والترمذي في سننه (٣٣٦٨)، والنسائيَ في الكبرى (١٠٠٤٦).

ﷺ[1]، وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقال النسائي: هذا حديث منكر. وقد رواه محمد بن عجلان، عن أبيه، عن أبي سعيد المقبري، عن عبد الله بن سلام قوله.

وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نعيم، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد ابن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً فأعجبه وبيص ما بين عينيه، قال: أي رب من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: رب وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وَخَطِئَ آدمُ فخطئت ذريته»[2]. ثم قال الترمذي: حسن صحيح. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺورواه الحاكم[3] في مستدركه من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين، وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يخرجاه.

وروى ابن أبي حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة مرفوعًا فذكره وفيه: «ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم، هؤلاء ذريتك. وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا رب، لم فعلت هذا بذريتي؟ قال: كي تُشْكَر نعمتي». ثم ذكر قصة داود. وستأتي من رواية ابن عباس أيضًا.

وقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا أبو الربيع، عن يونس ابن ميسرة، عن أبي إدريس، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كتفه اليسرى: إلى النار ولا أبالي»[4].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا خلف بن هشام، حدثنا الحكم بن سنان، عن حوشب، عن الحسن قال: خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صَفْحته اليمنى، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فألقوا على وجه الأرض، منهم الأعمى والأصم والمبتلى. فقال آدم يا رب، ألا سويت بين ولدي؟ قال: يا آدم، إني أردت أن أشكر. وهكذا روى عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة عن الحسن بنحوه. وقد رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه فقال: حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذن الله، فقال له ربه: يرحمك ربك يا آدم، اذهب إلى أولئك

(١)أخرجه الترمذي (٣٣٦٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢١٨)، والبزار كلهم به.
(٢)أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، (٣٠٧٨) به.
(٣)أخرجه الحاكم (٢/ ٣٢٥). (٤)أخرجه أحمد (٦/ ٤٤١) به.

الملائكة - إلى ملأ منهم جلوس - فسلم عليهم، فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم رجع إلى ربه فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم. وقال الله ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت، فقال: اخترْتُ يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين مباركة. ثم بسطهما فإذا فيهم آدم وذريته، فقال: أي رب، ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، وإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه، وإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم لم يكتب له إلا أربعون سنة، قال: يا رب، من هذا؟ قال: هذا ابنك داود. قال: فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة، قال: أنت وذاك. اسكن الجنة. فسكن الجنة ماشاء الله ثم هبط منها، وكان آدم يعد لنفسه، فأتاه ملك الموت فقال له آدم: قدْ عجلت، وقد كتب لي ألف سنة. قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة، فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى فنسيت ذريته، فيومئذ أمر بالكتاب والشهود» [1] هذا لفظه.

وقد قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يجيبونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله. فزادوه «ورحمة الله». فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» [2]. وهكذا رواه البخاري في كتاب الاستئذان، عن يحيى بن جعفر، ومسلم، عن محمد بن رافع، وكلاهما عن عبد الرزاق به وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد ابن المسيب، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «كان طول آدم ستين ذراعًا في سبع أذرع عرضًا» [3] انفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الدَّيْن [4] قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم، إن أول من جحد آدم، إن أول من جحد آدم. إن الله لما خلق آدم مسح ظهره، فأخرج منه ما هو ذارئ [5] إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلاً يَزْهَر [6]، قال: أي رب، من

---

(١) ابن أبي الدنيا في الشكر (١٦٢)، وابن حبان في صحيحه (٦١٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٥)، والبخاري (٤/ ١٥٩)، (٨/ ٦٢)، وفي الأدب المفرد (٩٧٨)، ومسلم (٨/ ١٤٩) كلهم من طريق عبد الرزاق به.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٥) به.

(٤) وهي أطول آية في القرآن، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

(٥) ذرأ الله الخلق: خلقهم وكثرهم. الوجيز (٦)(٢٤٣) أي وجهه حسن يتلألأ.

هذا؟ قال: هذا ابنك داود، قال: أي رب، كم عمره. قال: ستون عامًا، قال: أي رب، زد في عمره. قال: لا، إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عامًا. فكتب الله عليه بذلك كتابًا وأشهد عليه الملائكة. فلما احتضر آدم أتته الملائكة لقبضه، قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عامًا، فقيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود، قال: ما فعلت، وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة» (١).

وقال أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله، ﷺ: «إن أول من جحد آدم - قالها ثلاث مرات - إن الله عز وجل لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه، فرأى فيهم رجلًا يزهر، فقال: أي رب، زد في عمره. قال: لا، إلا أن تزيده أنت من عمرك فزاده أربعين سنة من عمره فكتب الله عليه كتابًا وأشهد عليه الملائكة. فلما أراد أن يقبض رُوحَهُ قال: إنه بقي من أجلي أربعون سنة، فقيل له: إنك قد جعلتها لابنك داود. قال: فجحد، قال: فأخرج الله الكتاب، وأقام عليه البينة، فأتمها لداود مائة سنة. وأتم لآدم عمره ألف سنة (٢). تفرد به أحمد، وعلي بن زيد في حديثه نكارة.

وروى الطبراني عن على بن عبد العزيز، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس وغير واحد، عن الحسن قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم ثلاثًا» (٣)وذكره.

وقال الإمام مالك بن أنس في موطئه عن زيد بن أبي أنيسة، أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فقال ابن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته. قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: يا رسول الله ﷺ، ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عملٍ مِنْ أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة. وإذا خلق الله العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل أهل النار فيدخل به النار» (٤).

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٥١، ٢٩٨، ٣٧١) من طرق عن حماد بن سلمة به.

(٢) انظر السابق. (٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٩٢٨).

(٤) ولا يحسبن أحدٌ أن الله تعالى يدخل أحدًا النار ظلمًا وقهرًا من غير أن يكون يستحقها أو يقدر عليه ذلك اعتباطًا بغير حكمة ولا علم، وإنما قدر الله ذلك على العباد لأنه عليم خبير يعلم السر وأخفى من السر، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم ما يفعله العبد من الشر والسيئات والمعاصي التي تستوجب دخوله النار فكتبه من أهل النار، ولله المثل الأعلى فإن المدرس محدود العلم والنظر يمكن أن يخبر هل سينجح هذا الطالب أم لا قبل أن يمتحنه، وهذا مجرب في الحياة معروف بالنسبة للمخلوق الضعيف، فكيف بالعليم الخبير الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، سبحانه وتعالى وعز وجل.

وهكذا رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه من طرق، عن الإمام مالك به [١]. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر، وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة، زاد أبو حاتم: وبينهما نعيم بن ربيعة. وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى، عن بقية، عن عمر بن جثعم، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار، عن نعيم بن ربيعة، قال: كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث [٢].

قال الحافظ الدارقطني: وقد تابع عمر بن جثعم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوي، عن زيد بن أبي أنيسة، قال: وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله.

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمتهم قسمين: أهل اليمين وأهل الشمال، وقال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي». فأما الإشهاد عليهم واستنطاقهم بالإقرار بالوحدانية، فلم يجئ في الأحاديث الثابتة، وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر كما بيناه هناك، وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها وألفاظ متونها، فمن أراد تحريره فليراجعه ثَمَّ [٣]. والله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جرير - يعني ابن حازم - عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس عن النبي ﷺ، قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً. قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]. فهو إسناد جيد قوي على شرط مسلم، رواه النسائي وابن جرير والحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد المروزي به [٤]. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، إلا أنه اخْتُلِفَ فيه على كلثوم ابن جبر، فروي عنه مرفوعًا وموقوفًا، وكذا روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفًا، وهكذا رواه العوفي والوالبي والضحاك وأبو حمزة عن ابن عباس قوله، وهذ أكثر وأثبت. والله أعلم. وهكذا روى عن عبد الله بن عمر موقوفًا ومرفوعًا والموقوف أصح.

واستأنس القائلون بهذا القول - وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور - بما قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثني شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديًا به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك ما أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك

(١) أخرجه مالك في موطئه ص (٥٦٠)، وأحمد (١/ ٤٤)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٨/ ١٠٦٥٤ تحفة) كلهم به.

(٢) أبو داود (٤٧٠٤) به.

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٠-٢٥٣).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢)، والنسائي في الكبرى (٥٦٠٢ تحفة) كلاهما عن حسين بن محمد به، وقال النسائي: كلثوم هذا ليس بالقوي وحديثه ليس بالمحفوظ. ابن جرير، والحاكم.

بي شيئًا، فأبيت إلا أن تشرك بي». أخرجاه من حديث شعبة به.

وقال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] الآية والتي بعدها. قال: فجمعهم له يومئذ جميعًا ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فخلقهم ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهد عليهم أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]... الآية. قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم، ألا تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري، ولا تشركوا بي شيئًا، وإني سأرسل إليكم رسلًا ينذرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتابي. قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك. فأقروا يومئذ بالطاعة.

ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فيهم الغني والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: يا رب، لو سَوَّيت بين عبادك؟ فقال: إني أحببت أن أُشكر.

ورأى فيهم الأنبياء مثل السُّرُج عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧] وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠]. وفي ذلك قال: ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم:٥٦]. وفي ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٠٢].

رواه الأئمةُ: عبدُ الله بن أحمد وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه، في تفاسيرهم من طريق أبي جعفر، وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والسدي، وغير واحد من علماء السلف، بسياقات توافق هذه الأحاديث.

وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم، وامتثلوا كلهم الأمر الإلهي، وامتنع إبليس من السجود له حسدًا وعداوة له، فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها، وأهبطه إلى الأرض طريدًا ملعونًا شيطانًا رجيمًا.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويعلى ومحمد أبناء عبيد، قالوا: حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله! أُمِر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار» (١). ورواه مسلم من حديث وكيع وأبي معاوية عن الأعمش به.

ثم لما أُسْكِن آدم الجنة التي أسكنها - سواء كانت في السماء أم في الأرض على ما تقدم من الخلاف فيه - أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام، يأكلان منها رغدًا حيث شاءا، فلما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها سلبا ماكانا فيه من اللباس وأهبطا إلى الأرض، وقد ذكرنا الاختلاف في

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٣)، ومسلم (١/ ٦١)، وابن ماجه (١٠٥٢)، وابن خزيمة (٥٤٩) كلهم من طريق الأعمش به.

مواضع هبوطه منها. واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة: فقيل: بعض يوم من أيام الدنيا، وقد قدمنا ما رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «وخُلِقَ آدم في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة» وتقدم أيضًا حديثه عنه. وفيه - يعني يوم الجمعة - «خلق آدم، وفيه أخرج منها». فإن كان اليوم الذي خلق فيه أخرج - وقلنا: إن الأيام السته كهذه الأيام - فقد لبث بعض يوم من هذه الجمعة وفي هذا نظر وإن كان إخراجه في غير اليوم الذي خلق فيه، أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك، واختاره ابن جرير، فقد لبث هناك مدة طويلة.

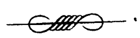
قال ابن جرير: ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة، والساعة منه ثلاثة وثمانون سنة وأربعة وأشهر، فمكث مصورًا طينًا قَبل أن يُنْفَخ فيه الروح أربعين سنة، وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثًا وأربعين سنة وأربعة أشهر. والله تعالى أعلم.

وقد روى عبد الرزاق، عن هشام بن حسان، عن سوار خبر عطاء بن أبي رباح: أنه لما كان أهبط رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، فحطه الله إلى ستين ذراعًا. وقد روى عن ابن عباس نحوه. وفي هذا نظر لما تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن». وهذا يقتضي أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعًا، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقُهم حتى الآن.

وذكر ابن جرير عن ابن عباس: أن الله قال: يا آدم، إن لي حرمًا بحيال [1] عرشي. فانْطَلِق فابْنِ لي فيه بيتًا، فَطُفْ به كما تطوف ملائكتي بعرشي. وأرسل الله له ملكًا فعرفه مكانه وعلمه المناسك، وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك. وعنه: أن أول طعام أكله في الأرض أنْ جاءه جبريل بسبع حبات من حِنْطَة، فقال: ما هذا؟ قال: هذا من الشجرة التي نُهِيتَ عنها فأكلْتَ منها. فقال: وما أصنع بهذا؟ قال: ابْذُرْه في الأرض، فبذره، وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف فنبتت فحصده ثم درسه ثم ذراه، ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١١٧]. وكان أول كسوتهما من شعر الضأن: جَزَّاهُ ثم غَزَلَاهُ، فنسج آدم له جبة ولحواء درعًا وخمارًا.

واختلفوا: هل ولد لهم بالجنة شيء من الأولاد؟ فقيل: لم يولد لهما إلا في الأرض، وقيل: بل ولد لهما فيها، فكان قابيل وأخته ممن ولد بها. والله أعلم.

وذكروا أنه كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، وأمر أن يُزَوِّج كلَّ ابنٍ أُخْتَ أَخِيهِ التي وُلِدَتْ معه، والآخر بالأخرى، وهلم جرا، ولم يكن تحل أخت لأخيها الذي ولدت معه.



(١) أي في قباله أو بإزائه. الوجيز ص (١٨٢).

ذكر قصة ابني آدم: قابيل وهابيل

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٢٧-٣٢]. قد تكلمنا على هذه القصة في سورة المائدة في التفسير بما فيه كفاية (١). ولله الحمد.

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف في ذلك:

فذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة، أن آدم كان يُزَوِّج ذكر كل بطن بأنثى الآخر، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل، وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى فأمرهما أن يقربا قربانًا، وذهب آدم ليحج إلى مكة، واستحفظ السموات على بنيه فأبين، والأرضين والجبال فأبين، فتقبل قابيل بحفظ ذلك. فلما ذهبا قَرّبا قربانهما، فقرب هابيل جذعة سمينة، وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حِزْمة من زرع من رديء زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين.

وروى عن ابن عباس من وجوه أخر، وعن عبد الله بن عمرو، وقال عبد الله بن عمرو. وايم الله، إنْ كان المقتول لأشدَّ الرجلين، ولكنه منعه التحرج أن يبسط إليه يده، وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشرًا لتقريبهما القربانَ والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه. فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي، فبعث آدم قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذ هو به، فقال له: تقبل منك ولم يتقبل مني، فقال: إنما يتقبلُ اللهُ من المتقين، فغضب قابيلُ عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله، وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فَشَدَخَتْه (٢) وقيل: بل خنقه خنقًا شديدًا وعضه كما تفعل السباع، فمات. والله أعلم.

وقوله لما توعده بالقتل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨] دل على خُلُق حسن، وخوف من الله تعالى وخشية منه، وتورع أن يقابل

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩-٤٤).

(٢) يعني: شجت رأسه. الوجيز ص (٣٣٨).

أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله.

ولهذا ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»: قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»[(١)].

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩] أي إني أريد ترك مقاتلتك وإن كنتُ أشدَّ منك وأقوى، إذ قد عزمْتَ على ما عزمْتَ عليه، أن تبوء بإثمي وإثمك، أي تتحمل إثم قتلي مع ما لك من الآثام المتقدمة قبل ذلك. قاله مجاهد والسدي وابن جرير وغير واحد، وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل كما قد توهمه بعض الناس، فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك. وأما الحديثُ الذي يورده بعضُ من لا يعلم عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ترك القاتلُ على المقتول من ذنب»[(٢)] فلا أصل له، ولا يعرف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضًا. ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة، أن يطالب المقتولُ القاتلَ فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه المظلمة فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل، كما ثبت به الحديث الصحيح في سائرِ المظالم[(٣)] والقتل من أعظمها. والله أعلم. وقد حررنا هذا كله في التفسير[(٤)] ولله الحمد.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن سعد بن أبي وقاص، أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي». قال: أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط إليّ ليقتلني؟. قال: «كن كابن آدم»[(٥)].

ورواه ابن مردويه، عن حذيفة بن اليمان مرفوعًا، وقال: «كن كخير ابنَيْ آدم». وروى مسلم

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣، ٥١)، والبخاري (١/ ١٤)، (٩/ ٥)، ومسلم (٨/ ١٦٩، ١٧٠)، وأبو داود (٤٢٦٨)، (٤٢٦٩)، والنسائي (٧/ ١٢٥) كلهم من طريق الحسن عن الأحنف بن قيس عن أبي بكرة فذكره مرفوعًا. وأخرجه أحمد (٥/ ٤٦، ٥١)، والنسائي (٧/ ١٢٥) كلاهما عن الحسن عن أبي بكرة فذكره ليس فيه الأحنف، وأخرجه البخاري (٩/ ٦٤) من طريق حماد عن رجل لم يسمه عن الحسن، قال: خرجت بسلاحي ليالي الفتنة، فاستقبلني أبو بكرة. . . . . فذكره. وأخرجه أحمد (٤/ ٤٠١، ٤٠٣، ٤١٠، ٤١٨)، وعبد بن حميد (٥٤٣)، وابن ماجه (٣٩٦٤)، والنسائي (٧/ ١٢٤، ١٢٥) كلهم عن الحسن عن أبي موسى فذكره مرفوعًا.

(٢) حديث لا أصل له.

(٣) الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس ؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار». أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٣، ٣٣٤، ٣٧١)، ومسلم (٨/ ١٨)، والترمذي (٨/ ٢٤).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢، ٤٣).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ١٦٨، ١٨٥)، وأبو داود (٤٢٥٧)، والترمذي (٢١٩٤) من طرق عن سعد بن أبي وقاص.

وأهل السنن إلا النسائي عن أبي ذر نحو هذا [(١)].

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية ووكيع، قالا: حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن ابن مسعود، قال رسول الله ﷺ: «لا تُقْتَل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل [(٢)] من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل» [(٣)]. وروى الجماعة سوى أبي داود من حديث الأعمش به، وهكذا رُوِيَ عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وإبراهيم النخعي أنهما قالا مثل هذا سواء.

وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها: مغارة الدم، مشهورة بأنها المكان الذي قَتَل قابيلُ أخاه هابيل عندها. وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب، فالله أعلم بصحة ذلك.

وقد ذكر الحافظ ابنُ عساكر في ترجمة أحمد بن كثير - وقال: إنه كان من الصالحين- أنه رأى النبي ﷺ، وأبا بكر وعمر وهابيل، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء، فأجابه إلى ذلك، وصدقه في ذلك رسول الله ﷺ، وقال: إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس. وهذا منام لو صَحّ عن أحمد بن كثير هذا، لم يترتب عليه حكم شرعي. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]. ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة، وقال آخرون: حمله مائة سنة، ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابَيْن. وقال السدي بإسناده عن الصحابة: أخوين، فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه، وواراه، فلما رآه يصنع ذلك ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ [المائدة: ٣١] ففعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه. وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزنًا شديدًا، وأنه قال في ذلك شعرًا. وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد:

تغيَّرتِ البلادُ ومَنْ عليها ... فوجه الأرض مُغْبرٌ قبيح
تغير كل ذي لون وطعم ... وقَلّ بشاشةُ الوجهِ المليح

فأُجيب آدم:

أبا قابيل قد قتلا جميعًا ... وصار الحي كالمَيْت الذبيح
وجاء بشرة قد كان منها ... على خوف فجاء بها يصيح

---

(١) أخرجه مسلم (٧١٧٦)، وأبو داود (٤٢١٦)، والترمذي (٢١٩٤)، وابن ماجه (٣٩٥٨).

(٢) الكفل: النصيب، والمثل. الوجيز ص (٥٣٧).

(٣) أخرجه الحميدي (١١٨)، وأحمد (١/ ٣٨٣، ٤٣٠، ٤٣٣) والبخاري (٤/ ١٦٢)، (٩/ ١٢٧، ٣)، ومسلم (٥/ ١٠٦، ١٠٧) وابن ماجه (٦/ ٢٦)، والترمذي (٢٦٧٣)، والنسائي (٧/ ٨١)، وفي الكبرى (٩٥٦٨ تحفة) كلهم عن الأعمش به.

وهذا الشِعرُ فيه نظر . وقد يكون آدم عليه السلام قال كلامًا يتحزن به بلغته، فألفه بعضهم إلى هذا، وفيه أقوال . والله أعلم .

وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، فتعلقت ساقه إلى فخذه، وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت، تنكيلاً به وتعجيلاً لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه . وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم» [١] .

والذي رأيته في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة : أن الله عز وجل أَجَّلَه وأَنْظَره، وأنه سكن في أرض «نود» في شرقي عدن وهم يسمونه «قنين» وأنه ولد له خنوخ، ولخنوخ عندر، ولعندر محاويل، ولمحاويل متوشيل، ولمتوشيل لامك، وتزوج هذا امرأتين : عدا وصلا . فولدت «عدا» ولدًا اسمه «ابل»، وهو أول من سكن القباب واقتنى المال، وولد أيضًا «نوبل» وهو أول من أخذ في ضرب الونج والصنج . وولدت «صلا» ولدًا اسمه «توبلقين» وهو أول من صنع النحاس والحديد، وبنتًا اسمها «نعمى» . وفيها أيضًا أن آدم طاف على امرأته فولدت غلامًا ودعت اسمه «شيث» وقالت : من أجل أنه قد وهب لي خلفًا من هابيل الذي قتله قابيل، وولد لشيث أنوش .

قالوا : وكان عمر آدم يوم ولد شيث مائة وثلاثون سنة، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائة وخمسًا وستين، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين . وولد له بنون وبنات غير أنوش . فولد لأنوش «قينان» وله من العمر تسعون سنة، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وخمس عشرة سنة، وولد له بنون وبنات .

فلما كان عمر قينان سبعين سنة ولد له مهلاييل، وعاش بعد ذلك ثمانمائة وأربعين سنة، وولد له بنون وبنات . فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنة ولد له (يرد) وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، وولد له بنون وبنات . فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون سنة ولد له «خنوخ» وعاش بعد ذلك ثمانمائة وولد له بنون وبنات .

ولما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له متوشلخ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، ولد له بنون وبنات، فلما كان لمتوشلخ مائة وسبعون سنة ولد له «لامك» وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنين وثمانين سنة وولد بنون وبنات . فلما كان للامك من العمر مائة واثنتان وثمانون سنة ولد له «نوح» وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمسًا وتسعين سنة، وولد ز بنون وبنات، فلما كان لنوح خمسمائة سنة ولد له بنون : سام وحام ويافث .

هذا مضمون ما في كتابهم صريحًا . وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر، كما

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦، ٣٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩)، (٦٧)، وأبو داود (٤٩٠٢)، وابن ماجه (٤٢١١)، والترمذي (٢٥١١) كلهم من طريق عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي بكرة فذكره مرفوعًا .

ذكره غيرُ واحدٍ من العلماء طاعنين عليهم في ذلك . والظاهر أنها مُقْحَمة [١] فيها ، ذكَرَها بعضُهم على سبيل الزيادة والتفسير ، وفيها غلط كثير كما سنذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر ابن جرير في تاريخه عن بعضهم : أن حواء ولدت لآدم أربعين ولدًا في عشرين بطنًا . قاله ابن إسحاق وسماهم . والله تعالى أعلم ، وقيل : مائة وعشرين بطنًا في كل واحد ذكر وأنثى ، أولهم قابيل وأخته قليما ، وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث .

ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثُروا ، وامتدوا في الأرض ونموا ، كما قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء :١] . . . الآية .

وقد ذكر أهلُ التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة . والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف :١٨٩-١٩٠] الآيات . فهذا تنبيه أولاً بذكر آدم ، ثم استطرد إلى الجنس . وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء ، بل لما جرى ذكر الشخص استطرد إلى الجنس كما في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون :١٢-١٣] . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك :٥] . ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء ، وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن إبراهيم ، حدثنا قتادة عن الحسن ، عن سمرة ، عن النبي ﷺ قال : «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سَمِّيه عبد الحارث فإنه يعيش . فسمته عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره» [٢] . وهكذا رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم عند هذه الآية ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ، كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الترمذي : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه . فهذه علة قادحة في الحديث أنه رُوِي موقوفًا على الصحابي وهذا أشبه . والظاهر أنه تَلَقَّاه من الإسرائيليات ، وهكذا روى موقوفًا على ابن عباس . والظاهر أن هذا مُتَلَقًّى عن كعب الأحبار وذويه . والله أعلم .

وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا ، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل منه إلى غيره . والله أعلم . وأيضًا فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر ، وليبثَّ منهما

---

(١) يقال : لفظة مقحمة : أي : زائدة لا تناسب السياق . الوجيز ص (٤٩١) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١١) ، والترمذي (٣٠٧٧) كلاهما من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به . ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والحاكم .

رجالاً كثيرًا ونساء، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظًا؟! والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبي ﷺ خطأ، والصواب وَقْفه. والله أعلم، وقد حررنا هذا في كتابنا التفسير [١] ولله الحمد.

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذُكِر عنهما في هذا، فإن آدم أبو البشر الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته.

وقد روى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال: قلت: يارسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا». قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر، جَمٌّ غَفِير» قلت: يارسول الله، من كان أولهم؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله نبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً» [٢].

وقال الطبراني: حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني، حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا نافع بن هرمز، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أخبركم بأفضل الملائكة: جبريل، وأفضل النبيين آدم، وأفضل الأيام يوم الجمعة، وأفضل الشهور شهر رمضان، وأفضل الليالي ليلة القدر، وأفضل النساء مريم بنت عمران» [٣]. وهذا إسناد ضعيف، فإن نافعًا أبا هرمز كَذَّبَه ابن معين، وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم. والله أعلم.

وقال كعب الأحبار: ليس أحد في الجنة له لِحْية إلا آدم، لحيته سوداء إلى سرته، وليس أحد يُكَنّى في الجنة إلا آدم، وكنيته في الدنيا أبو البشر وفي الجنة أبو محمد. وقد روى ابن عدي من طريق شيخ بن أبي خالد، عن حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله مرفوعًا: «أهل الجنة يُدْعَون بأسمائهم إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد» [٤]. ورواه ابن عدي أيضًا من حديث على بن أبي طالب، وهو ضعيف من كل وجه. والله أعلم.

وفي حديث الإسراء الذي في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما مر بآدم وهو في السماء الدنيا، قال له: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح، وقال: وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى فقلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه، فإذا نظر قِبَل أهل اليمين - وهم أهل الجنة - ضحك، وإذا نظر قِبَل أهل الشمال - وهم أهل النار - بكى. هذا معنى الحديث.

وقال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثني يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حسان عن الحسن قال: كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده.

وقال بعض العلماء في قوله ﷺ «فمَرَرْتُ بيوسف وإذ هو قد أعطى شطر الحسن» قالوا: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام وهذا مناسب، فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٢-٢٦٤). (٢) أخرجه ابن حبان (٣٦١).
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٣٦١). (٤) أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ٤٧) في ترجمة شيخ بن أبي خالد.

وقد روينا عن عبد الله بن عمر وابن عمرو أيضًا موقوفًا ومرفوعًا: «إن الله تعالى لما خلق الجنة، قالت الملائكة: يا ربنا، اجعل لنا هذه، فإنك خلقت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان».

وقد ورد الحديث المروي في الصحيحين وغيرهما من طرق: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم على صورته» وقد تكلم العلماء على هذا الحديث فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها. والله أعلم.



ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث عليه السلام

ومعنى «شيث»: هبة الله، وسَمَّيَاه بذلك لأنهما رُزِقَاه بعد أن قُتِل هابيل.

قال أبو ذر في حديثه عن رسول الله ﷺ: «إن الله أنزل مائة صَحِيفة وأربع صُحُف، على شيث خمسين صحيفة».

قال محمد بن إسحاق: ولما حضرت آدمَ الوفاةُ عَهِدَ [1] إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك. قال: ويقال: إن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا. والله أعلم.

ولما تُوُفِي آدم عليه السلام - وكان ذلك يوم الجمعة - جاءته الملائكة بحنوط [2] وكفنة من عند الله عز وجل - من الجنة، وعزوا فيه ابنه ووَصِيَّه شيثًا عليه السلام. قال ابن إسحاق: وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن.

وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن يحيى - هو ابن ضمرة السعدي - قال: رأيت شيخًا بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا: هذا أبي بن كعب، فقال: إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه: أي بَنِيَّ، إني أشتهي من ثمار الجنة. قال: فذهبوا يطلبون له، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه، ومعهم الفئوس والمساحي والمكاتل، فقالوا لهم: يا بني آدم ما تريدون، ما تطلبون؟ - أو ما تريدون؟ وأين تطلبون؟ - قالوا: أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد قضى [3] أبوكم. فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت [4] بآدم. فقال: إليك عني فإني إنما أتيت من قِبَلك، فخَلِّي بيني وبين ملائكة ربي عز وجل، فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه، وحفروا له ولحدوه، وصلوا عليه ثم أدخلوه قبره فوضعوه في قبره، ثم حَثُوا عليه، ثم قالوا: يابني آدم، هذه سنتكم. إسناد صحيح إليه.

وروى ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ، عن محمد بن زياد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «كَبّرت الملائكة على آدم أربعًا، وكَبّر أبو بكر على فاطمة أربعًا، وكبر عمر على أبي بكر أربعًا، وكبر صهيب على عمر أربعًا» [5]. قال ابن عساكر: ورواه غيره عن ميمون فقال: عن ابن عمر.

واختلفوا في موضع دفنه: فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أُهْبِط فيْه في الهند، وقيل: بجبل أبي قبيس بمكة. ويقال: إن نوحًا عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في تابوت،

(١) يعني: ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه. الوجيز ص (٤٣٨).

(٢) الحنوط: كل ما يخلط من الطيب بأكفان الموتى وأجسامهم خاصة، من مسك وذريرة وصندل وعنبر وكافور وغير ذلك. الوجيز ص (١٧٥).

(٣) يعني: حضر أجله.

(٤) يعني: لجأت إليه، يقال: لاذ بالشئ يَلُوذ لوذًا ولياذًا: لجأ إليه واستتر به وتحصن. الوجيز ص (٥٦٧).

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/٤٥٨). وهو حديث موضوع.

فدفنهما ببيت المقدس، حكى ذلك ابنُ جرير.

وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال: رَأْسُهُ عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس. وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة.

واخْتُلِف في مقدار عمره عليه السلام: فقدمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعًا: «أن عمره اكْتُتِب في اللوح المحفوظ ألف سنة».

وهذا لا يعارض ما في التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة، لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود، إذ خالف الحقَّ الذي بأيدينا مما هو محفوظ عن المعصوم.

وأيضًا فإن قولهم هذا يمكنُ الجمعُ بينه وبين ما في الحديث. فإن ما في التوراة - إن كان محفوظًا - محمولٌ على مدة مقامه في الأرض بعد الإهباط، وذلك تسعمائة سنة وثلاثون سنة شمسية، وهي بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة، ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه في الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره، فيكون الجميع ألف سنة.

وقال عطاء الخراساني: لما مات آدم بَكَتِ الخلائقُ عليه سبعة أيام، رواه ابن عساكر. فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام، وكان نبيًّا بنص الحديث الذي رواه ابنُ حبان في صحيحه، عن أبي ذر مرفوعًا: «أنه أُنْزِل عليه خمسون صحيفة» [1]. فلما حانت وفاته أوصى إلى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده، ثم بعده ولده قينن ثم من بعده ابنه مهلابيل، وهو الذي يزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة، وأنه أول من قطع الأشجار، وبنى المدائن والحصون الكبار، وأنه هو الذي بنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى. وأنه قهر إبليس وجنوده وشردهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها وأنه قتل خلقًا من مردة الجن والغيلان، وكان له تاج عظيم، وكان يخطب الناس ودامت دولته أربعين سنة. فلما مات قام بالأمر بعده ولده «يرد» فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده «خنوخ» وهو إدريس عليه السلام على المشهور.



(١) سبق تخريجه.

ذكر قصة إدريس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[مريم :٥٦-٥٧] .

فإدريس عليه السلام قد أثنى اللهُ عليه ووصفه بالنبوة والصدِّيقية، وهو خنوخ هذا.

وهو في عمود نسب رسول الله ﷺ ، على ما ذكره غير واحد من علماء النسب.

وكان أول بني آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام.

وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم، وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين. وقد قال طائفة من الناس: إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ عمن الخط بالرمل؟ فقال: «إنه كان نبي يخط به فمن وافق خطه فذاك»[1] .

ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك، ويسمونه هرمس الهرامسة، ويَكْذِبون عليه أشياء كثيرة كما كَذَبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء. وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[مريم :٥٧] هو كما ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر به وهو في السماء الرابعة[2] .

وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن جرير بن حازم، عن الأعمش، عن شمر ابن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعبًا وأنا حاضر فقال له: ما قول الله تعالى لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[مريم :٥٧] فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه: إني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم - لعله من أهل زمانهة فأحب أن يزداد عملاً، فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إلي كذا وكذا، فكلم ملك الموت حتى ازداد عملاً، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدرًا، فكَلّم ملكَ الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهري، فقال ملك الموت: يا للعجب! بعثت وقيل: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض؟ فقبض روحه هناك. فلذلك قول الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[مريم :٥٧] .

ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها، وعنده فقال لذلك الملك: سَلْ لي ملك الموت كم بقي من عمري؟ فسأله وهو معه: كم بقي من عمره؟ فقال: لا أدري حتى أنظر، فنظر فقال: إنك تسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر. وهذا من الإسرائيليات، وفي بعضه نَكارة. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله:

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٤٧، ٤٤٨)، والدارمي (١٥١٠، ١٥١١) والبخاري في خلق أفعال العباد (٢٦)، وفي جزء القراءة (٦٩)، (٧٠)، ومسلم (٢/ ٧٠، ٧١)، (٧/ ٣٥)، وأبو داود (٩٣٠، ٣٢٨٢، ٣٩٠٩)، والنسائي (٣/ ١٤) وفي الكبرى (٤٧١، ١٠٥٠)، (٨/ ١١٣٧٨ تحفة) كلهم من طريق يحيى بن أبي كثير عن هلال بن أبي ميمونة عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم فذكره في حديث طويل.

(٢) سبق تخريجه.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٧] قال: إدريس رُفِع ولم يَمُتْ كما رُفِعَ عيسى. إنْ أراد أنه لم يمت إلى الآن، ففي هذا نظر، وإن أراد أنه رفع حيًا إلى السماء ثم قبض هناك. فلا ينافي ما تقدم عن كعب الأحبار. والله أعلم.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٧] رفع إلى السماء السادسة فمات بها، وهكذا قال الضحاك. والحديث المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصح، وهو قول مجاهد وغير واحد، وقال الحسن البصري: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: إلى الجنة، وقال قائلون: رفع في حياة أبيه «يرد بن مهلاييل». والله أعلم. وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح، بل في زمان بني إسرائيل. قال البخاري: ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس: أن إلياس هو إدريس، واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء: أنه لما مر به عليه السلام قال له: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح. ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح. قالوا: فلو كان في عمود نسبه لقال كما قالا له. وهذا لا يدل ولا بد، لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيدًا، أو لعله قاله على سبيل الهضم (١) والتواضع، ولم ينتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر، وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وأكبر أُولِي العزم بعد محمد. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.



(١) يقال: هضم فلانًا هضمًا: ظلمه، وهضمه حقه: نقصه. الوجيز (٦٥٠).

قصة نوح عليه السلام

قصته عليه السلام مع قومه

الجزء الأول من قصة نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد بن مهلاييل بن قينن ابن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام. وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة، فيما ذكره ابن جرير وغيره.

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدِّم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة، وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه: حدثنا محمد ابن عمر بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه، حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام: سمعت أبا سلام، سمعت أبا أمامة يقول: إن رجلاً قال: يارسول الله، أنبي كان آدم؟ قال: «نعم مُكلَّم». قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون» [١]. قلت: وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام». فإن كان المراد بالقرن مائة سنة - كما هو المتبادر عند كثير من الناس - فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون، وزادنا ابن عباس: «أنهم كانوا على الإسلام». وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب: أن قابيل وبنيه عبدوا النار. والله أعلم.

وإن كان المراد بالقَرْن الجيل من الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء:١٧]وقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون:٤٢]وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨]وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريم:٧٤]وقوله عليه السلام: «خير القرون قرني...» [٢] الحديث فقد كان الجيل قبل نوح يُعَمِّرون الدهور الطويلة، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين. والله أعلم.

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لمّا عُبِدت الأصنام والطواغيت، وَشَرَعَ [٣] الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة. وكان قومه يقال لهم: بنو راسب فيما ذكره ابن جرير وغيره. واختلفوا في

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦١٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٧، ٤٣٦)، والبخاري (٣/ ٢٢٤)، (٥/ ٢)، (٨/ ١١٣، ١٧٦)، ومسلم (٧/ ١٨٥، ١٨٦)، والنسائي (٧/ ١٧) كلهم من حديث عمران بن حصين مرفوعًا: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم...».

(٣) يقال: شرع فلان يفعل كذا يشرَع شرعًا: أخذ يفعله. الوجيز ص (٣٤٠).

مقدار سِنّه يوم بُعِث: فقيل: كان ابن خمسين سنة، وقيل: ابن ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل: ابن أربعمائة سنة حكاها ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس. وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة، في غير ما موضع من كتابه العزيز، ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت [(١)]، وأنزل فيه سورة كاملة:

فقال في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٤].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١) قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٣٦) وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ

(١) يقصد سورة القمر.

وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٢٥-٥٠]

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٣١].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ١٢٠ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٢٢].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠)

إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ٧٥-٨٣] .

وقال تعالى في سورة القمر : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٩-١٨] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ١-٢٨] .

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في التفسير . وسنذكر مضمون القصة مجموعًا من هذه الأماكن المتفرقة، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار . وقد جرى ذكره أيضًا في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه[(١)] .

فقال تعالى : ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٦] .

وقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ

(١) وقد ذكر اسم نوح عليه الصلاة والسلام في القرآن ثلاثًا وثلاثين مرة، كما في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام :٨٣-٨٨] .

وقال تعالى في سورة براءة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة :٧٠] . وتقدمت قصته في يونس وهود .

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم :٩]

وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء :٣] . وقال فيها أيضًا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء :١٧] . وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت .

وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب :٧] .

وقال تعالى في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص :١٢-١٥] .

وقال تعالى في سورة غافر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر :٥-٦] .

وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى :١٣] .

وقال تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق :١٢-١٥] .

وقال تعالى في الذاريات: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذاريات :٤٦] .

وقال تعالى في سورة النجم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم :٥٢] . . وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة [القمر] .

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد :٢٦] .

وقال تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ

عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذًا من الكتاب والسنة والآثار، فقد قدمنا عن ابن عباس: أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، رواه البخاري. وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف. ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أنْ آلَ[1] الحالُ بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام. وكان سببُ ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا[2] وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عُبِدت.

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد. وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق.

قال ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس قال: كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صَوَّرناهم كانوا أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دَبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسْقَون المطر. فعبدوهم.

وروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال: وَدّ ويغوث ويعوق وسواع ونسر، أولاد آدم وكان «ود» أكبرهم وأبرهم به.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا يعقوب عن أبي المطهر، قال: ذكروا عند أبي جعفر - هو الباقر - وهو قائم يصلي يزيد بن المهلب، قال: فلما انفتل من صلاته قال: ذكرتم يزيد بن المهلب، أما إنه قُتِل في أول أرض عُبِد فيها غيرُ الله تعالى. قال: ذكر ودا، قال: كان رجلاً صالحًا، وكان محببًا في قومه، فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم[3] عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصوّر لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به؟ قالوا: نعم، فصور لهم مثله، قال: فوضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه. فلما رأى ما بهم من ذِكْره قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله ليكون له في بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم، قال: فمَثّل لكل أهل بيت تمثالاً مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به. قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به. قال: وتناسلوا وَدَرَسَ أمرُ ذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ حتى اتخذوه إلهًا يعبدونه[4] من دون الله أولاد

(١) أي صار وانتهى إلى عبادة الأصنام. الوجيز ص (٣٠).
(٢) أنصاب جمع نَصْب وهو ما يُنْصَبُ ليعبد من دون الله. الوجيز ص (٦٨١). (٣) حزنهم وألمهم على موته.
(٤) يعني: نسوا. بعد مضي الزمان. أنه إنما كان ذلك ليذكروه فقط لا ليعبدوه.

أولادهم، فكان أول ما عُبد غير الله «ود» الصنم الذي سموه «ودا».

ومُقْتَضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبَده طائفةٌ من الناس، وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان، جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لها، ثم عُبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل. ولهم في عبادتهم مسالك كثيرة جدًا قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير. ولله الحمد والمنة.

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول اللهﷺ : أنه لما ذكَرت عنده أمُّ سلمة وأم حبيبة، تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة. ويقال لها: «مارية» وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنَوْا على قبره مسجدًا، ثم صوروا فيه تلك الصورة، أولئك شِرار الخلق عند الله عز وجل»[1] .

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعَمّ البلاءُ بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحًا عليه السلام، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه.



(١) أخرجه البخاري، حديث (١٣٤١)، ومسلم، حديث (٥٢٨)، والنسائي (٧٠٤)، وأحمد (٦/ ٥١)، حديث (٢٤٢٩٧).

[الجزء الثاني من قصة نوح عليه السلام مع قومه]

فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة، قال: «فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟! ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟! فيقول: ربي قد غضب اليوم غضبًا شديدًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيتُ، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى إلى مانحن فيه؟! ألا ترى إلى ما بلغنا؟! ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل؟! فيقول: ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي» [1]. وذكر تمام الحديث كما أورده البخاري في قصة نوح.

فلما بعث الله نوحًا عليه السلام، دعاهم إلى إفراد عبادة الله وحده لا شريك له، وألا يعبدوا معه صنمًا ولا تمثالاً ولا طاغوتا [2] وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]. وقال فيه وفي إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]، أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته، وكذلك إبراهيم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]

وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ولهذا قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩]. وقال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود:٢٦]. وقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥]. وقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح:٢-٣]. وقال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٤]

فَذَكَر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار، والسر والإجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا لم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وَتَنَقَّصُوهُ وتنقصوا من آمن به، وتوعدوهم بالرجم والإخراج، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم. ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٦٠]أي

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣١، ٤٣٥)، والبخاري (٤/ ١٦٣، ١٧٢)، (٦/ ١٠٥)، ومسلم (١/ ١٢٧)، وابن ماجه (٣٣٠٧)، والترمذي (١٨٣٧)، (٢٤٣٤) وفي الشمائل (١٦٧). والنسائي في الكبرى (١٠/ ١٤٩٢٧ تحفة) كلهم عن أبي حيان به.

(٢) الطاغوت: كل ما عبد من دون الله، من الجن والإنس والأصنام. الوجيز ص (٣٩١).

السادة الكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١] أي لست كما تزعمون من أني ضالّ، بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين، أي الذي يقول للشيء: كن فيكون ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]. وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا، أي فصيحًا ناصحًا، أعْلَم الناس بالله عز وجل. وقالوا له فيما قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]. تعجبوا أن يكون بشرًا رسولاً، وتنقّصوا من اتبعه ورأوْهم أراذلهم، وقد قيل: إنهم كانوا من أفناد الناس وهم ضعفاؤهم، كما قال هرقل: «وهم أتباع الرسل»، وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق

وقولهم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] أي: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا رَوِيّة. وهذا الذي رموهم به هو عين ما يُمدَحون بسببه رضي الله عنهم، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى رَوِيّة ولا فكر ولا نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر.

ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحًا للصديق: «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كَبْوة[1] غير أبي بكر، فإنه لم يتلعثم[2]»[3] ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضًا سريعة من غير نظر ولا روية، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضي الله عنهم. ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه، قال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[4] رضي الله عنه.

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧]. أي لم يظهر لكم أمرٌ بعد اتصافكم بالإيمان ولا مَزِيّةٌ علينا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٧-٢٨]. وهذا تلطف في الخطاب معهم، وتَرَفُّق بهم في الدعوة إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. يقول لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨] أي النبوة والرسالة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: ٢٨]. أي فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: ٢٨]. أي أنَغْصِبكم بها ونجبركم عليها؟! ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]. أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه. ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩] أي لست أريد منكم أُجْرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم، إنْ أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي، وأبقى مما تعطونني أنتم.

---

(١) زلة وعثرة.

(٢) تلعثم في الأمر: تمكث فيه وتوقف. الوجيز ص (٥٥٨).

(٣) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٧)، وفيه: محمد بن عبد الرحمن، وهو متروك الحديث.

(٤) أخرجه البخاري، حديث (٥٦٦٦)، ومسلم، حديث (٢٣٨٧)، وأبو داود، حديث (٤٦٦٠).

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ [هود:٢٩] كأنهم طلبوا منه أن يُبْعد هؤلاء عنه، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك، فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ [هود:٢٩] أي: فأخاف إن طردتُهم أن يشكونى إلى الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٣٠].

ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين، كَعَمّار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم، نهاه الله عن ذلك [١]، كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف [٢].

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ [هود:٣١]. أي بل أنا عبدٌ رسول، ولا أعلم مِن عِلْم الله إلا ما أعلمني به ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه، ولا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ [هود:٣١] يعني: مِن أتباعه ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٣١]. أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة، الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. كما قالوا في المواضع الأُخر: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ۝١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الشعراء:١١١-١١٥].

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤]. أى ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم. وكان كلما انقرض جيل وَصّوا مَن بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته. وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامَه، وصاه فيما بينه وبينه، ألا يؤمن بنوح أبدًا ما عاش ودائمًا ما بقي، وكانت سجاياهم [٣] تأبى الإيمان واتباع الحق، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح:٢٧]. ولهذا: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [هود:٣٢-٣٣] أي: إنما يقدر على ذلك الله عز وجل، فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يَكْتَرِثه أمر، بل هو الذي يقول للشيء: كن فيكون. ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [هود:٣٤] أي من يُرِد الله فتْنَتَه فلن يملك أحد هدايته، وهو الذي يهدي من يشاء ويُضِلّ من يشاء، وهو الفعال لما يريد، وهو العزيز الحكيم، العليم بمن يستحق

---

(١) أخرج عبد بن حميد (١٣١)، ومسلم (٧/ ١٢٧)، وابن ماجه (٤١٢٨)، والنسائي في فضائل الصحابة (١١٦)، (١٣٣)، (١٦٠)، (١٦٢) كلهم من طريق المقدام بن شريح، عن أبيه عن سعد قال: نزل في وفي ستة من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم ابن مسعود، قالوا: يا رسول الله، لو طردت هؤلاء السفلة عنك، هم الذين يلونك، فوقع في نفس رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] إلى قوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

(٢) انظر تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: ٥٢] من تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٧، ١٢٨). وتفسير قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف: ٢٨] من تفسير ابن كثير (٣/ ٧٩، ٨٠).

(٣) انظر تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: ٥٢] من تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٧، ١٢٨).

الهداية ومن يستحق الغواية، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة (١).

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود :٣٦]. تسلية له عما كان منهم إليه، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود :٣٦]. وهذه تعزيةٌ لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، أي لا يسوءك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجب عجيب.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود :٣٧]. وذلك أن نوحًا عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم، ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصّلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق، مِن فِعال ومقال - دعا عليهم دعوة غضب لله عليهم فلَبّى الله دعوته وأجاب طِلْبته، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات :٧٥-٧٦]. وقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء :٧٦]. وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ۝١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء :١١٧-١١٨]. وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر :١٠]. وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون :٢٦]. وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ۝٢٥ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح :٢٥-٢٨].

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم؛ فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك، وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها. وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره، وحل بهم بأْسَه الذي لا يرد عن القوم المجرمين - أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه، فإنه لعله قد تدركه رِقّةٌ على قومه عند معاينته العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة. ولهذا قال: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود :٣٧-٣٨]. أي يستهزئون به استبعادًا لوقوع ما توعدهم به، ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود :٣٨]. أي: نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود :٣٩]. وقد كانت سجاياهم: الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا، وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون يسا أن يكون جاءهم رسول.

كما قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح عليه السلاح وأمته، فيقول الله عز وجل: هل بلّغتَ؟ فيقول: نعم أي رب. فيقول لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي،

وتفسير قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف :٢٨] من تفسير ابن كثير (٣/ ٧٩، ٨٠).

(١) أي الماحية للباطل، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فنشهد أنه قد بلغ»[١]. وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. والوسط العَدْل. فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق، بأن الله قد بعث نوحًا بالحق، وأنزل عليه الحق وأمره به، وأنه بَلَّغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها، ولم يَدَعْ شيئًا مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به، ولا شيئًا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه. وهكذا شأن جميع الرسل، حتى أنه حذَّر قومه المسيخ الدجال، وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم، حَذَرًا عليهم وشفقة ورحمة منه.

كما قال البخاري: حدثنا عبدان، حدثنا عبد الله، عن يونس، عن الزهري، قال سالم: قال ابن عمر: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «إني لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه لقد أنذره نوح قومه، ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يَقُلْه نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور»[٢].

وهذا الحديث في الصحيحين أيضًا من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ألا أحدثكم عن الدجال حديثًا ما حدث به نبي قومه؟ إنه أعور وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار، والتي يقول عليها: الجنة هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه»[٣]. لفظ البخاري.

وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له، أمره أن يغرس شجرًا ليعمل منه السفينة، فغرسه وانتظره مائة سنة، ثم نجره في مائة أخرى، وقيل: في أربعين سنة. والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق عن الثوري: وكانت من خشب الساج، وقيل: من الصنوبر وهو نص التوراة. قال الثوري: وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعًا، وعرضها خمسين ذراعًا وأن يطلى ظاهرها وباطنها بالقار، وأن يجعل لها جُؤْجُؤًا[٤] أزور[٥] يشق الماء.

وقال قتادة: كان طولها ثلاثة مائة ذراع في عرض خمسين ذراعًا وهذا الذي في التوراة على ما رأيته. وقال الحسن البصري: ستمائة في عرض ثلاثمائة. وعن ابن عباس: ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ذراع. وقيل: كان طولها ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع. قالوا كلهم: كان ارتفاعها

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٩، ٣٢، ٥٨)، وعبد بن حميد (٩١٣)، والبخاري (٤/ ١٦٣)، (٦/ ٢٥)، (٩/ ١٣٢)، وخلق أفعال العباد (٢٨)، وابن ماجه (٤٢٨٤)، والترمذي (٢٩٦١)، والنسائي في الكبرى (٤٠٠٣ تحفة) كلهم من طريق الأعمش به.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٤٨، ١٤٩)، والبخاري (٢/ ١١٧)، (٣/ ٢٢٠)، (٤/ ٨٥، ١٦٣)، (٨/ ٤٩، ١٥٧)، (٩/ ٧٥)، ومسلم (٨/ ١٩٢، ١٩٣)، وأبو داود (٤٣٢٩)، (٤٧٥٧)، والترمذي (٢٢٣٥)، (٢٢٤٩) كلهم من طريق الزهري به مختصرًا ومطولاً.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٣)، ومسلم (٨/ ١٩٦) كلاهما من طريق شيبان به.

(٤) الجؤجؤ: صدر السفينة. الوجيز ص (٩٠).

(٥) زور فلان زَوَرًا: إذا أشرف أحد جانبي صدره على الآخر. الوجيز ص (٢٩٦).

ثلاثينَ ذِرَاعًا، وكانت ثلاث طبقات، كل واحدة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون:٢٦-٢٧]. أي: بأمرنا لك، بمرأى منا لصنعتك لها، ومشاهدتنا لذلك، لنرشدك إلى الصواب في صنعتها. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٧]. فتقدم إليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه، أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات، وسائر ما فيه روح ومن المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله، أي: أهل بيته، إلا من سبق عليه القول منهم، أي: إلا من كان كافرًا فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد، وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم، الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد. كما قدمنا بيانه قبل. والمراد بالتَّنُّور عند الجمهور وجه الأرض، أي: نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار، وعن ابن عباس: التنور عين في الهند، وعن الشعبي: بالكوفة، وعن قتادة: بالجزيرة. وقال على بن أبي طالب: المراد بالتنور فلق الصبح وتنوير الفجر، أي: إشراقه وضياؤه. أي: عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين، وهذا قول غريب.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

هذا أمر بأنه عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين. وفي كتاب أهل الكتاب: أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج، ومالا يؤكل زوجين: ذكر وأنثى. وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ إن جعلنا ذلك مفعولاً به، وأما إن جعلناه توكيدًا لزوجين والمفعول به محذوف فلا ينافي. والله أعلم. وذكر بعضهم ويروى عن ابن عباس: أن أول ما دخل من الطيور الدرة وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار، ودخل إبليس متعلقًا بذنب الحمار.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح في السفينة من كلٍّ زوجين اثنين، قال أصحابه: وكيف نطمئن؟ أي كيف تطمئن المواشي ومعنا الأسد؟ فسلط الله عليه الحمى، فكانت أول حمى نزلت في الأرض. ثم شكوا الفأرة، فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا. فأوحى إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها» [١]. هذا مرسل. وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠]. أي من استجيب فيهم الدعوة النافذة ممن كفر، فكان منهم ابنه: «يام» الذي غرق كما سيأتي بيانه. ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود:٤٠]. أي واحمل فيها من آمن بك من أمتك. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]. هذا مع طول المدة والمقام بين

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٨٧١) وهو مرسل ضعيف.

أظهرهم، ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهارًا بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى. وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة.

فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفسًا معهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفسًا. وقيل: كانوا عشرة. وقيل: إنما كان نوحًا وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة يام الذي انخذل وانعزل، وسلك عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل. وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية، بل هي نص في أنه قد ركب معه من غير أهله طائفة ممن آمن به، كما قال: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٨]. وقيل: كانوا سبعة. أما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم: وهم حام، وسام، ويافث، ويام، ويُسمّيه أهل الكتاب «كنعان» وهو الذي قد غرق، و «عابر» فقد ماتت قبل الطوفان، وقيل: إنها غرقت مع من غرق، وكانت ممن سَبَقَ عليه القولُ لكفرها. وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك، أو أنها أُنظِرت ليوم القيامة، والظاهر الأول لقوله: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨-٢٩]. أمره أن يحمد ربه على ما سخّره له من هذه السفينة، فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه، وأقرّ عينه ممن خالفه وكذبه.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:١٢-١٥]. وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمر: أنْ يكون على الخير والبركة، وأن تكون عاقبتها محمودة، كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠] قد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية وقال: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود:٤١]. أي: على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود:٤١] أي وذو عقاب أليم، مع كونه غفورًا رحيمًا، لا يَرَد بأسُه عن القوم المجرمين، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره.

قال الله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢]. وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطرًا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده، كان كأفواه القرب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها[1] وسائر أرجائها.

كما قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٠-١٣] والدُّسُر: المسامير ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]. أي: بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر:١٤]. وقد ذكر ابن جرير وغيره: أن الطوفان كان في ثالث عشر شهر آب في حساب القبط.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]. أي السفينة ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ

(١) فجاج: جمع فج، وهو الطريق الواسع البعيد. الوجيز ص (٤٦٢).

وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢] قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعًا، وهو الذي عند أهل الكتاب. وقيل: ثمانين ذراعًا، وعم جميع الأرض طولها وعرضها، وسهلها وحزنها، وجبالها وقفارها ورمالها، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عَيْن تطرف، ولا صغير ولا كبير.

قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم: كان أهل ذلك الزمان قد ملئوا السهل والجبل، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم تكن بقعة في الأرض إلا ولها ملك وحائز. رواهما ابن أبي حاتم.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣]

وهذا الابن هو «يام» أخو سام وحام ويافث، وقيل: اسمه «كنعان» وكان كافرًا، عَمِل عملا غير صالح، فخالف أباه في دينه ومذهبه، فهلك مع من هلك. هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب، لما كانوا موافقين في الدين والمذهب.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]

أي لما فرغ من أهل الأرض، ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله عز وجل، أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها، وأمر السماء أن تُقْلِع أي تمسك عن المطر ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: ٤٤] أي: نقص عما كان ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤] أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره، من إحلاله بهم ما حل بهم. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] أي نودي عليهم بلسان القدرة: بعدًا لهم من الرحمة والمغفرة. كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧] وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١١٩-١٢٢]. وقال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦]. وقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥-١٧]

وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٥-٢٨]

وقد استجابَ اللهُ تعالى - وله الحمد والمنة - دَعْوَتَهُ، فلم يَبْقَ منهم عَيْنٌ تطرف .

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير، وأبو محمد بن أبي حاتم في تفسيرهما من طريق يعقوب بن محمد الزهري، عن فائد مولى عبيد الله بن أبي رافع، أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ قال: «فلو رحم الله من قوم نوح أحدًا لرحم أم الصبي». قال رسول الله ﷺ: «مكث نوحٌ عليه السلام في قومه ألف سنة - يعني إلا خمسين عامًا - وغرس مائة سنة الشجر، فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها ثم جعلها سفينة، ويمرون عليه ويسخرون منه، ويقولون: تعمل سفينة في البر، كيف تجري؟! قال: سوف تعلمون. فلما فرغ ونبع الماء وسار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حبًا شديدًا، فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا، فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم أم الصبي»[1] وهذا الحديث غريب. وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة. وأحْرَى بهذا الحديث أن يكون موقوفًا مُتَلَقًى عن مثل كعب الأحبار. والله أعلم.

والمقصود أن الله لم يُبْقِ من الكافرين ديارًا[2]؛ فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق - ويقال: ابن عناق - كان موجودًا من قبل نوح إلى زمان موسى. ويقولون: كان كافرًا متمردًا جبارًا عنيدًا. ويقولون: كان لغير رِشْدَةٍ، بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا، وأنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس، وأنه كان يقول لنوح وهو في السفينة: ما هذه القصيعة التي لك؟ ويستهزئ به. ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعًا وثلثًا، إلى غير ذلك من الهذايانات التي لولا أنها مُسَطَّرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها، لِسقاطتها وركاكتها، ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول.

أما المعقول: فكيف يسوغ فيه أن يُهْلِك الله ولدَ نوح لكفره، وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان، ولا يهلك عوج بن عنق، ويقال: عناق، وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا؟! وكيف لا يرحم الله منهم أحدًا ولا أم الصبي، ويترك هذا الدعى الجبار العنيد الفاجر، الشديد الكافر، الشيطان المريد على ما ذكروا؟!.

وأما المنقول: فقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:٦٦]. وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦] ثم إن هذا الطول الذي ذكروه مخالف لما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن»[3]. فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٤]. إنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن. أي لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك وهلم

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧/ ١٢/ ٣٥)، وابن أبي حاتم (١٨٩٩٨). وهو ضعيف.

(٢) الديار: الذي يدور على وجه الأرض، والمعنى أنه لم يُبْقِ من الكافرين أحدًا.

(٣) سبق تخريجه.

جرا إلى يوم القيامة ؛ وهذا يقتضي أنه لم يُوجد من ذرية آدم من كان أطول منه . فكيف يُتْرَكُ هذا وَيُذْهَلُ [١] عَنْهُ ويصار إلى أقوال الكَذَبَةِ الكفرة من أهل الكتاب، الذين بدّلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها؟! فما ظنك بما هم يَستقلّون بنقله أو يؤتمنون عليه وهم الخَونَة والكذبة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وما أظنُّ أن هذا الخبرَ عن عوج بن عناق إلا اختلاقًا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء . والله أعلم .

ثم ذكر الله تعالى مناشدةَ نوحٍ رَبَّه في ولده، وسؤاله عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف . ووجه السؤال : أنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق؟ فأجيب بأنه ليس من أهلك، أي الذين وعدت بنجاتهم . أي إنا قلنا لك : ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون :٢٧]. فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره، لهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة [٢] أهل الإيمان، فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان .

ثم قال تعالى : ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود :٤٨]

هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض، وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها، أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل «الجودي» وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال : ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ﴾ [هود :٤٨]. أي اهبط سالمًا مباركًا عليك، وعلى أمم ممن سيولد بعد، أي من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقبًا سوى نوح عليه السلام . قال الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات :٧٧] فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم، يُنْسَبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم : سام، وحام، ويافث .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، أن النبي ﷺ قال : «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم» [٣] .

ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة مرفوعًا نحوه . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : وقد روى عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ مثله . قال : المراد بالروم هنا الروم الأُوَل وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام . ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، أنه قال : وَلَدُ نوحٍ ثلاثةٌ : سام ويافث وحام، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة : فولد سام : العرب وفارس والروم، وولد يافث : الترك والصقالبة

(١) يقال : ذهل عن الأمر يذهَل ذَهْلاً وذهولاً : نسيه وغفل عنه . الوجيز ص (٢٤٧) .
(٢) الحوزة : الناحية، وحوزة الرجل : ما في ملكه، وحوزة الإسلام : حدوده ونواحيه . الوجيز ص (١٧٨) .
(٣) أخرجه أحمد (٥/٩، ١٠)، والترمذي (٣٢٣١)، (٣٩٣١) كلاهما من طريق قتادة به . وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٣٢١٤)، وانظر الضعيفة (٣٦٨٣) .

ويأجوج ومأجوج، وولد حام: القبط والسودان والبربر. قلت: وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن هانئ وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا: حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي: حدثني أبي عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولد لنوح: سام وحام ويافث، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم، وولد ليافث: يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم، وولد لحام: القبط والبربر والسودان» (١). ثم قال: لا نعلم يروى مرفوعًا إلا من هذا الوجه، تفرد به محمد بن يزيد بن سنا ن عن أبيه، وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه. ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مُرْسَلاً ولم يُسْنِده، وإنما جعله من قول سعيد. قلت: وهذا الذي ذكره أبو عمر، هو المحفوظ عن سعيد، قوله: «وهكذا روى عن وهب بن منبه مثله». والله أعلم، ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيف بمرة لا يعتمد عليه.

وقد قيل: إن نوحًا عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان، وإنما ولد له قبل السفينة «كنعان» الذي غرق، و «عابر» مات قبل الطوفان. والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة. وقد ذكر أن «حامًا» واقع امرأته في السفينة، فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته، فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان، وقيل: بل رأى أباه نائمًا وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخوه، فلهذا دعا عليه أن تُغَير نطفته، وأن يكون أولاده عبيدًا لإخوته.

وذكر الإمامُ أبو جعفر بن جرير من طريق على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى بن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه. وقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب بن حام بن نوح. قال: وضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله. فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب، فقال له عيسى بن مريم عليه السلام: هكذا هلكت؟ قال: لا، ولكني مت وأنا شاب، ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثَم شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات: فطبقه فيها الدواب والوحش. وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير. فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، ولما وقع الفأر يخرز السفينة بقرضه، أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام: أن اضرب بين عيني الأسد، فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر. فقال له عيسى: كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت.

قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت

(١) كشف الأستار (٢١٨).

فطوقها الخضرة في عنقها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت. قال: فقالوا: يا رسول الله، ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله، فعاد ترابًا. وهذا أثر غريب جدًا.

وروى علباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يومًا، وإن الله وَجّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يومًا ثم وجهها إلى الجُودِيّ فاستقرت عليه فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض، فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح أن الماء قد نضب [١]، فهبط إلى أسفل الجودي فابْتَنَى قرية وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها العربية، وكان بعضهم لا يَفْقَهُ كلامَ بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم.

وقال قتادة وغيره: ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب فساروا مائة وخمسين يومًا واستقرت بهم على الجودي شهرًا وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم، وقد روى ابن جرير خبرًا مرفوعًا يوافق هذا، وأنهم صاموا يومهم ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله، عن شبل، عن أبي هريرة قال: مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا الصوم»؟ فقالوا: هذا اليوم الذي نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا اليوم استوت فيه السفينة على الجودي، فصامه نوحٌ وموسى عليهما السلام شكرًا لله عز وجل. فقال النبي ﷺ: «أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم» فأمر أصحابه بالصوم، وقال لأصحابه: «من كان منكم أصبح صائمًا فليتم صومه، ومن كان منكم قد أصاب من غداء أهله فليتم بقية يومه» [٢]. وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من وجه آخر، والمستغرب ذكر نوح أيضًا. والله أعلم.

وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فُضُولِ أَزْوَادِهِم، ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها، وطحنوا الحبوب يومئذ، واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعد ما كانوا في ظلمة السفينة - فكل هذا لا يصح فيه شيء - وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بني إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها. والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكفَّ ذلك الطوفان أرسل ريحًا على وجه الأرض، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض، فجعل الماء يَنْقُص ويَغِيض ويدبر، وكان استواء الفلك على الجودي - فيما يزعم أهل التوراة - في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه وفي أول يوم من الشهر العاشر رؤيت رءوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعون يومًا فتح نوح كُوّة الفلك التي صنع

---

(١)نضب الماء ينضُب نضوبًا: غار في الأرض. ونضب الشيء: قلّ. الوجيز ص (٦٢٠).
(٢)أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩) به.

فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه ولم يجد لرجلها موضعًا، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء فلم ترجع، فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة، فعلم نوح أن الماء قد قَلّ عن وجه الأرض. ثم مكث سبعةَ أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه، فعلم نوح أن الأرض قد برزت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل اللهُ الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين، برز وجه الأرض، وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك. وهذا الذي ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب.

قال ابن إسحاق: وفي الشهر الثاني من سنة اثنين في ست وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحًا قائلاً له: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك، وجميع الدواب التي معك، ولينموا وليكثروا في الأرض. فخرجوا وابتنى نوح مذبحًا لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلا فذبحها قربانًا إلى الله عز وجل وعهد الله إليه ألا يعيد الطوفان على أهل الأرض. وجعل تذكارًا لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام، وهو قوس قُزَح [(١)] الذي روى عن ابن عباس أنه أمان من الغرق. قال بعضهم: فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر، أي أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة. وقد أنكرت طائفةٌ من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان، واعترف به آخرون منهم وقالوا: إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا.

قالوا: ولم نزل نتوارث الملك كابرًا عن كابر، من لدن كيومرث - يعنون آدم - إلى زماننا هذا: وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عُبّاد النيران وأتباع الشيطان. وهذه سَفْسَطَةٌ [(٢)] منهم وكفر فظيع وجهل بليغ، ومكابرة للمحسوسات، وتكذيب لرب الأرض والسموات. وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن، مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان، على وقوع الطوفان، وأنه عمَّ جميعَ البلادِ، ولم يُبْقِ الله أحدًا من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم، وتنفيذًا لما سبق في القدر المحتوم.

ذكر شيء من أخبار نوح نفسه عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]. قيل: إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.

---

(١) قوس قزح: هو قوس ينشأ في السماء، أو على مقربة من مسقط الماء من الشلال ونحوه، ويكون في ناحية الأفق المقابلة للشمس، وترى فيه ألوان الطيف متتابعة. وسببه: انعكاس أشعة الشمس من رذاذ الماء المتطاير من ماء المطر أو مياه الشلالات وغيرها من مساقط الماء المرتفعة. الوجيز ص (٥١٩).

(٢) سفسط: غالط وأتى بحجة مضللة. والسفسطة: نوع من الاستدلال يقوم على الخداع والمغالطة. والسوفسطائية: فرقة يونانية قديمة، عارضها سقراط وكشف عن مغالطتها، واحدها: سوفسطائي. انظر الوجيز ص (٣١٢، ٣١٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن سعيد بن أبي بردة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها» (١). وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث أبي أسامة.

والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية، فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

ذكر صومه عليه السلام

وقال ابن ماجه: باب «صيام نوح عليه السلام»: حدثنا سهل بن أبي سهل، حدثنا سعيد بن أبي مريم، عن ابن لهيعة، عن جعفر بن ربيعة، عن أبي فراس، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى» (٢).

وهكذا رواه ابن ماجه من طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه. وقد قال الطبراني: حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج، حدثنا عمر بن خالد الحراني، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي قتادة، عن يزيد بن رباح أبي الفراس، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر وأفطر الدهر» (٣).

ذكر حجه عليه السلام

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي، عن زمعة - وهو ابن أبي صالح - عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: حج رسول الله ﷺ، فلما أتى وادي عسفان قال: «يا أبا بكر، أي واد هذا؟» قال: هذا وادي عسفان. قال: «لقد مر بهذا الوادي نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حمر خطمهم الليف، أزرهم العباء وأرديتهم النمار، يحجون البيت العتيق» (٤). فيه غرابة.

ذكر وصيته لولده عليه السلام

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الصقعب بن زهير، عن زيد بن أسلم، قال حماد: أظنه عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال: «ألا إن صاحبكم هذا قد

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٠، ١١٧)، ومسلم (٨/ ٨٧)، والترمذي (١٨١٦)، وفي الشمائل (١٩٤)، والنسائي في الكبرى (٨٥٧ تحفة) كلهم من طريق زكريا به.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٧١٤) به.

(٣) قال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٩٥): رواه الطبراني في الكبير وفيه أبو قتان ولم أعرفه.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٢) وأبو يعلى.

وضع كل فارس ابن فارس - أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس - ورفع كل راع ابن راع». قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال: «ألا أرى عليك لباس من لا يعقل»؟ ثم قال: «إن نبي الله نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك وصية: آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإن بها صلات كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر».

قال: قلت - أو قيل - يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: «لا» قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «لا» قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «لا» قال: هو أنْ يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا» قلت - أو قيل - يارسول الله، فما الكبر؟ قال: «سفه الحق وغمص الناس» (١) وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه. ورواه أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «كان في وصية نوح لابنه: أوصيك بِخَصْلَتَيْنِ وأنهاك عن خصلتين» (٢)، فذكر نحوه.

وقد رواه أبو بكر البزار عن إبراهيم بن سعيد، عن أبي معاوية الضرير عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ بنحوه. والظاهر أنه عبد الله بن عمرو بن العاص، كما رواه أحمد والطبراني (٣). والله أعلم.

ويزعم أهلُ الكتاب أن نوحًا عليه السلام لما ركب في السفينة كان عمره ستمائة سنة. وقدمنا عن ابن عباس مثله، وزاد: وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة، وفي هذا القول نظر ثم إن لم يكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض. فإن القرآن يقتضي أن نوحًا مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عامًا، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك.

فإن كان ما ذكر محفوظًا عن ابن عباس - من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنة، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة - فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة.

وأما قبره عليه السلام: فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام.

وهذا أقوى وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين، من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم «بكرك نوح» وهناك جامع قد بني بسبب ذلك فيما ذُكِرَ. والله أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩، ٢٢٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨). كلاهما من طريق الصقعب بن زهير به.
(٢) قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٢٠، ٢١٩)، رواه كله أحمد، ورواه الطبراني بنحوه... ورجال أحمد ثقات.
(٣) كشف الأستار (٣٠٦٩).

قصة هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. ويقال إن هودًا هو عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ويقال: هود بن عبد الله بن رباح الجارود بن عاد ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. ذكره ابن جرير.

وكان من قبيلة يقال لهم: عاد بن عوص بن سام بن نوح. وكانوا عربًا. يسكنون الأحقاف - وهي جبال الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضرموت، بأرض مطلة على البحر يقال لها: «الشحر»، واسم واديهم «مغيث» وكانوا كثيرًا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦-٧]. أي: عاد إرم وهم عاد الأولى، وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتي بيان ذلك في موضعه. وأما عاد الأولى فهم عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٧-٨] أي مثل القبيلة، وقيل مثل العمد.. والصحيح الأول كما بيناه في التفسير [١].

ومن زعم أن «إرم» مدينة تدور في الأرض، فتارة في الشام، وتارة في اليمن، وتارة في الحجاز، وتارة في غيرها - فقد أبعد النجعة [٢]، وقال مالا دليل عليه، ولا برهان يُعوَّل عليه، ولا مستند يركن إليه. وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: «منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر» [٣] ويقال: إن هودًا عليه السلام أول من تكلم بالعربية، وزعم وهب ابن منبه أن أباه أول من تكلم بها، وقال غيره: أول من تكلم بها نوح، وقيل آدم وهو الأشبه، وقيل غير ذلك. والله أعلم.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام: العرب العاربة، وهم قبائل كثيرة: منهم عاد، وثمود، وجُرْهم، وطسم، وجديس، وأميم، ومدين، وعملاق عبيل، وجاسم، وقحطان، وبنو يقطن، وغيرهم. وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل. وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جُرْهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان. وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ.

والمقصود أن عادًا - وهم عاد الأولى - كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة: صمدًا، وصمودًا، وهرًا. فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عليه السلام فدعاهم إلى الله.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٨، ٥٠٩).

(٢) النُّجْعَة: بوزن الرُّقعة: طلب الكلأ في موضعه. فأبعد النجعة أي لم يصب في قوله. بل أبعد عن الصواب. وانظر مختار الصحاح ص (٦٤٧).

(٣) سبق تخريجه.

كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح، وما كان من أمرهم: في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢]

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٠-٦٠].

وقال تعالى في سورة «قد أفلح المؤمنون» بعد قصة قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١-٤٢].

وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨)

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء :١٢٣-١٤١].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦]

وقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف :٢١-٢٦].

وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات :٤١-٤٢].

وقال تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ [النجم :٥٠-٥٦].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر :١٨-٢٣].

وقال تعالى في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقال تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر :٦-١٥].

وقد تكلمنا على كل من هذه القصص في أماكنها من كتابنا التفسير. ولله الحمد والمنة.

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة[١]، وإبراهيم، والفرقان، والعنكبوت، وفي سورة ص، وفي سورة ق. ولنذكر مضمونَ القصةِ مجموعًا من هذه السياقات، مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار.

وقد قدمنا أنهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان. وذلك بَيِّنٌ فى قوله تعالى:

---

[١] جاء ذكر عاد في القرآن أربعًا وعشرين مرة، وذكر اسم هود عشر مرات كما في المعجم المفهرس.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف:٦٩] . أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش. وقال في «المؤمنون»: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون:٣١] . وهم قوم هود على الصحيح.

وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ [المؤمنون:٤١] قالوا: وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦] وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات، ثم لا خلاف أن عادًا قبل ثمود. والمقصود أن عادًا كانوا جفاة كافرين، عتاة متمردين في عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أَخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ. فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف:٦٦] أي: هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يُرْتَجَى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تَكْذِب في دعواك أن الله أرسلك.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٦٧] أي: ليس الأمر كما تظنون ولا كما تعتقدون ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٨] . والبلاغ يستلزمُ عدمَ الكذبِ في أصلِ المُبلَّغ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم أداءه بعبارة فصيحةٍ وجيزةٍ جامعةٍ مانعةٍ لا لَبْسَ[1] فيها ولا اختلاف ولا اضطراب. وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم، ولا يبتغي منهم أجرًا ولا يطلب منهم جُعْلاً، بل هو مخلص لله عز وجل في الدعوة إليه والنصح لخلقه، ولا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يده وأمره إليه، ولهذا قال: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود:٥١] أي: أَمَا لَكُمْ عَقْلٌ تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق المبين الذي تشهد به فطرتكم التي خُلقتم عليها، وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحًا وأهلك من خالفه من الخلق، وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجرًا عليه، بل أبتغى ذلك عند الله مالك الضر والنفع، ولهذا قال مؤمن «يس»: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٢١-٢٢] .

وقال قوم هود له فيما قالوا: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٥٣-٥٤] . يقولون: ما جئتنا بخارقٍ[2] يشهد لك بصدق ما جئت به، وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمتَه ولا

---

(١) يقال لَبَسَ عليه الأمر يلبِسه لَبْسًا: خلطه عليه حتى لا يعرف حقيقته. فقوله: لا لبس فيها أي لا خفاء ولا خلط ولا شبهة في صحتها. وانظر الوجيز ص (٥٤٩).

(٢) يعني: بأمر خارق للعادة، أو فعلٍ مستحيل لا نستطيع نحن أن نفعله.

برهان نصبْتَه، وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه. وعندنا أنه إنما أصابك هذا لأن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك، وهو قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٥٤].

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود:٥٤-٥٥]. وهذا تَحَدٍّ منه لهم، وتبرؤٌ من آلهتهم وتنقص منه لها، وبيان أنها لا تنفع شيئًا ولا تضر، وأنها جماد حُكْمها حُكْمه وفعلها فعله، فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا إذًا بريء منها، لاعن لها، ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود:٥٥]أنتم جميعًا بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه، ولا تؤخِّروني ساعة واحدة، ولا طرفة عين فإني لا أبالي بكم، ولا أفكر فيكم، ولا أنظر إليكم. ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]أي: أنا متوكل على الله ومُتأيِّد به، وواثق بجنابه الذي لا يضيع مَنْ لاذ به واستند إليه، فلست أبالي مخلوقًا سواه، ولست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه.

وهذا وَحْدُهُ برهانٌ قاطع على أن هودًا عَبْد الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء، ولا نالوا منه مكروهًا. فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه. وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]. وهكذا قال الخليلُ عليه السلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٠-٨٣].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:٣٣-٣٦].

استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشريًا. وهذه الشبهة أدلى بها[1] كثيرٌ من جهلة الكفرة قديمًا وحديثًا. كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس:٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٤-٩٥].

ولهذا قال لهم هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٩]. أي: ليس هذا بعجيب، فإنَّ اللهَ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته.

---

(١) يعني: احتج بها.

وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون:٣٥-٤٠] استبعدوا المعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابًا وعظامًا، وقالوا: هيهات هيهات، أي بعيد بعيد هذا الوعد، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:٣٧] أي: يموت قوم ويحيا آخرون. وهذا هو اعتقاد الدهرية، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام تدفع وأرض تبلع. وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة. وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال، وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل، ويستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٣].

وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨-١٢٩].

يقول لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيمًا هائلاً كالقصور ونحوها، تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر:٦-٨] فعاد إرم: هم عاد الأولى الذين يصنعون الأعمدة التي تحمل الخيام التي يسكنونها. ومن زعم أن «إرم» مدينة من ذهب وفضة وهي تتنقل في البلاد، فقد غلط وأخطأ، وقال ما لا دليل عليه.

وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء:١٢٩] قيل: هي القصور، وقيل: بروج الحمام، وقيل: مآخذ الماء ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٩] أي: رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعمارًا طويلة ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٣٠-١٣٥].

وقالوا له مما قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠] أي: أجئتنا لنعبد الله وحده، ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه؟ فإن كنت صادقًا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال (١)، فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك، كما قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:١٣٦-١٣٨] أما على قراءة فتح (٢)(الخاء) فالمراد به اختلاق الأولين، أي إن هذا

---

(١) النكال: العقاب أو النَّازلة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: ١٢] أي: عذابًا شديدًا، جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمرًا على ما يغضب الله. انظر الوجيز (٦٣٤)، تفسير السعدي (٨٢٧).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو، والكسائي: ﴿خَلْق﴾ بفتح الخاء وتسكين اللام، قال ابن قتيبة: أرادوا اختلاقهم وكذبهم، يقال: خَلَقْتُ الحديث واختلقتُه، أي: افتعلته، قال الفراء: والعرب تقول للخرافات: أحاديثُ الخَلْق،

الذي جئت به إلا اختلاق منك، أخذته من كُتُب الأولين. هكذا فسر غير واحد من الصحابة والتابعين. وأما على قراءة ضم (الخاء واللام) فالمراد به الدين، أي إن هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الأولين الآباء والأجداد من الأسلاف، ولن نتحول عنه ولا نتغير، ولا نزال متمسكين به. ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨].

وقال تعالى: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] أي: قد استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله، أتعارضون عبادةَ اللهِ وحده لا شريك له بعبادةِ أصنامٍ نحتّموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم؟! اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من سلطان. أي لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا برهانًا. وإذ أبيْتُم قبول الحق وتماديتم في الباطل، وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا، فانتظروا الآن عذابَ الله الواقع بكم، وبأسَه الذي لا يرد ونكاله الذي لا يصد.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٩-٤١].. وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٢-٢٥].

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلاً، كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]. وكقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: ٥٨-٦٠]. وكقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]. وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٣٩-١٤٠]. وأما تفصيل إهلاكهم فكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]. كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب، أنهم كانوا ممحلين [1] مسنتين، فطلبوا السقيا فرأوا عارضًا في السماء

وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة، وخلف، ونافع: ﴿خُلُق الأولين﴾ بضم الخاء واللام. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وعاصم الجحدري: ﴿خُلْق﴾ برفع الخاء وتسكين اللام، والمعنى: عادتهم وشأنهم. قال قتادة: قالوا له: هكذا كان الناس يعيشون ما عاشوا، ثم يموتون، ولا بعث لهم ولا حساب. انظر زاد المسير (٦/ ١٣٧).

(١) أمحل المكان: أجدب وأمحل القوم: أجدبوا واحتبس عنهم المطر. انظر الوجيز ص (٥٧٤).

وظنوه سقيا رحمة، فإذا هو سقيا عذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾[الأحقاف: ٢٤] أي: من وقوع العذاب، وهو قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الأحقاف: ٢٢] ومثلها في الأعراف. وقد ذكر المفسرون وغيرهم هاهنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن بشار قال: فلما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل، أمسك عنهم القطر ثلاث سنين، حتى جهدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته، وكان معروفًا عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلًا يقال له معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهذة ابنة الخيبري. قال: فبعث عاد وفدًا قريبًا من سبعين رجلًا ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة، فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهرًا، يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان، قينتان لمعاوية، وكانوا قد وصلوا إليه في شهر.

فلما طال مقامهم عنده، وأخذته شفقه على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعرًا يعرض لهم فيه بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنيهم به، فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم … لعل الله يصحبنا غماما
فيسقى أرض عاد إن عادًا … قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجوا … به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير … فقد أمست نساؤهم أيامى
وإن الوحش يأتيهم جهارا … ولا يخشى لعاد سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم … نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم … ولا لقوا التحية والسلاما

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز، فأنشأ الله سحابات ثلاثة: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه منادٍ من السماء: اختر لنفسك - أو لقومك - من هذا السحاب، فقال: اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء، فناداه مناد: اخترت رمادًا رمددًا لا تُبْقِي من عاد أحدًا، لا والدًا تترك ولا ولدًا، إلا جعلته همدًا إلا بني اللوذية الهمدا. قال: وهم بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم. قال: ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة.

قال: وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[الأحقاف: ٢٤]، فيقول تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[الأحقاف: ٢٤-٢٥] أي: تهلكُ كلَّ شيءٍ أُمِرت به. فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها: «مهد» فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صُعِقت. فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مهد؟ قالت: رأيت ريحًا فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها.

فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حُسُومًا، والحسوم: الدائمة، فلم تدع من عادٍ أحدًا إلا هلك.

قال: واعتزل هودٌ - عليه السلام - فيما ذُكِرَ ليالي في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود، وتلذ به الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة. وذكر تمام القصة.

وقد روى الإمام أحمد حديثًا في مسنده يشبه هذه القصة فقال: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي، حدثنا عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن الحارث - هو ابن حسان - ويقال: ابن يزيد البكري، قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا. قال: فجلست، قال: فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت فسلمتُ فقال: «هل كان بينكم وبين بني تميم شيء»؟ فقلت: نعم. وكانت لنا الدائرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك وها هي ذي بالباب، فأذن لها فدخلت، فقالت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزًا، فاجعل الدهناء فإنها كانت لنا، قال: فحميت العجوز واستوفزت [1] وقالت: يارسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: معزى حملت حتفها، حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد، قال: هيه! وما وافد عاد؟ وهو أعلم بالحديث مني ولكن يستطعمه. قلت: إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له: «قيل»، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود فنودي منها: اختر. فأومأ إلى سحابة منها سودًا سوداء، فنودي منها: خذها رمادًا رمددًا ولا تبقى من عاد أحدًا، قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا.

قال أبو وائل: وصدق، فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد [2].

وهكذا رواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب به. ورواه النسائي من حديث

---

(١) استوفز: جلس على هيئة كأنه يريد القيام. الوجيز ص (٦٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨١، ٤٨٢)، والترمذي (٣٢٧٤)، والنسائي في الكبرى (٣٢٧٧ تحفة) كلهم من طريق سلام بن سليمان النحوي به، وأخرجه أحمد (٣/ ٤٨١)، وابن ماجه (٢٨١٦) كلاهما مختصرًا وليس فيه أبو وائل، وأخرجه الترمذي (٣٢٧٣) بإسناد آخر مختصرًا وزاد فيه ثم قرأ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

سلام بن المنذر، عن عاصم بن بهدلة، ومن طريقه رواه ابن ماجه. وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير وغيره.

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عادٍ الآخرة، فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكر لمكة، ولم تُبْنَ إلا بعد إبراهيم الخليل، حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل، فنزلت جُرْهم عندهم كما سيأتي، وعاد الأولى قبل الخليل، وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى، ولا يشبه كلام المتقدمين. وفيه أن في تلك السحابة شرر نار، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر، وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين: هي الباردة والعاتية الشديدة الهبوب.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] أي: كوامل متتابعات. قيل: كان أولها الجمعة، وقيل: الأربعاء.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] شبههم بأعجاز النخل التي لا رءوس لها، وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء، ثم تنكس على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أي: في يوم نحس عليهم، مستمر عَذَابُهُ عليهم.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] ومن قال: إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم، فقد أخطأ وخالف القرآن، فإنه قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦] ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشئومة، وهذا لا يقوله أحد، وإنما المراد ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، أي عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] أي التي لا تُنْتِج خيرًا، فإن الريح المفردة لا تثير سحابًا ولا تلقح شجرًا، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها، ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أي: كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية. وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «نصرت بالصبا، وأُهْلِكت عاد بالدَّبُور[1]»[2].

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] فالظاهر أن عادًا هذه هي عاد الأولى فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى، ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عادًا الثانية. ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة رضي الله عنها.

---

(١) الدَّبُورُ: ريح تهب في الجزيرة العربية من المغرب وتقابل القَبُول التي هي ريح الصَّبا. الوجيز ص (٢٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٨/١، ٣٢٤، ٣٤١، ٣٥٥)، وعبد بن حميد (٦٣٧)، والبخاري (٤٠/٢)، (١٣٢/٤، ١٦٦)، (١٤٠/٥)، ومسلم (٢٧/٣)، والنسائي في الكبرى (٦٣٨٦ تحفة) كلهم من طريق شعبة به.

وأما قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فإن عادًا لما رأوا هذا العارض وهو الناشئ في الجو كالسحاب ظنوه سحابًا ممطرًا، فإذا هو سحاب عذاب، واعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة، ورجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر. قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤] أي من العذاب، ثم فسره بقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب، التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحدًا، بل تَتَبَّعَتْهُم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم، وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصورَ المشيدة، فكما منوا بشدتهم وبقوتهم وقالوا: من أشد منا قوة؟ سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة، وأقدر عليهم، وهو الريح العقيم.

ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة، ظن من بقى منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم، وغياث لمن بقى منهم، فأرسلها الله عليهم شررًا ونارًا. كما ذكره غير واحد. ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين، وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار، وهو أشدُّ ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة، مع الصيحة التي ذكرها في سورة «قد أفلح المؤمنون». والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس، حدثنا ابن فضيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة»[١].

وقد رواه الطبراني عن عبدان بن أحمد، عن إسماعيل بن زكريا الكوفي، عن أبي مالك، عن مسلم الملائي، عن مجاهد وسعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر، فلما رآها أهل الحضر ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] مستقبل أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا»[٢]. قال: عتت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب. قلت: وقال غيره: خرجت بغير حساب. والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر، ثم قد اختلف فيه على مسلم الملائي، وفيه نوع اضطراب. والله أعلم.

وظاهر الآية أنهم رأوا عارضًا والمفهوم منه لغة السحاب، كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري، إن جعلناه مفسرًا لهذه القصة.

---

(١) ابن أبي حاتم.
(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٣٥٥٣) من رواية ابن عمر، و(١٢٤١٦).

وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه حيث قال: حدثنا أبو بكر الطاهر، حدثنا ابن وهب قال: سمعتُ ابنَ جريج، يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عَصَفَتِ الريحُ قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا غمبت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر. فإذا أمطرت سرى عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: لعله ياعائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] [١]. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث ابن جريج.

طريق آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف ومعاوية بن عمرو، أنبأنا عبد الله بن وهب، أنبأنا عمرو - وهو ابن الحارث - أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا قط حتى أرى منه لهواته [٢]، إنما كان يبتسم وقالت: كان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيها المطر، وأراك إذا رأيته عُرِفَ في وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يُؤمّنني أن يكون فيه عذاب، قد عُذّبَ قوم عاد بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا» [٣]. فهذا الحديثُ كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً، فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبرًا عن قوم عاد الثانية وتكون بقية السياقات في القرآن خبرًا عن عاد الأولى.. والله أعلم بالصواب. وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف، وأخرجه البخاري وأبو داود من حديث ابن وهب.

وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام. وروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن. وذكر آخرون أنه بدمشق، وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام. والله أعلم.



---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٠)، والبخاري (٤/ ١٣٢)، وفي الأدب المفرد (٩٠٨)، ومسلم (٣/ ٢٦) من رواية ابن عباس، وابن ماجه (٣٨٩١)، والترمذي (٣٢٥٧)، والنسائي في الكبرى (١٢/ ١٧٣٨٦ تحفة) كلهم من طريق ابن جريج به.

(٢) لهوات جمع لهاة، وهي اللحمة المشرفة على الحلق، وهي هنة في أقصى سقف الفم. الوجيز ص (٥٦٦)

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٦٦)، والبخاري (٦/ ١٦٧)، (٨/ ٢٩)، وفي الأدب المفرد (٢٥١)، ومسلم (٣/ ٢٦)، وأبو داود (٥٠٩٨) كلهم من طريق ابن وهب به.

قصة صالح عليه السلام نبي ثمود

وهم قبيلة مشهورة، يقال لهم ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عاثر ابن إرم بن سام بن نوح. وكانوا عربًا من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك.

وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتي بيانه. وكانوا بعد قوم عاد، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك.

فبعث الله فيهم رجلًا منهم، وهو عبد الله ورسوله: صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد ابن حاجر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يَخْلَعُوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئًا. فآمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم، نالوا منه بالمقال والفعال، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها اللهُ حجةً عليهم، فأخذهم اللهُ أَخْذَ عزيزٍ مقتدر.

كما قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٣-٧٩].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود:٦١-٦٨].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٠-٨٤].

وقال سبحانه وتعالى في سورة سبحان: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٩].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٥-٥٣].

وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

وقال تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٣-٣٢].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ (١١) إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥].

وكثيرًا ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود [١]، كما في سورة براءة، وإبراهيم، والفرقان، وسورة ص، وسورة ق، والنجم والفجر.

ويقال: إن هاتين الأمتين لا يعرف خَبَرَهُمَا أهلُ الكتاب، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما.

كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ

(١) ذكر ثمود في القرآن ستًّا وعشرين مرة. وذكر صالح في القرآن تسع مرات. انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ [إبراهيم:٨-٩] . .

الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كانت هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيدًا، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما كان مشهورًا في زمان موسى عليه السلام. وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير مُسْتَقْصَى[1] . ولله الحمد والمنَّة.

والمقصودُ الآنَ ذكرُ قِصَّتِهِمْ وما كان من أمرهم، وكيف نَجَّى الله نبيه صالحًا عليه السلام ومن آمن به، وكيف قَطَعَ دَابِرَ القوم الذين ظلموا بكفرهم وعُتُوِّهم، ومخالفتهم رسولهم عليه السلام.

وقد قدمنا أنهم كانوا عربًا، وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم. ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٣-٧٤] أي إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم، وتعملوا بخلاف عملهم. وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩] أي حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها. فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح، والعبادة له وحده لا شريك له، وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته، فإن عاقبةَ ذلك وَخِيمَةٌ[2] .

ولهذا وعظهم بقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٤٨] أي متراكم كثير حسن بهي ناضج. ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩-١٥٢] .

وقال لهم أيضًا: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١] أي: هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض، وجعلكم عمارها، أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق، وهو الذي يستحق العبادة وحده لا ما سواه ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود:٦١] أي أَقْلِعُوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته، فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١] .

﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ﴾ [هود:٦٢] أي قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة، وهي دعوتك إيانا إلى إفراد العبادة، وترك ما كنا نعبده من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢] .

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود:٦٣] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٥، ٥٠٦).
(٢) يعني: سيئة.

وهذا تَلَطُّفٌ منه لهم في العبارة، ولين الجانب، وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير، أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه؟ ماذا عذركم عند الله؟ وماذا يخلصكم من بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعوتكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكنني هذا ؛ لأنه واجب على، ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يُجِيرَني من الله ولا ينصرني. فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وقالوا له أيضًا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أي من المسحورين، يعنون مسحورًا لا تدري ما تقول في دعوتك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد. وهذا القول عليه الجمهور، وهو أن المراد بالمسحرين: المسحورين. وقيل ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: أي ممن له سحر - وهو الرِّئِي - كأنَّهم يقولون إنما أنت بشر له سحر. والأول أظهر لقولهم بعد هذا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] وقولهم: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به. ﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٦].

كما قال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يومًا في ناديهم، فجاءهم رسولُ اللهِ صالحٌ فدعاهم إلى الله، وذكَّرهم وحذَّرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة، من صفتها كيت وكيت [1]. وذكروا أوصافًا سموها ونعتوها وتَعَنَّتُوا [2] فيها. وأن تكون عُشَرَاءَ طويلة، ومن صفتها كذا وكذا، فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهدهم ومواثيقهم على ذلك.

ثم قام إلى مُصَلَّاه فصلى لله عز وجل ما قدر له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا. فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر [3] عن ناقة عظيمة عُشَرَاء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا.

فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ومنظرًا هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا، فآمن كثيرٌ منهم، واستمر أكثرهم على كُفْرِهم وضلالهم وعنادهم. ولهذا قال: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٠٣] أي جَحَدُوا بها ولم يتبعوا الحقَّ بسببها، أي أكثرهم. وكان رئيس الذين آمنوا: جندع بن عمرو بن محلاة بن لبيد بن جواس، وكان من رؤسائهم وهم بقية الأشراف بالإسلام، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والخباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جلمس. ودعا جندع ابن

---

(١) يعني: تتصف بكذا وكذا من الأوصاف.
(٢) يعني: بالغوا وشددوا فيها.
(٣) أن تنشق.

عمه شهاب بن خليفة وكان من أشرافهم، فهم بالإسلام فنهاه أولئك، فمال إليهم فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له مهرش بن غنمة بن الذميل رحمه الله:

وكانت عصبة من آل عمرو ... إلى دين النبي دَعَوْا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعًا ... فهم بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزًا ... وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر ... تولوا بعد رشدهم ذبابا

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [هود:٦٤]. أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريفٍ وتعظيم، كقوله: بيت الله وعبد الله ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ [هود: ٦٤] أي دليلاً على صدق ماجئتكم به ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود:٦٤].

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم، وترعى حيث شاءت من أرضهم، وتَرِدُ الماء يومًا بعد يوم، وكانت إذا وردتِ الماءَ تشربُ ماءَ البئرِ يَوْمَهَا ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم. ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥].

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ [القمر:٢٧]. أي اختبارًا لهم، أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم بما يفعلون ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾. أي انتظر ما يكون من أمرهم ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾. على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر:٢٨].

فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع علماؤهم، واتفقَ رَأْيُهُم عَلَى أن يعقروا هذه الناقة، ليستريحوا منها ويتوافر عليهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم. قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم: قدار بن سالف بن جندع، وكان أحمر أزرق أصهب. وكان يقال له إنه ولد زانية، ولد على فراش سالف، وهو ابن رجل يقال له صيبان. وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم، فلهذا نسب الفعل إليهم كلهم.

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين: أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما «صدوق» ابنة المحيا بن زهير بن المختار، وكانت ذات حسب ومال، وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته، فدعت ابن عم لها يقال له «مصرع»بن مهرج بن المحيا، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة. واسم الأخرى «عنيزة»بنت غنيم بن مجلز، وتكنى أم غنمه وكانت عجوزًا كافرة، لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء، فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف، إن هو عقر الناقة فله أي بناتها شاء، فَانْتَدَبَ هذان الشابان لعقرها وسعوا في قومهم بذلك، فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة. وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨]. وسعوا في بقية القبيلة وَحسنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم في ذلك. فانطلقوا يَرْصُدُون الناقة، فلما صدرت من وردها كمن لها «مصرع» فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء

يَذْمُرْنَ[1] القبيلة في قتلها، وحسرن عن وجوههن ترغيبًا لهم في ذلك، فكان أسرعهم قدار بن سالف، فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت[2] رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها، ثم طعن في لبتها فنحرها، وانطلق سقبها - وهو فصيلها[3] - فصعد جبلاً منيعًا ورَغَا ثلاثًا.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عمن سمع الحسن أنه قال: يارب أين أمي؟ ثم دخل في صخرة فغاب فيها. ويقال: بل اتبعوه فعقروه أيضًا.

قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٢٩-٣٠] وقال تعالى: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٢-١٣] أي احذروها: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٤-١٥].

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه، عن عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢]: **«انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة»**[4]. أخرجاه من حديث هشام به.

عارم: أي شهم. عزيز: أي: رئيس. منيع: أي مطاع في قومه.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن محمد بن خثيم، عن محمد بن كعب، عن محمد ابن خثيم عن يزيد، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس» قال: بلى. قال: «رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي[5] يضربك يا علي على هذا - يعني قرنه - حتى تبتل منه هذه - يعني لحيته-»[6] رواه ابن أبي حاتم.

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم، فاستحقوه من وجهين: أحدهما: الشرط عليهم في

---

(١) يعني: يشجعونهم ويحضونهم.

(٢) يقال: رغا البعير ونحوُه رغوًا ورُغاء: صوت وضج، ويقال: رغا الصبي: بكى أشد البكاء. الوجيز (٢٧٠).

(٣) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه. مختار الصحاح ص (٥٠٥).

(٤) أخرجه الحميدي (٥٦٩)، وأحمد (٤/ ١٧)، والدارمي (٢٢٢٦)، والبخاري (٤/ ١٨٠)، (٦/ ٢١٠)، (٧/ ٤٢)، (٨/ ١٨)، ومسلم (٨/ ١٥٤)، وابن ماجه (١٩٨٣)، والترمذي (٣٣٤٣)، والنسائي في الكبرى (٥٢٩٤ تحفة) كلهم من طريق هشام بن عروة به.

(٥) الذي ضرب عليًا. رضي الله عنه. هو عبد الرحمن بن ملجم المرادي بالكوفة صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة أربعين، ومات. رضي الله عنه. بعد ثلاث ليالٍ من ضربته، وقيل: ضرب ليلة إحدى وعشرين، ومات ليلة الأحد، وقيل: يوم الأحد. انظر: المغنى لابن باطيش (٢/ ٣٠) ومراجعه.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٩٣٥٢).

قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

وفي آية ﴿عَظِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٥٦]. وفي الأخرى: ﴿أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]. والكل حق. والثاني استعجالهم على ذلك.

ومنها أنهم كذبوا الرسول الذي قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علمًا جازمًا، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم، قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود: ٦٥]. وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سَطَا عليها قدار بن سالف - لعنه الله - فعرقبها فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها فلما عاين ذلك سَقَبها - وهو ولدها - شرد عنهم فَعَلا أعلى الجبل، ورغا ثلاث مرات.

فلهذا قال لهم صالح ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾ [هود: ٦٥] أي غير يومهم ذلك، فلم يُصَدِّقوه أيضًا في هذا الوعد الأكيد. بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا - فيما يزعمون - أن يلحقوه بالناقة: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩]. أي لنحبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه، ثم لَنَجْحَدَنَّ قتله ولَنُنْكِرَنَّ ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه، ولهذا قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٠-٥٣].

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رَضَخَتْهُمْ [(١)] فأهلكهم سلفًا وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة، كما أنذرهم صالح عليه السلام. فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل، ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمرة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل. ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع - وهو يوم السبت - ووجوهم مسودة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل.

فلما كان صبيحة يوم الأحد تَحنَّطُوا وتَأَهَّبُوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنَّكَال والنقمة، لا يدرون كيف يفعل بهم، ولا من أي جهة يأتيهم العذاب. فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحةٌ من السماء من فوقهم ورجفةٌ من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزَهَقَت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق، فأصبحوا في دارهم جاثمين، جثثًا لا أرواح فيها ولا حراك بها، قالوا ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها «كلبة» بنت السلق - ويقال لها: الذريعة وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت العذاب أطلقت

(١) رضخ: ضرب، ورضخهم بالحجارة: ضربهم بها. الوجيز ص (٢٦٧).

رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حيًّا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حَلَّ بقومها واستسقتهم ماء، فلما شربت ماتت.

قال الله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾ [الأعراف:٩٢]. أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود:٦٨]. أي نادى عليهم لسان القدر بهذا.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قومُ صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفجّ وتصدر من هذا الفجّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانتْ تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يومًا، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله بها مَنْ تَحْتَ أديم السماء منهم إلا رجلاً واحدًا كان في حرم الله»قالوا: من هو يارسول الله؟ قال: «هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» (١). وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة. والله تعالى أعلم.

وقد قال عبد الرزاق أيضًا: قال معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ، مر بقبر أبي رغال، فقال: «أتدرون من هذا»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: «هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاهنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن». قال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف. هذا مرسل من هذا الوجه.

وقد جاء من وجه آخر متصلاً كما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة عن إسماعيل بن أمية، عن بجير بن أبي بجير، قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ، حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر، فقال: «إن هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه» فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن. وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحاق به (٢). قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله: هذا حديث حسن عزيز. قلت: تفرد به بجير بن أبي بجير هذا، ولا يعرف إلا بهذا الحديث، ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن أمية. قال شيخنا: فيحتمل أنه وهم في رفعه، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زَامِلَتِهِ. والله أعلم. قلت: لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضًا شاهد له. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩]. إخبار عن صالح عليه السلام، أنه خاطب قومه بعد هلاكهم، وقد أخذ في الذّهاب عن

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٦) به.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٨٨) قال: حدثنا يحيى بن معين، قال: حدثنا وهب بن جرير، قال: حدثنا أبي، قال: سمعت محمد بن إسحاق به. ابن إسحاق.

مَحَلَّتِهِمْ إلى غيرها قائلاً لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٩] أي جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني، وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] أي: لم تكن سَجَايَاكُمْ تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم، المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يَدَانِ. والذي وجب عَلَيَّ من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد.

وهكذا خاطب النبي ﷺ، أهل قَلِيب بدر بعد ثلاث ليال: وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال: «يا أهل القَلِيب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا» وقال لهم فيما قال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصَدَّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم».

فقال له عمر: يارسول الله.. تخاطب أقوامًا قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبون»(١).

ويقال إن صالحًا عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح، عن سلمة بن وَهْرَام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما مر النبي ﷺ بوادي عُسْفَان حين حج قال: «يا أبا بكر أي واد هذا؟» قال: وادي عسفان. قال: «لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بَكَرَاتٍ حُمْرٍ خطمها الليف، أُزُرُهُمُ العباء، وأَرْدِيَتُهُم النِّمَار يلَبُّون يحجون البيت العتيق»(٢).

إسناد حسن. وقد تقدم في قصة نوح عليه السلام من رواية الطبراني، وفيه نوح وهود وإبراهيم.

ذكر مرور النبي ﷺ بوادي الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جويرية، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل الرسول ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحِجْر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله فَأَهْرَقُوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبُوا فقال ... ني أخشى أن يصيبكم مِثْلُ ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩)، والدارمي (٢٤٦٢)، والبخاري (٤/ ٨٩)، (٥/ ٩٧)، ومسلم (٨/ ١٦٤)، وأبو داود (٢٦٩٥)، والترمذي (١٥٥١)، والنسائي في الكبرى (٣٧٧٠ تحفة) كلهم من طريق سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك عن أبي طلحة فذكر الحديث.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١١٧) به، وأخرجه البخاري (٤/ ١٨١)، ومسلم (٨/ ٢٢١) كلاهما من طريق عبيد الله عن نافع عن ابن عمر مختصرًا.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدثنا عفان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المُعَذَّبِين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم [١] مِثْلُ ما أصابهم» [٢]. أخرجاه في الصحيحين من غير وجه.

وفي بعض الروايات: أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قَنَعَ [٣] رأسه وأسرع راحلته، ونهى عن دخول منازلهم إلا أن يكونوا باكين. وفي رواية: «فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم» صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا المسعودي، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد بن أبي كبشة الأنباري، عن أبيه - واسمه عمرو بن سعد ويقال عامر ابن سعد - رضي الله عنه - قال: لما كان في غزوة تبوك فسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في الناس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت النبي ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم» فناداه رجل: نعجب منهم يا رسول الله! قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسَدِّدُوا، فإن الله لا يعبأ [٤] بعذابكم شيئًا وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئًا». إسناد صحيح ولم يخرجوه [٥].

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة، فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم، فنحتوا لهم بيوتًا في الجبال.

وذكروا أن صالحًا عليه السلام لما سألوه آية، فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة، وأمرهم بها وبالولد الذي كان في جوفها، وحَذَّرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء، وأخبرهم أنهم سَيَعْقِرُونها ويكون سبب هلاكهم ذلك. وذكر لهم صفة عاقرها وأنه أحمر أزرق أصهب. فبعثوا القَوَابِل في البلد متى وجدوا مولودًا بهذه الصفة يقتلنه، فكانوا على ذلك دهرًا طويلاً. وانقرض جيل وأتى جيل آخر. فلما كان في بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله في الرياسة، فزوجه، فولد بينهما عاقر الناقة، وهو قدار بن سالف، فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجديه فيهم، فنشأ نشأة سريعة، فكان يشب في الجمعة كما يشب غيره في شهر، حتى كان من أمره أن خرج مطاعًا فيهم رئيسًا بينهم، فسوَّلت له نفسه عقر الناقة واتبعه على ذلك ثمانيةٌ من أشرافهم، وهم التسعة

(١) يعني: حتى لا يصيبكم.
(٢) أخرجه البخاري (١/ ١١٨)، (٦/ ٩، ١٠١)، ومسلم (٨/ ٢٢٠)، والحميدي (٦٥٣)، وأحمد (٢/ ٩، ٥٨، ٧٢، ٧٤)، وعبد بن حميد (٧٩٨)، والنسائي في الكبرى (٧١٣٤ تحفة) كلهم من طريق عبد الله بن دينار به.
(٣) يعني: غطى رأسه بالقناع. الوجيز ص (٥١٨).
(٤) يقال: ما عبأ به: لم يعده شيئًا ولم يبال به. الوجيز ص (٤٠٣).
(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١) به، وأخرجه أيضًا (٤/ ٢٣١) عن هاشم بن القاسم، قال: حدثنا المسعودي، عن محمد بن أبي كبشة الأنماري به ليس فيه إسماعيل بن أوسط.

الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام. فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة، بلغ ذلك صالحًا عليه السلام، جاءهم باكيًا عليهم، فتلقوه يعتذرون إليه، ويقولون: إن هذا لم يقع عن ملأ منَّا، وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا. فيقال: إنه أمرهم باستدراك سَقيها حتى يحسنوا إليه عوضًا عنها، فذهبوا وراءه فصعد جبلاً هناك، فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير، وبكى الفصيل حتى سالت دموعه. ثم استقبل صالحًا عليه السلام ورغا ثلاثًا، فعندها قال صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[هود:٦٥]. وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفرًا، ثم تَحْمَرّ وجوههم في الثاني، وفي اليوم الثالث تَسْوَدّ وجوههم، فلما كان في اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة، فأخذتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين.

وفي بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن في شأنهم وقصتهم كما قدمناه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.



قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

هو إبراهيم بن تارخ (٢٥٠) بن ناحور (١٤٨) بن ساروغ (٢٣٠) بن راغو (٢٣٩) ابن فالغ (٤٣٩) بن عابر (٤٦٤) بن شالح (٤٣٣) بن أرفخشذ (٤٣٨) بن سام (٦٠٠) ابن نوح عليه السلام.

هذا نص أهل الكتاب في كتابهم، وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي كما ذكروه من المدد وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته.

وحكى الحافظ ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه، عن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب «المبتدأ» أن اسم أم إبراهيم «أميلة» ثم أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة وقال الكلبي: اسمها «بونا» بنت كربتا بن كرثي، من بني أرفخشذ بن سام ابن نوح. وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنى «أبا الضيفان».

قالوا: ولما كان عمر «تارخ» خمسًا وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام، وناحور وهاران، وولد لهاران «لوط» وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها، وهي أرض الكلدانيين، يعنون أرض بابل.

وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر، بعد ما روى من طريق هشام بن عمار، عن الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول، عن ابن عباس قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق، في قرية يقال لها برزة، في جبل يقال له: «قاسيون» ثم قال: والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معينًا للوط عليه السلام. قالوا: فتزوَّج إبراهيم «سارة» وناحور «ملكا» ابنة هاران، يعنون ابنة أخيه. قالوا: وكانت سارة عاقرًا لا تلد. قالوا: وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا حَرَّانَ فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة. وهذا يدل على أنه لم يولد بحران، وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض بابل وما والاها.

ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضًا، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين، يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفِعَالِ والمقال (١). ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعيادًا وقرابين (٢). وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارًا، سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليه السلام. وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور، وأبطل به ذاك الضلال،

---

(١) يعني: بعبادات عملية بالجوارح، وقولية باللسان.

(٢) القربان: كل ما يتقرب به إلى الله عز وجل من ذبيحة وغيرها، وهم هنا لا يتقربون بها إلى الله وإنما يتقربون بها إلى الكواكب السبعة. وانظر الوجيز ص (٤٩٥).

فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً في كبره، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]. أي كان أهلاً لذلك.

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٦-٢٧].

ثم ذكر تعالى مناظرته لأبويه وقومه كما سنذكره إن شاء الله تعالى. وكان أول دعوته لأبيه، وكان أبوه ممن يعبدُ الأصنامَ؛ لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

فذكر تعالى[1] ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة، وبَيَّنَ له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه، فكيف تغني عنه شيئًا أو تفعل به خيرًا من رزق أو نصر؟ ثم قال له منبهًا على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع، وإن كان أصغر سنًّا من أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]. أي مستقيمًا واضحًا سهلاً حنيفًا يُفْضِي بك إلى الخير في دنياك وأخراك. فلما عرض هذا الرشد عليه، وأهدى هذه النصيحة إليه، لم يقبلها منه ولا أخذها عنه، بل تَهَدَّدَهُ وتَوَعَّدَهُ قال: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦].

---

(١) وقد ذكر الخليل إبراهيم ﷺ في القرآن تسعاً وستين مرة.

قيل: بالمقال، وقيل: بالفعال. ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦]. أي: واقطعني وأطل هجراني.

فعندها قال له إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم:٤٧]. أي لا يصلك مني مكروه ولا ينالك مني أذى، بل أنت سالم من ناحيتي، وزاده خيرًا فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]. قال ابن عباس وغيره: أي لطيفًا، يعني في أن هداني لعبادته والإخلاص له. ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم:٤٨]وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده في أدعيته، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

وقال البخاري: حدثنا إسماعيل بن عبد الله: حدثني أخي عبد الحميد، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ [١]، فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يارب.. إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ. فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» [٢]. هكذا رواه في قصة إبراهيم منفردًا.

وقال في التفسير: وقال إبراهيم بن طهمان، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبيه عن أبي هريرة. وهكذا رواه النسائي عن أحمد بن حفص بن عبد الله، عن أبيه، عن إبراهيم بن طهمان به. وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه، وفي سياقه غرابة، ورواه أيضًا من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ بنحوه [٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٧٤]. هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر، وجمهور أهل النسب، منهم ابن عباس، على أن اسم أبيه «تارح» وأهل الكتاب يقولون «تارخ» بالخاء المعجمة، فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر. وقال ابن جرير: والصواب أن اسمه آزر ولعل له اسمان علمان، أو أحدهما لقب والآخر علم. وهذا الذي قاله محتمل. والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ

---

(١) القترة: شبه دخان يغشى الوجه من كرب أو هول، قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠-٤١] والغبرة: ما دق من التراب أو الرماد. الوجيز ص (٤٤٥)، (٤٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٩)، (٦/ ١٣٩) به.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٧٥)، والبزار (كشف الأستار)، (٩٧)، (٩٤).

يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٧٥-٨٣].

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النَيِّرَةِ، لا تصلح للألوهية، ولا أن تُعْبَدَ مع الله عز وجل، لأنها مخلوقة مّربوبة مصنوعة مُدَبَّرَةٌ مسخَّرَة، تطلع تارة وتَأْفُلُ [١] أخرى، فتغيب عن هذا العالم، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فبين لهم أولا عدم صلاحية الكوكب لذلك، قيل: هو الزهرة، ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء، فبين أنها مُسَخَّرَةٌ مُسَيَّرَةٌ مُقَدَّرَةٌ مَرْبُوبَةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ [الأنعام:٧٨] أي: طالعة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ [الأنعام:٧٨-٨٠]. أي لست أبالي هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، فإنها لا تنفع شيئًا ولا تسمع ولا تعقل، بل هي مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها، أو مصنوعة منحوتة منجورة. والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حرّان، فإنهم كانوا يعبدونها وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السَّرَبِ لما كان صغيرًا. كما ذكره ابن إسحاق وغيره، وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها، ولا سيما إذا خالفتِ الحقَّ. وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم في عبادتهم وكسرها عليهم، وأهانها وبيَّنَ بطلانها.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥]

وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم

---

(١) يعني: تغيب.

مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء :٥١-٧٠].

وقال في سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء :٦٩-٨٢].

وقال في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٨٣-٩٨].

يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحَقَّرها عندهم وصَغَّرها وتنقَّصها، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء :٥٢]. أي معتكفون عندها وخاضعون لها، قالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء :٥٣]، أي ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤]. كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات :٨٥-٨٧]. قال قتادة: فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذ لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وقال لهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء :٧٢-٧٤] سلموا له أنها لا تسمع داعيًا ولا تنفع ولا تضر شيئًا، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال.

ولهذا قال لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء :٧٥-٧٧].

وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام، لأنه تبرأ منها وتنقص بها فلو كانت تضر لضرته، أو تؤثر لأثرت فيه. ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء :٥٥]. ويقولون: هذا

الكلام الذي تقوله لنا وتتنقص به آلهتنا، وتطعن بسببه في آبائنا أتقوله محقا جادًا أم لاعبًا؟ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء :٥٦]. يعني بل أقول لكم ذلك جادًا محقًا، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، ربكم ورب كل شيء، فاطر السموات والأرض، الخالق لهما على غير مثال سبق، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

وقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء :٥٧]. أقسم ليكيدن [١] هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن يولوا مدبرين إلى عيدهم. قيل: إنه قال هذا خفية في نفسه. وقال ابن مسعود: سمعه بعضهم. وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد، فدعاه أبوه ليحضره فقال: إني سقيم. كما قال تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات :٨٨-٨٩] عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الأهانة.

فلما خرجوا إلى عيدهم، واستقر هو في بلدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات :٩١] أي ذهب إليها مسرعًا مستخفيًا، فوجدها في بهو [٢] عظيم، وقد وضعوا بين أيديهم أنواعًا من الأطعمة قربانًا إليها. فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات :٩١-٩٣] لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر، فكسرها بِقَدُوم في يده كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء :٥٨] أي حطامًا، كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء :٥٨]. قيل إنه وضع القدوم في يد الكبير، إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار، فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء :٥٩]. وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون، وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء :٥٩]. ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء :٦٠]. أي يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها، فهو المقيم عليها والكاسر لها، وعلى قول ابن مسعود، أي يذكرها بقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء :٥٧]. ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء :٦١]. أي في الملأ الأكبر على رءوس الأشهاد، لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه. وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه، كما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه :٥٩].

فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ

---

(١) الكيد: القصد خفية إلى إيذاء الغير. والكيد من الله: التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

(٢) البهو: الواسع من كل شيء، والساحة في مقدم البيت، والجمع أبهاء. الوجيز ص (٦٥).

كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء :٦٢-٦٣]. قيل معناه : هو الحامل لي على تكسيرهم ، وإنما عرض لهم في القول ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء :٦٣]. وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق ، فيعترفوا بأنهم جماد كسائر الجمادات . ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء :٦٤]. أي فعادوا على أنفسهم بالملامة ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون . أي في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها . ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء :٦٥]. قال السدي : أي ثم رجعوا إلى الفتنة ، فعلى هذا يكون قوله : ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء :٦٤] أي في عبادتها .

وقال قتادة : أدركت القوم حَيْرَةَ سوء ، أي فأَطْرَقُوا ثم قالوا : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء :٦٥]. أي لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق ، فكيف تأمرنا بسؤالها؟ ، فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام : ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء :٦٦-٦٧]

كما قال تعالى : ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات :٩٤]. قال مجاهد : يسرعون . قال : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات :٩٥] أي كيف تعبدون أصنامًا أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة ، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات :٩٦]. وسواء أكانت : «ما» مصدرية أو بمعنى «الذي» فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون ، وهذه الأصنام مخلوقة ، فكيف يتعبد مخلوق لمخلوق مثله؟ فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم ، وهذا باطل ، فالآخر باطل للتحكم ، إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له . ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات :٩٧-٩٨]. عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم ، لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم ، فكادهم الرب جل جلاله ، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى : ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء :٦٨-٧٠].

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثوا مدة يجمعون له ، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم ، ثم عمدوا إلى حَوِيَّةٍ [1] عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار ، فاضْطَرَمَتْ وتأَجَّجَت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط . ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق [2] صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له «هيزن» وكان أول من صنع المجانيق ، فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

---

(١) الحوية بوزن غنية : أرض واسعة مستديرة يحاط عليها بالحجارة أو التراب لكي يجمع فيها الحطب . والحوية : استدارة كل شيء . انظر القاموس المحيط ص (١٦٤٨) . والوجيز ص (١٨٠) .

(٢) آلة تستخدم في الحرب للرمي يرمى بها الحجارة أو القذائف . انظر القاموس المحيط ص (١١٢٦) ، ومختار الصحاح ص (١٠٦) ، والوجيز ص (١١٢) .

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك. فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيدًا مكتوفًا ثم ألقوه منه إلى النار قال حسبنا الله ونعم الوكيل، كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]الآية.

وقال أبو يعلى: حدثنا أبو هشام الرفاعي حدثنا إسحاق بن سلمان، عن أبي جعفر الرازي، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك» (١)، وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال: جعل ملك المطر يقول: متى أومر فأرسل المطر؟ فكان أمر الله أسرع.

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. قال علي بن أبي طالب: أي لا تضُرّيه. وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: ﴿وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]لآذى إبراهيم بردها.

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار، ولم تحرق منه سوى وثاقه.

وقال الضحاك: يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه ولم يصبه منها شيء غيره. وقال السُّدِّي: كان معه ملك الظل، وصار إبراهيم عليه السلام في ميل الحوية حوله نار وهو في روضة خضراء، والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه، ولا هو يخرج إليهم. فعن أبي هريرة أنه قال: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم: إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال: نعم الرب ربك يا إبراهيم!.

وروى ابن عساكر عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته: يابني إني أريد أن أجيء، إليك فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك، فقال نعم. فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار، فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت.

وعن المنهال بن عمرو أنه قال: أُخبِرْتُ أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يومًا، وأنه قال: ماكنت أيامًا وليالي أطيب عيشا إذ كنت فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها. صلوات الله وسلامه عليه.

فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتَّضَعُوا، وأرادوا أن يَغْلِبُوا فَغُلِبُوا. قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨]. ففازوا بالخسارة والسفال. هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردًا ولا

(١) قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٠١): رواه البزار، وفيه عاصم بن عمر بن حفص، وثقة ابن حبان، وقال: يخطئ. وضعفه الجمهور.

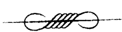
سلامًا، ولا يُلَقَّونَ فيها تحية ولا سلامًا، بل هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[الفرقان: ٦٦].

قال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى، أو ابن سلام عنه، أنبأنا ابن جريج، عن عبد الحميد بن جبير، عن سعيد بن المسيب، عن أم شريك، أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ[١] وقال: «كان ينفخ على إبراهيم»[٢]. ورواه مسلم من حديث ابن جريج، وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة، كلاهما عن عبد الحميد بن جبير ابن شيبة عنه.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أمية، أن نافعًا مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال: «اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم»[٣] قال: فكانت عائشة تقتلهن.

وقال أحمد: حدثنا إسماعيل: حدثنا أيوب عن نافع، أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب قالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ: ثم حدثت عن رسول الله ﷺ: «أن إبراهيم لما ألقى في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ فإنه جعل ينفخها عليه»[٤]. تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جرير، حدثنا نافع، حدثتني سائبة مولاة الفاكه بن المغيرة، قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحًا موضوعًا، فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به، فإن رسول الله ﷺ حدثنا: «أن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة ألا تطفئ عنه النار، غير الوزغ كان ينفخ عليه، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله»[٥]. رواه ابن ماجه، عن أبي بكر ابن أبي شيبة، عن يونس بن محمد، عن جرير بن حازم به.



(١) الوزغ: هو البُرْص المعروف الآن وما يشبهه.
(٢) أخرجه الحميدي (٣٥٠)، وأحمد (٦/ ٤٢١، ٤٦٢)، وعبد بن حميد (١٥٥٩)، والدارمي (٢٠٠٦)، والبخاري (٤/ ١٥٦، ١٧١)، ومسلم (٧/ ٤١، ٤٢)، وابن ماجه (٣٢٢٨)، والنسائي (٥/ ٢٠٩) كلهم من طريق عبد الحميد بن جبير بن شيبة به.
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٠) به.
(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٢١٧) به.
(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٨٣، ١٠٩)، وابن ماجه (٣٢٣١) كلاهما من طريق جرير بن حازم به.

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع الجليل في إزار العظمة ورداء الكبرياء فادّعى الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عليه دليله، وبين كثرة جهله وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل، واسمه النمرود بن كَنْعَان بن كوش بن سام بن نوح. قاله مجاهد. وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح. قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: ذو القرنين، وسليمان. والكافران: النمرود، وبختنصر. وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة. وكان طغى وبغى، وتَجَبَّرَ وعَتَا، وآثر الحياة الدنيا. ولمَّا دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع [1]، فَحَاجَّ إبراهيم الخليل في ذلك، وادَّعى لنفسه الربوبية، فلما قال الخليل: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق: يعني أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر. وهذا ليس بمعارضة للخليل، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تَشْغِيبٌ محض، وهو انقطاع في الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها، على وجود فاعل ذلك الذي لابد من استنادها إلى وجوده.

ضرورة عدم قيامها بنفسها ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة، من خلقها وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة، ثم إماتتها. ولهذا قال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فقول هذا الملك الجاهل: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]إنْ عَنَى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كَابَرَ وعاند، وإنْ عنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق، فلم يقل شيئًا يتعلق بكلام الخليل، إذ لم يمنع مُقَدِّمَةً، ولا عارض الدليل. ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلاً آخر يُبَيِّنُ وجود الصانع، وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]. أي هذه الشمس مُسَخَّرَة كل يوم، تطلع من المشرق كما سَخَّرَهَا خالقها ومُسَيِّرُهَا وقاهرها، وهو الذي

(١)يعني: الله سبحانه وتعالى، الذي صنع المخلوقات جميعًا.

لا إله إلا هو خالق كل شيء، فإن كنتَ كما زعمتَ من أنك الذي تحيى وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب، فإن الذي يحيى ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يُمَانَعُ ولا يُغَالَبُ، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء، فإن كنتَ كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجزُ وأقلُّ من أن تَخْلُقَ بعوضةً أو تنتصر منها.

فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادَّعاه، وبطلان ماسلكه وتَبَجَّحَ به عند جهلة قومِه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به، بل انقطع وسكت، ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨] وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار، ولم يكن اجتمع به إلايومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

وقد روى عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم، أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للمِيرَة [١]، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة، ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام. فلما قرب من أهله عمد إلى كَثِيبٍ من التراب، فملأ منه عِدْلَيْه [٢]وقال: أشغل أهلي إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحله وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العِدْلَيْنِ فوجدتهما ملآنين طعامًا طيبًا، فعملت منه طعامًا، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه، فقال: أَنَّى [٣] لكم هذا؟ قالت: مِنَ الذي جئتَ به، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل.

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكًا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى عليه، ثم دعا الثالثة فأبى عليه وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي.

فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذبابًا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظامًا بادية، ودخلت واحدة منها في مَنْخِرِ الملك فمكثت في منخره أربعمائة سنة، عذبه الله تعالى بها، فكان يضرب رأسه بالمَرَازِبِ في هذه المدة كلها، حتى أهلكه الله عز وجل بها.



(١)الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه. الوجيز ص (٥٩٦).
(٢)عِدْلَيه مثنى عِدْل: والعدل نصف الحمل يكون على أحد جنبي البعير. الوجيز ص (٤٠٩).
(٣)يعني: من أين ؟.

ذكر هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام
ودخوله الديار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة

قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةًۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١-٧٣].

لما هجر قومه في الله، وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته عاقرًا لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر، وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولادَ الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده، فعلى أحد نسله وعَقِبِهِ، خِلْعَةً [١] من الله وكرامة له، حيث ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه.

والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام، وهي التي قال الله عز وجل: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]. قاله أُبَيّ ابن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم.

وروى العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] مكة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. وزعم كعب الأحبار أنها «حَرّان» وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب: أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط، وأخوه ناحور، وامرأة إبراهيم سارة، وامرأة أخيه «ملكا» فنزلوا حران، فمات تارخ أبو إبراهيم بها.

وقال السدي: انطلق إبراهيم ولوط قِبَلَ [٢] الشام، فلقي إبراهيم سارة - وهي ابنة ملك حران - قد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها على ألا يغيرها - رواه ابن جرير، وهو غريب.

والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذي انتسب إليه حَرّان. ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط - كما حكاه السهيلي عن القتيبي والنقاش - فقد أبعد النُّجْعَة وقال بلا علم. ومن ادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعًا فليس له على ذلك دليل، ولو فرض أن هذا كان مشروعًا في وقت - كما هو منقول عن الربانيين من اليهود - فإن الأنبياء لا تتعاطاه. والله أعلم. ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجرًا من بلاده كما تقدم. والله أعلم.

وذكر أهلُ الكتابِ أنَّه لما قدم الشام أوحى الله إليه: «إنِّي جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك» فابتنى إبراهيم مذبحًا لله شكرًا على هذه النعمة، وضرب قبته [٣] شرقي بيت المقدس ثم انطلق

---

(١) عطاء ومنحة. (٢) أي: تجاه.
(٣) يعني: بناها.

مرتحلاً إلى التيمن، وأنه كان جوع - أي: قحط وشدة وغلاء - فارتحلوا إلى مصر. وذكروا قصة سارة مع ملكها، وأن إبراهيم قال لها: قولي أنا أخته، وذكروا إخدام الملك إياها هاجر. ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن، يعني أرض بيت المقدس وما والاها، ومعه دواب وعبيد وأموال.

وقال البخاري: حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا حماد بن يزيد، عن أيوب عن محمد، عن أبي هريرة قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ثنتان منهن في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة فقال: يا سارة، ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرتُه أنك أختي فلا تكذبيني.

فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخِذَ [1]، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأُخِذَ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق، فدعا بعض حجبته [2] فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان وإنما أتيتموني بشيطان فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده، مهيم؟ [3] فقالت: رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره، وأخدم هاجر. قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء [4]. تفرد به من هذا الوجه موقوفًا.

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عمرو بن على الفلاس، عن عبد الوهاب الثقفي، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات، كل ذلك في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]، وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار، فقيل له: إنه قد نزل ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها فقال: إنها أختي. فلما رجع إليها قال: إن هذا سألني عنك فقلت: إنك أختي. وأنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك، وإنك أختي، فلا تكذبيني عنده.

فانطلق بها، فلما ذهب يتناولها أُخِذَ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فذهب يتناولها فأُخِذَ مثلها أو أشد منها، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأرسل ثلاث مرات، فدعا أدنى حَشَمِه [5] فقال: إنك لم تأتني بإنسان ولكن أتيتني بشيطان، أَخْرِجْهَا وأَعْطِهَا هاجر. فجاءت

---

(١) يعني: فقبضت يده لا يستطيع أن يحركها.

(٢) الحجبة جمع حاجب، وهو البواب. القاموس المحيط ص (٩٢).

(٣) مَهْيَمْ: كلمة استفهام يمانية، أي: ما الخبر، وهذا مثل تضربه العرب لم رام أمرًا باطلاً فلم يصل إليه. انظر هداية الباري إلى ترتيب صحيح البخاري ص (١٤٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ١٧١) به.

(٥) حَشَمُ الرجل: خاصته الذين يغضبون بغضبه ولما يصيبه من مكروه، من عبيد أو أهل أو جيرة. الوجيز ص (١٥٣).

وإبراهيم قائم يصلي. فلما أحس بها انصرف، فقال: مَهْيَمْ؟ فقالت: كفى الله كيدَ الظالم وأخدمني هاجر[١]. وأخرجاه من حديث هشام. ثم قال البزار: لا نَعْلَمُ أَسْنَدَهُ عن محمد عن أبي هريرة إلا هشام، ورواه غيره موقوفًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن حفص، عن ورقاء - وهو ابن عمر اليشكري - عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دعي إلى آلهتهم فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]، وقوله لسارة: «إنها أختي». قال: «ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار: من هذه معك؟ قال: أختي، قال: فأرسل بها، قال: فأرسل بها إليه، وقال: لا تكذبي قولي، فإني قد أخبرته أنك أختي؛ إنه ما علي الأرض مؤمن غيري وغيرك. فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأَحْصَنْتُ فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ الكافر. قال: فَغَطَّ حتى رَكَضَ برجله. قال أبو الزناد: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنها قالت: اللهم إن يمت يُقَلْ: هي قتلته، قال: فأرسل.

قال: «ثم قام إليها، قال: فقامت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأَحْصَنْتُ فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ الكافر. قال: فَغَطَّ حتى رَكَضَ برجله». قال أبو الزناد: وقال أبو سلمة، عن أبي هريرة أنها قالت: اللهم إن يمت يُقَلْ: هي قتلته، قال: فأرسل.

قال: فقال في الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إليّ إلا شيطانًا، أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر. قال: فرجعت، فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافر وأخدم وليدة»[٢].

تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح. وقد رواه البخاري عن أبي اليمان، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ به مختصرًا[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: «ما منها كلمة إلا مَاحَلَ[٤] بها عن دين الله، قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]، وقال للملك حين أراد امرأته: هي أختي»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٧١)، (٧/ ٧)، ومسلم (٧/ ٩٨)، وأبو داود (٢٢١٢)، والنسائي في فضائل الصحابة (٢٦٩) كلهم من طريق محمد بن سيرين به.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٣)، والبخاري (٣/ ١٠٥، ٢١٨)، (٩/ ٢٧)، والترمذي (٣١٦٦)، والنسائي في فضائل الصحابة (٢٦٨) كلهم من طريق أبي الزناد به.

(٣) السابق.

(٤) يعني: جادل. القاموس المحيط ص (١٣٦٥).

(٥) ابن أبي حاتم.

فقوله في الحديث: هي أختي أي: في دين الله، وقوله لها: «إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك» يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك، ويتعين حمله على هذا لأن لوطًا كان معهم وهو نبي عليه السلام. وقوله لها لمّا رجعت إليه: مهيم؟ معناه ما الخبر. فقالت: إن الله رد كيد الكافرين، وفي رواية: الفاجر وهو الملك، وأخدم جارية.

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك، قام يصلي لله عز وجل، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء، وهكذا فعلت هي أيضًا. فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمرًا قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام.

وقد ذهب بعض العلماء إلى نُبُوَّةِ ثلاث نسوة: سارة، وأم موسى، ومريم عليهن السلام. والذي عليه الجمهور أنهن صديقات، رضي الله عنهن وأرضاهن.

ورأيت في بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها فلم يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهدًا لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حبا شديدًا، لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر، فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها، أحسن منها، رضي الله عنها. . ولله الحمد والمنة.

وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخًا للضحاك الملك المشهور بالظلم، وكان عاملاً لأخيه على مصر، ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عويج بن عملاق بن لاود بن سام بن نوح، وذكر ابن هشام في «التِّيجَانِ»: أن الذي أرادها عمرو ابن امرئ القيس بن مايلون بن سبأ، وكان على مصر. نقله السهيلي. والله أعلم.

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن، وهي الأرض المقدسة التي كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل. وصحبتهم هاجر القبطية المصرية. ثم إن لوطًا عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك، إلى أرض الغور، المعروف بغور زغر، فنزل بمدينة سدوم، وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشرارًا كفارًا فجارًا. وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل، فأمره أن يمد بصره وينظر شمالا وجنوبًا وشرقًا وغربًا وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض.

وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة، بل ماكملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية. ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها» (١).

---

(١) أخرجه مسلم (٧١٨٧)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٦).

قالوا: ثم أن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه، وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليه في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً، فاستنقذ لوطًا عليه السلام واسترجع أمواله، وقتل من أعداء اللّهِ ورسولِهِ خلقًا كثيرًا وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل إلى شمالي دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة، وأظن مقام إبراهيم إنما سمي لأنه كان موقف جيش الخليل. والله أعلم. ثم رجع مؤيدًا منصورًا إلى بلاده، وتَلَقَّاهُ ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين، واستقر ببلاده. صلوات الله وسلامه عليه.

ذكر مولد إسماعيل عليه السلام من هاجر

قال أهل الكتاب: إن إبراهيم عليه السلام سأل الله ذريّة طيبة. وإن الله بشره بذلك، وأنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة، قالت سارة لإبراهيم عليه السلام: إن الرب قد أحرمني الولد، فادخل على أَمَتِي هذه لعل الله يرزقنا منها ولدًا. فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام، فحين دخل بها حملت منه. قالوا: فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها، فغارت منها سارة فشكت ذلك إلى إبراهيم، فقال لها: افعلي بها ما شئت، فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك، فقال لها ملك من الملائكة: لا تخافي فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيرًا، وأمرها بالرجوع وبشَّرها أنها ستلد ابنًا وتسميه إسماعيل، ويكون وحش الناس، ويده على الكل، ويد الكل به، ويملك جميع بلاد إخوته. فشكرت الله عز وجل على ذلك.

وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه الذي به سادت العرب، وملكت جميع البلاد غربًا وشرقًا، وآتاها الله من العلم النافع، والعمل الصالح مالم يؤت أمة من الأمم قبلهم، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل. وبركة رسالته ويمن بشارته وكماله فيما جاء به، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض. ولما رجعت هاجرُ وضعتْ إسماعيلَ عليه السلام. قالوا: وولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة. ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة، فخَرَّ لله ساجدًا، وقال له: قد استجبت لك في إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جدًا كثيرًا، ويولد له اثنا عشر عظيمًا، وأجعله رئيسًا لشعب عظيم.

وهذه أيضًا بشارة بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الاثنا عشر عظيمًا هم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر، المُبَشَّر بهم في حديث عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «يكون اثنا عشر أميرًا»ثم قال كلمة لم أفهمها، فسألت أبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش». أخرجاه في الصحيحين [١].

وفي رواية: «لا يزال هذا الأمر قائمًا – وفي رواية: عزيزًا – حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش».

(١) أخرجه البخاري (٧٢٢٢-٧٢٢٣)، ومسلم (٤٦٨٣).

فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي: ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضًا، ومنهم بعض بني العباس، وليس المراد أنهم يكونوا اثنى عشر نَسَقًا [١] بل لابد من وجودهم.

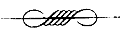
وليس المراد الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة [٢]. والذي أولهم على بن أبي طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامراء - وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمونة فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع مِنْ عَلِيٍ وابنه الحسن بن على، حين ترك القتال وسَلَّمَ الأمر لمعاوية، وأخمد نار الفتنة وسكَّن رحى الحرب بين المسلمين، والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور. وأما ما يعتقدونه بسرداب سامراء. فذاك هوس في الرءوس، وهَذَيان في النفوس، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر.

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل، اشتدت غَيْرَةُ سارة منها، وطلبت من الخليل أن يُغَيِّبَ وجهها عنها، فذهب بها وبولدها، فسار بها حتى وضعهما حيث مكة اليوم، ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعًا.

فلما تركهما هناك ووَلَّى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه، وقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتدعنا هاهنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يجبها، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: فإذن لا يضيعنا.

وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رحمه الله في كتاب «النوادر»: أن سارة غضبت على هاجر فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها، فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها، وأن تخفضها [٣] فتبر قسمها.

قال السهيلي: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من ثقبت أذنها منهن، وأول من طولت ذيلها [٤].



(١) يعني: متتابعين.

(٢) الرافضة: نسبة إلى الرفض، وهو الترك بازدراء واستهانة، سموا بذلك لرفضهم ولاية أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وزعموا أنهما ظلما عليًا واغتصباه الخلافة ومنعا فاطمة رضي الله عنها فدك. قرية بخيبر. وهم أقسام كثيرة لا كثرهم الله، وكان كبيرهم عبد الله بن سبأ، يهودي أظهر الإسلام وهلك باعتقاده في علي الإلهية كما يعتقد النصارى في عيسى عليه السلام. وهم المعرفون بالشيعة. انظر مختصر معارج القبول (ص ٣٩٦ - ٤٠٠).

(٣) أي: تختنها في فرجها.

(٤) يعني ذيل ثوبها.

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وامه هاجر إلى جبال فاران وهي ارض مكة وبنائه البيت العتيق

قال البخاري: قال عبد الله بن محمد - هو أبو بكر بن أبي شيبة - حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب السَّخْتِيَاني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المِنْطَق من قبل أم إسماعيل، اتخذت مِنْطَقًا [١] لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء. فوضعهما هناك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء

ثم قَفَّى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم.. أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذ كان عند الثَّنِيَّة [٢] حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يَتَلَبَّطُ - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف دِرْعِها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل تر أحدًا؟ فلم تر أحدًا، فعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «ذلك سعي الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صَه [٣]، تريد نفسها. ثم تسمعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث [٤]، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بِعَقِبِه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تَحُوضُهُ وتقول بيدها هكذا. وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحمُ اللهُ أمَّ إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف

---

(١) المنطق والنطاق: شُقَّةٌ تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل إلى الأرض والأسفل ينجر على الأرض. القاموس المحيط ص (١١٩٥). والمعنى أنها اتخذت ما يجر على الأرض حتى يذهب أثر سيرها الذى ينطبع على الأرض فلا يعلم الطريق الذي تسير فيه.

(٢) اسم موضع.

(٣) صَهِ: اسم فعل أمر، بمعنى اسكت. الوجيز ص (٣٧٢).

(٤) تعني: شيئًا يغيثنا مما نحن فيه من شدة.

من الماء - لكانت زمزم عينًا معينًا» قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن هاهنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرَّابِيَة، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهم، أو أهل بيت من جُرْهُم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبرهم بالماء فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم. ولكن لا حق لكم في الماء عندنا. قالوا: نعم. قال عبد الله بن عباس: قال النبي ﷺ: فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم. وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب. فلما أدرك زوّجوه امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تَرِكَته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة، وشَكَتْ إليه، قال: فإذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام وقولي له يُغَيِّر عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك غَيِّرْ عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك، وطلقها وتزوج منهم أخرى، ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: «اللهم بارك لهم في اللحم والماء».

قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبّ، ولو كان لهم حَبّ لدعا لهم فيه»قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بعين مكة إلا لم يوافقاه. قل: فإذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام، ومُرِيهِ يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عَيْشُنَا؟ فأخبرته أنَّا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك إسماعيل يبرى نَبْلًا له تحت دَوْحَةٍ قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك به ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا. وأشار إلى أَكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها.

قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، وجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] . قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧][١] .

ثم قال: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن نافع، عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، ومعهم شَنَّة فيها ماء، وذكر تمامه بنحو ما تقدم.

وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه. وفي بعضه غرابة، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات، وفيه أن إسماعيل كان رضيعًا إذ ذاك.

وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم، وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره، فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة، وهذا امتثال لأمر الله عز وجل في أهله، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب. ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال، كما هو مقرر في موضعه. وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم»[٢] . تابعه عبد الرحمن ابن إسحاق عن أبي الزناد، وتابعه عجلان، عن أبي هريرة[٣] ، ورواه محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، وهكذا رواه مسلم عن قتيبة. وفي بعض الألفاظ: «اختتن إبراهيم بعد ما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم». والقدوم هو الآلة، وقيل موضع.

وهذا اللفظ لا ينافي الزيادة على الثمانين. والله أعلم، لما سيأتي من الحديث عند ذكر وفاته، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اختتن إبراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة»[٤] . رواه ابن حبان في صحيحه.

وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه إسماعيل، ولم يذكر في قدمات إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث مرات: أولاهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر، وكيف تركهم من حين صغر الولد - على ما ذكر - إلى حين تزويجه لا ينظر في حالهم، وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له، وقيل: إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم، فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة؟!.

وكأن بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات ومطرز بشيء من المرفوعات، ولم يذكر فيه قصة الذبيح، وقد دللنا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح في سورة الصافات[٥] .

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٣، ٣٤٧)، والبخاري (٣/ ١٤٧)، (٤/ ١٧٢، ١٧٥)، والنسائي في الكبرى (٥٦٠٠ تحفة) كلهم من طريق سعيد بن جبير به.
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٢، ٤١٧)، والبخاري (٤/ ١٧٠)، (٨/ ٨١)، وفي الأدب المفرد (١٢٤٤)، ومسلم (٧/ ٩٧) كلهم عن أبي الزناد به.
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٥) به.
(٤) أخرجه ابن حبان (٦٢٠٤).
(٥) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ١٥ - ٢٠)

قصة الذبيح

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ٩٩-١١٣].

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه، سأل ربه أن يهب له ولدًا صالحًا، فَبَشَّرَهُ الله بغلام حليم، وهو إسماعيل عليه السلام، لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل. وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل، لأنه أول ولده وبكره.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. أي شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه. قال مجاهد: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢] أي: شَبَّ وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل.

فلما كان هذا، رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا، وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعًا: «رؤيا الأنبياء وحي». قاله عبيد بن عمير أيضًا.

وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر، وقد طعن في السن، بعد ما أمر بأن يُسْكِنَهُ هو وأمه في بلاد قَفْرٍ، وواد ليس به حسيس(١) ولا أنيس، ولا زرع ولا ضرع. فامتثل أمر الله في ذلك، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلاً عليه، فجعل الله لهما فَرَجًا ومخرجًا، ورزقهما من حيث لا يحتسبان. ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه، وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره، أجاب ربه وامتثل أمره، وسارع إلى طاعته. ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرًا(٢) ويذبحه قهرًا: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

فبادر الغلام الحليم، سِرَّ والده الخليل إبراهيم، فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] قيل: «أسلما» أي استسلما لأمر الله وعزما على ذلك. وقيل: وهذا من المقدم والمؤخر، ومعنى: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] أي ألقاه على وجهه. قيل أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك. وقيل: بل أَضْجَعَهُ كما تُضْجَعُ الذبائح، وبقي طرف جبينه لاصقًا بالأرض

---

(١) يعني: من يحس بهم.

(٢) يقال: قَسَرَ فلانًا يقسِره قَسْرًا: قهره على كَرْهٍ. الوجيز ص (٥٠١).

﴿أَسْلَمَا﴾ [الصافات:١٠٣] أي: سَمَّى إبراهيم وكَبَّر، وتَشَهد الولد للموت. قال السدي وغيره: أَمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئًا، ويقال: جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس. والله أعلم.

فبعد ذلك نودي من الله عز وجل: ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٥] أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلت ولدك للقربان، كما سمحت ببدنك للنيران، وكما مَالُكَ مبذولٌ للضِّيفَانِ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات:١٠٦]. أي: الاختبار الظاهر البين.

وقوله: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:١٠٧]. أي: جعلنا فداء ذبح ولده ما يَسَّرَهُ الله تعالى له من العوض عنه. والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أَعْيَنُ أَقْرَنُ، رآه مربوطًا بسمرة في ثَبِير. قال الثوري، عن عبد الله بن عثمان بن[1] خثيم، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس، قال: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفًا، وقال سعيد ابن جبير: كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير، وكان عليه عِهْن أحمر، وعن ابن عباس هبط عليه من ثَبِير كبش أعين أقرن له ثُغَاء[2] فذبحه، وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه. رواه ابن أبي حاتم. قال مجاهد: فذبحه بمنى، وقال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام.

فأما ما روى عن ابن عباس – أنه كان وَعِلاً. وعن الحسن أنه كان تيسًا من الأروى واسمه جرير – فلا يكاد يصح عنهما.

ثم غالب ما هاهنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات. وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم، والاختبار الباهر، وأنه فُدِيَ بذبح عظيم، وقد ورد في الحديث أنه كان كبشًا.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور، عن خاله نافع، عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا، قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة، وقالت مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله ﷺ؟ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تُخَمِّرَهُمَا فخَمِّرْهُما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي»[3].

قال سفيان: لم يَزَلْ قَرْنَا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا. وكذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقًا عند مِيزَابِ الكعبة قد يَبِسَ.

وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل، لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره. والله أعلم.

وهذا هو الظاهر من القرآن، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل، لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات:١١٢]. ومن جعله حالا فقد تكلف، ومستنده أنه

(١) اسم لجبال بقرب مكة انشقت وخرج منها الكبش. وانظر القاموس المحيط ص (٤٥٦، ٤٥٧).
(٢) الثغاء: صوت الشاة ونحوها. الوجيز ص (٨٤).
(٣) أخرجه أحمد (٦٨/٤)، (٣٨٠/٥) به.

إسحاق إنما هو إسرائيليات، وكتابهم فيه تحريف، ولا سِيَّمَا هاهنا قطعًا لا محيد عنه، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ووحيده، وفي نسخة من المعربة: بكره إسحاق، فلفظة إسحاق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر، إنما ذاك إسماعيل.

وإنما حملهم على هذا حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ، وإسحاق والد يعقوب - وهو إسرائيلة الذي ينتسبون إليه، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بُهُتٌ [1] ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه - والله أعلم - من كعب الأحبار، أو من صحف أهل الكتاب. وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولا يفهم هذا من القرآن، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل.

وما أحسن ما استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]. قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟ هذا لا يكون، لأنه يناقض البشارة المتقدمة. والله أعلم.

وقد اعترض السهيلي على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود:٧١] جملة تامة، وقوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]. جملة أخرى ليست في حيز البشارة. قال: لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضًا إلا أن يعاد معه حرف الجر، فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن بعده عمرو، حتى يقال ومن بعده بعمرو. وقال: فقوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]. منصوب بفعل مضمر تقديره: ووهبنا لإسحاق يعقوب. وفي هذا الذي قاله نظر. ورجح أنه إسحاق واحتج بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات:١٠٢]. قال: وإسماعيل لم يكن عنده إنما كان في حال صغره هو وأمه بجبال مكة فكيف يبلغ معه السعي؟ وهذا أيضًا فيه نظر، لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكبًا البراق إلى مكة، يَطَّلِعُ على ولده وابنه ثم يرجع والله تعالى أعلم.

فممن حكى القول عنه بأنه إسحاق: كعب الأحبار، وروى عن عمر والعباس وعلى وابن مسعود، ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد ابن عمير، وأبي ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق، والزهري والقاسم وابن أبي بردة ومكحول، وعثمان بن حاضر، والسُّدِّي، والحسن وقتادة، وأبي الهذيل وابن سابط، وهو اختيار ابن جرير، وهذا عجب منه وهو أحدث الروايتين عن ابن عباس. ولكن الصحيح عنه - وعن أكثر هؤلاء - أنه إسماعيل عليه السلام قال مجاهد وسعيد والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس: هو

(١) يقولون البهتان، والبهتان: الكذب المفترى. انظر القاموس المحيط ص (١٨٩)، ومختار الصحاح ص (٦٦)، الوجيز ص (٦٤).

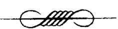
إسماعيل عليه السلام.

وقال ابن جرير :حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس، عن عطاء ابن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: المفدي إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه :هو إسماعيل. وقال ابن أبي حاتم، سألت أبي عن الذبيح، فقال: الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام. قال ابن أبي حاتم: وروى عن على وابن عمر وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب، وأبي جعفر محمد بن على، وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح هو إسماعيل عليه السلام. وحكاه البغوي أيضًا عن الربيع بن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء.

قلت :وروى عن معاوية، وجاء عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله ﷺ. وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسار، وكان الحسن البصري يقول: لا شك في هذا.

وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمي، عن محمد بن كعب: أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام - يعني استدلاله بقوله بعد العصمة: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١] فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهوديًا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، قال: فسأله عمر بن عبد العزيز: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق، لأن إسحاق أبوهم. وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها في كتابنا التفسير [١]. ولله الحمد والمنة.



(١)انظر تفسير ابن كثير (٤/ ١٥ - ٢٠).

ذكر مولد إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات:١١٢-١١٣]. وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط، ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود:٦٩-٧٣]

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥١-٥٦].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٢٤-٣٠].

يذكر تعالى: أن الملائكة - قالوا: وكانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل - لما وردوا على الخليل حسبهم أولا أضيافًا، فعاملهم معاملة الضيوف، وشوى لهم عجلاً ثمينًا من خيار بقره، فلما قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام فَنَكِرَهُمْ إبراهيم: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٠]. أي لندمر عليهم. فاستبشرت عند ذلك سارة غضبا لله عليهم، وكانت قائمة على رءوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم، فلما ضحكت استبشارًا بذلك، قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]. أي بشرتها الملائكة بذلك: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات:٢٩] أي في صرخة: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ [الذاريات:٢٩]. أي كما يفعل النساء عند التَّعَجُّبِ [1] وقالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود:٧٢]. أي كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضًا، وهذا بعلي، أي زوجي، شيخًا؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه. ولهذا قالت:

---

(١) لا يجوز لطم الوجه في شريعتنا المطهرة لأنه منهي عنه، فعن ابن مسعود. رضي الله عنه. قال: قال النبي ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية». أخرجه أحمد (١/ ٣٨٦، ٤٣٢، ٤٤٢، ٤٥٦، ٤٦٥)، والبخاري (٢/ ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤)، (٤/ ٢٢٣)، ومسلم (١/ ٦٩، ٧٠)، وابن ماجه (١٥٨٤)، والترمذي (٩٩٩)، والنسائي (٤/ ١٩، ٢٠، ٢١).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢-٧٣].

وكذلك تعجَّب إبراهيم عليه السلام استبشارًا بهذه البشارة وتثبيتًا لها وفرحًا بها: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٤-٥٥]. أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرَّروه معه، فبشَّروهما ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وهو إسحاق أخو إسماعيل، غلام حليم مناسب لمقامه وصبره، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده.

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحَنيذِ - وهو المشوى - رغيفًا من مكة فيه ثلاثة أكيال سمن ولبن، وعندهم أنهم أكلوا، وهذا غلط محض، وقيل: كانوا يرون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى في الهواء.

وعندهم أن الله تعالى قال لإبراهيم: أما سارا امرأتك فلا يدعى اسمها سارا ولكن اسمها سارة، وأبارك عليها وأعطيك منها ابنًا، وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه، فَخَرَّ إبراهيم على وجهه - يعني ساجدًا - وضحك قائلًا في نفسه، أبعد مائة سنة يولد لي غلام؟ أو سارة تلد وقد أتت عليه تسعون سنة؟!.

وقال إبراهيم لله تعالى: ليت إسماعيل يعيش قدامك، فقال الله لإبراهيم: بحقى إن امرأتك سارة تلد لك غلامًا وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الحين من قَابِلٍ، وأوثقه ميثاقي إلى الدهر ولخلفه من بعده، وقد استجبت لك في إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جدًا كثيرًا، ويولد له اثنا عشر عظيمًا، وأجعله رئيسًا لشعب عظيم. وقد تكلمنا على هذا بما تقدم. والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق، ثم من بعده بولده يعقوب. أي يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرَّت بولده، ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة، ولما عُيِّن بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بمولده كما سرا بمولد أبيه من قبله، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩].

وهذا إن شاء الله ظاهر قوي، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم بن يزيد التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، قال: قلت: يارسول الله.. أي مسجد وضع أولًا؟ قال «المسجد الحرام»قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»قلت: ثم أي؟قال: «ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد»(١). وعند

(١) أخرجه الحميدي (١٣٤)، وأحمد (٥/ ١٥٠، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، ١٦٦)، والبخاري (٤/ ١٧٧، ١٩٧)،

أهل الكتاب، أن يعقوب عليه السلام هو الذي أَسَّسَ المسجد الأقصى، وهو مسجد إيليا ببيت المقدس شرفه الله. وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث، فعلى هذا يكون بناء يعقوب عليه السلام - وهو إسرائيل - بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء. وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق، لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا، قال في دعائه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٤١].

وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام، لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثًا كما ذكرناه عند قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥]. وكما سنورده في قصته فالمراد من ذلك والله أعلم، أنه جدد بناءه كما تقدَّم من أن بينهما أربعين سنة، ولم يقل أحدٌ أن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في تقاسيمه وأنواعه. وهذا القولُ لم يُوَافَقْ عليه ولا سُبِقَ إليه.

ذكر بنائه البيت العتيق

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ

ومسلم (٢/ ٦٣)، وابن ماجه (٧٥٣)، والنسائي (٢/ ٣٢)، وفي الكبرى (٦٨٠)، (٩/ ١١٩٩٤ تحفة)، وابن خزيمة (٧٨٧)، (١٢٩٠) كلهم من طريق الأعمش به.

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٤-١٢٩].

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه السلام أنه بنى البيت العتيق، الذي هو أولُ مسجدٍ وُضِعَ لعموم الناس، يعبدون الله فيه، وبَوَّأه الله مكانه، أي أرشده إليه ودَلَّهُ عليه. وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره: أنه أرشد إليه بوحي من الله عز وجل. وقد ذكرنا في صفة خلق السموات: أن الكعبة بحيال البيت المعمور، بحيث إنه لو سقط لسقط عليها، وكذلك معابد السموات السبع، كما قال بعض السلف: إن في كل سماء بيتًا يَعْبُدُ اللهَ فيه أهلُ كلِّ سماءٍ، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض. فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتًا يكون لأهلِ الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات، وأرشده الله إلىٰ مكان البيت المهيأ له، المعيَّن لذلك منذ خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»[1].

ولم يجئ في خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مبنيًّا قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج:٢٦]. فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المرادَ مكانُه المقدر في علم الله، المقررُ في قَدَرِهِ، المعظمُ عند الأنبياء موضعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم. وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قُبَّةً، وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت، وأن السفينة طافت به أربعين يومًا أو نحو ذلك، ولكن كل هذه الأخبار عن بني إسرائيل [illegible] لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها، فأما إن ردها الحق[2] فهي مردودة.

وقد قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦] أي أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى. البيت الذي ببكة، وقيل محل الكعبة ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ [آل عمران:٩٧] أي على أنه بناء الخليل، والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده، الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته، ولهذا قال: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. أي الحَجَر الذي كان يقف عليه قائمًا لمَّا ارتفع البناء عن قامته، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور، ليرتفع عليه لمَّا تعالى البناء وعظم الفناء. كما ذكر في حديث ابن عباس الطويل.

وقد كان هذا الحجر ملصقًا بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخَّره عن البيت قليلاً، لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت، واتَّبع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا، فإنه قد وافقه ربه في أشياء، منها قوله لرسوله ﷺ: لو اتَّخذنا من مقام إبراهيم مُصَلًّى، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥][3].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٦، ٢٥٩، ٣١٥، ٣٥٥)، والدارمي (٥/ ٢٥)، والبخاري (٢/ ١٨٠)، (٣/ ١٨)، (٤/ ١٧، ٢٨، ٩٢، ١٢٧)، ومسلم (٤/ ١٠٩)، (٦/ ٢٨)، وأبو داود (٨/ ٢٠)، (٢٤٨٠)، والترمذي (١٥٩٠)، والنسائي (٥/ ٢٠٣، ٢٠٤)، (٧/ ١٤٦) كلهم من طريق منصور بن المعتمر عن مجاهد عن طاووس عن ابن عباس فذكره مرفوعًا.

(٢) أي بدليل صحيح من الكتاب أو السنة.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٥٩) عن أنس أن عمر قال: يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وأخرج أحمد (١/ ٢٣، ٢٤، ٣٦)، والبخاري (١/ ١١١)، (٦/ ٢٤، ١٤٨، ١٩٧)،

وقد كانت آثار قَدَمَيِ الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام. وقد قال أبو طالب في قصيدته اللَّامية [1] المشهورة:

وثورٍ ومن أرسى ثبيرًا مكانه ... وراق ليرقى في حراء ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذ اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيًا غير ناعل

يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا متنعلة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧] أي: في حال قولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]. فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل، وهما يسألان من الله عز وجل السميع العليم أن يَتَقَبَّلَ منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٢٨].

والمقصود أن الخليل بَنَى أشرفَ المساجدِ في أشرف البقاع، في وادٍ غير ذي زرع، ودعا لأهلها بالبركة، وأن يرزقوا من الثمرات، مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار، وأن يجعله حَرَمًا محرمًا وآمنًا محتمًا. فاستجاب الله - وله الحمد - له مسألته، ولَبَّى دعوته، وآتاه طَلِبَتَهُ، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧]. وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم، أي من جنسهم، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة، لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية، سعادة الأولى والآخرة. وقد استجاب الله له فبعث رسولاً وأي رسول! ختم به أنبياءه ورسله، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحدًا قبله، وعَمَّ بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء، لشرفه في نفسه وكمال ما أُرْسِلَ به وشرف بقعته وفصاحة لغته، وكمال شفقته على أمته، ولطفه ورحمته، وكريم مَحْتِدِهِ [2] وعظيم مولده، وطيب مصدره ومورده. ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض، أن يكون منصبه ومحله وموضعه في منازل السموات ورفيع الدرجات، عند البيت المعمور، الذي هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور، الذي يدخله كلَّ يومٍ سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم

وابن ماجه (١٠٠٩)، والترمذي (٢٩٦٠)، والنسائي في الكبرى (١/١٠٤٠٩ تحفة) كلهم من طريق حميد عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في ثلاث - أو وافقني ربي في ثلاث - قلت: يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى...

(١) أي التي تنتهي أبياتها بحرف اللام. وتسمى القافية.

(٢) المَحْتِدُ: الأصل. انظر القاموس المحيط ص (٣٥٢)، والوجيز ص (١٣٣).

البعث والنشور. وقد ذكرنا في التفسير من سورة البقرة [١] صفة بنائه للبيت، وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية، فمن أراده فليراجعه ثَمَّ [٢]. ولله الحمد.

فمن ذلك ما قال السُّدِّي: لمّا أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت لم يدريا أين مكانه، حتى بعث الله ريحًا يقال له «الخجوج» لها جناحان ورأس في صورة حية، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، وأتبعاها بالمعاول [٣] يحفران حتى وضعا الأساس، وذلك حين يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج:٢٦]. فلما بلغا القواعد وبنيا الركن، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بني، اطلب لي حجرًا حسنًا أضعه هاهنا. قال: يا أبت، إني كسلان تَعِبٌ. قال: على ذلك فانطلق، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثَّغَامَة [٤]، وكان آدم هبط به من الجنة فاسْوَدَّ من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن. فقال: يا أبت، من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك. فبنيا وهما يدعوان الله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧].

وذكر ابن أبي حاتم أنه بناه من خمسة أَجْبُل، وأن ذا القرنين - وكان ملك الأرض إذ ذاك - مرّ بهما وهما يبنيانه فقال: من أمركما بهذا؟ فقال إبراهيم: الله أمرنا به. فقال: وما يدريني بما تقول؟ فشهدت خمسة أكبش أنه أمره بذلك فآمن وصدَّق. وذكر الأزرقي: أنه طاف مع الخليل بالبيت. وقد كانت الكعبة على بناء الخليل مدة طويلة، ثم بعد ذلك بنتها قريش، فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم. وفي الصحيحين من حديث مالك، عن ابن شهاب، عن سالم: أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر عن ابن عمر، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تر أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم»؟ فقلت: يا رسول الله، ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال: «لولا حدثان قومك بالكفر لفعلته». وفي رواية: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال بكفر - لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر» [٥].

وقد بناها ابن الزبير رحمه الله في أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته به خالته عائشة، أم المؤمنين عنه، فلما قتله الحجاج في سنة ثلاثة وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنـ[illegible]ـنع ذلك من تلقاء نفسه. فأمر بردها إلى ما كانت عليه، فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر، ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٦٧ - ١٧١).

(٢) يعني: في الموضع المذكور.

(٣) المعاول جمع مِعْوَل، وهو آلة من حديد ينقر بها الصخر. الوجيز ص (٤٤٢).

(٤) الثغامة: شجرة بيضاء الثمر والزهر، تنبت في قمة الجبل، وإذا يبست اشتد بياضها. انظر الوجيز ص (٨٤).

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (ص ٢٣٨)، وأحمد (٦/ ١٧٦، ٢٤٧)، والبخاري (٢/ ١٧٩)، (٤/ ١٧٧)، (٦/ ٢٤)، ومسلم (٤/ ٩٧)، والنسائي (٥/ ٢١٤)، وابن خزيمة (٢٧٢٦) كلهم من طريق مالك بن أنس به.

فارتفع بابها الشرقي وسدوا الغربي بالكلية، كما هو مشاهد إلى اليوم. ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك. ثم لما كان في زمن المهدي ابن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير فقال له: إني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة. يعني كلما جاء ملك بناها على الصفة التي يريد. فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم.

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]. لما وفى ما أمره به ربه من التكاليف العظيمة، جعله للناس إمامًا يقتدون به ويأتمون بهديه. وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه، وباقية في نسبه، وخالدة في عَقِبِهِ، فأجيب إلى ما سأل ورَامَ[1]، وسلمت إليه الإمامة بزمام، واستثني من نيلها الظالمون، واختص بها من ذريته العلماء العاملون.

كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٨٤-٨٧]. فالضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٤] عائدٌ على إبراهيم على المشهور، ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل في الذرية تغليبًا، وهذا هو الحامل للقائل الآخر أن الضمير عائدٌ على نوح كما قدمنا في قصته. والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]. فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل، فمن ذريته وشيعته، وهذه خلعة سنية لا تضاهى، ومرتبة علية لا تباهى. وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة، وولد لهذا يعقوب - وهو إسرائيل - الذي ينتسب إلى سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة، وكثروا جدًا بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة، حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل.

وأما إسماعيل عليه السلام، فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها، كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى، ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم، وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، المكي ثم المدني صلوات الله وسلامه عليه. فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المَنِيفِ سوى هذه الجوهرة

---

(١) رام الشيء يَرُومه رومًا: طلبه. انظر مختار الصحاح ص (٢٦٤).

الباهرة، والدُّرَّة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة.

وقد ثبت عنه في صحيح مسلم أنه قال: «سأقوم مقامًا يرغب إليَّ الخلق كلهم حتى إبراهيم». فمدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق، ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلّاق، في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق.

وقال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن منصور عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يُعوِّذُ الحسن والحسين ويقول: «إنَّ أباكما كان يُعَوِّذُ بهما إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة»[1]. ورواه أهل السنن من حديث منصور به.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ذكر المفسرون لهذا السؤال أسبابًا بسطناها في التفسير[2]، وقررناها بأتم تقرير.

والحاصل: أن الله عز وجل أجابه إلى ما سأل، فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور. اختلفوا في تعيينها على أقوال، والمقصود حاصل على كل تقدير، فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن، ويخلط ذلك بعضه في بعض، ثم يقسمه قسمًا، ويجعل على كل جبل منهن جزءًا، ففعل ما أمر به، ثم أمر أن يدعوهنّ بإذن ربهنّ، فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه، وكل ريشة تأتي إلى أختها، حتي اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه، وهو ينظر إلى قدرة الذي يقول للشيء كن فيكون، فأتين إليه سعيًا، ليكون أبْيَنَ له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيرانًا. ويقال إنه أمر أن يأخذ رءوسهن في يده، فجعل كل طائر يأتي فيلقي رأسه فتركب على جثته كما كان. فلا إله إلا الله.

وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علمًا يقينيًا لا يحتمل النقيض، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عَيَانًا، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله.

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٨].

ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين، كون الخليل على

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٦، ٢٧٠)، والبخاري (٤/ ١٧٨)، وفي خلق أفعال العباد (١٩١)، (١٩٢)، وابن ماجه (٣٥٢٥)، والترمذي (٢٠٦٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٠٦)، (١٠٠٧) كلهم من طريق منصور به.

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٢٩٨، ٢٩٩).

ملتهم وطريقتهم، فبرَّأه الله منهم، وبَيَّن كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٦٥]. أي فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة؟ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥] إلى أن قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. فبين أنه كان على دين الله الحنيف، وهو القصد إلى الإخلاص، والانحراف عمدًا عن الباطل إلى الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية.

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٤١].

فَنَزَّهَ الله عز وجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا، وبَيَّن أنه إنما كان حنيفًا مسلمًا ولم يكن من المشركين، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨]. يعني الذين كانوا على مِلَّتِهِ من أتباعه في زمانه، ومن تَمَسَّكَ بدينه من بعدهم: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [آل عمران: ٦٨]. يعني محمدًا ﷺ فإن الله شرع له الدين الحنيف الذي شرعه للخليل، وكمله الله تعالى له، وأعطاه ما لم يعط نبيا ولا رسولاً من قبله كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن معمر، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فَمُحِيَتْ، ورأى

إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام [١] فقال: «قاتلهم الله. والله ما استقسما بالأزلام قط» [٢]. لم يخرجه مسلم. وفي بعض ألفاظ البخاري: «قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط».

وقوله: ﴿أُمَّةً﴾ [البقرة: ١٢٨] أي قدوة إمامًا مهتديًا داعيًا إلى الخير، يقتدى به فيه ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠] أي خاشعًا له في جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥] أي: مخلصًا على بصيرة ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ [النحل ١٢٠-١٢١] أي: قائمًا بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله ﴿اجْتَبَاهُ﴾ [النحل: ١٢١] أي: اختاره لنفسه واصطفاه لرسالته، واتخذه خليلاً، وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] يُرَغِّب تعالى في اتباع إبراهيم عليه السلام، لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم، وقد قام بجميع ما أمره به ربه، ومدحه تعالى بذلك فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] ولهذا اتخذه الله خليلاً، والخُلَّةُ هي غاية المحبة كما قال بعضهم.

قد تخللت مسلك الروح مني   وبذا سمى الخليل خليلا

وهكذا نال هذه المرتبة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلي وعبدالله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيها الناس إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً». وقال أيضًا في آخر خطبة خطبها: «أيها الناس لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله» [٣]. أخرجاه من حديث أبي سعيد.

وثبت أيضًا من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود. وروى البخاري في صحيحه: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن عمرو بن ميمون، قال إن معاذًا لما قدم اليمن صلَّى بهم الصبح فقرأ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم.

---

(١) الأزلام مفردها زلم، وهو السهم الذي لا ريش عليه، وكان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزلام، وكانوا يكتبون عليها الأمر أو النهي ويضعونها في وعاء، فإذا أراد أحدهم أمرًا أدخل يده فيه وأخرج سهمًا، فإن خرج ما فيه الأمر مضى لقصده، وإن خرج ما فيه النهي كف عنه ولم يمضه. الوجيز ص (٢٩١).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٤، ٣٦٥)، والبخاري (٢/ ١٨٤)، (٤/ ١٧٠)، (٥/ ١٨٨)، وأبو داود (٢٠٢٧) كلهم من طريق أيوب به.

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٦٧)، والنسائي في الكبرى (٣٢٦٠ تحفة) من حديث جندب، وأخرجه ابن ماجه (١٤١) من حديث عبد الله بن عمرو، وأخرجه الحميدي (١١٣)، وأحمد (١/ ٣٧٧، ٣٨٩، ٤٠٨، ٤١٢، ٤٣٣)، ومسلم (٧/ ١٠٨، ١٠٩)، وابن ماجه (٩٣)، والترمذي (٣٦٥٥)، والنسائي في فضائل الصحابة (٣)، (٤) كلهم من طريق أبي الأحوص عن ابن مسعود مرفوعًا.

وأخرجه أحمد (٣/ ١٨)، والبخاري (٥/ ٧٣)، ومسلم (٧/ ١٠٨)، والترمذي (٣٦٦٠)، والنسائي في فضائل الصحابة (٢) كلهم من طريق سالم أبي النضر، عن عبيد بن حنين عن أبي سعيد فذكره مرفوعًا.

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد ابن أسيد، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني بمكة، حدثنا عبد الله الحنفي، حدثنا زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول: عجبًا: إن الله اتخذ من خلقه خليلاً؟ فإبراهيم خليله، وقال آخر: ماذا بأعجب من الله كلم موسى تكليمًا. وقال آخر: فعيسى روح الله وكلمته، وقال آخر: آدم اصطفاه الله، فخرج عليهم فسلم وقال: «قد سمعت كلامكم وعجبكم، إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى كليمه وهو كذلك، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وإني حبيب الله ولا فخر، ألا وإني أول شافع وأول مُشَفَّع ولا فخر، وأنا أول من يحرّك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فَيُدْخِلُنِيهَا ومعي فقراء المؤمنين، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر»[(1)] هذا حديث غريب من هذا الوجه، وله شواهد من وجوه أخر. والله أعلم. وروى الحاكم في مستدركه من حديث قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: تنكرون أن تكون الخلة لإبراهيم؟ والكلام لموسى؟ والرؤية لمحمد؟[(2)] صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[(3)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد السلمي، حدثنا الوليد عن إسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ألقى في قلبه الوجل حتى إن كان خَفَقَانُ قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير في الهواء.

وقال عبيد بن عمير: كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس، فخرج يومًا يلتمس إنسانًا يضيفه فلم يجد أحدًا يضيفه، فرجع إلى داره فوجد رجلاً قائمًا، فقال: يا عبد الله، ما أدخلك داري بغير إذني؟ قال: دخلت بإذن ربها. قال: ومن أنت؟ قال: أنا ملك الموت، أرسلني ربي إلى عبد من عباده، أُبَشِّره بأن الله قد اتخذه خليلاً. قال: من هو؟ فوالله إن أخبرتني به ثم كان بأقصى البلاد لآتِيَنَّهُ، ثم لا أبرح له جارًا، حتى يفرق بيننا الموت. قال: ذلك العبد أنت. قال: أنا؟ قال: نعم. قال: فبم اتخذني ربي خليلاً؟ قال: بأنك تعطي الناس ولا تسألهم. رواه ابن أبي حاتم.

وقد ذكره الله تعالى في القرآن كثيرًا في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له، فقيل: إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعًا، منها خمسة عشر في البقرة وحدها. وهو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصًا من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى، وهما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧]. وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]. ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١٦)، والدارمي (٤٧) وهو ضعيف.

(٢) يعني: أن محمدًا ﷺ رأى ربه في الدنيا، وفي المسألة خلاف بين أهل العلم.

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٦٩).

ﷺ. وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة مسندًا ظهره بالبيت المعمور، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم. وما وقع في حديث شريك بن أبي نمير عن أنس في حديث الإسراء، من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة - فمما انتقد على شريك في هذا الحديث، والصحيح الأول.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بشر: حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا أبو سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن» [1] تفرد به أحمد. ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى على الصحيح الحديث الذي قال فيه: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم» [2] رواه مسلم من حديث أبي ابن كعب رضي الله عنه.

وهذا هو المقام المحمود الذي أخبر صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» ثم ذكر استشفاع الناس بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمدًا ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها» الحديث بتمامه. وهكذا رواه البخارى فى مواضع أخر، ومسلم، والنسائى من طرق عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبيد الله وهو ابن عمر العمرى به، وقال البخاري: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبيد الله: حدثني سعيد، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: «أكرمهم أتقاهم» فقالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» [3]. ثم قال البخاري: قال أبو أسامة ومعتمر عن عبيد الله، عن سعيد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

قلت: وقد أسنده في موضع آخر من حديثهما، وحديث عبيده بن سليمان. والنسائي من حديث محمد بن بشر، أربعتهم عن عبيد الله بن عمر، عن سعيد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولم يذكروا أباه.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا أبو سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢، ٣٤٦، ٣٨٤، ٣٨٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٥)، (٨٩٦)، والترمذي (٣١١٦) والنسائي في الكبرى (١١/ ١٥٠٨١ تحفة) كلهم من طريق محمد بن عمرو به.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٢٧، ١٢٨)، ومسلم (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣) كلهم من طريق إسماعيل بن أبي خالد، قال: حدثني عبد الله بن عيسى، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب فذكره.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣١)، والدارمي (٢٢٩)، والبخاري (٤/ ١٧٠، ٢١٦) ومسلم (٧/ ١٠٣)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ١٤٣٠٧ تحفة) كلهم من طريق يحيى بن سعيد به.

(٦١/ ١) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٩، ١٨٢)، (٦/ ٩٥)، وفي الأدب المفرد (١٢٩)، والنسائي في الكبرى (٩/ ١٢٩٨٧ تحفة) كلهم من طريق عبيد الله به.

إسحاق بن إبراهيم خليل الله» [١]. تفرد به أحمد.

وقال البخاري: حدثنا إسحاق بن منصور، أخبرنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن ابن عبد الله، عن أبيه عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» [٢]. تفرد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر به.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني مغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «يحشر الناس حفاة عراة غُرْلاً [٣]، فأول من يُكْسَى إبراهيم عليه السلام» [٤] ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]» فأخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان الثوري وشعبة ابن الحجاج، كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعي الكوفي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود، الذي يَغْبِطُهُ [٥] به الأولون والآخرون.

وأما الحديث الآخر الذي قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وأبو نعيم، حدثنا سفيانة هو الثوري - عن مختار بن فلفل، عن أنس بن مالك، قال: قال رجل للنبي ﷺ: يا خير البرية. فقال: «ذاك إبراهيم» [٦] فقد رواه مسلم من حديث الثوري وعبد الله ابن إدريس، وعلى بن مسهر ومحمد بن فضيل، أربعتهم عن المختار بن فلفل وقال الترمذي: حديث صحيح. وهذا من باب الهَضْمِ والتواضع مع والده الخليل عليه السلام كما قال: «لا تفضلوني على الأنبياء»وقال: «لا تفضلوني على موسى، فإن الناس يُصْعَقُونَ يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطور»؟ [٧]. وهذا كله لا ينافي ما ثبت بالتواتر عنه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٩٦)، والبخاري (٤/ ١٨١، ١٨٤)، (٦/ ٩٥) كلاهما من طريق عبد الصمد به.

(٣) يعني: غير مختونين. والغرلة: جلدة الصبي التي تقطع في الختان. الوجيز ص (٤٤٩).

(٤) أخرجه الحميدي (٤٨٣)، وأحمد (١/ ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٥٣، ٢٥٧)، والدارمي (٢٨٠٥)، والبخاري (٤/ ١٦٩، ٢٠٤)، (٦/ ٦٩، ٧٠، ١٢٢)، (٨/ ١٣٦) ومسلم (٨/ ١٥٦، ١٥٧)، والترمذي (٢٤٢٣)، (٣١٦٧)، والنسائي (٤/ ١١٤، ١١٧)، وفي الكبرى (٥٦٢٢) كلهم من طريق سعيد بن جبير به.

(٥) غَبَطَ فلانًا: تمنى مثل ما له من النعمة من غير أن يريد زوالها عنه. الوجيز ص (٤٤٥).

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١٧٨، ١٨٤)، ومسلم (٧/ ٩٧)، وأبو داود (٤٦٧٢)، والترمذي (٣٣٥٢)، والنسائي في الكبرى (١٥٧٤ تحفة) كلهم من طريق المختار بن فلفل به.

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٣١، ٣٣، ٤٠)، والبخاري (٣/ ١٥٨)، (٤/ ١٨٧)، (٦/ ٤٧)، (٩/ ١٦، ١٥٤)، ومسلم (٧/ ١٠٢)، وأبو داود (٤٦٦٨) كلهم من طريق عمرو بن يحيى المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري، يرفعه قال: «لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يُفيقُ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جُزِيَ بصعقة الطور».

صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة. وكذلك حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليَّ الخلق كلهم حتى إبراهيم» (١). ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولى العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أُمِرَ المصلى أن يقول في تشهده، ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره، قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد» (٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] قالوا: وَفَّى جميع ما أُمِرَ به، وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار.

قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن ابن طاووس عن أبيه، عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال: «ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد. في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والسواك، والاستنشاق، وفرق الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء». رواه ابن أبي حاتم. وقال: وروي عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك.

قلت: وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الفطرة خمس: الختان، والاسْتِحْدَاد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط» (٣).

وفي صحيح مسلم وأهل السنن من حديث وكيع، عن زكريا بن أبي زائدة، عن مصعب بن شيبة العبدري المكّي الحجبي، عن طلق بن حبيب العنزي، عن عبد الله بن الزبير، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الحميدي (٧١١)، (٧١٢)، وأحمد (٤/ ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٤)، وعبد بن حميد (٣٦٨)، والدارمي (١٣٤٨)، والبخاري (٤/ ١٧٨)، (٦/ ١٥١)، (٨/ ٩٥)، ومسلم (٢/ ١٦)، وأبو داود (٩٧٦)، (٩٧٧)، (٩٧٨)، وابن ماجه (٩٠٤)، والترمذي (٤٨٣)، والنسائي (٣/ ٤٨، ٤٧)، وفي الكبرى (١١١٩)، (١١٢٠)، (١١٢١)، وعمل اليوم والليلة (٥٤)، (٣٥٩) كلهم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى قال لقيني كعب بن عجرة فذكر الحديث.

(٣) أخرجه الحميدي (٩٣٦)، وأحمد (٢/ ٢٢٩، ٢٣٩، ٢٨٣، ٤١٠، ٤٨٩)، والبخاري (٧/ ٢٠٦)، (٨/ ٨١)، وفي الأدب المفرد (١٢٩٢)، ومسلم (١/ ١٥٢، ١٥٣)، وأبو داود (٤١٩٨)، وابن ماجه (٢٩٢)، والترمذي (٢٧٥٦)، والنسائي (١/ ١٣، ١٤، ١٥)، (٨/ ١٨١)، وفي الكبرى (٩)، (١١) كلهم من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة به.

وقص الأظفار، وغسل البَرَاجِم [١] ونتف الإبط وحلق العانة، وانتقاص الماء» [٢]. قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. قال وكيع: انتقاص الماء يعني: الاستنجاء. وسيأتي في ذكر مقدار عمره والكلام على الختان.

والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله عز وجل وخضوع العبادة العظيمة، عن مراعاة مصلحة بدنه، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين، وإزالة ما يشين [٣]، من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح [٤] أو وسخ. فهذا من جملة قوله تعالى في حقه من المدح العظيم: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

ذكر قصره في الجنة

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطي ومحمد بن موسى القطان قالا: حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد بن سلمة، عن سماك عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة قصرًا - أحسبه قال: من لؤلؤة - ليس فيه فَصْمٌ ولا وَهْيٌ أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلاً» [٥] قال البزار: وحدثنا أحمد بن جميل المروزي، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا حماد بن سلمة، عن سماك عن عكرمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه. ثم قال: وهذا الحديث لا نعلم من رواه عن حمَّاد بن سلمة فأسنده إلا يزيد بن هارون والنضر بن شميل، وغيرهما يرويه موقوفًا.

قلت: لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح. ولم يخرجوه.

ذكر صفة إبراهيم عليه السلام

قال الإمام أحمد: حدثنا يونس وحجين قالا: حدثنا الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عُرِضَ عليَّ الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شَنُوءَةَ، ورأيت عيسى ابن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبهًا عروة ابن مسعود، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبها دحية» [٦]. تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ.

وقال أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل، عن عثمان - يعني ابن المغيرة - عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم، فأما عيسى فأحمر جَعْدٌ [٧] عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم». قالوا له: فإبراهيم؟ قال: «انظروا إلى

---

(١) جمع برجمة بضم الباء والجيم وهي عقد الأصابع ومفاصلها كلها. شرح صحيح مسلم للنووي (٣/ ١٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٧)، ومسلم (١/ ١٥٣، ١٥٤)، وأبو داود (٥٣)، وابن ماجه (٢٩٣)، والترمذي (٢٧٥٧)، والنسائي (٨/ ١٢٦)، وابن خزيمة (٨٨) كلهم من طريق زكريا به.

(٣) يعيب ويقبح.

(٤) القلح: صفرة في الأسنان. الوجيز ص (٥٤٨).

(٥) كشف الأستار (٢٣٤٦). وهو ضعيف.

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٤)، وعبد بن حميد (١٠٤٥)، ومسلم (١/ ١٠٦)، والترمذي (٣٦٤٩) وفي الشمائل (١٣) كلهم من طريق الليث بن سعد به.

(٧) يقال جعد الشعر: اجتمع وتقبض والتوى. الوجيز ص (١٠٧).

صاحبكم»[1] يعني نفسه .

وقال البخاري : حدثنا بيان بن عمرو ، حدثنا النضر ، أخبرنا ابن عون ، عن مجاهد ، أنه سمع ابن عباس ، وذكروا له الدجال وأنه مكتوب بين عينيه كافر أو «ك ف ر» ، فقال : لم أسمعه ، ولكنه قال : قال ﷺ : «أما إبراهيم فانظروا إلي صاحبكم ، وأما موسى فجعدٌ آدَمُ على جملٍ أحمرِ مَخْطُومٍ[2] بِخُلْبَةٍ كأني أنظر إليه انحدر في الوادي»[3] .

ورواه البخاري أيضًا ومسلم ، عن محمد بن المثنى ، عن ابن أبي عدي ، عن عبد الله ابن عون به . وهكذا رواه البخاري[4] أيضًا في كتاب «الحج» وفي «اللباس» ومسلم ، جميعًا عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدي ، عن عبد الله بن عون به .

ذكر وفاة إبراهيم الخليل وما قيل في عمره

ذكر ابن جرير في تاريخه : أن مولده كان في زمن النمرود بن كنعان ، وهو - فيما قيل - الضحاك الملك المشهور ، الذي يقال له إنه ملك ألف سنة ، وكان في غاية الغشم[5] والظلم . وذكر بعضهم أنه من بني راسب الذي بعث إليهم نوح عليه السلام ، وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا ، وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر ، فهَالَ ذلك أهلَ ذلك الزمان ، وفزع النمرود ، فجمع الكهنة والمنجِّمين وسألهم عن ذلك ، فقالوا : يولد مولود في رعيَّتِك يكون زوال ملكك على يديه ، فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء ، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين ، فكان مولد إبراهيم الخليل في ذلك الحين ، فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الفجار ، وشب شبابًا باهرًا ، وأنبته الله نباتًا حسنًا ، حتى كان من أمره ما تقدم .

وكان مولده «بالسُّوس» وقيل «ببابل» وقيل «بالسواد» من ناحية «كوثى» وتقدم عند ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقي دمشق ، فلما أهلك الله نمرود على يديه هاجر إلى حران ، ثم إلى أرض الشام ، وأقام ببلاد إيليا كما ذكرنا ، وولد له إسماعيل وإسحاق . وماتت سارة قبله بقرية «حبرون» التي في أرض كنعان ، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب فحزن عليها إبراهيم عليه السلام ورثاها[6] رحمها الله ، واشترى من رجل من بني «حيث» يقال له : عفرون بن صخر - مغارةً بأربعمائة مثقال ، ودفن فيها سارة هنالك .

قالوا : ثم خطب إبراهيم على ابنه إسحاق فزوجه «رفقا» بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح ، وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريها على الإبل .

قالوا : ثم تزوج إبراهيم عليه السلام «قنطورا» فولدت له : زمران ، ويقشان ، ومادان ، ومدين ،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٦) به .
(٢) المخطوم : ما جعل له خطام يقاد به ، والخلبة : القطعة من الليف .
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٦ ، ٢٧٧) ، والبخاري (٢/ ١٧١) (٤/ ١٧٠) ، (٧/ ٢٠٨) ، ومسلم (١/ ١٠٦) كلهم من طريق عبد الله بن عون به .
(٤) السابق .
(٥) غشم : ظلم أشد الظلم . الوجيز ص (٤٥٠) .
(٦) يقال : رثى الميت بكاه بعد موته وعدد محاسنه . الوجيز ص (٢٥٥) .

وشياق، وشوح. وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا.

وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف، عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخبارًا كثيرة الله أعلم بصحتها. وقد قيل إنه مات فجأة، وكذا داود وسليمان. والذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك. قالوا: ثم مرض إبراهيم عليه السلام، ومات عن مائة وخمس وسبعين سنة وقيل وتسعين سنة، ودفن في المغارة المذكورة التي اشتراها بحبرون الحيثي عند امرأته سارة في مزرعة عفرون الحيثي، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد ورد ما يدل على أنه عاش مائتي سنة، كما قاله ابن الكلبي.

فقال أبو حاتم بن حبان في صحيحه: أنبأنا المفضل بن محمد الجندي بمكة، حدثنا على بن زياد اللخمي: حدثنا أبو قرة، عن ابن جريج، عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة» [1].

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق عكرمة بن إبراهيم وجعفر بن عون العمري، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد عن أبي هريرة موقوفًا.

ثم قال ابن حبان: ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر وهم: أخبرنا محمد بن عبد الله بن الجنيد، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث، عن ابن عجلان، عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «اختتن إبراهيم حين بلغ عشرين ومائة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة، واختتن بقدوم» [2].

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، عن أبيه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ وقد أتت عليه ثمانون سنة. ثم روى ابن حبان عن عبد الرزاق أنه قال: القدوم اسم القرية. قلت: الذي في الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة، وفي رواية: وهو ابن ثمانين سنة، وليس فيهما تعرض لما عاش بعد ذلك. والله أعلم. وقال محمد بن إسماعيل الحساني الواسطي: زاد في تفسير وكيع عنه فيما ذكر من الزيادات، حدثنا أبو معاوية، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: كان إبراهيم أول من تَسَرْوَلَ، وأول من فرق، وأول من اسْتَحَدَّ، وأول من اختتن بالقدوم، وهو ابن عشرين ومائة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة، وأول من قَرَىَ [3] الضيف، وأول من شاب. فكذا رواه موقوفًا. وهو أشبه بالمرفوع، خلافًا لابن حبان. والله أعلم.

وقال مالك عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: كان إبراهيم أول من أضاف الضيف، وأول الناس اختتن، وأول الناس قَصَّ شاربه، وأول الناس رأى الشيب. فقال: يا رب، ما

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٢٠٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/ ١٩٨).

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢٠٥).

(٣) يعني: أكرمه وأطعمه وقام بواجب ضيافته.

هذا؟ فقال الله: «وقار» فقال: يا رب، زدني وقارًا. وزاد غيرهما: وأول من قص شاربه، وأول من استحد، وأول من لبس السراويل.

فقبره وقبر ولده إسحاق وقبر ولد ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم. وهذا مُتَلَقى بالتواتر أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل، من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هذا، أن قبره بالمربعة تحقيقًا. فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن المعصوم. فينبغي أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها، وأن تبجل وأن تجل أن يُدَاسَ في أرجائها، خشيةَ أن يكون قبر الخليل أو أحد أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها.

وروى ابنُ عساكر بسنده إلي وهب بن منبه قال: وجد عند قبر الخليل على حجر كتابة خلقة:

أَلْهى جَهولا أملُه ... يموت مَنْ جاء أجلُه
ومَنْ دنا مِنْ حتفه ... لم تُغْنِ عنه حِيَلُه
وكيف يبقى آخر ... من مات عنه أوله
والمرء لا يصحبه ... في القبر إلا عملُه

ذكر أولاد إبراهيم الخليل

أول من ولد له: إسماعيل من هاجر القبطية المصرية، ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل، ثم تزوج بعدها «قنطورا» بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة: مدين، وزمران، وسرج، ويقشان، ونشق، ولم يُسَمَّ السادس، ثم تزوج بعدها «حجون» بنت أمين، فولدت له خمسة: كيسان، وسورج، وأميم، ولوطان، ونافس.

هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه «التعريف والأعلام».



قصة لوط عليه السلام

ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة: قصة لوط عليه السلام، وما حَلَّ بهم من النقمة العميمة. وذلك أن لوطًا بن هاران بن تارح وهو آزر كما تقدم - ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل، فإبراهيم وهاران وناحور إخوة كما قدمنا، ويقال: إن هاران هذا هو الذي بنى حَرَّان. وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب. والله تعالى أعلم.

وكان لوط قد نزح [1] عن محلة عمِّه الخليل (عليهما السلام) بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سَدوم من أرض غور زغر، وكان أَمَّ [2] تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقُرًى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية [3]، وأردئهم سريرة وسيرةً، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. ابتدعوا فاحشةً لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذُّكْران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين.

فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبحات، فتمادَوْا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خَلَدِهم وحسابهم، وجعلهم مُثْلة في العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين؛ ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غيرِ ما موضع في كتابه المبين.

فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ

---

(١) رحل وانتقل.
(٢) أي قصد وتوجَّه إلى تلك المنطقة.
(٣) أخلاقًا.

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٦٩-٨٣].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٥١-٧٧].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٧٥].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤-٥٨].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٣٢) وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا

كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٥].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٣-١٣٨].

وقال تعالى في سورة الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٧].

وقال في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٣-٤٠].

وقد تكلمنا عن هذه القصص في أماكنها من هذه السور في التفسير. وقد ذكر الله لوطًا وقومَه في مواضع أُخَرَ من القرآن [(١)]، وتقدم ذكرها مع نوح وعاد وثمود. والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم، وما أحلَّ الله بهم، مجموعًا من الآيات والآثار. والله المستعان.

وذلك أن لوطًا (عليه السلام) لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي [(٢)] ما ذَكَر اللهُ عنهم من الفواحش، لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجلٌ واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نُهُوا. بل استمروا على حالهم، ولم يَرْعَوُوا [(٣)] عن غَيِّهِمْ وضلالهم، وهموا بإخراج رسولهم من بين ظَهْرَانيهم.

وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم - إذ كانوا لا يعقلون - إلا أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]. فجعلوا غاية المدح ذمًّا يقتضي الإخراج، وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العنادُ واللجاج [(٤)]. فطهره الله وأهله إلا امرأته، وأخرجهم منها أحسنَ إخراج وتركهم في محلتهم خالدين، لكن بعد ما صَيَّرَها عليهم بُحيرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج، وحر يتوهج، وماؤها ملح أُجاج.

وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن ارتكاب الطامة العظمى، والفاحشة الكبرى، التي لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا. ولهذا صاروا مُثْلة [(٥)] فيها وعبرة لمن عليها.

---

(١) تكرر ذكر لوط في القرآن سبعًا وعشرين مرة.

(٢) يعني: عن فعل هذه الفواحش.

(٣) ارعوى عن الشيء: كَفَّ وارتدع. الوجيز ص (٢٦٩).

(٤) لج لجاجًا: تمادى في الخصومة. الوجيز ص (٥٥١).

(٥) مُثْلَة: جمع مَثُلات. قال تعالى: ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ أي: وقد مضت وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين. فعليكم أن تعتبروا بذلك وتحذروا أن يقع بكم مثل ما وقع بهم. وانظر تفسير السعدي ص (٣٦٨).

وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديهم - وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم - المنكرَ من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه. حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون في مجَالِسِهم، ولا يستحون من مجالسيهم، وربما وقع منهم الفعلة العظمية في المحافل ولا يستنكفون، ولا يرعوون لوعظِ واعظٍ ولا نصيحةِ من عاقل. وكانوا في ذلك وغيرِه كالأنعام بل أضل سبيلاً، ولم يُقلِعوا عما كانوا عليه في الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضي، ولا راموا في المستقبل تحويلاً، فأخذهم الله أخذًا وبيلاً.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿أَئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩]فطلبوا منه وقوعَ ما حذرهم عنه من العذاب الأليم، وحلول البأسَ العظيم. فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريمُ، فسأل مِنْ رب العالمين وإلهِ المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين. فغارَ اللهُ لِغَيْرَتِه، وغضِبَ لغضبته، واستجاب لدعوته، وأجاب إلى طِلْبته وبعث رسله الكرام، وملائكته العظام، فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٣١-٣٤]. وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ۝ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣١-٣٢].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤]وذلك أنه كان يرجو أن يجيبوا أو ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٥-٧٦]أي أعرضْ عن هذا وتكلَّمْ غيرَه، فإنه قد حتم أمرهم، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم، ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود:٧٦]أي قد أمر به مَنْ لا يُرَدّ أمْرُه، ولا يُرَدُّ بأسه، ولا مُعَقِّبَ لحكمه. ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٦].

وذكر سعيد بن جبير والسدي وقتادة ومحمد بن إسحاق: أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن قالوا: لا. قال: فمائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: فأربعون مؤمنًا؟ قالوا: لا. قال: فأربعة عشر مؤمنًا؟ قالوا: لا. قال ابن إسحاق: إلى أن قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ﴾ [العنكبوت:٣٢] الآية.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود:٧٧].

قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم - وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل - أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم، في صور شبان حسان، اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط وإقامةً للحجة عليهم، فاستضافوا لوطًا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس، فخشى إنْ لم يُضيفهم: أنْ يضيفهم غيره، وحسبهم بشرًا من الناس، و ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود:٧٧].

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق: شديد بلاؤه. وذلك لما يعلم من مُدَافعته الليلةَ عنهم، كما كان يصنع بهم في غيرهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدًا. ولكن رأى من لا يمكن المحيدُ عنه. وذكر قتادة: أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها، فَتَضَيَّفُوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم، وجعل يُعَرِّضُ لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون في غيرها، فقال لهم فيما قال: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهلَ بلد أخبثَ مِنْ هؤلاء. ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال: وكانوا قد أُمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السُّدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيمَ نحو قرية لوط، فأتوها نصفَ النهار، فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان: اسم الكبرى «ريثا» والصغرى «زغرتا» فقالوا لها: يا جارية، هل من منزل؟ فقالت لهم: نعم، مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم؛ شفقةً عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه، أرادك فتيانٌ على باب المدينة، ما رأيتُ وجوهًا قَطُّ هي أحسنُ منهم، ولا يأخذهم قومك فيفضحوهم. وقد كان قومه نَهَوْه أن يضيف رجلاً فقالوا: خَلِّ عنا فلنضيف الرجال. فجاء بهم، فلم يعلم أحد إلا أهل البيت، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، قالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوهم قط. فجاءه قومه يُهْرَعُون إليه.

وقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ٧٨]. أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] يرشدهم إلى غشيان نساءهم وهنَّ بناتٌ شرعًا، لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد، كما ورد في الحديث (١)، وكما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦] وفي قول بعض الصحابة والسلف: وهو أبٌ لهم.

وهذا كقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع ابن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق، وهو الصواب.

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب، وقد تصحف عليهم كما أخطأوا في قولهم: إن الملائكة كانوا اثنين، وإنهم تعشوا عنده، وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطًا عظيمًا.

وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] نهيٌ لهم عن تعاطى ما لا يليق بالفاحشة، وشهادةٌ عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مُسْكَة (٢) ولا فيه خير بل الجميع سفهاء، فَجَرة أقوياء، كفرة أغبياء. وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه. فقال قومه (عليهم لعنة الله الحميد المجيد) مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد:

---

(١) يشير إلى حديث ابي هريرة مرفوعًا: «إنما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم...». أخرجه الحميدي (٩٨٨)، وأحمد (٢/ ٢٤٧، ٢٥٠)، والدارمي (٦٨٠)، ومسلم (١/ ١٥٤)، وأبو داود (٨)، وابن ماجه (٣١٢)، (٣١٣)، والنسائي (١/ ٣٨)، وابن خزيمة (٨٠) كلهم من طريق القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة به.

(٢) المُسْكَةُ: العقل الوافر والرأي. الوجيز ص (٥٨٢).

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:٧٩] يقولون - عليهم لعائن الله - لقد علمتَ يا لوط أنه لا أَرَبَ (١) لنا في نسائنا، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا. واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم، ولم يخافوا سطوة العظيم، ذي العذاب الأليم. ولهذا قال عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠] وَدَّ أنْ لو كان له بهم قوة. أو له مَنَعَة وعشيرة ينصرونه عليهم، لِيُحِلَّ بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب. وقد قال الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثتُ في السجن ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي»(٢). ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجلَّ - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه» (٣).

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر:٦٧-٧١] فأمرهم بقربان نسائهم، وحذرهم الاستمرارَ على طريقتهم وسيئاتهم. هذا - وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعوون - بل كلما نهاهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضِّيفانِ ويحرصون، ولم يعلموا ما حم به القدر مما هم إليه صائرون، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون. ولهذا قال تعالى مُقْسِمًا بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر:٣٦-٣٨] ذكر المفسرون وغيرهم: أن نبي الله لوطًا (عليه السلام) جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق، وهم يرومون فَتْحَه وولوجَه، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب، وكل ما لهم في إلحاح وإنحاح، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠] لأحللت بكم النكال. قالت الملائكة: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود:٨١] وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطُمِسَتْ أعينهم، حتى قيل: إنها غارت بالكلية ولم يَبْقَ لها محل ولا عينٌ ولا أثر، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن، ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأن، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ

---

(١) يعني: لا حاجة. انظر مختار الصحاح ص (١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٦)، والبخاري (٤/ ١٧٩)، (٦/ ٣٩، ٩٧)، ومسلم (١/ ٩٢)، (٧/ ٩٧)، وابن ماجه (٤٠٢٦) كلهم من طريق يونس بن يزيد عن أبي شهاب به.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢، ٣٤٦، ٣٨٤، ٣٨٩، ٤١٦، ٥٣٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٥)، (٨٩٦)، والترمذي (٣١١٦)، والنسائي في الكبرى (١١/ ١٥٠٨١ تحفة) كلهم من طريق محمد بن عمرو به.

﴿صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر :٣٧-٣٨].

فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليه السلام آمرين له بأن يَسْرِيَ هو وأهله من آخر الليل ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود:٨١]، يعني عند سماع صوت العذاب إذا حَلَّ بقومه، وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم. وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود:٨١] على قراءة النصب: يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود:٨١] كأنه يقول إلا امرأتك فلا تَسْرِ بها، ويحتمل أن يكون من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود:٨١] أي فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم، ويقوى هذا الاحتمالَ قراءةُ الرفع، ولكن الأول أظهر في المعنى. والله أعلم. قال السهيلي، واسم امرأة لوط «والهة» واسم امرأة نوح «والغة».

وقالوا له مبشرين له بهلاك هؤلاء البغاة العتاة، الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفًا لكل خائن مريب: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١].

فلما خرج لوط عليه السلام بأهله، وهم ابنتاه، لم يتبعه منهم رجل واحد، ويقال: إن امرأته خرجت معه. والله أعلم. فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها، جاءهم من أمر الله ما لا يُرَدّ، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يُصَدَّ.

وعند أهل الكتاب: أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذي هناك فاستبعده، وسأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم، فقالوا: اذهب فإنا ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها، ثم نُحِلُّ بهم العذاب، فذكروا أنه ذهب إلى قرية «صوعر» التي يقول الناس: غور زغر، فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٢-٨٣].

قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهنّ - وكن سبع مدن - بمن فيهم من الأمم، فقالوا: إنهم كانوا أربعمائة نسمة، وقيل: أربعة آلاف نسمة، وما معهم من الحيوانات، وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها. قال مجاهد: فكان أول ما سقط منها شرفاتها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] والسجيل فارسي معرب: وهو الشديد الصلب القوي، ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي يتبع بعضها بعضًا في نزولها عليهم من السماء، (مسومة) أي مُعَلَّمَة مكتوبٌ على كل حجر اسمُ صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه [(١)]. كما قال: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات:٣٤].

وكما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم:٥٣-٥٤] يعني: قَلَبَهَا فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل: متتابعة، مسومة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه، من

(١) دمغ فلانًا: غلبه وعلاه. الوجيز ص (٢٣٤).

الحاضرين منهم في بلدهم، والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها. ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديمًا وحديثًا، وقالت: وَا قَوْمَاهُ، فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها، إذ كانت على دينهم، وكانت عينًا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان.

كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[التحريم:١٠] أي خانتاهما في الدين فلم يتبعاهما فيه، وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة - حاشا وكلا ولما - فإن الله لا يُقَدِّرُ على نبي قط أن تبغى امرأته، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: ما بَغَتْ امرأة نبي قط، ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأً كبيرًا.

وقال الله تعالى في قصة الإفك، لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق، زوج رسول الله ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا: فعاتب الله المؤمنين وأَنَّبَ وأزجر، ووعظ وحذر. وقال فيما قال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[النور:١٥-١٦] أي سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة.

وقوله هنا: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود:٨٣] أي وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم. ولهذا ذهب مَنْ ذهب مِنْ العلماء إلى أنَّ اللائط يرجم، سواء أكان محصنًا أو لا، ونص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة. واحتجوا أيضًا بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١).

وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يُلْقى من شاهقِ جبلٍ ويُتْبَعُ بالحجارة كما فُعِلَ بقوم لوط، لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود:٨٣].

وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا يُنتفع بمائها، ولا بما حولها من الأرض المتاخِمة(٢) لفنائها، لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومُثْلة وعِظَة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله، واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الشعراء:١٧٤-١٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٩، ٣٠٠)، وعبد بن حميد (٥٧٥)، وأبو داود (٤٤٦٢، ٤٤٦٤)، وابن ماجه (٢٥٦١، ٢٥٦٤)، والترمذي (١٤٥٥)، (١٤٥٦)، والنسائي في الكبرى (٢١٧٦ تحفة) كلهم من طريق عكرمة به.

(٢) يعني: المجاورة.

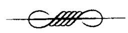
ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر :٧٣-٧٧] أي من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهِلَةً عامرة: هالكة غامرة؟ كما روى الترمذي وغيره مرفوعًا: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[١] ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر :٧٥].

وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر :٧٦] أي لَبِطَريق مهيأ مسلوك إلى الآن. كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات :١٣٧-١٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت :٣٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات :٣٥-٣٧] أي تركناها عبرة وعِظَة لمن خاف عذاب الآخرة، وخشي الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فانزجر من محارم الله وتَرَكَ معاصيه، وخاف أن يُشَابه قوم لوط. ومن تشبه بقوم فهو منهم، وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه[٢]، كما قال بعضهم:

فإن لم تكونوا قومَ لوط بعينهم فما قومُ لوطٍ منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه، يمتثل ما أمره الله عز وجل، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خُلِقَ له من الزوجات الحلال، والجواري من السراري ذوات الجمال، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيدُ. ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود :٨٣].



(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) قال: حدثنا محمد بن إسماعيل، قال: حدثنا أحمد بن أبي الطيب، قال: حدثنا مصعب بن سلام، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد فذكره مرفوعًا. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٢٧)، وانظر السلسلة الضعيفة (١٨٢١).

(٢) يعني: إن لم يكن يشبههم في جميع الصفات فهو يشبههم في بعضها.

قصة مدين قوم شعيب عليه السلام

قال تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٣].

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٨٤-٩٥].

وقال في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضا: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩].

وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ

وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٩١].

كان أهل مدين قومًا عربًا يسكنون مدينتهم (مدين) التى هى قريبة من أرض معان من أطراف الشام، مما يلى ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عُرِفَت بهم، وهم من بنى مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل. وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن. وذكره ابن إسحاق. قال: ويقال له بالسريانية «يترون» وفى هذا نظر.

ويقال: شعيب بن يشخر بن لاوى بن يعقوب، ويقال: شعيب بن صفر بن عيفا ابن ثابت بن مدين بن إبراهيم، وقيل غير ذلك فى نسبه. قال ابن عساكر: ويقال: جدتُه - ويقال: أمه - بنت لوط.

وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق. وعن وهب بن منبه أنه قال: شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أُحرق بالنار، وهاجر معه إلى الشام، فزوجهما بنتى لوط عليه السلام. ذكره ابن قتيبة. وفى هذا كله نظر. والله تعالى أعلم.

وذكر أبو عمر بن عبد البر فى «الاستيعاب»[١] فى ترجمة سلمة بن سعد العنزى: أنه قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وانتسب إلى عنزة، فقال: «نعم الحى عنزة، مَبْغِيٌّ عليهم منصورون، رهطُ شعيب، وأَخْتَان موسى». فلو صح هذا لدل على أن شعيبًا صهر موسى وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال: لهم عنزة، لأنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فإن هؤلاء بعده بدهر طويل. والله أعلم.

وفى حديث أبى ذر الذى فى صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسل قال: «أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر»[٢]. وكان بعض السلف يُسمى شعيبًا «خطيب الأنبياء» يعنى لفصاحته وعلوّ عبارته وبلاغته فى دعاية قومه إلى الإيمان برسالته.

وقد روى ابن إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا قال: «ذاك خطيب الأنبياء»[٣].

وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها. وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون[٤] المكيال والميزان، ويطففون[٥] فيها، ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص. فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو

---

(١) الاستيعاب (٢/ ٦٤٤)، وهو حديث ضعيف. (٢) سبق تخريجه.
(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٦٨)، وهو حديث ضعيف. (٤) ينقصون. الوجيز ص (٣٨).
(٥) طَفَّفَ على فلان: أعطاه أقل مما أخذ منه. وطفف المكيال ونحوه: بخسه ونقصه. الوجيز ص (٣٩٢).

رسول الله شعيب - عليه السلام - فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم فى سُبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم، وكفر أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولى الحميد. كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]أى دلالة وحجة واضحة، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلنى، وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التى لم يُنْقَلْ إلينا تفصيلُها، وإن كان هذا اللفظ قد دخل عليها إجمالاً.

﴿إن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ﴾ [الأعراف: ٨٥] أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم، وتوعدهم على خلاف ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦]أى: طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦] أى تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتُخِيفون السُّبل. قال السدى فى تفسيره عن الصحابة: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦]أنهم كانوا يأخذون العشور [١]من أموال المارة.

وقال ابن إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كانوا قومًا طغاة يجلسون على الطريق، يعنى يعشرونهم، وكانوا أول من سن ذلك.

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية، والمعنوية الدينية: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]ذكَّرهم بنعمة الله تعالى عليهم فى تكثيرهم بعد القلة وحذرهم نقمة الله بهم إنْ خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه.

كما قال لهم فى القصة الأخرى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]أى لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق الله بركة ما فى أيديكم، ويُفْقِركم ويُذْهِب ما به يغنيكم. وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة، ومن جُمِعَ له هذا وهذا، فقد باء بالصفقة الخاسرة.

فنهاهم أولا عن تعاطى ما لا يليق من التطفيف، وحذرهم سَلْبَ نعمة الله عليهم فى دنياهم، وعذابه الأليم فى أُخراهم، وعنفهم أشدَّ تعنيف. ثم قال لهم آمرًا بعد ما كان عن ضده زاجرًا: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٥-٨٦].

قال ابن عباس والحسن البصرى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦]أى رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس. وقال ابن جرير: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان: خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف. قال: وقد رُوى هذا عن ابن عباس. وهذا الذى قاله وحكاه حسن، وهو

(١) يعني: عشر ما معهم.

شبيه بقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠] يعنى أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام، فإن الحلال مبارك وإن قل، والحرام ممحوق [١] وإن كثر.

كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الربا وإن كثر فإنَّ مصيره إلى قلّ» [٢] رواه أحمد. أى إلى قِلة.

وقال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإنْ صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحِقت بركةُ بيعهما» [٣]. والمقصود: أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام لا يجدى وإن كثر. ولهذا قال نبى الله شعيب: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود:٨٦].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود:٨٦] أى افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه، لا لأراكم أنا وغيرى

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم [٤]: أصلاتك هذه التى تصليها، هى الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك؟ ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون؟ أو ألا نتعامل إلا على الوجه الذى ترتضيه أنت، ونترك المعاملات التى تأباها وإن كنا نحن نرضاها؟ ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير: يقولون ذلك أعداءُ الله على سبيل الاستهزاء.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨] هذا تلطف معهم فى العبارة، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة.

يقول لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ [هود:٨٨] أيها المكذبون ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [هود:٨٨] أى على أمر بيِّن من الله تعالى أنه أرسلنى إليكم ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود:٨٨] يعنى النبوة والرسالة، يعنى وعَمِيَ عليكم معرفتها، فأىُّ حيلة لى فيكم؟ وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء.

وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨] أى لست آمركم بالأمر إلا وأنا أولُ فاعلٍ له، وإذا نهيتكم عن الشىء فأنا أول من يتركه. وهذه الصفة المحمودة العظيمة، وضدها هى المردودة الذميمة، كما تَلَبَّسَ بها علماء بنى إسرائيل فى آخر زمانهم، وخطباؤهم الجاهلون.

---

(١) يعني: ليس فيه بركة. ومحق الله العمل أذهب بركته. انظر الوجيز ص (٥٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥، ٤٢٤)، وابن ماجه (٢٢٧٩) كلاهما عن الركين بن الربيع عن أبيه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ما أحدٌ أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة».

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٣٤)، والدارمي (٢٥٥٠)، (٢٥٥١)، والبخاري (٣/ ٧٦، ٨٣، ٨٤)، ومسلم (٥/ ١٠)، وأبو داود (٣٤٥٩)، والترمذي (١٢٤٦)، والنسائي (٧/ ٢٤٤،٢٤٧) كلهم من طريق عبد الله بن الحارث عن حكيم بن حزام فذكره مرفوعًا. والحديث مروي عن غيره من الصحابة.

(٤) تهكم عليه: اشتد غضبه، والمتهكم: المتكبر. انظر مختار الصحاح ص (٦٩٦).

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤] وذكرنا عندها [١] في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق [٢] أقتاب [٣] بطنه أي تخرج أمعاؤه من بطنه فيدور بها كما يدور الحمار برَحَاه، فيجمع أهل النار فيقولون: يا فلان. ما لكَ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه. وأنهى عن المنكر وآتيه».

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء، فأما السادة من النجباء، والألباء من العلماء، الذين يخشون ربهم بالغيب، فحالهم كما قال نبي الله شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨] أي ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ [هود:٨٨] أي: في جميع أحوالي ﴿إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨] أي عليه أتوكل في سائر الأمور، وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري. وهذا مقامُ ترغيب. ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩]. أي لا يحملنكم مخالفتي وبُغْضُكم ما جئتكم به: على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم، فيُحِلُّ الله بكم من العذاب والنكال، نظيرَ ما أحله بنظرائكم وأشباهكم، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩] قيل معناه: في الزمان، أي ما بالعهد من قدم، مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم. وقيل معناه: وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان. وقيل في الصفات والأفعال المستقبحات، من قطع الطريق وأخذ أموال الناس جَهرة وخُفية بأنواع الحيل والشبهات. والجمع بين هذه الأقوال ممكن: فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانًا ولا مكانًا ولا صفات.

ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠] أي: أقلعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود، فإنه من تاب إليه تاب عليه، فإنه ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده، أرحم بهم من الوالدة بولدها: ﴿وَدُودٌ﴾ وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده، ولو من الموبقات العظام. ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود:٩١]. روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهم قالوا: كان ضرير البصر. وقد رُوي في حديث مرفوع: أنه بكى من حب الله حتى عَمِيَ، فرد الله عليه بصره، وقال: «يا شعيب. أتبكي خوفًا من النار؟ أو من شوقك إلى الجنة؟ فقال: بل من محبتك، فإذا نظرت إليك فلا أبالي ماذا يُصْنع بي. فأوحى الله إليه: هنيئًا لك يا شعيب لقائي، فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي» [٤]. رواه

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٨١ – ٨٣). (٢) اندلق الشيء: اندفع من مكانه. الوجيز ص (٢٣٢).

(٣) أقتاب جمع قِتْب: المِعَى، وما استدار من البطن. القاموس المحيط ص (١٥٧).

(٤) منكر: قال الذهبي في الميزان في ترجمة إسماعيل بن علي بن المثنى الواعظ: هذا حديث باطل لا أصل له.

الواحدى عن أبى الفتح محمد بن على الكوفي، عن على بن الحسن ابن بندار، عن أبي عبد الله محمد بن إسحاق الرملي، عن هشام بن عمار، عن إسماعيل ابن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن شداد بن أوس، عن النبي ﷺ بنحوه. وهو غريب جدًا، وقد ضعفه الخطيب البغدادي. وقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١]. هذا من كفرهم البليغ، وعنادهم الشنيع، حيث قالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]. أي ما نفهمه ولا نعقله، لأنا لا نحبه ولا نريده، وليس لنا همة إليه، ولا إقبالٌ عليه. وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ[1] مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت:٥].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود:٩١] أي مضطهدًا مهجورًا. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ [هود:٩١] أي قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [هود:٩٢] أي تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعُونني بسببهم، ولا تخافون عذاب الله؟ ولا تراعوني لأني رسول الله؟ فصار رهطي أعز عليكم من الله ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود:٩٢] أي جانب الله وراء ظهوركم ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود:٩٢] أي هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه، محيط بذلك كله، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود:٩٣] هذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد، بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك والبوار: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود:٩٣] أي فى هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٩٣] أي: فى الآخرة ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ [هود:٩٣] أي منا ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر. ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود:٩٣] هذا كقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧].

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ۝ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩]. طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم، فانتصب شعيبٌ للمحاجة[2] عن قومه فقال: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨] أي هؤلاء لا يعودون إليك اختيارًا، وإنما يعودون إليكم إن عادوا، اضطرارًا مكرهين، وذلك لأن الإيمان إذا خالطتْ بشاشتُه القلوب لا يَسْخطه أحدٌ، ولا يرتد أحد عنه، ولا محيدَ لأحد منه.

ولهذا قال: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف:٨٩] أي فهو كافينا، وهو العاصم لنا وإليه

(١) أكنة جمع كنان: وهي الأغطية. وكن الشيء: ستره وصانه. مختار الصحاح ص (٥٨٠).
(٢) يعني: للمجادلة.

مَلْجأنا فى جميع أمرنا .

ثم استفتح على قومه ، واستنصر ربه عليهم فى تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال : ﴿رَبَّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف :٨٩] أى الحاكمين . فدعا عليهم ، والله لا يردُّ دعاءَ رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه ، ورسولَه خالفوه . ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون ، وبه متلبسون : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف :٩٠] .

قال الله تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف :٩١] ذكر فى سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة ، أى رجفت بهم أرضهم ، وزُلزلت زلزالاً شديدًا أزْهَقَتْ أرْوَاحَهُم من أجسادهم ، وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها ، وأصبحت جثثهم جاثية ، لا أرواح فيها ولا حركات بها ، ولا حواس لها . وقد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات ، وصنوفًا من المَثُلات ، وأشكالاً من البَليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط الله عليهم رجفةً شديدةً أسكتت الحركات ، وصيحةً عظيمة أخمدت الأصوات ، وظُلةً أُرسل عليهم منها شررُ النار من سائر أرجائهم والجهات .

ولكنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها ، فى سياق قصة الأعراف أرجفوا بنبي الله وأصحابه ، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودون فى ملتهم راجعين . فقال تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف :٩١] فقابل الإرجافَ بالرجفة ، والإخافةَ بالخيفة ، وهذا مناسب لهذا السياق . ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما فى سورة هود : فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ؛ وذلك لأنهم قالوا لنبى الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود :٨٧] فناسب أن يذكر الصيحة التى هى كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح ، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح ، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم .

وأما فى سورة الشعراء : فذكر أنه أخذهم عذابُ يوم الظلة ، وكان ذلك إجابة لما طلبوا ، وتقريبًا إلى ما إليه رغبوا . فإنهم قالوا : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء :١٨٥-١٨٨] .

قال الله تعالى وهو السميع العليم : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء :١٨٩] ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره : أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين ، فقوله ضعيف . وإنما عمدتهم شيئان :

أحدهما : أنه قال : ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء :١٧٦-١٧٧] .

ولم يقل أخوهم كما قال : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف :٨٥] . والثانى : أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة .

والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦] لأنه وصفهم بعبادة الأيكة [١]، فلا يناسب ذكر الأخوة هاهنا. ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم. وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان. وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن. فأما الحديث الذى أورده الحافظ ابن عساكر فى ترجمة النبى شعيب عليه السلام، من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن شقيق بن أبى هلال، عن ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهم شعيبًا النبى عليه السلام» [٢]. فإنه حديث غريب. وفى رجاله مَنْ تكلَم فيه. والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين [٣] من أخبار بنى إسرائيل. والله أعلم

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف فى المكيال والميزان، فدل على أنهم أمة واحدة، أُهلِكوا بأنواع من العذاب. وذكر فى كل موضع ما يناسب من الخطاب.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ذكروا أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم فى الأسراب [٤]، فهربوا من محلتهم إلى البَرِّيَّة [٥]، فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيها أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢] ونجى الله شعيبًا ومن معه من المؤمنين. كما قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤-٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٠-٩٢]. وهذا فى مقابلة قولهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

---

(١) الأيك: الشجر الكثير الملتف، الواحدة أيكة. فمن قرأ: «أصحاب الأيكة» فهي الغيضة، ومن قرأ «أصحابُ لَيْكَةَ» فهي اسم القرية وقيل هي مثل بكة ومكة. مختار الصحاح ص (٣٦).

(٢) لم أقف عليه في تاريخ دمشق لابن عساكر. وهو بهذا الإسناد: منكر.

(٣) الزاملة: التي يحمل عليها من الإبل وغيرها. القاموس المحيط ص (١٣٠٦).

(٤) جمع مفرده: السَّرَبُ: حَفيرٌ تحت الأرض لا منفذ له. الوجيز ص (٣٠٧).

(٥) البَرِّيَّةُ: الصحراء، جمعها براري.

ثم ذكر تعالى عن نبيهم : أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخًا ومؤنبًا ومُقرّعًا ، فقال تعالى : ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف :٩٣] أى أعرض عنهم موليًا عن محلتهم بعد هلكتهم قائلاً : ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف :٩٣] أى قد أديت ما كان واجبًا عليَّ من البلاغ التام والنصح الكامل ، وحَرصْتُ على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه ، فلم ينفعكم ذلك ؛ لأن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين ، فلستُ أتأسف بعد هذا عليكم ، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ، ولا تخافون يوم الفضيحة ؛ ولهذا قال : ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ [الأعراف :٩٣] أى : أحزن ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف :٩٣] أى لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ولا يلتفتون إليه فحل بهم من بأس الله الذى لا يرد ما لا يُدْفَع ولا يمانع ، ولا محيد لأحد أُرِيد به عنه ، ولا مناصَ عنه .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس : أن شعيبًا عليه السلام كان بعد يوسف (عليه السلام) . وعن وهب بن منبه : أن شعيبًا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين ، وقبورهم غربى الكعبة بين دار الندوة ودار بنى سهم .

باب ذكر ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام

تمهيد :

قد قدمنا قصته مع قومه وما كان من أمرهم، وما آل إليه أمره عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام.

وذكرنا ما وقع فى زمانه من قصة قوم لوط. وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام، لأنها قرينتها فى كتاب الله عز وجل فى مواضع متعددة، فذكر تعالى بعد قصة قوم لوط، قصةَ مدين، وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا، فذكرناها تبعًا لها؛ اقتداء بالقرآن العظيم.

ثم نشرع الآن فى الكلام على تفصيل ذرية إبراهيم عليه السلام، لأن الله جعل فى ذريته النبوةَ والكتابَ، فكل نبى أرسل بعده فمن ولده.

ذكر إسماعيل عليه السلام

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا، ولكن أشهرهم الأَخَوان النبيان العظيمان الرسولان، أَسَنُّهما وأجلُّهما - الذى هو الذبيح على الصحيح - إسماعيلُ بكر إبراهيم الخليل مِنْ «هاجر» القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل. ومن قال: إن الذبيح هو إسحاق، فإنما تلقاه من نَقَلَة بنى إسرائيل الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل، وخالفوا ما بأيديهم فى هذا من التنزيل، فإن إبراهيم أُمِرَ بذبح ولده البكر، وفى رواية: الوحيد.

وأيًا ما كان فهو إسماعيل بنص الدليل، ففى نص كتابهم: أن إسماعيل وُلد ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، وإنما وُلد إسحاق بعد مُضِيّ مائة سنة من عمر الخليل، فإسماعيل هو البكر لا محالة، وهو الوحيد صورةً ومعنًى على كل حال.

أما فى الصورة، فإنه كان ولده أزيد من ثلاث عشرة سنة، وأما أنه وحيد فى المعنى، فإنه هو الذى هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر، وكان صغيرًا رضيعًا - فيما قيل - فوضعهما فى وهاد[1] جبال فاران، وهى الجبال التى حول مكة - نِعْمَ المقيل - وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل، وذلك ثقة بالله وتوكلاً عليه، فحاطهما الله تعالى بعنايته وكفايته، فنعم الحسيب والكافي والوكيل والكفيل. فهذا هو الولد الوحيد فى الصورة والمعنى. ولكن أين من يتفطن لهذا السر وأين مَنْ يَحُلُّ بهذا المحل؟ والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيه نبيل، وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد، والمحافظة على الصلاة، والأمر بها لأهله ليقيهم العذابَ، مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب.

قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٢] فطاوع أباه

---

(١) وِهاد جمع وَهْدَة، والوهدة الأرض المنخفضة. القاموس المحيط ص (٤١٨).

على ما إليه دعاه، ووعده بأنه سيصبر، فوفى بذلك وصبر على ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٤-٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٥-٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء:٨٥-٨٦]

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء:١٦٣].

وقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة:١٣٦]. ونظيرتها من السورة الأخرى.

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠]. فذكر الله عنه كل صفة جميلة، وجعله نبيه ورسوله، وبرأه من كل ما نَسَبَ إليه الجاهلون، وأَمَرَ بأن يؤمن بما أنزل عليه، عبادَه المؤمنين.

وذكر علماء النسب وأيام الناس: أنه أول من ركب الخيل، وكانت قبل ذلك وحوشًا فأنسها وركبها. وقد قال سعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه: حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز، عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «اتخذوا الخيل واعتقبوها، فإنها ميراث أبيكم إسماعيل» [(١)].

وكانت هذه العراب وحوشًا فدعا لها بدعوته التى كان أعطى فأجابته. وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل.

قال الأموى: حدثنى على بن المغيرة: حدثنا أبو عبيدة، حدثنا مسمع بن مالك، عن محمد بن على بن الحسين، عن آبائه، عن النبى ﷺ أنه قال: «أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيلُ، وهو ابن أربع عشرة سنة» [(٢)] فقال له يونس: صـ ت يا أبا سيار، هكذا أبو جرى حدثنى.

وقد قدمنا أنه تزوج - لما شب - امرأةً من العماليق، وأن أباه أمره بفراقها ففارقها، قال الأموى: وهى عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقى، ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها. فاستمر بها، وهى السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى، قيل: هذه ثالثة، فولدت له اثنى عشر ولدًا ذكرًا، وقد سماهم محمد بن إسحاق رحمه الله وهم: نابت، وقيدر، وازبل، وميشى، ومسمع،

---

(١) إسناده ضعيف: فيه شيخ الأموي، وهو مبهم وعبد الملك بن عبد العزيز لم يدرك ابن عمرو.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (٦/ ٤٦٤): إسناده حسن. وعزاه إلى الزبير بن بكار في النسب. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٨١).

وماش، ودوصا، وأورر، ويطور، ونبش، وطيما، وقيذما . وهكذا ذكرهم أهل الكتاب فى كتابهم . وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيمًا المبشر بهم، المتقدم ذكرهم وكذبوا فى تأوليهم ذلك .

وكان إسماعيل عليه السلام رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما والاها، من قبائل جُرْهم والعماليق وأهل اليمن، صلوات الله وسلامه عليه . ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق، وزَوَّج ابنته «نسمة» من ابن أخيه «العيص» بن إسحاق، فولدت له الروم، ويقال لهم: بنو الأصفر - لصفرة كانت فى العيص - وولدت له اليونان فى أحد الأقوال، ومن ولد العيص الأشبان قيل: منهما أيضًا . وتوقف ابن جرير رحمه الله .

ودُفن نبى الله إسماعيل بالحجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم مات مائة وسبعًا وثلاثين سنة

ورُوى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حَرَّ مكة، فأوحى الله إليه: إنى أفتح لك بابًا من الجنة إلى الموضع الذى تُدْفن فيه . تجرى عليك روحُها إلى يوم القيامة . وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه: نابت، وقيدار .

ذكر إسحاق بن إبراهيم الكريم ابن الكريم عليهما الصلاة والسلام

قد قدمنا أنه وُلِد ولأبيه مائةُ سنةٍ بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة، وكان عمر أمه سارة حين بُشِّرت به تسعين سنة . قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات:١١٢-١١٣] .

وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه فى غير ما آية من كتابه العزيز . وقدمنا فى حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[(١)] .

وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج «رفقا» بنت بتوابيل فى حياة أبيه، كان عمره أربعين سنة، وأنها كانت عاقرًا فدعا الله لها فحملت، فولدت غلامين توأمين: أولهما: سموه «عيصو» وهو الذى تسميه العرب «العيص» وهو والد الروم . والثانى: خرج، وهو آخذٌ بِعَقِبِ أخيه فسَمَّوهُ «يعقوب» وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل .

قالوا: وكان إسحاق يحب «عيصو» أكثر من يعقوب، لأنه بِكْرُه، وكانت أمهما «رفقا» تحب يعقوب أكثر، لأنه الأصغر . قالوا: فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه «العيص» طعامًا، وأمره أن يذهب فيصطاد له صيدًا ويطبخه له، ليبارك عليه ويدعو له، وكان العيص صاحب صيد، فذهب يبتغى ذلك، فأمرت «رفقا» ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه، ويصنع منهما طعامًا كما اشتهاه أبوه، ويأتى إليه به قبل أخيه ليدعو له، فقامت فألبسته ثياب أخيه، وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين، لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك . فلما جاء به وقربه إليه قال: من أنت؟ قال: ولدك . فضمه إليه وجسه وجعل يقول: أما الصوت فصوت يعقوب، وأما

---

(١) سبق تخريجه .

الجس والثياب فالعيص. فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدرًا، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده، وأن يكثر رزقه وولده.

فلما خرج مِنْ عنده جاء أخوه العيص بما أمره والده فقربه إليه، فقال له، ما هذا يا بنى؟ قال: هذا الطعام الذى اشتهيتَه، فقال: أمَا جئتنى به قبل ساعة وأكلتُ منه ودعوتُ لك؟ فقال: لا والله، وعَرَف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك، فوجد فى نفسه عليه وَجْدًا كثيرًا. وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما، وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى، أن يجعل لذريته غليظ الأرض، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم. فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوبَ، أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها «لابان» الذى بأرض حران، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضبُ أخيه، وأن يتزوج من بناته، وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له. ففعل.

فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم، فأدركه المساء فى موضع فنام فيه، وأخذ حجرًا فوضعه تحت رأسه ونام، فرأى فى نومه ذلك معراجًا منصوبًا من السماء إلى الأرض، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون، والرب تبارك وتعالى يخاطبه، ويقول له: «إنى سأبارك عليك وأُكْثِرُ ذريتك، وأجعل لك هذه الأرضَ ولعقبك من بعدك».

فلما هَبَّ من نومه فرح بما رأى، ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالمًا ليبنين فى هذا الموضع معبدًا لله عز وجل، وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عُشْرُه. ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنًا يتعرفه به، وسَمَّى ذلك الموضع: «بيت إيل» أى بيت الله، وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتى.

قالوا: فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران، إذا له ابنتان: اسم الكبرى: «ليا» واسم الصغرى: «راحيل» وكانت أحسنهما وأجملَهما فطلب زواجها، فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى غنمه سبع سنين.

فلما مضت المدة على خاله «لابان» صنع طعامًا وجمع الناس عليه، وزف إليه ليلاً ابنته الكبرى «ليا» وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر. فلما أصبح يعقوب إذا هي «ليا» فقال لخاله: غدرتَ بى؟ وأنت إنما خطبتُ إليك راحيل. فقال: إنه ليس من سنتنا أن نُزَوج الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببتَ أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها. فعمل سبعَ سنين وأدخلها عليه مع أختها - وكان ذلك سائغًا فى ملتهم - ثم نُسِخَ في شريعة التوراة. وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ ؛ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليلٌ على جواز هذا وإباحتِه، لأنه معصوم، ووهب «لابان» لكل واحدة من ابنتيه جارية، فوهب لـ «ليا» جارية اسمها زلفى ووهب لـ «راحيل» جارية اسمها بلهى. وجبر الله تعالى ضعف «ليا» بأن وهب لها أولادًا، فكان أول من ولدت ليعقوب، روبيل، ثم شمعون، ثم لاوى، ثم يهوذا، فغارت عند ذلك «راحيل» وكانت لا تحبل، فوهبت ليعقوب جاريتها بلهى فوطئها فحملت وولدت له غلامًا سمته «دان» وحملت وولدت غلامًا آخر سمته «نيفتالي» فعمدت عند ذلك «ليا» فوهبت جاريتها «زلفى» ليعقوب عليه السلام فولدت له: جاد، وأشير، غلامين ذكرين، ثم

حملت «ليا» أيضا فولدت غلامًا خامسًا منها وسمته «ايساخر» ثم حملت وولدت غلامًا سادسًا سمته «زابلون» ثم حملت وولدت بنتا سمتها «دينا» فصار لها سبعة من يعقوب. ثم دعت الله تعالى «راحيل» وسألته أن يهب لها غلامًا من يعقوب فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها، فحملت من نبي الله يعقوب، فولدت له غلامًا عظيمًا شريفًا حسنًا جميلاً سمته «يوسف». كل هذا وهم مقيمون بأرض حران، وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى، فصار مدة مقامه عشرين سنة. فطلب يعقوب من خاله «لابان» أن يُسَرِّحَه ليمر إلى أهله، فقال له خاله: إني قد بورك لي بسببك فسلني من مالي ما شئت. فقال: تعطيني كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع [١]، وكل حمل ملمح أبيض بسواد، وكل أملح ببياض، وكل أجلح أبيض من المعز. فقال: نعم. فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس، لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم.

قالوا: فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز ولب، فكان يقشرها بلقًا وينصبها في مساقي الغنم من المياه، لتنظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها في بطونها، فتصير ألوان حملانها كذلك. وهذا يكون من باب خوارق العادات، وينتظم في سلك المعجزات. فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد، وتغير له وَجْهُ خاله وبنيه، وكأنهم انحصروا منه. وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه، ووعده بأن يكون معه، فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته، فتحمل بأهله وماله، وسرقت راحيل أصنام أبيها. فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم، لحقهم «لابان» وقومه فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه، وهَلاَّ أعلمه؟، فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول، وحتى يودع بناته وأولادهن. ولم أخذوا أصنامه معهم؟ ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه، فأنكر أن يكون أخذوا له أصنامًا فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئًا، وكانت راحيل قد جعلتهن في بذغة الجمل وهي تحتها، فلم تقم، واعتذرت بأنها طامث [٢]. فلم يقدر عليهن. فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها أنه «جلعاد» على أن لا يهين بناته، ولا يتزوج عليهن، ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر، لا لابان ولا يعقوب، وعمل طعامًا وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر، وتفارقوا راجعين إلى بلادهم.

فلما اقترب يعقوب من أرض «ساعير» تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم. وبعث يعقوب البرد [٣] على أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له. فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليه في أربعمائة راجل. فخشي يعقوب من ذلك، ودعا الله عز وجل وصلى له، وتضرع إليه وتمسكن لديه، وناشده عهده ووعده الذي وعده به. وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص، وأعد لأخيه هدية عظيمة وهي: مائتا شاة، وعشرون تيسًا، ومائتا نعجة، وعشرون كبشًا، وثلاثون لقحة، وأربعون

(١) بقع الجلد يبقَع بقعا: خالط لونَه لونٌ آخر، فهو أبقع. الوجيز ص (٥٨).
(٢) يعني: حائض.
(٣) جمع بريد، وهو الرسول يرسله برسالة يعلم بها من بَعُدَ عنه ما يريد.

بقرة، وعشرة من الثيران، وعشرون أتانًا، وعشرة من الحمر، وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده. وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة، فإذا لقيهم العيص فقال للأول: من أنت؟ ولمن هذا معك؟ فليقل: لعبدك يعقوب، أهداها لسيدى العيص، وليقل الذى بعده، وكذا الذي بعده، ويقول كل منهم: وهو جاءٍ بعدنا.

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأَمَتَيْه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين، جعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهارًا، فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية، تبدَّى له مَلَكٌ من الملائكة فى صورة رجل، فظنَّه يعقوبُ رجلاً من الناس، فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه، فظهر [١]عليه يعقوبُ فيما يرى، إلا أن الملك أصاب وَرِكَهُ فعرج يعقوب، فلما أضاء الفجر قال له الملك: ما اسمك؟ قال: يعقوب. قال: لا ينبغى أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل.

فقال له يعقوب: ومن أنت؟ وما أسمك؟ فذهب عنه. فعلم أنه ملكٌ من الملائكة، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله. فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء!.

ورفع يعقوبُ عينَهُ، فإذا أخوه عيصو قد أقبل فى أربعمائة راجل [٢]، فتقدم أمام أهله. فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات، وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان. وكان مشروعا لهم، كما سجدت الملائكةُ لآدمَ تحيةً له، وكما سجد إخوة يوسف وأبوه كما سيأتي. فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقَبَّلَهُ وبكى، ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان فقال: من أين لك هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين وهب الله لعبدك، فدنت [٣]الأمتان وبنوهُما فسجدوا له. ودنت «ليا» وبنوها فسجدوا له، ودنت «راحيل» وابنها يوسف فَخَرَّا سُجَّدًا له. وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها. ورجع العيص فتقدم أمامه، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشى والعبيد قاصدين جبال «ساعير».

فلما مر بساحور ابتنى له بيتًا، ولدوابه ظلالا، ثم مر على أورشليم قرية شخيم فنزل قبل القرية، واشترى مزرعة شخيم بن جمور بمائة نعجة، فضرب هنالك فسطاطه، وابتنى مذبحًا فسماه «إيل» إله إسرائيل وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه. وهو بيت المقدس اليوم، الذى جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام. وهو مكان الصخرة التى علمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك، كما ذكرنا أولاً.

وذكر أهل الكتاب هنا قصة «دينا» بنت يعقوب بنت «ليا» وما كان من أمرها مع شخيم بن جمور الذى قهرها على نفسها، وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وإخوتها، فقال إخوتها: إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا، فإنا لا نصاهر قومًا قُلْفًا [٤]، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم. فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان، مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا شخيما وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم، مضافًا إلى كفرهم، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم،

---

(١) غلبه.
(٢) يمشي على رجليه.
(٣) دنا: اقترب.
(٤) الأقلف: هو الذي لم يختتن.

فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة .

ثم حملت راحيل فولدت غلامًا وهو «بنيامين» إلا أنها جهدت في طلقها به جهدًا شديدًا وماتت عقيبه، فدفنها يعقوب في «أفراث»وهي بيت لحم، وصنع يعقوب على قبرها حجرًا، وهي الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم، وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلاً :

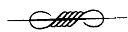
فَمِنْ «ليا» : روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وإيساخر، وزابلون .

ومن «راحيل» : يوسف، وبنيامين .

ومن أَمَة «راحيل» : دان، ونيفتالي .

ومن أمةِ «ليا» : جاد، وأشير عليهم السلام .

وجاء يعقوب إلي أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التي في أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم، ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها كما قدمنا .



ذكر ما وقع من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل
فمن ذلك: قصة يوسف ابن راحيل عليه السلام

(الجزء الأول)

وقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم. ليتدبر ما فيها من الحِكَم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ١-٣].

وقد تكلمنا على الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة [١]، فمن أراد تحقيقه فلينظره ثَمَّ، وتكلمنا على هذه السورة مستقصىً في موضعها من التفسير [٢]. ونحن نذكر هاهنا نبذًا مما هناك على وجه الإيجاز والنجاز.

وجملة القول في هذا المقام: أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، بلسان عربي فصيح، بَيِّن واضح جلي، يفهمه كلُّ عاقل ذكي، فهو أشرفُ كتاب نزل من السماء، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان، بأفصح لغة وأظهر بيان.

فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه، ودمغ الباطل وزيفه ورده. وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع وأوضح المناهج، وأبْيَنُ حكمًا وأعدل حكمًا. فهو كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]. يعني صدقًا في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي. ولهذا قال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]. أي: بالنسبة لما أوحي إليك فيه.

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]. وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ۝٩٩ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ [طه: ٩٩-١٠١]. يعني: من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد. كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذي عن أمير المؤمنين على، مرفوعًا وموقوفًا: «من ابتغى الهدى في غيره أضله الله» [٣]. وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا هشام، أنبأنا مجالد

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٣٤ - ٣٧).
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٨ - ٤٨٠).
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٩١)، والدارمي (٣٣٣٤)، (٣٣٣٥)، والترمذي (٢٩٠٦) كلهم من طريق الحارث الأعور عن علي به. وقال الألباني في تخريجه لأحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص ٧١): هذا حديث جميل المعنى، ولكن إسناده ضعيف فيه الحارث الأعور، وهو لين، بل اتهمه بعض الأئمة بالكذب، ولعل أصله موقوف على علي - رضي الله

عن الشعبي، عن جابر: أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ قال: فغضب، وقال: «أتتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني» [(١)]. إسناده صحيح. ورواه أحمد من وجه آخر عن عمر وفيه، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين» [(٢)]. وقد أوردتُ طرقَ هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف [(٣)].

وفي بعضها: أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال في خطبته: «أيها الناس. إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصارًا، وقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا، ولا يغرنكم المتهوكون» [(٤)]. ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفًا حرفًا.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٤-٦]. قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولدًا ذكرًا، وسميناهم، وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام.

وقد ذهب طائفةٌ من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره، وباقي إخوته لم يوح إليهم. وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول. ومن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران: ٨٤]. وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي، لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل، وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء. والله أعلم.

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة، أنه ما نص على واحد من إخوته سواه، فدل على ما ذكرناه. ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن، عن عبد الله بن دينار، عن أبيه عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» [(٥)]. انفرد به البخاري، فرواه عن عبد الله بن محمد وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث به. وقد ذكرنا طرقه في قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته هنا. ولله الحمد والمنة.

عنه - فأخطأ الحارث فرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ضعفه مخرجه الترمذي نفسه فقال: «لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال».

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٨، ٣٨٧)، والدارمي (٤٤١) كلاهما من طريق خالد به.

(٢) السابق.

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٩).

(٤) ذكره ابن كثير في تفسيره، وحسنه الألباني في بمجموع طرقه.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٩٦)، والبخاري (٤/ ١٨١، ١٨٤)، (٦/ ٩٥)، كلاهما من طريق عبد الصمد به.

قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف - عليه السلام - وهو صغير قبل أن يحتلم، كأن ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف:٤]، وهم إشارة إلى بقية إخوته ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [يوسف:٤] وهما عبارة عن أبويه، قد سجدوا له، فهاله ذلك. فلما استيقظ قصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلةً عاليةً ورِفْعَةً عظيمةً في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها وألاَّ يقصها على إخوته، كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل [١] ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر، وهذا يدل على ما ذكرناه. ولهذا جاء في بعض الآثار: «استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود» [٢]. وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معًا، وهو غلط منهم.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف:٦] أي: وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة، فإذا كتمتها ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف:٦] أي: يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦] أي: يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [يوسف:٦] أي بالوحي إليك ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٦] أي بسببك ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة. ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف:٦] أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة، كما أعطاها أباك يعقوب، وجدك إسحاق، ووالد جدك إبراهيم الخليل، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف:٦]، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل: أي الناس أكرم؟ قال: «يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله».

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما، وأبو يعلى والبزار في مسنديهما، من حديث الحكم بن ظهير وقد ضعفه الأئمة عن السدي، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود يقال له: بستانة اليهودي، فقال: يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء، ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها. قال: فبعث إليه رسول الله ﷺ فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟» قال: نعم، فقال: «هي جريان، والطارق، والديال، وذو الكتفان، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفيلق، والمصبح، والضروح، وذو الفرع، والضياء، والنور» [٣]. فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها.

وعند أبي يعلى: فلما قصها على أبيه قال: هذا أمر مشتت يجمعه الله، والشمس أبوه، والقمر أمه.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۞ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ

---

(١) الغوائل جمع غائلة والغائلة: الداهية.

(٢) رمز له السيوطي بأنه رواه العقيلي في الضعفاء، وابن عدي في الكامل والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان كلهم عن معاذ بن جبل، ورواه الخرائطي في اعتلال القلوب عن عمر، والخطيب البغدادي عن ابن عباس، والخلعي في فوائده عن علي، ورواه ابن حبان والسهمي عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٤٣)، وانظر الصحيحة (١٤٥٣).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١١٣٣٢)، والبزار (كشف الأستار) (٢/ ٢٢٢٠)، والحاكم (٤/ ٣٩٦).

أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف :٧-١٠].

ينبه تعالى على ما فى هذه القصة من الآيات والحِكَم، والدلالات والمواعظ والبينات. ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه يعنون شقيقه لأمه بنيامين أكثر منهم، وهم عصبة، أي: جماعة، يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة مِنْ هذين ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف :٨]أي بتقديمه حبهما علينا.

ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف، أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها، ليخلو لهم وجه أبيهم: أي لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم، وأضمروا التوبة بعد ذلك.

فلما أجمعوا أمرهم على ذلك واتفقوا عليه: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ [يوسف :١٠]قال مجاهد: هو شمعون، وقال السدي: هو يهوذا، وقال قتادة ومحمد بن إسحاق: هو أكبرهم روبيل ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف :١٠]أي المارة من المسافرين ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف :١٠]ما تقولون لا محالة، فليكن هذا الذى أقول لكم. فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه. فأجمعوا رأيهم على هذا، فعند ذلك. ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [يوسف: ١١-١٤].

طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينبسط، وقد أضمروا له ما الله به عليم. فأجابهم الشيخ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم: يا بَنِيَّ. يشق عليَّ أن أفارقه ساعة من النهار، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه، فيأتي الذئب فيأكله، ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه.

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [يوسف :١٤]أي: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة، إنا إذًا لخاسرون، أى: عاجزون هالكون. وعند أهل الكتاب: أنه أرسله وراءهم يتبعهم، فضل عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم، وهذا أيضًا من غلطهم وخطئهم فى التعريب، فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم، فكيف يبعثه وحده؟!.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف :١٥-١٨] لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم، فما كان إلا أن غابوا عن عينيه، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، وأجمعوا على إلقائه فى غيابة الجب، أي: في قعره على راعونته، وهي الصخرة التي تكون فى وسطه يقف عليها «الماتح» وهو الذي ينزل ليملأ الدلاء إذا قل الماء، والذى يرفعها بالحبل يسمى «الماتح».

فلما ألقوه فيه، أوحى الله إليه: أنه لا بد لك من فَرَجٍ ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها، ولتخبرنَّ إخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز، وهم محتاجون إليك خائفون منك، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:١٥].

قال مجاهد وقتادة: وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك. وعن ابن عباس: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها، رواه ابن جرير عنه.

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه، أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دم، ورجعوا إلى أبيهم عشاءً وهم يبكون، أي على أخيهم.

ولهذا قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باكٍ!، وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون، أي: في ظلمة الليل، ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ [يوسف:١٧]أي: ثيابنا ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٧]أي في غيبتنا عنه في استباقنا. وقولهم: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]أي ما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له، ولو كنا غير متهمين عندك، فكيف وأنت تتهمنا في هذا؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب، وضمنا لك ألا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مصدقين عندك، فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه.

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨]أي مكذوب مفتعل، لأنهم عمدوا إلى سخلة ذبحوها، فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه، ليوهموه أنه أكله الذئب. قالوا: ونسوا أن يخرقوه، وآفةُ الكذبِ النسيان. ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يَرُجْ صنيعُهُم على أبيهم، فإنه كان يفهم عداوتهم له، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره لما يريد الله أن يخصه به من نُبُوَّتِهِ. ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه، وغيبوه عن عينيه وجاءوا وهم يتباكون، وعلى ما تمالئوا عليه يتواطئون. ولهذا: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨] وعند أهل الكتاب: أن روبيل أشار بوضعه في الجب ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة. فلما جاء روبيل من آخر النهار ليخرج يوسف لم يجده، فصاح وشق ثيابه، وعمد أولئك إلى جدى فذبحوه، ولطخوا من دمه جبة يوسف، فلما علم يعقوب شق ثيابه، ولبس مئزرًا أسود وحزن على ابنه أيامًا كثيرة، وهذه الركاكة جاءت من خطئهم في التعبير والتصوير.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝٢٠ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:١٩-٢٢].

يخبر الله تعالى عن قصة يوسف حين وُضِعَ في الجب، أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به،

فجاءت سيارة [١]، أي: مسافرون. قال أهل الكتاب: كانت بضاعتهم فى الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من الشام، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف. فلما رآه ذلك الرجل ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾ [يوسف:١٩] أى: يا بشارتى ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ [يوسف :١٩] أي أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:١٩] أي هو عالم بما تمالأ عليه إخوته، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم، ومع هذا لا يغيره الله تعالى، لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر، بما يُجْري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها فى صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يُمَلِّكهُ زمامَ الأمور، وينفعهم الله به فى دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف.

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم، وقالوا هذا غلامنا أبق منا، فاشتروه منهم بثمن بخس، أى: قليل نزر، وقيل هو الزيف: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف :٢٠]. قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفى: باعوه بعشرين درهمًا. اقتسموها درهمين، درهمين وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهما. وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق: أربعون درهمًا. والله أعلم. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف:٢١] أى: أحسنى إليه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف:٢١] وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة. قالوا: وكان الذى اشتراه من أهل مصر عزيزَهَا وهو الوزير بها، الذى الخزائن مُسَلَّمَةٌ إليه.

قال ابن إسحاق: واسمه إطفير بن روحيب، قال: وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق، قال: واسم امرأة العزيز: «راعيل» بنت رماييل. وقال غيره: كان اسمها «زليخا» والظاهر أنه لقبها. وقيل «فكا» بنت ينوس، رواه الثعلبي عن ابن هشام الرفاعى. وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب عن أبي صالح، عن ابن عباس: كان اسم الذى باعه بمصر- يعنى الذى جلبه إليها - مالك بن زعر بن نويت بن عفقا بن مديان بن إبراهيم. فالله أعلم. وقالُ ابن إسحاق عن أبى عبيدة عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حيث قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف:٢١] والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]. وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. ثم قيل: اشتراه العزيز بعشرين دينارًا، وقيل بوزنه مسكًا ووزنه حريرًا ووزنه وَرِقًا. فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف:٢١] أى وكما قَيَّضْنَا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه، ويعتنيان به، مكنا له فى أرض مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٢١] أى فهمها، وتعبير الرؤيا من ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١] أى إذا أراد شيئًا فإنه يُقَيِّضُ له أسبابًا وأمورًا لا يهتدى إليها العباد. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

(١) السيارة: القافلة. الوجيز ص (٣٣١).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف :٢٢]فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشُد [(١)]، وهو حد الأربعين الذي يوحي الله فيه إلى عباده النبيين، عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين. وقد اختلفوا فى مدة العمر الذى هو بلوغ الأشد، فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبى: هو الحلم. وقال سعيد بن جبير: ثمانى عشرة سنة. وقال الضحاك: عشرون سنة، وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة، وقال السدى: ثلاثون سنة. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة. وقال الحسن: أربعون سنة، ويشهد له قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف :١٥].

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف :٢٣-٢٩]

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي فى غاية الجمال والمال، والمنصب والشباب، وكيف غلقتِ الأبوابَ عليها وعليه. وتهيأت له وتصنعت، ولبست أحسنَ ثيابها وأفخر لباسها، وهى مع هذا كله امرأة الوزير. قال ابن إسحاق: وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر. وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء، المذكورون فى الصحيحين عن خاتم الأنبياء، فى قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل مُعَلَّقٌ قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله» [(٢)].

والمقصودُ أنها دَعَتْهُ إليها وحرصت على ذلك أشدَّ الحرص، فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ [يوسف

(١)الأَشُدُّ: الاكتمال، يقال: بلغ أشده: اكتمل وبلغ قوته. الوجيز ص (٣٣٨).

(٢)أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٩)، والبخاري (١/ ١٦٨)، (٢/ ١٣٨)، (٨/ ١٢٥، ٢٠٣)، ومسلم (٣/ ٩٣)، والترمذي (٢٣٩١)، والنسائي (٨/ ٢٢٢)، وابن خزيمة (٣٥٨) كلهم من طريق عبيد الله بن عمر عن خبيب بن عبد الرحمن الأنصاري عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة فذكره مرفوعًا، وأخرجه مالك في موطئه (٥٩١)، ومسلم (٣/ ٩٣) والترمذي (٢٣٩١) كلهم من طريق مالك عن خبيب عن حفص عن أبي سعيد الخدري، أو عن أبي هريرة فذكره.

:٢٣]يعنى زوجها صاحب المنزل، سيدى ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف :٢٣]أى أحسن إلىَّ وأكرم مقامي عنده ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف :٢٣]وقد تكلمنا على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف :٢٤]بما فيه كفاية ومقنع فى التفسير [1]. وأكثر أقوال المفسرين هاهنا مُتَلَقَّى من كتب أهل الكتاب، فالإعراض عنه أولى بنا. والذى يجب أن يعتقد: أن الله تعالى عصمه وبَرَّأَهُ، ونزهه عن الفاحشة، وحماه عنها، وصانه منها، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف :٢٤].

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ [يوسف :٢٥]أى هرب منها طالبًا الباب ليخرج منه فرارًا منها، فاتبعته فى أثره ﴿وَأَلۡفَيَا﴾ [يوسف :٢٥]أى: وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ [يوسف :٢٥]أى زوجها ﴿لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ [يوسف: ٢٥]فبدرته بالكلام وحرضته عليه ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يوسف :٢٥]اتهمته وهى المتهمة، وبَرَّأَتْ عرضها، ونزهت ساحتها، فلهذا قال يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ [يوسف :٢٦]احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف :٢٦]قيل: كان صغيرا فى المهد. قاله ابن عباس، وروى عن أبى هريرة وهلال بن يساف والحسن البصرى وسعيد بن جبير والضحاك، واختاره ابن جرير وروى فيه حديثًا عن ابن عباس، ووقفه غيره عنه. وقيل: كان رجلاً قريبًا إلى «قطفير» بعلها، وقيل: قريبًا إليها، وممن قال إنه كان رجلاً: ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم. فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف :٢٦]أى: لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قَدَّت مقدم قميصه. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف :٢٧]أى لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك، وكذلك كان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يوسف :٢٨]أى هذا الذى جري من مَكْرِكُنَّ، أنتِ راودتيه عن نفسه، ثم اتهمتيه بالباطل. ثم اضرب بَعْلُهَا عن هذا صفحا فقال: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ [يوسف :٢٩] أي لا تذكره لأحد، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها، والتوبة إلى ربها، فإن العبدَ المذنب إذا تاب إلى الله تاب الله عليه.

وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام، إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له فى ذلك، ولهذا قال لها بَعْلُهَا، وعذرها من بعض الوجوه، لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله، إلا أنه عفيف نزيه برئ العِرْضِ سليم الناحية [2]، فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف :٢٩].

﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٦).

(٢) يعني: سليم الجانب والجهة. الوجيز ص (٦٠٦).

إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٠-٣٤].

يذكر الله تعالى ما كان من قِبَل نساء المدينة، من نساء الأمراء وبنات الكبراء فى الطعن على امرأة العزيز وعيبها، والتشنيع عليها فى مراودتها فتاها، وحبها الشديد له، وهو لا يساوي هذا، لأنه مولى من الموالي وليس مثله أهلاً لهذا، ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠] أى فى وضعها الشئ فى غير محله ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ [يوسف: ٣١] أي: بتشنيعهن عليها والتنقص لها، والإشارة إليها بالعيب والمذلة بحب مولاها وعشق فتاها، فأظهرن ذمًا وهي معذورة في نفس الأمر، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن، ولا من قبيل ما لديهن، فأرسلت إليهن، فجمعتهن في منزلها، وأعتدت لهن ضيافة مثلهن، وأحضرت في جملة ذلك شيئًا مما يقطع بالسكاكين، كالأترج ونحوه، وآتت كل واحدة منهن سكينًا، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام، وألبسته أحسن الثياب وهو فى غاية طراوة الشباب وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ [يوسف: ٣١] أى أعظمنه وأجللنه وهِبْنَهُ، وما ظنن أن يكون مثل هذا فى بني آدم، وبَهَرَهُنَّ حُسْنُه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يَحْزِزن فى أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وقد جاء فى حديث الإسراء: «فمررت بيوسف وإذا هو قد أُعطى شطر [(١)] الحُسْنِ» [(٢)].

قال السهيلي وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حُسْنِ آدم عليه السلام، لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحُسْنِ البشري، ولهذا يدخل أهل الجنة الجنةَ على طول آدم وحُسْنِه ويوسف كان على النصف من حُسْنِ آدم. ولم يكن بينهما أحسن منهما، كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام. قال ابن مسعود: وكان وجه يوسف مثل البرق، وكانت إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه. وقال غيره: كان فى الغالب مبرقعًا لئلا يراه الناس. ولهذا لما قام عَذْرَ امرأة العزيز فى محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهن وعليهن ما جرى، من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين، وما رَكِبَهُنَّ من المهابة والدهشة عند رؤيته ومعاينته

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢] ثم مدحته بالعفة التامة فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أى: امتنع ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته، فأبى أشد الإباء، ونأى؛ لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال فى دعائه لرب العالمين: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]. يعنى: إن وكلتنى إلى نفسي، فليس لى من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسى نفعا ولا ضرًا إلا ما شاء الله، فأنا ضعيف إلا ما قويتني

(١) الشَّطْرُ: نصف الشيء، ويستعمل في الجزء منه. الوجيز ص (٣٤٣).
(٢) سبق تخريجه.

وعصمتني وحفظتني، وحِطْتَني بحولك وقوتك.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٣٤-٤١].

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم ﴿بَدَا لَهُم﴾ [يوسف: ٣٥]، أي ظهر لهم من الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت، ليكون ذلك أقل لكلام الناس فى تلك القضية، وأحمد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلما وعدوانًا. وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم. ومن ها هنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعي: أن من العصمة ألا تجد.



قصة يوسف ابن راحيل عليه السلام

الجزء الثاني

قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾ [يوسف:٣٦]قيل: كان أحدهما ساقي الملك واسمه فيما قيل «بنوا» والآخر خبازه، يعني: الذى يلى طعامه، وهو الذى يقول له الترك «الجاشنكير» واسمه فيما قيل «مجلث» وكان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما. فلما رأيا يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه، ودَلُّهُ [١]وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه، قال أهل التفسير: رأيا فى ليلة واحدة. أما الساقي فرأى كأن ثلاثة قضبان من حَبْلَةٍ [٢]، وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب، فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه. ورأى الخباز كأن على رأسه ثلاث سلال من خبز، وضواري الطيور تأكل من السل الأعلى. فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦] فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ﴾ [يوسف:٣٧]قيل: معناه مهما رأيتما من حلم فإني أعبره لكم قبل وقوعه ليكون كما أقول. وقيل: معناه أني أخبركم بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلوًا وحامضًا، كما قال عيسى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْۚ﴾ [آل عمران:٤٩]. وقال لهما: إن هذا من تعليم الله إياي، لأني مؤمن به موحد له، متبع ملة آبائي الكرام: إبراهيم الخليل، وإسحاق، ويعقوب. ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:٣٨]أي بأن هدانا لهذا، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف:٣٨]أي: بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه وهو في فطرهم مركوز، وفي جبلتهم مغروز. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٨].

ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل، وصغر أمر الأوثان، وحقرها، وضَعَّفَ أمرها، فقال: ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠]أي: هو المتصرف في خلقه، الفعال لما يريد، الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [يوسف:٤٠]أي: وحده لا شريك له ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف:٤٠]أي: المستقيم والصراط القويم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠]أي: فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره. وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال، لأن نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه.

---

(١)الدَّلُّ: قريب المعنى من الهَدْي، وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك، وفي الأثر: «كان أصحاب عبد الله يرحلون إلى عمر رضي الله عنه فينظرون إلى سمته وهديه ودله»فيتشبهون به». مختار الصحاح ص (٢٠٩).

(٢)الحَبْلَة: القضيب من الكرم. العنب. الوجيز ص (١٣٢).

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال: ﴿يَصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف:٤١]قالوا: وهو الساقي ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ [يوسف:٤١] قالوا: وهو الخباز ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١]أي وقع هذا لا محالة، ووجب كونه على كل حالة. ولهذا جاء في الحديث: «الرؤيا على رجل طائر [1]ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت» [2].

وقد رُوِيَ عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهما قالا: لم نر شيئًا، فقال لهما: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١].

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢]يخبر تعالى أن يوسف عليه السلام قال: للذي ظنه ناجيا منهما وهو الساقي: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢]يعني اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك. وفى هذا دليل على جواز السعي فى الأسباب، ولا ينافى ذلك التوكلَ على رب الأرباب. وقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٤٢]أى فأنسى الناجِيَ منهما الشيطانُ أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام. قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد. وهو الصواب، وهو منصوص أهل الكتاب. ﴿فَلَبِثَ﴾ [يوسف:٤٢]يوسف ﴿فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢]والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل إلى السبع، وقيل: إلى الخمس، وقيل: إلى ما دون العشرة: حكاها الثعلبى، ويقال بضع نسوة وبضعة رجال. ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر. قال: وإنما يقال نيف وقال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢]، وقال تعالى: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم:٤]وهذا رد لقوله. قال الفراء: ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين، ولا يقال: بضع ومائة، وبضع وألف. وخالف الجوهري فيما زاد على بضعة عشر، فمنع أن يقال بضع وعشرون إلى تسعين. وفى الصحيح: «الإيمان بضع وستون شعبة» وفى رواية: «وسبعون شعبة، وأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» [3].

---

(١)«الرؤيا على رجل طائر»، أي: هي كشيء معلق برجله لا استقرار لها. «وتعبر»: بالبناء للمجهول وتخفيف الباء في أكثر الروايات أي ما لم تفسر. فإذا عبرت وقعت تلك الرؤيا، بمعنى أنه يلحق الرائي أو المرئيّ له حكمها. قال في النهاية: يريد أنها سريعة السقوط إذا عبرت، كما أن الطير لا يستقر غالبًا فكيف يكون ما على رجله. وقال في جامع الأصول: كل حركة من كلمة أو شيء يجري لك فهو طائر. يقال: اقتسموا دارًا وطار سهم فلان في ناحية كذا، أي خرج وجرى. والمراد أن الرؤيا على رجل قدر جار وقضاء ما من خير أو شر، وهي لأول عابر يحسن تعبيرها. فيض القدير (٤/ ٤٦).

(٢)أخرجه أحمد (٤/ ١٠، ١٢، ١٣)، والدارمي (٢١٥٤)، وأبو داود (٥٠٢٠)، وابن ماجه (٣٩١٤)، والترمذي (٢٢٧٨)، (٢٢٧٩) كلهم من طريق يعلي بن عطاء، قال: سمعت وكيع بن عدس عن عمه أبي رزين لقيط بن عامر فذكره مرفوعًا. وأخرجه أحمد (٤/ ١١). عن أبي رزين لقيط بن عامر عن عمه فذكره مرفوعًا. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٥)، وانظر الصحيحة (١٢٠).

(٣)أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٩، ٤١٤، ٤٤٢، ٤٤٥)، والبخاري (١/ ٩)، وفي الأدب المفرد (٥٩٨)، ومسلم (١/ ٤٦)، وأبو داود (٤٦٧٦)، وابن ماجه (٥٧)، والترمذي (٢٦١٤)، والنسائي (٨/ ١١٠) كلهم من طريق عبد الله

ومن قال: إن الضمير فى قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٤٢] عائد على يوسف فقد ضعف ما قاله، وإن كان قد روى عن ابن عباس وعكرمة. والحديثُ الذى رواه ابن جرير فى هذا الموضع ضعيفٌ من كلِّ وجهٍ، تفرد بإسناده إبراهيم ابن يزيد الخورى المكى وهو متروك. ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل، ولا ها هنا بطريق الأولى والأحرى. والله أعلم.

فأما قول ابن حبان فى صحيحه عند ذكر السبب الذى من أجله لبث يوسفُ فى السجن ما لبث: أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحى، حدثنا مسدد بن مسرهد، حدثنا خالد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله يوسف لولا الكلمة التى قالها ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢] ما لبث فى السجن ما لبث، ورحم الله لوطًا إن كان ليأوى إلى ركن شديد، إذ قال لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠]، قال: فما بعث الله نبيًّا بعده إلا فى ثروة من قومه» [1]. فإنه حديث منكر من هذا الوجه. ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة. وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها والذى فى الصحيحين يشهد بغلطها. والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٤٣-٤٩].

هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام، وذلك أن ملك مصر، وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، رأى هذه الرؤيا. قال أهل الكتاب: رأى كأنه على حافة نهر، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان، فجعلن يرتعن فى روضة هناك، فخرجت سبع بقرات هزال ضعاف من ذلك النهر، فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن، فاستيقظ مذعورًا، ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة واحدة، وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن، فاستيقظ مذعورًا. فلما قصها على مَلَئِهِ وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها، بل ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يوسف:٤٤] أى أخلاط أحلام من الليل، لعلها لا تعبير لها، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك. ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف:٤٤] فعند ذلك تذكر الناجى منهما، الذى وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا،

بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة فذكره مرفوعًا.

(١) أخرجه ابن حبان (٦٢٠٢) وهو حديث منكر.

وذلك من تقدير الله عز وجل وله الحكمة فى ذلك . فلما سمع رؤيا الملك ، ورأى عجز الناس عن تعبيرها ، تذكر أمر يوسف ، وما كان أوصاه به من التذكار .

ولهذا قال تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ﴾ [يوسف :٤٥] أى : تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [١] أى بعد مدة من الزمان ، وهو بضع سنين . وقرأ بعضهم كما حُكِىَ عن ابن عباس وعكرمة والضحاك : «وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ» أى بعد نسيان ، وقرأها مجاهد : «بَعْدَ أَمْهٍ» بإسكان الميم . وهو النسيان أيضًا . يقال أمه الرجل يأمه أمَهًا وأمْهًا ، إذا نسى . قال الشاعر :

أَمَهتُ وكنتُ لا أَنسَى حديثًا   كذاك الدهر يزرى بالعقول

فقال لقومه وللملك : ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف :٤٥] أى فأرسلونى إلى يوسف ، فجاءه فقال : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف :٤٦] .

وعند أهل الكتاب : أن الملك لما ذكره له الساقى ، استدعاه إلى حضرته ، وقص عليه ما رآه ففسره له . وهذا غلط . والصوابُ ما قَصَّهُ اللهُ فى كتابه القرآن لا ما عربه هؤلاء الجهلة الثيران . من فرى وهذيان . فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ، ولا شرط ، ولا طلب الخروج سريعًا ، بل أجابهم إلى ما سألوه ، وعبر لهم ما كان من منام الملك ، الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ [يوسف :٤٩] يعنى : يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف :٤٩] يعنى : ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها . فعبر لهم ، وعلى الخير دلهم ، وأرشدهم إلى ما يعتمدونه فى حالتى خصبهم وجدبهم ، وما يفعلونه من ادخار حبوب سنى الخصب فى السبع الأول فى سنبله ، إلا ما يرصد بسبب الأكل ، ومن تقليل البذر فى سنى الجدب فى السبع الثانية ، إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل ، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأى والفهم .

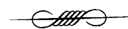
﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف :٥٠-٥٣] .

لما أحاط الملك علمًا بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام ، وتمام عقله ، ورأيه السديد وفهمه ، أمر بإحضاره إلى حضرته ، ليكون من جملة خاصته . فلما جاءه الرسول بذلك ، أحب ألا

---

(١) الأمة : جماعة الناس الذين يكونون وحدة واحدة سواء في الوطن أو اللغة أو التراث والمشاعر . والأمة : الرجل الجامع لخصال الخير ، قال تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل : ١٢٠] . والأمة : الوالدة . والأمة : المذهب ، قال تعالى : ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف : ٢٢] . والأمة : الحين والمدة ، قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [هود: ٨] . الوجيز ص (٢٥) .

يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حُبِسَ ظلمًا وعدوانًا، وأنه برىء الساحة مما نسبوه إليه بهتانًا. ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٥٠] يعنى: الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٠] قيل معناه: إن سيدى العزيز يعلم براءتى مما نسب إليّ، أى: فَمُرِ الملكَ فليسألهن كيف كان امتناعى الشديد عند مراودتهن إياى؟ وحثهن لى على الأمر الذى ليس برشيد ولا سديد؟ فلما سُئِلْنَ عن ذلك اعترفن بما وقع من الأمر، وما كان منه من الأمر الحميد و ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ﴾ [يوسف:٥١]. فعند ذلك ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف:٥١] وهى زليخا: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف:٥١] أى: ظهر وتبين ووضح، والحق أحق أن يتبع ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٥١] أى: فيما يقوله، ومن أنه برىء وأنه لم يراودنى، وأنه حُبِسَ ظلمًا وعدوانًا، وزورًا وبهتانًا وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢] قيل: إنه من كلام يوسف، أى إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب. وقيل إنه من تمام كلام زليخا، أى إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر، وإنما كانت مراودة لم يقع معها فعل فاحشة. وهذا القول هو الذى نصره طائفةٌ كثيرةٌ من أئمة المتأخرين وغيرهم. ولم يَحْكِ ابنُ جرير وابن أبى حاتم سوى الأول. ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:٥٣] قيل: إنه من كلام يوسف، وقيل: من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين، وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى. والله تعالى أعلم.



قصة يوسف بن راحيل عليه السلام

الجزء الثالث

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف :٥٤-٥٧].

لما ظهر للملك براءة عرضه ، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف :٥٤] أي أجعله من خاصتي ، ومن أكابر دولتي ، ومن أعيان حاشيتي ، فلما كلمه ، وسمع مقاله ، وتبين حاله ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف :٥٤] أي ذو مكانة وأمانة قال : ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف :٥٥] طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء ، لما يتوقع من حصول الخلل فيها بعد مضى سبع سنى الخصب ، لينظر فيها بما يرضى الله فى خلقه ، من الاحتياط لهم والرفق بهم ، وأخبر الملك : أنه حفيظ ، أي قوي على حفظ ما لديه ، أمين عليه ، عليم بضبط الأشياء ، ومصالح الأهراء . وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة . وعند أهل الكتاب : أن فرعون عَظَّمَ يوسف عليه السلام جدًّا ، وسلطه على جميع أرض مصر ، وألبسه خاتمه ، وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثاني ، ونودي بين يديه : أنت ربٌّ وَمُسَلَّطٌ ، وقال له : لست أعظم منك إلا بالكرسي .

قالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة ، وزوجه امرأة عظيمة الشأن ، وحكى الثعلبي أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف . وقيل إنه لما مات قطفير زَوَّجَهُ امرأته زليخا فوجدها عذراء ، لأن زوجها كان لا يأتي النساء ، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين هما : أفرايم ومنسا ؛ قال : واستوثق ليوسف مُلْكُ مصر ، وعمل فيهم بالعدل ، فأحبه الرجال والنساء . وحُكِيَ أنَّ يوسفَ كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثون سنة ، وأن الملك خاطبه بسبعين لغة ، وفي كل ذلك يجيبه بكل لغة منها ، فأعجبه ذلك مع حداثة سنة . والله تعالى أعلم .

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف :٥٦] أي بعد السجن والضيق والحصر ، صار مطلق الركاب بديار مصر ، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف :٥٦] أي أين يشاء حل منها مُكَرَّمًا محسودًا [(١)] مُعَظَّمًا . ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف :٥٦] أي هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل . ولهذا قال : ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف :٥٧] ويقال : إن قطفير زوج زليخا كان قد مات ، فولاه الملك مكانه وَزَوَّجَهُ امرأته زليخا ، فكان وزير صدق . وذكر محمد بن إسحاق أن صاحب مصر - الريان بن الوليد - أسلم على يدى يوسف عليه السلام . فالله أعلم . وقد قال بعضهم :

(١) يعني : يحسده الناس على ما هو فيه من الخير .

وراء مضيق الخوف متسع الأمن   وأول مفروح به غاية الحزن
فلا تيأسن، فالله مَلَّكَ يوسفا   خزائنه بعد الخلاص من السجن

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف :٥٨-٦٢]يخبر الله تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون [١]طعاما، وذلك بعد إتيان سني الجدب وعمومها على سائر البلاد والعباد. وكان يوسفُ عليه السلام إذ ذاك الحاكمَ في أمورِ الديار المصرية دينًا ودنيا. فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه، لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة، فلهذا عرفهم وهم له منكرون. وعند أهل الكتاب: أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم، وأراد ألا يعرفوه فأغلظ لهم في القول، وقال: أنتم جواسيس، جئتم لنا لتأخذوا خير بلادي. فقالوا: معاذ الله. إنما جئنا نَمْتَارُ لقومنا من الجَهْدِ [٢]والجوع الذي أصابنا، ونحن بنو أب واحد من كنعان، ونحن اثنا عشر رجلاً ذهب منا واحد، وصغيرنا عند أبينا. فقال: لابد أن أستعلم أمركم. وعندهم: أنه حبسهم ثلاثةَ أيام ثم أخرجهم، واحتبس شمعونَ عنده ليأتوه بالأخ الآخر. وفى بعض هذا نظر.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف :٧٠]أى أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته، من إعطاء كل إنسان حِمْلَ بَعِيرٍ لا يزيده عليه: ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف :٥٩]وكان قد سألهم عن حالهم، وكم هم؟ فقالوا: كنا اثنى عشر رجلاً، فذهب منا واحد وبقى شقيقه عند أبينا. فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فائتونى به معكم. ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩] أى قد أحسنت نزلكم وقراكم، فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف :٦٠]أى فلست أعطيكم ميرة، ولا أقريكم بالكلية، عكس ما أسدى إليهم أولاً. فاجتهد فى إحضاره معهم - ليبل شوقه - منه بالترغيب والترهيب.

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف :٦١]أى سنجتهد فى مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يوسف :٦١]أى: وإنا لقادرون على تحصيله. ثم أمر فتيانَهُ أن يضعوا بِضَاعتهم، وهى ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف :٦٢].

قيل: أراد أن يردوها إذا وجدوها فى بلادهم، وقيل: خشى ألا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية، وقيل: تذمم أن يأخذ منهم عوضًا عن الميرة. وقد اختلف المفسرون فى بضاعتهم على أقوال سيأتى ذكرها. وعند أهل الكتاب أنها كانت صررًا من وَرِقٍ، وما أشبه. والله تعالى أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ

(١)من المِيرَة: وهي الطعام يجمع للسفر ونحوه. الوجيز ص (٥٩٦).
(٢)الجهد: المشقة. مختار الصحاح ص (١١٤)، الوجيز (١٢٢).

هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف :٦٣-٦٨].

يذكر اللهُ تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له : ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ [يوسف :٦٣] أي : بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا ، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا .

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ [يوسف :٦٥] أي شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا؟ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ [يوسف :٦٥] أي نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم فى سنتهم ومحلهم ، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ﴾ [يوسف :٦٥] بسببه ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ﴾ [يوسف :٦٥] قال الله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف :٦٥] أي فى مقابلة ذهاب ولده الآخر .

وكان يعقوبُ عليه السلام أضنَّ شيءٍ بولده بنيامين ، لأنه كان يشم فيه رائحةَ أخيه ، ويتسَلَّى [١] به عنه ، ويتعوض بسببه منه . فلهذا قال : ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف :٦٦] أى إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به . ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف :٦٦] أكد المواثيق ، وقرر العهود ، واحتاط لنفسه فى ولده ، ولن يغنى حذرٌ من قدرٍ ! ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة ، لما بعث الولدَ العزيز ، ولكن الأقدار لها أحكام ، والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم . ثم أمرهم ألا يدخلوا المدينة من بابٍ واحدٍ ، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة . وقيل : أراد ألا يصيبهم أحدٌ بالعين [٢] ، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصورًا بديعة . قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدى والضحاك . قيل : أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبرًا ليوسف أو يُحَدَّثون عنه بأثر . قاله إبراهيم النخعى . والأول أظهر . ولهذا قال : ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف :٦٧].

وقال الله تعالى : ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف :٦٨] وعند أهل الكتاب : أنه بعث معهم هديةً إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل ، وأخذوا الدراهم الأولى وعرضًا آخر .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم

---

(١) يعني : تطيب نفسه بسببه . مختار الصحاح ص (٣١٢)، الوجيز ص (٣٢٠).

(٢) يعني : بالحسد .

مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف :٦٩-٧٩].

يذكرُ اللهُ تعالى ما كان من أَمْرِهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف، وإيوائه إليه، وإخباره له سرًّا عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم، وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه. ثم احتال على أخذه منهم وَتَرْكِهِ إياه عنده دونهم، فأمر فتيانه بوضع سِقَايَتِهِ، وهى التى كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام، عن غِرَّةٍ [(١)] فى متاع بنيامين، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك، ووعدهم جعالة [(٢)] على رده، حمل بعير، وَضَمِنَه المُنَادِى لهم [(٣)].

فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأَنَّبُوهُ وهجنوه فيما قاله لهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف :٧٣] يقولون: أنتم تعلمون منا خلافَ ما رميتمونا به من السرقة. ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف :٧٤-٧٥] وهذه كانت شريعتهم: أن السارقَ يُدْفَعُ إلى المسروق منه. ولهذا قالوا: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف :٧٥]. قال الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف :٧٦] ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة، ثم قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف :٧٦] أي: لولا اعترافهم بأن جزاءه من وُجِدَ في رَحْلِه فهو جزاؤه، لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [يوسف :٧٦] أى: فى العلم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف :٧٦] وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم، وأتم رأيًا وأقوى عزمًا وحزمًا، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك، لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك، من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه.

فلما عاينوا استخراج الصواع من حِمْلِ بنيامين ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف :٧٧] يعنون يوسف، قيل: كان قد سرق صنم جده أبي أمه فكسره، وقيل: كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لإسحاق، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت، وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له. وقيل: كان يأخذ الطعام من البيت

---

(١) الغرة: الغفلة أثناء اليقظة. مختار الصحاح ص (٤٧١)، الوجيز (٤٤٨).

(٢) الجِعَالة: ما يجعل على العمل من أجر. الوجيز ص (١٠٨).

(٣) بقوله: ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢].

فيطعمه الفقراء. وقيل غير ذلك.

فلهذا: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾ [يوسف :٧٧] وهي كلمته بعدها، وقوله: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف :٧٧] أجابهم سرًّا لا جهرًا، حلمًا وكرمًا وصفحًا وعفوًا، فدخلوا معه في الترفق والتعطف فقالوا: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف :٧٨-٧٩] أي: إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء، وهذا ما لا نفعله ولا نسمح به، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده. وعند أهل الكتاب: أن يوسف تعرف إليهم حينئذ. وهذا مما غلوا فيه ولم يفهموه جيدا.

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ۝٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ۝٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ۝٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف :٨٠-٨٧].

يقول الله تعالى مخبرًا عنهم لما استيأسوا من أخذه منه، خلصوا يتناجون فيما بينهم، قال كبيرهم وهو روبيل: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٠] أي: لتأتنني به إلا أن يحاط بكم؟ ولقد أخلفتم عهده، وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله، فلم يبق لي وجه أقابله به ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [يوسف: ٨٠] أي لا أزال مقيمًا هاهنا ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ [يوسف: ٨٠] فى القدوم عليه، ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ [يوسف: ٨٠] بأن يقدرني على رد أخي إلى أبيه ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف :٨٠].

﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف :٨١] أي أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ۝٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ [يوسف: ٨١-٨٢] أي فإن هذا الذي أخبرناك به - من أخذهم أخانا لأنه سرق - أمر اشتهر بمصر، وعلمه مع العير التي كنا نحن وهم هناك ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢].

﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾ [يوسف :١٨] أي الأمر ليس كما ذكرتم، لم يسرق، فإنه ليس سَجِيَّة[1] له ولا خلقه. وإنما ﴿سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾ [يوسف :١٨].

قال ابن إسحاق وغيره: لما كان التفريطُ منهم في بنيامين مترتبًا على صنيعهم في يوسف، قال لهم ما قال.

---

(١) السَّجِيَّةُ: الطبيعة والخلق. الوجيز ص (٣٠٤).

وهذا كما قال بعض السلف: إن من جزاء السيئة السيئة بعدها!.

ثم قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف:٨٣]يعني يوسف وبنيامين وروبيل: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف:٨٣]أي بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما يقدّره ويفعله، وله الحكمةُ البالغةُ والحجةُ القاطعةُ.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [يوسف:٨٤]أي أعرض عن بنيه: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]ذكّره حزنُهُ الجديدُ بالحزن القديم، وحرك ماكان كامنًا كما قال بعضهم:

نَقِّلْ فؤادَك حيث شئتَ مِن الهَوَى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال آخر:

لقد لأمَنِي عند القبور على البُكَا ... رفيقي لتذراف الدموع السَّوافِكِ

فقال: أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَه؟ ... لِقبرٍ ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له: إن الأسى يبعثُ الأسى ... فدعني فهذا كله قبر مالك

وقوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف:٨٤] أي من كثرة البكاء. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤] أي مكظوم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف. فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوَجْدِ وألم الفراق ﴿قَالُوا۟﴾ له على وجه الرحمة والرأفة والحرص عليه: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥] يقولون: لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك، وتضعف قوتك، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦] يقول لبنيه: لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه، إنما أشكوه إلى الله عز وجل، وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجًا ومخرجًا، وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع، ولابد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى. ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٦٢] ثم قال لهم محرضًا على تطلب يوسف وأخيه، وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧] أي لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة، فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه، وما يقدره من المخرج في المضايق - إلا القوم الكافرون.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ۝ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف:٨٨-٩٣].

يخبر الله تعالى عن رجوع إخوةِ يوسفَ إليه وقدومهم عليه، ورغبتهم فيما لديه من الميرة والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف

:٨٨]أي من الجدب وضيق الحال، وكثرة العيال، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ [يوسف :٨٨]أي ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا، قيل: كانت دراهم رديئة، وقيل: قليلة، وقيل: حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك.

وعن ابن عباس: كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك. ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف :٨٨] قيل بقبولها، قاله السدي، وقيل برد أخينا إلينا، قاله ابن جريج. وقال سفيانُ بنُ عيينة: إنما حُرِّمَتْ الصدقة على نبينا محمد ﷺ ونزع بهذه الآية. رواه ابن جرير.

فلما رأى ما هم فيه من الحال، وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال، تعرف إليهم وعطف عليهم، قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم، وقد حَسَرَ [١] لهم عن جبينه الشريف، وما يحويه من الحال الذي يعرفون ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف :٨٩].

﴿قَالُوا﴾ [يوسف :٩٠] وتعجبوا كلَّ العجب، وقد ترددوا إليه مرارًا عديدة وهم لا يعرفون أنه هو ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف :٩٠] . ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي﴾ [يوسف :٩٠] يعني أنا يوسفُ الذي صنعتم معه ما صنعتم، وَسَلَفَ من أمركم فيه ما فرطتم. وقوله ﴿وَهَٰذَا أَخِي﴾ [يوسف :٩٠] تأكيد لما قال، وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد، وعملوا في أمرهما من الاحتيال. ولهذا قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف :٩٠] أي بإحسانه إلينا وصدقته علينا، وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا، وصبرنا على ما كان منكم إلينا، وطاعتنا وبرنا لأبينا، ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف :٩٠] .

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف :٩١] أي: فَضَّلَكَ وأعطاك ما لم يُعْطِنَا، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف :٩١] أي فيما أسدينا إليك. وها نحن بين يديك. ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف :٩٢] أي لست أُعَاتِبُكُم على ماكان منكم بعد يومكم هذا، ثم زادهم على ذلك فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف :٩٢] ومن زَعَمَ أن الوقف على قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ [يوسف :٩٢] وابتدأ قوله: ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف :٩٢] فقوله ضعيف، والصحيح الأول.

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه، وهو الذي يلي جسده، فيضعوه على عيني أبيه، فإنه يرجع إليه بَصَرُهُ بعد ما كان ذهب، بإذن الله، وهذا من خوارق العادات، ودلائل النبوات وأكبر المعجزات. ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر، إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ۝ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ۝ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ۝ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يوسف :٩٤-٩٨] .

---

(١) كشفه وأظهره.

قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبي سنان، عن عبد الله بن أبي الهذيل، سمعت ابن عباس يقول: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤] قال: لما خرجت العير هاجتْ ريحٌ، فجاءتْ يعقوبَ بريح قميصِ يوسفَ فقال: ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤] قال: فوجد ريحه من مسيرة ثلاثة أيام. وكذا رواه الثوري وشعبة وغيرهم عن أبي سنان به. وقال الحسن البصري وابن جريج المكي: كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخًا، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة. وقوله: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤] أي تقولون إنما قلت هذا من الفند، وهو الخرف وكبر السن. قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤] تُسَفِّهُون، وقال مجاهد أيضًا والحسن: تُهَرِّمون. ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] قال قتادة والسدي: قالوا له كلمة غليظة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦] أي بمجرد ما جاء ألقي القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيرًا بعد ما كان ضريرا. وقال لبنيه عند ذلك: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦] أي أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف وسيقر عيني به، وسيريني فيه ومنه ما يسرني. فعند ذلك: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧] طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه، وما كانوا عزموا عليه، ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل، وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم، فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا، وما عليه عولوا[1] قائلاً: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

قال ابنُ مسعود وإبراهيمُ التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.

قال ابنُ جرير: حدثني أبو السائب: حدثنا ابن إدريس قال: سمعت عبد الرحمن ابن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال: كان عمر يأتي المسجد فسمع إنسانًا يقول: «اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي» قال: فاستمع إلى الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أَخَّرَ بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٩٨]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينزل ربنا كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا فيقول: هل من تائبٍ فأتوب عليه؟ هل من سائل فأعطِيَهُ؟ هل من مستغفر فأغفر له»[2] وقد ورد في حديث: «أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة».

---

(١) أحالوا وطلبوا.

(٢) أخرجه مالك في موطئه (١٤٩)، وأحمد (٢/ ٢٦٤، ٢٦٧)، والدارمي (١٤٨٧)، والبخاري (٢/ ٦٦)، (٨/ ٨٨)، ومسلم (٢/ ١٧٥)، وأبو داود (١٣١٥)، (٤٧٣٣)، وابن ماجه (١٣٦٦)، والترمذي (٣٤٩٨)، وفي عمل اليوم والليلة (٤٨٠) كلهم من طريق الزهري عن أبي سلمة، وأبي عبد الله الأغر عن أبي هريرة فذكره مرفوعًا. وأخرجه أحمد (٢/ ٤٨٧)، والبخاري (٩/ ١٧٥)، وفي الأدب المفرد (٧٥٣) كلهم من طريق مالك عن الزهري عن أبي عبد الله الأغر عن أبي هريرة ليس فيه أبو سلمة بن عبد الرحمن. وله روايات وطرق أخرى كثيرة.

قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقي حدثنا الوليد، أنبأنا ابن جريج، عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٩٨] يقول: «حتى تأتي ليلة الجمعة، وهو قول أخي يعقوب لبنيه»[1]. وهذا غريبٌ من هذا الوجه، وفي رَفْعِه نظرٌ، والأشبَهُ أن يكون موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنه.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:٩٩-١٠١].

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة، التي قيل: إنها ثمانون سنة، وقيل: ثلاث وثمانون سنة، وهما روايتان عن الحسن، وقيل: خمس وثلاثون سنة. قاله قتادة. وقال محمد بن إسحاق: ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرة سنة. قال: وأهلُ الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة.

وظاهرُ سياقِ القصةِ يرشدُ إلى تحديد المدة تقريبًا، فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة - فيما قاله غير واحد - فامتنع، فكان في السجن بضع سنين، وهي سبع عند عكرمة وغيره. ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع، ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي، جاء إخوته يمتارون في السنة الأولى وحدهم، وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين، وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين، فجاءوا كلهم. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف:٩٩] اجتمع بهما خصوصًا وحدهما دون إخوته، ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩] قيل: هذا من المقدم والمؤخر تقديره: ادخلوا مصر، وآوى إليه أبويه، وضعفه ابن جرير وهو معذور. وقيل: بل تلقاهما وآواهما في منزل الخيام، ثم لما اقتربوا من باب مصر ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] قاله السدي، ولو قيل: إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضًا، وأنه ضمن قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ بمعنى: اسكنوا مصر، أقيموا بها: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩] لكان صحيحًا مليحًا أيضًا. وعند أهل الكتاب: أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر -وهي أرض بلبيس- خرج يوسف لتلقيه، وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشرًا بقدومه، وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر، يكونون فيها، ويقيمون بها بِنَعَمِهِم ومواشيهم. وقد ذكر جماعةٌ من المفسرين أنه لما أَزِفَ[2] قدوم نبي الله يعقوب -وهو إسرائيل- أراد يوسف أن يخرج لتلقيه، فركب معه الملك وجنوده، خدمة ليوسف وتعظيمًا لنبي الله «إسرائيل» وأنه دعا للملك، وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سني الجدب ببركة قدومه إليهم. والله أعلم. وكان جملةُ مَنْ قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم فيما قاله أبو

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٦٥) من رواية المثنى ولم أجد له ترجمة.
(٢) دنا وقرب. الوجيز ص (١٥).

إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود: ثلاثة وستين إنسانًا.

وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، عن عبد الله بن شداد: كانوا ثلاثة وثمانين إنسانًا.

وقال أبو إسحاق عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون إنسانًا. قالوا: وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل، وفي نص أهل الكتاب: أنهم كانوا سبعين نفسًا، وسموهم.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠]قيل: كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة. وقال بعضُ المفسرين: فأحياها الله تعالى. وقال آخرون: بل كانت خالته «ليا» والخالة بمنزلة الأم.

وقال ابن جرير وآخرون: بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ، فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه. وهذا قوي. والله أعلم.

ورفعهما على العرش، أي أجلسهما معه على سريره: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف:١٠٠]أي سجد له الأبوان، والإخوة الأحد عشر، تعظيمًا وتكريمًا وكان هذا مشروعًا لهم، ولم يزل ذلك معمولاً به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا. ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ أي هذا تعبير ما كنت قَصَصْتُهُ عليك، من رؤيتي الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر، حين رأيتهم لي ساجدين، وأمرتني بكتمانها، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف:١٠٠]أي بعد الهم والضيق، جعلني حاكمًا نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف:١٠٠]أي البادية، وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخيل ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف:١٠٠][(١)] أي فيما كان منهم من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠]أي إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه، ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد، بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠]أي: بجميع الأمور، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقه وشرعه وقدره. وعند أهل الكتاب: أن يوسفَ باع أهلَ مصر وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يده، بأموالهم كلها، من الذهب والفضة، والعقار والأثاث، وما يملكونه كله، حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء. ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا، ويكون خمس ما يستغلون من زرعهم وثمارهم للملك فصارت سنة أهل مصر بعده. وحكى الثعلبي: أنه كان لا يشبع في تلك السنين، حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار. قال: فمن ثَمَّ اقتدى به الملوكُ في ذلك. قلتُ: وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لا يشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب. قال الشافعي: قال رجل من الأعراب لعمر بعدما ذهب عام الرمادة: لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة.

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع، وعرف أن هذه الدار لا يقر

(١) نزغ الشيطان: وسوس، ونزغ بين القوم: أفسد وحمل بعضهم على بعض. الوجيز ص (٦١٠).

بها قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فَانٍ، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه - وهو خير المسئولين - أن يتوفاه، أي حين يتوفاه على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين، وهكذا كما يقال في الدعاء: «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين» [١]أي حين تتوفانا. ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام، كما سأل النبي ﷺعند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى، والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين، كما قال: «اللهم في الرفيق الأعلى» [٢]ثلاثًا، ثم قضى. ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام منجزًا [٣]في صحة بدنه وسلامته، وأن ذلك كان سائغًا في ملتهم وشرعهم، كما روى عن ابن عباس أنه قال: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف.

فأما في شريعتنا فقد نهى عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن، كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد: «وإذا أردت بقوم فتنةً فتوفنا إليك غير مفتونين» [٤]وفي الحديث الآخر: «ابن آدم! الموت خير لك من الفتنة» [٥]، وقالت مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]وتمنى الموت عَليٌّ بن أبي طالب، لما تفاقمت الأمور، وعظمت الفتن، واشتد القتال، وكثر القيل والقال. وتمنى ذلك البخاريُّ أبو عبد الله صاحب الصحيح، لما اشتد عليه الحال ولقي من مخالفيه الأهوال.

فأما في حال الرفاهية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدُكم الموتَ لضرٍ نزل به، إما محسنًا فلعله يزداد، وإما مسيئًا فلعله يستعتب، ولكن ليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي» [٦] والمراد بالضر هاهنا: ما يخص العبد في بدنه، من مرض ونحوه، لا في دينه. والظاهر أن نبي الله يوسف عليه السلام سأل ذلك، إما عند احتضاره، أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك.

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب: أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة، ثم توفى عليه السلام. وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يُدْفَنَ عند أبويه إبراهيم وإسحاق، قال السدي: فصبره وسيره إلى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام.

وعند أهل الكتاب: أن عُمْرَ يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة. وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة، ومع هذا قالوا: فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة. وهذا نص كتابهم وهو

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٩)، وصححه الشيخ الألباني في الأدب المفرد.
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٦)، ومسلم (٦٢٤٧). (٣) عاجلًا. الوجيز ص (٦٠٣).
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣)، وهو حسن.
(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧)، وهو حسن.
(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٣، ١٩٥، ٢٠٨، ٢٤٧) وعبد بن حميد (١٢٤٦)، (١٣٧٢)، والبخاري (٧/ ١٥٦)، ومسلم (٨/ ٦٤)، والنسائي (٤/ ٣) كلهم من طريق ثابت عن أنس به.

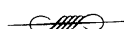
غلط: إما في النسخة، أو منهم، أو قد أسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا، فكيف يستعملون هذه الطريقة هاهنا. ؟

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] يوصى بنيه بالإخلاص، وهو دينُ الإسلامِ الذي بعث الله به الأنبياء عليهم السلام. وقد ذكر أهل الكتاب: أنه وصى بنيه واحدًا واحدًا، وأخبرهم بما يكون من أمرهم، وبشر يهوذا بخروج نبي عظيم من نسله تطيعه الشعوب، وهو عيسى ابن مريم. والله أعلم.

وذكروا: أنه لما مات يعقوبُ بكى عليه أهلُ مصر سبعين يومًا، وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يومًا. ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله، فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها، فلما وصلوا حبرون ودفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيم الخليل من غفرون بن صخر الحيثي، وعملوا له عزاء سبعة أيام. قالو: ثم رجعوا إلى بلادهم، وعزى إخوةُ يوسف يوسفَ في أبيه، وترفقوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم، فأقاموا ببلاد مصر.

ثم حضرتْ يوسفَ عليه السلام الوفاةُ، فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه، فحنطوه ووضعوه في تابوت، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام، فدفنه عند آبائه كما سيأتي. قالوا: فمات وهو ابن مائة وعشر سنين.

هذا نصهم فيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير أيضًا، وقال مبارك بن فضالة عن الحسن: ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثًا وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وقال غيره: أوصى إلى أخيه يهوذا، صلوات الله عليه وسلامه.



قصة أيوب عليه السلام

قال ابن إسحاق: كان رجلاً من الروم، وهو أيوب بن موص بن رازح بن العيص ابن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

وقال غيره: هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب، وقيل: غير ذلك في نسبه.

وحكى ابن عساكر أن أُمَّهُ بنت لوط عليه السلام، وقيل: كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقي في النار لحرقه.

والمشهور الأول، لأنه من ذرية إبراهيم، كما قررنا عند قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأنعام :٨٤] من أن الصحيح أن الضميرَ عائدٌ على إبراهيم الخليل دون نوح عليهما السلام. وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ [النساء :١٦٣].

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق، وامرأته قيل: اسمها «ليا» بنت يعقوب، وقيل: «رحمة» بنت أفرائيم، وقيل: «ليا» بنت منسا بن يوسف بن يعقوب. وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا.

ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء :٨٣-٨٤].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص :٤١-٤٤].

وروى ابنُ عساكر من طريق الكلبي أنه قال: أول نبي بُعِثَ إدريس، ثم نوح ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، ثم إسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوط، ثم هود، ثم صالح، ثم شعيب، ثم موسى وهارون، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم عرفى بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب، ثم يونس بن متى من بني يعقوب، ثم أيوب بن رازح بن آموص بن ليفرز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم. وفي بعض هذا الترتيب نظر: فإن هودًا وصالحًا: المشهور أنهما بعد نوح وقبل إبراهيم.. والله أعلم.

قال علماءُ التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام والعبيد والمواشي، والأراضي المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران.

وحكى ابن عساكر: أنها كلها كانت له. وكان له أولاد وأهلون كثير. فسلب منه ذلك جميعه،

وابتلى في جسده بأنواع من البلاء، ولم يَبْقَ منه عُضْوٌ سليمٌ سوى قلبه ولسانه، يذكرُ اللهَ عز وجل بهما. وهو في ذلك كله صابر محتسب. ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه. وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها. فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته، وضعف حالها، وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر، لتطعمه وتقوم بأَوَدِهِ، رضي الله عنها وأرضاها، وهي صابرة معه على ما حَلَّ بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة والخدمه والحرمة. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أشدُّ الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»[1] وقال: «يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيدَ في بلائه»[2]. ولم يزد هذا كله أيوبَ عليه السلام إلا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا حتى إن المثل لَيُضْرَبُ بصبره عليه السلام، ويضرب المثل أيضًا بما حصل له من أنواع البلايا.

وقد روى عن وهب بن منبه وغيره من علماء بني إسرائيل في قصة أيوب خَبَرٌ طويل. في كيفية ذهاب ماله وولده، وبلائه في جسده. والله أعلم بصحته. وعن مجاهد أنه قال: كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجُدَرِيُّ[3].

وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال: فزعم وهبٌ أنه قد ابتلى ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص. وقال أنس: ابتلى سبع سنين وأشهرًا، وألقى على مزبلة لبني إسرائيل تختلف الدواب في جسده حتى فَرَّجَ الله عنه، وأعظم له الأجر، وأحسن الثناء عليه. وقال حميد: مكث في بلواه ثماني عشر سنة. وقال السدي: تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، فلما طال عليها، قالت يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك، فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحًا، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزعت من هذا الكلام، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام. ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها، لعلمهم أنها امرأة أيوب، خوفًا أن ينالهم من بلائه أو تُعْدِيهم بمخالطته، فلما لم تجد أحدًا يستخدمها، عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير، فأتت به أيوب، فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢، ١٧٣، ١٨٠، ١٨٥)، وعبد بن حميد (١٤٦) والدارمي (٢٧٨٦)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٣٩٣٤ تحفة) كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد عن أبيه فذكره مرفوعًا. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥١٠)، وابن ماجه (٤٠٢٤) كلاهما من طريق هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري فذكره مرفوعًا، وأخرجه أحمد (٣/ ٩٤)، وعبد بن حميد (٩٦٠) من طريق آخر عن أبي سعيد مثله.

(٢) السابق.

(٣) الجدري: حُمّى معدية، تتميز بطفح حُليمي على الجلد يتقيح، ويعقبه قشر. الوجيز ص(٩٥).

فقالت: خدمت به أناسًا. فلما كان الغد لم تجد أحدًا فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به، فأنكره أيضًا، وحلف ألا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام؟ فكشفت عن رَأسِها خمارَها، فلما رأى رأسها محلوقًا قال في دعائه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله ابن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب أخوان، فجاءا يومًا فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم من أيوب خيرًا ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعًا لم يجزع مثله من شيء قط، فقال: اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعانًا وأنا أعلم مكان جائع فصدقني، فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط، وأنا أعلم مكان عارٍ فصدقني. فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم بعزتك وخر ساجدا، فقال اللهم: بعزتك لا أرفع رأسي أبدًا حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف عنه.

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعًا: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن عقيل، عن الزهري، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين. قال صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول؟ غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أَمُرُّ على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا في حق».

قال: «وكان يخرج في حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه، أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] فاستبطأته فتلقته تنظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك! هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا، قال: فإني أنا هو، قال: وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض»[١]. لفظ ابن جرير، وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في صحيحه[٢] عن محمد بن الحسن بن قتيبة، عن حرملة، عن ابن وهب به. وهذا غريب رفعه جدًّا، والأشبه أن يكون موقوفًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أنبأنا علي بن زيد،

(١) انظر تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٧)، وابن أبي حاتم (١٣٦٩٨).
(٢) أخرجه ابن حبان (٢٨٩٨) وسنده صحيح.

عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: وألبسه الله حلة من الجنة، فتنحى أيوب وجلس في ناحية، وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت: يا عبد الله، أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ها هنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة، قال: ويحك أنا أيوب، قالت: أتسخر مني يا عبد الله؟ فقال: ويحك أنا أيوب قد رد الله علي جسدي. قال ابن عباس: ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم، ومثلهم معهم.

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إليه: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك، وقرب عن صحابتك قربانًا، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا همام، عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بشير بن نهيك، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺقال: «لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جرادًا من ذهب، فجعل يأخذه بيده ويجعل في ثوبه، قال فقيل له: يا أيوب أما تشبع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك؟» (1). وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي داود الطيالسي، وعبد الصمد، عن همام، عن قتادة به، ورواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد الأزدي، عن إسحاق بن راهويه، عن عبد الصمد به، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب، وهو على شرط الصحيح، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة: أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب، فجعل يقبضها في ثوبه، فقيل: يا أيوب، ألم يكفك ما أعطيناك؟ قال: أي رب ومن يستغني عن فضلك؟. هذا موقوف. وقد روى عن أبي هريرة من وجه آخر مرفوعًا (2).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عريانًا خر عليه رجل جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه عز وجل: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك» (3). رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به.

وقوله: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص:٤٢]أي: اضرب الأرض برجلك، فامتثل ما أمر به، فأنبع الله له عينًا باردة الماء، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى، والسقم والمرض، الذي كان في جسده ظاهرًا وباطنًا، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة، وجمالاً تامًا ومالاً كثيرًا، حتى صب له من المال صبًا، مطرًا عظيمًا جرادًا من ذهب. وأخلف الله له أهله، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء:٨٤]فقيل: أحياهم الله بأعيانهم، وقيل: آجره فيمن سلف، وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم، وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٤، ٣٤٧، ٤٩٠، ٥١١) به. وابن حبان (٦٢٣٠).
(٢) السابق.
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (١/ ٧٨)، (٤/ ١٨٤)، (٩/ ١٧٥) كلاهما من طريق عبد الرزاق به.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبياء :٨٤]أي: رفعنا عنه شدته وكشفنا ما به من ضر، رحمة منا به ورأفة وإحسانًا. ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء :٨٤]أي: تذكرة لمن ابتلي في جسده أو ماله أو ولده، فله أسوة بنبي الله أيوب، حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب، حتى فرج الله عنه. ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال: هي «رحمة» من هذه الآية فقد أبعد النجعة وأغرق النزع. وقال الضحاك: عن ابن عباس: رد الله إليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستة وعشرين ولدًا ذكرًا. وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية، ثم غيروا بعده دين إبراهيم.

وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص :٤٤]هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام، فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط.

فقيل: حلف ذلك لبيعها ضفائرها، وقيل: لأنه عارضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب، فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان، فحلف ليضربنها مائة سوط، فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثًا، وهو كالعثكال الذي يجمع الشماريخ، فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة، ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث. وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة، رضي الله عنها.

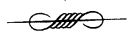
ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص :٤٤]وقد استعمل كثيرٌ من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان، وصدروه بهذه الآية الكريمة، وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب، وسنذكر طرفًا من ذلك في كتاب «الأحكام» عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ: أن أيوب عليه السلام لما توفي كان عمره ثلاثًا وتسعين سنة، وقيل: إنه عاش أكثر من ذلك.

وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه: أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء. رواه ابن عساكر بمعناه.

وأنه أوصى إلى ولده «حومل» وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب، وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه «ذو الكفل» فالله أعلم، ومات ابنه هذا وكان نبيًّا فيما يزعمون وكان عمره من السنين خمسًا وسبعين.

ولنذكر ها هنا قصة ذي الكفل، إذ قال بعضهم: إنه ابن أيوب عليهما السلام، وهذه هي:



قصة ذي الكفل

الذي زعم قوم أنه ابن أيوب .

قال الله تعالى بعد قصة أيوب : ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء :٨٥-٨٦].

وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضًا : ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص :٤٥-٤٨]

فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي، عليه من ربه الصلاة والسلام، وهذا هو المشهور . وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيًّا، وإنما كان رجلاً صالحًا، وحكمًا مقسطًا عادلاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم .

وروى ابن جرير وابن أبي نجيح عن مجاهد : أنه لم يكن نبيًّا وإنما كان رجلاً صالحًا . وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيه أمرهم، ويقضي بينهم بالعدل فسمى ذا الكفل .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند، عن مجاهد أنه قال : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي، حتى أنظر كيف يعمل؟ . فجمع الناس فقال : من يتقبل لي بثلاث أستخلفه : يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب . قال : فقام رجل تزدريه العين، فقال : أنا، فقال : أنت تصوم النهار وتقوم الليل، ولا تغضب؟ . قال : نعم، قال : فردهم ذلك اليوم، وقال مثلها في اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال : أنا، فاستخلفه .

قال : فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان، فأعياهم ذلك، فقال : دعوني وإياه، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة، فدق الباب فقال : من هذا؟ قال : شيخ كبير مظلوم، قال : فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه، فقال : إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا حتى حضر الرواح وذهبت القائلة، وقال : إذا رحت فأتني آخذ لك بحقك . فانطلق وراح فكان في مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب، فقال : من هذا؟ فقال الشيخ الكبير المظلوم . ففتح له فقال : ألم أقل لك إذا قعدت فائتني؟ فقال : إنهم أخبث قوم، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك، وإذا قمت جحدوني . قال : فانطلق فإذا رحت فائتني . قال : ففاتته القائلة، فراح فجعل ينتظر فلا يراه، وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله : لا تدعن أحدًا يقرب هذا الباب حتى أنام، فإني قد شق على النوم، فلما كان تلك الساعة جاء، فقال له الرجل : وراءك وراءك . فقال : إني قد أتيته أمس فذكرت له أمري . فقال : لا والله، لقد أمرنا أن لا ندع أحدًا يقربه، فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور

منها، فإذا هو في البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل، قال: فاستيقظ الرجل، فقال: يا فلان ألم آمرك؟ قال: أما من قِبَلِي والله فلم تؤت، فانظر من أين أتيت؟. قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه في البيت فعرفه، فقال أعدو الله؟ قال: نعم، أعييتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبك. فسماه الله ذا الكفل، لأنه تكفل بأمر فوفى به.

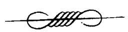
وقد روى ابن أبي حاتم أيضًا عن ابن عباس قريبًا من هذا السياق، وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الأكبر، وغيرهم من السلف نحو هذا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، أنبأنا سعيد ين بشير، حدثنا قتادة، عن كنانة بن الأخنس، قال: سمعت الأشعري يعني أبا موسى رضي الله عنه وهو على هذا المنبر يقول: ما كان ذو الكفل نبيًّا ولكن كان رجلاً صالحًا يصلي كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده فكان يصلي كل يوم مائة صلاة، فسمي ذا الكفل.

ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال: قال أبو موسى الأشعري، فذكره منقطعًا. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد مولى طلحة، عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات لم أحدث به، ولكني قد سمعته أكثر من ذلك قال: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال لها: ما يبكيك؟ أأكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملتني عليه الحاجة. قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط، ثم نزل وقال: اذهبي بالدنانير لك، ثم قال والله لا يعصي اللهَ الكفلُ أبدًا، فمات من ليلته فأصبح مكتوبًا على بابه: قد غفر الله للكفل»[1].

ورواه الترمذي من حديث الأعمش به، وقال: حسن، وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر. فهو حديث غريب جدًّا، وفي إسناده نظر، فإن سعدًا هذا قال أبو حاتم: لا أعرفه إلا بحديث واحد. ووثقه ابن حبان، ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازي هذا، والله أعلم.

وإن كان محفوظًا فليس هو ذا الكفل، وإنما لفظُ الحديث «الكفل» من غير إضافة، فهو رجلٌ آخر غير المذكور في القرآن. فالله تعالى أعلم.



---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣)، والترمذي (٢٤٩٦) كلاهما من طريق أسباط به.

باب ذكر أمم أهلكوا بعامة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار من حديث عوف الأعرابي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قومًا بعذاب من السماء أو من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض، غير القرية التي مسخوا قردة. ألم تر أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ورفعه البزار في رواية له. والأشبه والله أعلم وقفه، فدل على أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام.

فمنهم:

أصحاب الرس

قال الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨-٣٩].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢-١٤].

وهذا السياق والذي قبله، يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا وهو الهلاك. وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج، لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعة كانوا بعد المسيح عليه السلام. وفيه نظر أيضًا.

وروى ابن جرير [(١)] قال: قال ابن عباس: أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود.

وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر في أول تاريخه، عند ذكر بناء دمشق عن تاريخ أبي القاسم عبد الله بن عبد الله بن جرداد وغيره، أن أصحاب الرس كانوا بحضور، فبعث الله إليهم نبيًّا يقال له حنظلة بن صفوان، فكذبوه وقتلوه، فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وولده من الرس، فنزل الأحقاف، وأهلك الله أصحاب الرس وانتشروا في اليمن كلها، وفشوا مع ذلك في الأرض كلها، حتى نزل جبرون بن سعد ابن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، دمشق وبنى مدينتها، وسماها جبرون، وهي إرم ذات العماد، وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق، فبعث الله هود بن عبد الله بني رباح بن خالد بن الخلود بن عاد، إلى عاد، يعني أولاد عاد بالأحقاف فكذبوه، فأهلكهم الله عز وجل، فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة، فالله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم، عن أبي بكر بن أبي عاصم، عن أبيه، عن شبيب بن بشر، عن عكرمة،

---

(١) انظر ابن جرير (١٩/ ١٣) وسنده ضعيف.

عن ابن عباس قال: الرس بئر بأذربيجان.

وقال الثوري عن أبي بكر، عن عكرمة، قال: الرس بئر رسوا فيها نبيهم، أي: دفنوه فيها. وقال ابن جريج: قال عكرمة: أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس، وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة.

قلت: فإن كانوا أصحاب يس كما زعمه عكرمة، فقد أهلكوا بعامة، قال الله تعالى في قصتهم: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس:٢٩]وستأتي قصتهم بعد هؤلاء، وإن كانوا غيرهم، وهو الظاهر، فقد أهلكوا أيضًا وتبروا، وعلى كل تقدير فينافي ما ذكره ابن جرير.

وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النقاش: أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفي أرضهم جميعًا، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة، فلما مات وجدوا عليه وجدًا عظيمًا، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته، وقال: إني لم أمت، ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم، ففرحوا أشد الفرح، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه، وأخبرهم أنه لا يموت أبدًا، فصدق به أكثرهم، وافتتنوا به وعبدوه، فبعث الله فيهم نبيًّا، وأخبرهم أن هذا الشيطان يخاطبهم من وراء الحجاب، ونهاهم عن عبادته، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له. قال السهيلي: وكان يوحى إليه في النوم، وكان اسمه حنظلة بن صفوان، فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر، فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم، ويبست أشجارهم، وانقطعت ثمارهم، وخربت ديارهم، وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة، وبعد الاجتماع بالفرقة، وهلكوا عن آخرهم، وسكن في مساكنهم الجن والوحوش، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن، وزئير الأسود، وصوت الضباع.

فأما ما رواه أعني ابن جرير عن محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود»[(١)]. وذلك أن الله تعالى بعث نبيًّا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئرًا فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم، قال: فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشتري به طعامًا وشرابًا، ثم يأتي به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة، ويعينه الله عليها ويدلي إليه طعامه وشرابه، ثم يردها كما كانت. قال: فكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنه ذهب يومًا يحتطب كما كان يصنع، فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها، فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع فنام، فضرب الله على أذنه سبع سنين نائمًا، ثم إنه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر، فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى، ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب أنه نام إلا ساعة من نهار، فجاء إلى القرية فباع حزمته، ثم اشترى طعامًا وشرابًا كما كان يصنع.

ثم إنه ذهب إلى الحفرة، إلى موضعها الذي كانت فيه، فالتمسه فلم يجده، وقد كان بدا لقومه

(١) ابن جرير (١٩/ ١٤) وهو مرسل ضعيف؛ كما قال ابن كثير في آخره.

فيه بداء، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه. قال: فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل، فيقولون له: ما ندري؟ حتى قبض الله النبي عليه السلام، وهب الأسود من نومه بعد ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة». فإنه حديث مرسل، ومثله فيه نظر، ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظي. والله أعلم.

ثم قد رده ابن جرير نفسه، وقال: لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون في القرآن، قال: لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكهم، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم، اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم، والله أعلم.

ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف، لما تقدم، ولما ذكر في قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب، في الآخرة إن لم يتوبوا، ولم يذكر هلاكهم، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس. والله تعالى أعلم.



قصة قوم يس

وهم أصحاب القرية أصحاب يس: قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس:١٣-٢٩].

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية «أنطاكية» رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وكذا روى عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهري وغيرهم، قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب أنهم قالوا: وكان لها ملك اسمه أنطيخس بن أنطيخس وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم: صادق، ومصدوق، وشلوم، فكذبهم. وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل. وزعم قتادة أنهم كانوا رسلاً من المسيح. وكذا قال ابن جريج، عن وهب، عن سليمان، عن شعيب الجبائي: كان اسم المرسلين الأولين: شمعون، ويوحنا، واسم الثالث بولس، والقرية أنطاكية. وهذا القول ضعيف جدًّا، لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت. ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي تكون فيها بطاركة النصارى. وهن: أنطاكية، والقدس، والإسكندرية، ورومية، ثم بعدها القسطنطينية ولم يهلكوا. وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أُهلِكُوا، كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس:٢٩] ولكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن، بعثوا إلى أهل أنطاكية قديمًا فكذبوهم وأهلكهم الله، ثم عمرت بعد ذلك، فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم، فلا يمنع هذا. والله أعلم.

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح فضعيف لما تقدم، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أنَّ هؤلاءِ الرسلَ مِنْ عِند الله.

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ [يس:١٣] يعني لقومك يا محمد ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس:١٣] يعني المدينة ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس:١٣-١٤] أي أيدناهما بثالث في الرسالة، ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس:١٤] فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم، كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم، يستبعدون أن يبعث الله نبيًّا بشريًّا. فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم،

ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام.

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس:١٧]أي إنما علينا أن نُبَلِّغَكُمْ ما أرسلنا به إليكم والله هو الذي يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس:١٨]أي تشاءمنا بما جئتمونا به. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ [يس:١٨]بالمقال، وقيل: بالفعال، ويؤيد الأولَ قَوْلُه: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس:١٨]فوعدوهم بالقتل والإهانة.

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس:١٩]أي مردود عليكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ [يس:١٩]أي بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه، توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨١]أي لا تقبلون الحقَّ ولا تريدونه قال ابن جرير: والأول أوجه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس:٢٠]يعني لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس:٢٠-٢١]أي يدعونكم إلى الحقِّ المحض بلا أجرة ولا جعالة. ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئًا لا في الدنيا ولا في الآخرة. ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٢٤]أي إن تركت عبادة الله وعبدتُ معه سواه.

ثم قال مخاطبًا للرسل: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس:٢٥]قيل: فاستمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم، وقيل معناه: فاسمعوا يا قومي إيماني برسل الله جهرة. فعند ذلك قتلوه، قيل: رجمًا، وقيل: عضا، وقيل وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه.

وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال: وطئوه بأرجلهم، حتى أخرجوا قصبته

وقد روى الثوري عن عاصم الأحول، عن أبي مجلز: كان اسم هذا الرجل «حبيب ابن مري» ثم قيل: كان نجارًا، وقيل: حبالاً، وقيل: إسكافًا (١)، وقيل: قصارًا (٢)، وقيل: كان يتعبد في غار هناك. فالله أعلم.

وعن ابن عباس: كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذامُ، وكان كثير الصدقة فقتله قَوْمُه، ولهذا قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [يس:٢٦]يعني لما قتله قومُه أَدْخَلَهُ اللهُ الجنةَ، فلما رأى فيها من النضرة والسرور ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:٢٦-٢٧]يعني ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لي. قال ابنُ عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢٠]وبعد مماته في قوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝﴾ [يس:٢٦-٢٧]رواه ابن أبي حاتم. وكذلك قال قتادة: لا يلقى المؤمن إلا ناصحًا، لا يلقى غاشًا، لما عاين ما عاين من كرامة الله قال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝﴾ [يس:٢٦-٢٧]تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه.

---

(١) الإِسْكَافُ: هو صانع الأحذية، ومصلحها. الوجيز ص (٣١٦).

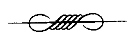
(٢) القَصَّارُ: المبيض للثياب. الوجيز ص (٥٠٤).

قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ [يس:٢٨] أي وما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم.

هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود. قال مجاهد وقتادة: وما أنزل عليهم جندًا، أي رسالة أخرى. قال ابن جرير: والأول أولى. قلت: وأقوى، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ [يس:٢٨] أي: وما كنا نحتاج في الانتقام إلى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس:٢٩].

قال المفسرون: بعثَ اللهُ إليه جبريلَ عليه السلام، فأخذ بِعِضَادَتَي[1] الباب الذي لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون، أي قد أخمدت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، ولم يبق منهم عَيْنٌ تَطْرِفُ. وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية، لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله إليهم، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم. فلهذا قيل: إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح. فأما الحديث الذي رواه الطبراني من حديث حسين الأشقر، عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «السُّبُقُ ثلاثةٌ: فالسابق إلى موسى: يوشع بن نون، والسابق إلى عيسى: صاحب يس، والسابق إلى محمد: علي بن أبي طالب»[2] فإنه حديث لا يثبت، لأن «حسين» هذا متروك شيعي من الغلاة، وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية. والله أعلم.



(١) عضادتا الباب: خشبتان منصوبتان مثبتتان على جانبي الحائط. الوجيز ص (٤٢٢).

(٢) أورده الألباني في ضعيف الجامع (٣٣٣٤) وضعفه، وعزاه السيوطي للطبراني في الكبير وابن مردويه عن ابن عباس، وانظر الضعيفة (٣٥٨).

قصة يونس عليه السلام

قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨].

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

قال علماء التفسير: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل «نينوي» من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عز وجل، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم، وَوَعَدَهُمْ حُلُولَ العذابِ بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسُوحَ [(١)] وفرَّقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله عز وجل، وصرخوا وتضرعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجالُ والنساءُ والبنون والبنات والأمهات.

وجَأَرَتْ [(٢)] الأنعام والدواب والمواشي، ورَغَتِ [(٣)] الإبل وفُصلانُها [(٤)]، وخَارَتِ [(٥)] البقر وأولادها، وثَغَتِ [(٦)] الغنم وحُمْلانُها [(٧)] وكانت ساعة عظيمة هائلة. فكشف الله العظيم - بحوله وقوته ورأفته ورحمته - عنهمُ العذابَ، الذي كان قد اتَّصَلَ بهم سَبَبُهُ، ودار على رءوسهم كَقِطْعِ الليل المظلم.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يونس: ٩٨] أي هلا وجدت فيما سلف من

---

(١) المسوح جمع مِسْح: وهو ثوب الراهب. الوجيز ص (٥٨١).
(٢) جأر: رفع صوته. الوجيز ص (٩٠).
(٣) رغا البعير ونحوُه رغوا ورغاء: صوت وضَجَّ. الوجيز ص (٢٧٠).
(٤) فصلان جمع فصيل: وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه. مختار الصحاح ص (٥٠٥).
(٥) الخُوَارُ: صوت البقر والثيران. الوجيز ص (٢١٤).
(٦) ثغت الشاة: صاحت. الوجيز ص (٨٤).
(٧) الحُمْلان جمع حَمَل: وهو الصغير من الضأن. الوجيز ص (١٧٢).

القرون قرية آمنت بكاملها، فدل على أنه لم يقع ذلك، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] أي: آمنوا بكاملهم.

وقد اختلف المفسرون: هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة، فينقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذهم من العذاب الدنيوي؟ على قولين:

الأظهر من السياق: نعم، والله أعلم. كما قال تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ [يونس: ٩٨] وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨] وهذا المتاع إلى حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي. والله أعلم. وقد كانوا مائة ألف لا محالة.

واختلفوا في الزيادة: فعن مكحول عشرة آلاف. وروى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زهير عمن سمع أبا العالية: حدثني أبي بن كعب، أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] قال: «يزيدون عشرين ألفًا»[1] فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب.

وعن ابن عباس: كانوا مائة ألف وثلاثين ألفًا، وعنه: وبضعة وثلاثين ألفًا، وعنه وبضعة وأربعين ألفًا، وقال سعيد بن جبير: كانوا مائة ألف وسبعين ألفًا.

واختلفوا: هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده؟ أو هما أمتان؟ على ثلاثة أقوال: هي مبسوطه في التفسير[2].

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضبًا بسبب قومه، ركب سفينة في البحر فَلَجَّتْ بهم، واضطربت ومَاجَتْ بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون.

قالوا: فتشاوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه. فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضًا، فَشَمَّرَ ليخلع ثيابه، ويلقى بنفسه، فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضًا، لما يريده الله به من الأمر العظيم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٢].

وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة أُلْقِى في البحر، وبعث الله عز وجل حوتًا عظيمًا من البحر الأخضر فالتقمه، وأمره الله تعالى ألا يأكل له لحمًا ولا يُهَشِّمْ له عظمًا فليس لك برزق، فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل: إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه. قالوا: ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت، فإذا هو حي فَخَرَّ لله ساجدًا وقال: يا رب. اتخذت لك مسجدًا في موضع لم يعبدك أحد في مثله. وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه،

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٢٩) وهو ضعيف. (٢) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣).

فقال مجاهد عن الشعبي: التقمه ضحًى ولفظه عشية، وقال قتادة: مكث فيه ثلاثًا، وقال جعفر الصادق: سبعة أيام. ويشهد له شعر أمية بن أبي الصلت:

وأنت بفضل منك نجيت يونسًا وقد بات في أضعاف حُوتٍ لياليا

وقال سعيد بن أبي الحسن وأبو مالك: مكث في جوفه أربعين يومًا. والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه.

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجِّيَّة، ويقتحم به لُجَجَ الموج الأجاجي، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى، فعند ذلك وهنالك، قال ما قال بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال. الذي يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضَعُفَتْ، وعالم الخفيات وإن دَقَّتْ، ومجيب الدعوات وإن عَظُمَتْ، حيث قال في كتابه المبين، المنزل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ﴾ [الأنبياء:٨٧] أي إلى أهله ﴿مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨] ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء:٨٧] أن نضيق عليه. وقيل معناه: نقدر[١] من التقدير وهي لغة مشهورة قدر وقدر كما قال الشاعر:

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت، ما تقدر يكن، فلك الأمر

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء:٨٧] قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك: ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل.

وقال سالم بن أبي الجعد: ابتلع الحوتَ حوتٌ آخر فصارت ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]. قيل: معناه فلولا أنه سبح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل والتسبيح، والاعتراف لله بالخضوع، والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة، ولبعث من جوف ذلك الحوت. وهذا معنى ما روى عن سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه.

وقيل معناه: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ﴾[الصافات:١٤٣] من قبل أَخْذِ الحوت له ﴿مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾[الصافات:١٤٣] أي: المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيرًا، قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وعطاء بن السائب والحسن البصري وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير.

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسولَ اللهِ ﷺ قال له: «يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تَعَرَّفْ إلى الله في

(١) انظر القاموس المحيط ص (٥٩١).

الرخاء يعرفك في الشدة» [١] روى ابن جرير في تفسيره والبزار في مسنده من حديث محمد بن إسحاق، عمن حدثه، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت: أن خذه ولا تخدش له لحمًا ولا تكسر له عظمًا. فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا، فقال في نفسه ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر. قال: فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكةُ تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة، قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح، الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل» [٢] كما قال الله: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥] هذا لفظ ابن جرير إسنادًا ومتنًا. ثم قال البزار: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. كذا قال.

وقد قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخي وهب، حدثنا عَمِّي، حدثني أبو صخر، أن يزيد الرقاشي حدثه: سمعت أنس بن مالك، ولا أعلم إلا أن أنسًا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ يقول: «إن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال: أما تعرفون ذاك؟ فقالوا: لا يارب ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟ قالوا: يا ربنا أوَ لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيَه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء» [٣]. ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به.

زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث، أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء، قال أبو هريرة: وهيأ الله له أروية [٤] وحشية تأكل من خشاش الأرض، أو قال: هشاش الأرض، قال: فتنفشخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت. وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتًا من شعره:

فأنبت يقطينًا عليه برحمة ... من الله لولا الله أصبح ضاويا

وهذا غريب أيضًا من هذا الوجه. ويزيد الرقاشي ضعيف، ولكن يتقوى بحديث أبي هريرة

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣)، والترمذي (٢٥١٦) كلاهما من طريق قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس فذكره مرفوعًا فهو صحيح. ولابن رجب الحنبلي رسالة قيمة في شرح هذا الحديث، وأسماها «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما». فليراجعها من أراد أن ينهل من معين هذه الوصية الغالية.

(٢) البزار كشف الأستار (٢٢٥٤)، وابن جرير (١٧/ ٨٠) وهو حديث منكر.

(٣) ابن أبي حاتم (١٣٧١٠)، وابن جرير (٢٣/ ١٠٠) وهو ضعيف.

(٤) الأُرْوِيَّةُ: أنثى الوعول. الوجيز ص (٢٨٣).

المتقدم، كما يتقوى ذاك بهذا. والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ [الصافات:١٤٥]أي: ألقيناه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ [الصافات:١٤٥]وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار، بل هو عارٍ منها، ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٥]أي ضعيف البدن. قال ابن مسعود: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال ابن عباس والسدي وابن زيد: كهيئة الصبي حين يولد وهو المنفوش ليس عليه شيء. ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات:١٤٦]قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاووس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخرساني وغير واحد: هو القرع.

قال بعض العلماء: في إنبات القرع عليه حِكَمٌ جمة، منها أن ورقه في غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نيًّا ومطبوخًا، وبقشره وببذره أيضا. وفيه نفعٌ كثيرٌ وتقويةٌ للدماغ وغير ذلك. وتقدم كلامُ أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها وترعى في البرية، وتأتيه بكرة وعشية. وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه. ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [الأنبياء:٨٨]أي: الكرب والضيق الذي كان فيه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨]أي: وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا.

قال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثني بشر بن منصور، عن عَلى بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى. دعوة يونس بن متى» قال: فقلت: يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨] فهو شرطٌ من الله لمن دعاه به» [(١)].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب - يعني ابن سعد - عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعاء يونس استجيب له» [(٢)] قال أبو سعيد الأشج: يريد به: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨]. وهذان طريقان عن سعد.

وثالث أحسن منهما: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عمير، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد، حدثني والدي محمد، عن أبيه سعد - وهو ابن أبي وقاص رضي الله عنه - قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه، فملأ عينيه مني ثم لم يرد على السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في السلام شيء؟

(١) ابن جرير (١٧/ ٨٢) وهو صحيح بمجموع طرقه.
(٢) ابن أبي حاتم (١٣٧١٣).

قال: لا. وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أني مررت بعثمان آنفا في المسجد فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فملأ عينيه مني ثم لم يردد عليّ السلام قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلى، حتى حلف وحلفت. قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفًا، وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ: لا والله ما ذكرتها قط إلا تَغْشَى بصري وقلبي غِشَاوَةٌ، قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض فالتفت إليّ رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: «فمه؟» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: «نعم، دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فإنه لم يدعُ بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له»[١] ورواه الترمذي والنسائي من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به.

ذكر فضل يونس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩] وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن مَتَّى»[٢]. ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري به.

وقال البخاري أيضًا: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى»[٣] ونسبه إلى أبيه. ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به، قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه: لم يسمع قتادةُ من أبي العالية سوى أربعة أحاديث، وهذا أحدها.

وقد رواه الإمام أحمد عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف ابن مهران، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «وما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[٤]. تفرد به أحمد.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٠)، والترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٥٥)، (٦٥٦) كلهم من طريق إبراهيم بن محمد بن سعد به.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٠، ٤٤٠، ٤٤٣)، والبخاري (٤/ ١٩٣) (٦/ ٦٢، ١٥٥)، والنسائي في الكبرى (٩٢٦٦ تحفة) كلهم من طريق الأعمش به.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٢، ٢٥٤، ٣٤٢، ٣٤٨)، والبخاري (٤/ ١٨٦، ١٩٣)، (٦/ ٧١)، (٩/ ١٩٢)، ومسلم (٧/ ١٠٢)، وأبو داود (٤٦٦٩) كلهم من طريق قتادة به.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٤، ٢٩١، ٢٩٥، ٣٠١، ٣٢٠)، وعبد بن حميد (٦٦٥) كلاهما من طريق حماد ابن سلمة به.

ورواه الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبي يحيى العتاب، عن مجاهد، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا عند الله خير من يونس بن متى»[١]. إسناده جيد ولم يخرجوه.

وقال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن سعد بن إبراهيم، سمعت حميد ابن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[٢]. وكذا رواه مسلم من حديث شعبة به.

وفي البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال: لا والذي اصطفى موسى على العالمين. قال البخاري في آخره: «ولا أقول: إن أحدًا أفضل من يونس بن متى»[٣] وهذا اللفظ يقوى أحد القولين من المعنى: «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[٤] أي ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس.

والقول الآخر: لا ينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى. كما قد ورد في بعض الأحاديث: «لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى»[٥] وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر أنبياء الله المرسلين.



(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١١٢٢) وسنده ضعيف.
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٥، ٤٦٨، ٥٣٩)، والبخاري (٤/ ١٩٤)، (٦/ ٧١)، ومسلم (٧/ ١٠٢) كلهم من طريق سعد بن إبرهيم به.
(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٩٣)، (٨/ ١٣٤)، ومسلم (٧/ ١٠٠، ١٠١) والنسائي في الكبرى (١٠/ ١٣٩٣٩ تحفة) كلهم من طريق الأعرج به.
(٤) سبق تخريجه. (٥) سبق تخريجه.

ذكر قصة موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم
قصة موسى عليه السلام من مولده إلى نهاية القصة
الجزء الأول من قصة موسى عليه السلام

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١-٥٣]

وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن [1]، وذكر قصته في مواضع متعددة مبسوطة وغير مطولة. وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضع من التفسير. وسنورد سيرته هاهنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة، وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

قال الله تعالى: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ١-٦].

يذكر الله تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا، فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق، أي: بالصدق الذي كأن سَامِعَهُ مشاهد للأمر معاين له.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤] أي: تَجَبَّرَ وعَتَا وطَغَى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤] أي: قسّم رعيته إلى أقسام، وفِرَقٍ وأنواع، ويستضعف طائفة منهم، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله. وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض.

وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأردئها وأدناها، ومع هذا ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه، وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها. وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم،

---

(١) ذكر موسى ﷺ في القرآن مائة وستًا وثلاثين مرة.

ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وأساورته، وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل، حذرًا من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر.

وذكر السدي عن أبي صالح وأبي مالك، عن ابن عباس، وعن مُرَّة عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى في منامه، كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضر بني إسرائيل. فلما استيقظ هَالَه ذلك، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة، وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٥] وهم بنو إسرائيل، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥] أي: الذين يئول ملك مصر وبلادها إليهم: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٦] أي: سنجعل الضعيف قويا والمقهور قاهرًا والذليل عزيزًا، وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف:١٣٧] الآية. وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٩] وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله.

والمقصود أن فرعون احترز [١] كل الاحتراز ألا يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته. وعند أهل الكتاب: أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان، لتضعف شوكة بني إسرائيل، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم. وهذا فيه نظر، بل هو باطل. وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ [غافر:٢٥] ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ [الأعراف:١٢٩].

فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً، حذرًا من وجود موسى. هذا، والقدر يقول: يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه، قد حكم العظيم الذي لا يُغَالَبُ ولا يُمَانَعُ، ولا تُخَالَفُ أقدارُه، أن هذا المولود الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يُغَذَّى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتفداه، ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ماجاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق، أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد، ذو البأس العظيم، والحول والقوة، والمشيئة التي لامرد لها!.

---

(١) احترز منه: توقاه. الوجيز ص (١٤٤).

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل، بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فرعون بقتل الأبناء عامًا وأن يُتْرَكُوا عامًا فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء، وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم، فضاقت أُمُّهُ به ذرعًا واحترزت من أول ماحبلت، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحَبَل. فلما وضعت أُلْهِمَتْ أن اتخذت له تابوتًا، فربطته في حَبْلٍ وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابُوتِ [1] فأرسلته في البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٧-٩].

هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]. وليس هو بوحي نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة.

قال السهيلي: واسم أم موسى «أيارخا» وقيل، «أياذخت» والمقصود أنها أُرْشِدَتْ إلى هذا الذي ذكرناه، وأُلْقَى في خُلْدِها وروعها ألا تخافي ولا تحزني، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبيًا مرسلًا، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة، فكانت تصنع ماأمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٨]، قال الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]

قال بعضهم: هذه (لام) العاقبة، وهو ظاهر إن كان متعلقًا بقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾ وأما إن جعل متعلقًا بمضمون الكلام، وهو أن آل فرعون قُيِّضُوا لالتقاطه ليكون لهم عدوًا وحزنًا، وصارت اللام معللة كغيرها والله أعلم. ويقوى هذا التقدير الثاني قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ [القصص: ٨] وهو الوزير السوء ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ التابعين لهما ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: كانوا على خلاف الصواب، فاستحقوا هذه العقوبة والحَسْرَةَ.

وذكر المفسرون: أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه، حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون «آسية» بنت مزاحم بن عبيد بن الريان ابن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف، وقيل: إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى. وقيل: بل كانت عمته، حكاه السهيلي. فالله أعلم. وسيأتي مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران، وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ﷺ في الجنة.

(١) التابوت: الصندوق الذي يحرز فيه المتاع. الوجيز ص (٧٠).

فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب، ورأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حبًا شديدًا جدًا فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص:٩]فقال لها فرعون: أما لك فنعم وأما لي فلا، أي لا حاجة لي به. والبلاء موكل بالمنطق! وقولها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [القصص:٩]قد أنالها الله ما رجت منه من النفع أما في الدنيا فهداها الله به، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص:٩]وذلك أنهما تبنياه، لأنه لم يكن يولد لهما ولد، قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:٩]أي لايدرون ماذا يريد الله بهم، أن قيضهم لالتقاطه، من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده؟ وعند أهل الكتاب أن التي التقطت موسى «دربته» ابنة فرعون وليس لامرأته ذكر بالكلية وهذا من غلطهم على كتاب الله عز وجل.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:١٠-١٣].

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص:١٠]أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القصص:١٠]أي لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:١٠]أي صبرناها وثبتناها ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:١٠]وقالت لأخته، وهي ابنتها الكبيرة: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي اتبعي أثره، واطلبي لي خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ [القصص:١١]قال مجاهد: عن بعد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده. ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١]وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يُغَذُّوه برضاعة فلم يقبل ثديًا ولا أخذ طعامًا، فحاروا في أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل. كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص:١٢]فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته. فبينما هم وقوف به والنساء عكوف عليه إذ بصرت به أُخْتُهُ، فلم تُظْهِرُ أنها تعرفه بل قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص:١٢].

قال ابن عباس: لما قالت ذلك، قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة في سرور الملك ورجاء منفعته. فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه، فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهب البشير إلى «آسية» يُعْلِمُهَا بذلك، فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تحسن إليها. فأبت عليها وقالت إن لي بعلاً وأولادًا، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي.

فأرسلته معها، ورتبت لها رواتب، وأجرت عليها النفقات والكساوي والهبات، فرجعت ب

تحوزه[١] إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها. قال الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص:١٣] أي كما وعدناها برده ورسالته، فهذا رده، وهو دليل على صدق البشارة برسالته. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٧]. وقد امتن الله تعالى على موسى بهذا ليلة كَلَّمه، فقال له فيما قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٧-٣٩]. وذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩] قال قتادة وغير واحد من السلف: أي: تُطْعَم وتُرَفَّه وتُغَذَّي بأطيب المآكل، وتلبس أحسن الملابس بمرأي مني، وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك، وقدرته من الأمور التي لايقدر عليها غيري.
﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه:٤٠] وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:١٤-١٧].

لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك، وامتنانه عليها، شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، وهو احتكام الخَلْق والخُلُق، وهو سن الأربعين في قول الأكثرين، آتاه الله حكمًا وعلمًا، وهو النبوة والرساله التي كان بشر بها أمه حين قال: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧].

ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك، حتى كَمُلَ الأجل وانقضي الأَمَدُ، وكان ماكان من كلام الله له، وإكرامه بما أكرمه به، كما سيأتي.

فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص:١٥] قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي: وذلك نصف النهار، وعن ابن عباس: بين العشائين.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ [القصص:١٥] أي: يتضاربان ويتهاوشان[٢] ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [القصص:١٥] أي: إسرائيلي. ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥] أي قبطي. قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق. ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥] وذلك أن موسى عليه السلام، كانت له بديار مصر صولة، بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عَزُّوا وصارت لهم وجاهة، وارتفعت رءوسهم بسبب أنهم أرضعوه، وهم أخواله - أي من الرضاعة - فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه

(١) حاز فلان الشيء: ضمه وملكه. الوجيز ص (١٧٧).
(٢) هاش القوم هَوْشًا: هاجوا واضطربوا. الوجيز ص (٦٥٥).

موسى ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ قال مجاهد: أي طعنه بجمع كفه، وقال قتادة: بعصًا كانت معه، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥] أي فمات منها.

وقد كان ذلك القبطي كافرًا مشركًا بالله العظيم، ولم يرد موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه، ومع هذا ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ [القصص:١٥-١٧] أي من العز والجاه ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:١٧].

قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٨ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٩ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفًا - أي من فرعون وَملَئِه - أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رُفِعَ إليه أمره، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، ويترتب على ذلك أمر عظيم. فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨] أي يتلفت، فبينما هو كذلك، إذ ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه، أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله فعَنَّفَه موسى ولامه على كثره شره ومخاصمته، قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٨] ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي، الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي، فيردعه عنه ويخلصه منه، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص:١٩].

قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه، لما عنفه قبل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٨] فقال ما قال لموسى، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس. فذهب القبطي فاستعدي فرعون على موسى. وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه.

ويُحْتَمَلُ أن قائل هذا هو القبطي، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه، ورأى من سجيته انتصارًا جديدًا للإسرائيلي. فقال ماقال من باب الظن والفراسة: إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه[1] عليه ما دله على هذا. والله أعلم. والمقصود أن فرعون بَلَغَه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب. ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ [القصص:٢٠] ساعيًا إليه مشفقًا عليه فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ [القصص:٢٠] أى: من هذه البلدة، ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص:٢٠] أى فيما أقوله لك.

---

(١) يعني: استغاث به. الوجيز ص (٣٦٣).

الجزء الثاني من قصة موسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[القصص:٢١] أي فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لايهتدي إلى طريق ولا يعرفه، قائلا: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص:٢١-٢٤].

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفًا يترقب، أي يتلفت، وخشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجه، ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾[القصص:٢٢] أي اتجه له طريقًا يذهب فيه، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[القصص:٢٢] أي عسى أن تكون هذه الطريقة موصلة إلى المقصود. وكذا وقع، فقد أوصلته إلى مقصود وأي مقصود.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ﴾[القصص:٢٣] وكانت بئرًا يستقون منها، ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء. ولما ورد الماء المذكور ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾[القصص:٢٣] أي تكفكفان عنهما غنمهما أن تختلط بغنم الناس.

وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات، وهذا أيضًا من الغلط، ولعلهن كن سبعًا، ولكن إنما كانتا تسقى اثنتان منهن، وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظًا، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[القصص:٢٣] أي لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء - لضعفنا - وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره.

قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾[القصص:٢٤] قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وِرْدِهم، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم رد الحجر كما كان قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة، وإنما استقى ذَنُوبًا[1] واحدًا فكفاهما. ثم تولى إلى الظل، قالوا: وكان ظل الشجرة من السمر وروى ابن جرير عن ابن مسعود، أنه رآها خضراء ترف ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص:٢٤].

قال ابن عباس: سار من مصر إلي مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلي شق تمرة قال عطاء بن السائب لما قال: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص:٢٤] أسمع المرأة.

(١) الذَّنُوب: الدلو العظيمة. الوجيز ص (٢٤٧).

لقوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص :٢٥-٢٨].

لما جلس موسى عليه السلام في الظل وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص :٢٤] سمعته المرأتان فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما، فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه السلام. فأمر إحداهما، أن تذهب إليه فتدعوه ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص :٢٥] أي: مشى الحرائر، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص :٢٥] صرحت له بهذا لئلا يُوهِمَ كلامها ريبة [1]. وهذا من تمام حيائها وصيانتها: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ [القصص :٢٥] وأخبره خبره وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فرارًا من فرعونها ﴿قَالَ﴾ له ذلك الشيخ: ﴿لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص :٢٥] أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم. وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟ فقيل هو شعيب عليه السلام. وهذا هو المشهور عند كثيرين، وممن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس، وجاء مصرحًا به في حديث، ولكن في إسناده نظر. وصرح طائفة بأن شعيبًا عليه السلام عاش عمرًا طويلاً بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته.

وروى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري: أن صاحب موسى عليه السلام هذا، اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين. وقيل: إنه ابن أخي شعيب، وقيل: ابن عمه، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وقيل: رجل اسمه «يثرون» هكذا هو في كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين. أي كبيرها وعالمها.

وقال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمه يثرون. زاد أبو عبيدة: وهو ابن أخي شعيب، وزاد ابن عباس: صاحب مدين. والمقصود: أنه لما أضافه وأكرم مثواه، وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص :٢٦] أي لرعي غنمك، ثم مدحته بأنه قوي أمين.

قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لما قالت ذلك، قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟ فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال: كوني من ورائي، فإذا اختلف الطريق فاقذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف :٢١] وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص :٢٦]

(١) الرِّيبة: الظن والشك والتهمة. الوجيز ص (٢٨٣).

وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص:٢٧]استدل بهذه جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمة الله، على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك، أنه يصح، لقوله: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ [القصص:٢٧]وفي هذا نظر، لأن هذه مراوضة لا معاقدة. والله أعلم.

واستدل أصحابُ أحمد على صحة الاستئجار بالطعمة والكسوة، كما جرت به العادة، واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجة في سننه مترجمًا عليه في كتابه: «باب استئجار الأجير على طعام بطنه» [1]حدثنا محمد بن المصفي الحمصي، حدثنا بقية بن الوليد، عن مسلمة بن علي، عن سعيد بن أيوب، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح قال: سمعت عتبة بن المنُّذر يقول: كنا عند رسول الله ﷺفقرأ: ﴿طسٓمٓ﴾ [القصص:١]حتى إذا بلغ قصة موسى، قال: «إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثماني سنين - أو عشر سنين - على عفة فرجه وطعام بطنه». وهذا الحديث من هذا الوجه لا يصح، لأن مسلمة بن علي الخشني الدمشقي البلاطي ضعيف عند الأئمة لا يحتج بتفرده.

ولكن قد روى من وجه آخر، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى ابن عبد الله بن بكر، حدثني ابن لهيعة. وحدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن النُّدَّر السلمي صاحب رسول الله ﷺيحدث أن رسول الله ﷺقال: «إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه» [2].

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٨] يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان علي والله على مقالتنا سامع وشاهد، ووكيل علي وعليك، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة.

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضي موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، أن رسول الله إذا قال فعل. تفرد به البخاري من هذا الوجه، وقد رواه النسائي

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٤) به، وفي الزوائد: إسناده ضعيف لأن فيه بقية، وهو مدلس، وليس لبقية هذا عند ابن ماجه سوى هذا الحديث، وليس له شيء في بقية الكتب الخمسة. وقال في المسند الجامع (١٢/٤٠٦) رقم (٩٦٢٧): تحرف في المطبوع: إلى (طسم) - والصواب طس - وصوبناه من نسختنا الخطية من مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (١٥٣)، وتحفة الأشراف (٧/ ٩٧٥٩)، وجامع المسانيد والسنن (٣/ الورقة ١٦٠).

(٢) برقم (١٦٨٥٦) وفي إسناده ضعف.

في حديث الفتون، كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير به [١]

وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطوسي، وابن أبي حاتم. عن أبيه. كلاهما عن الحميدي، عن سفيان بن عيينة، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما». وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث [٢].

وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي، عن سفيان بن عيينة، عن إبراهيم بن أعين، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره [٣]

وقد رواه سنيد عن حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد مرسلاً. أن رسول الله ﷺ سأل عن ذلك جبريل فسأله جبريلُ إسرافيلَ، فسأله إسرافيلُ الربَّ عز وجل فقال: «أبرهما وأوفاهما» [٤]. وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرج مرسلاً. ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب، أن رسول الله ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما وأتمهما» [٥]. وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران الجوني، وهو ضعيف، عن أبيه عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبرهما» قال: «وإن سئلت أي المرأتين تزوج؟ فقال الصغرى منهما» [٦].

وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح، عن عتبة بن النُّدَّر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه» فلما وفي الأجل قيل: يا رسول الله... أي الأجلين؟ قال: «أبرهما وأوفاهما». فلما أراد فراق شعيب سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت من غنمه، من قالب لون من ولد ذلك العام، وكانت غنمه سودًا حسانًا، فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها ثم وضعها في أدني الحوض، ثم أوردها فسقاها، ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة، قال: «فأتأمت وألبنت» ووضعت كلها في قوالب ألوان، إلا شاة أو شاتين، ليس فيها فَشُوشٌ، ولا ضَبُوبٌ، ولا عَزُوزٌ، ولا ثَعُولٌ، ولا كَمُوشٌ تفوت الكف، قال النبي ﷺ: «لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية» [٧].

قال ابن لهيعة: «الفشوش: واسعة الشَّخْبِ [٨]، والضبوب: طويلة الضرع تجره. والعزوز: ضيقة الشخب. والثعول: الصغيرة الضرع كالحلمتين، والكموش: التي لا يحكم الكف على

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٨٤).
(٢) أخرجه الحميدي (٥٣٥) به.
(٣) انظر كشف الأستار (٢٢٤٥).
(٤) ورواه ابن جرير (١١/ ٢٠/ ٦٨).
(٥) ابن جرير (١١/ ٢٠/ ٦٨) وهو مرسل.
(٦) رواه ابن أبي حاتم برقم (١٦٨٦٤)، والبزار (٢٢٤٤) كما في كشف الأستار.
(٧) ابن أبي حاتم (١٦٨٦٧)، والبزار (٢٢٤٦). كما في كشف الأستار. وفي إسناده ابن لهيعة. والموقوف على ابن عباس أصح وهو الذي خرجه البخاري وكذلك الموقوف على أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٨) الشخب: ما خرج من الضرع من اللبن. القاموس المحيط ص (١٢٨). الوجيز ص (٣٣٧).

ضرعها لصغره» . وفي صحة رفع هذا الحديث نظر . وقد يكون موقوفًا كما قال ابن جرير : حدثنا محمد بن المثني، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال : «لما دعا نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها، فعمد موسى فوضع حبالا على الماء فلما رأت الحبال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بُلقًا إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام» وهذا إسناد جيد رجاله ثقات . والله أعلم .
وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله «لابان» أنه أطلق له ما يولد من غنمه بُلقًا، ففعل نحو ما ذكرنا عن موسى عليه السلام . فالله أعلم .



الجزء الثالث من قصة موسى عليه السلام

قال الله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [القصص:٢٩-٣٢].

تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما، وقد يؤخذ هذا من قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص:٢٩]وعن مجاهد: أنه أكمل عشرًا وعشرًا بعدها. وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي من عند صهره، زاعمًا - فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم - أنه اشتاق إلى أهله، فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مُتخّف. فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه قالوا: واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة، وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف، وجعل يورى زناده فلا يورى شيئًا، واشتد الظلام والبرد.

فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد نارًا تأجج في جانب الطور - وهو الجبل الغربي منه - عن يمينه ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [القصص:٢٩] وكأنه والله أعلم رآها دونهم، لأن هذه النار هى نور في الحقيقة، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص:٢٩] أي: لعلي أستعلم من عندها عن الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:٢٩] فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة. لقوله في الآية الأخرى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه:٩-١٠] فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق، وجمع الكل في سورة النمل في قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:٧] وقد آتاهم منها بخبر وأي خبر، ووجد عندها هدي وأى هدى، واقتبس منها نورًا وأي نور؟.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [القصص:٣٠].

وقال في النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل:٨] أي سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل:٩].

وقال تعالى في سورة طه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه:١١-١٦].

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى تلك النار التي رآها فانتهى

إليها، وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج (أي الشوك) وكل ما لتلك النار في اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد. فوقف متعجبًا، وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص:٤٤] وكان موسى في وادٍ اسمه «طوى» فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربه بالواد المقدس طوى، فأمره أولا بخلع نعليه تعظيمًا وتكريمًا وتوقيرًا لتلك البقعة المباركة، ولا سيما في تلك الليلة المباركة. وعند أهل الكتاب: أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور، مهابة له وخوفًا على بصره. ثم خاطبه الله تعالى كما يشاء قائلا له: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص:٣٠].

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه:١٤] أي أنا رب العالمين الذي لا إله إلا هو، الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له. ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار، وإنما الدار الباقية يوم القيامة، التي لا بد من كونها ووجودها: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:١٥] أي: من خير وشر، وحضه وحثه على العمل لها، ومجانبة [1] من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه. ثم قال له مخاطبًا ومؤانسًا ومبينًا له أنه القادر على كل شيء، والذي يقول للشيء كن فيكون: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:١٧] أي أما هذه عصاك التي تعرفها منذ صحبتها؟ ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨] أي بلى هذه هي عصاي التي أعرفها وأتحققها، ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:١٩-٢٠] وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون، وإنه الفعال بالاختيار.

وعند أهل الكتاب: أنه سأل برهانًا صادقًا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر، فقال له الرب عز وجل: ما هذه التي بيدك؟ قال: عصاي، قال: ألقها إلى الأرض ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠] فهرب موسى من قدامها، فأمر الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذ بذنبها، فلما استمكن منها ارتدت عصا في يده. وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:٣١] أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك [2]، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان، وهو ضرب من الحيات يقال له: الجان والجنان، وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جدًا، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة. فلما عاينها موسى عليه السلام: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ [القصص:٣١] أي هاربًا منها، لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:٣١] أي ولم يلتفت، فناداه ربه قائلاً له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص:٣١] فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه:٢١] فيقال: إنه هابها شديدًا، فوضع يده في كم مدرعته، ثم وضع يده في وسط فمها. وعند أهل الكتاب: أمسك بذنبها، فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين، فسبحان

---

(١) يعني: اجتناب، واجتنبه: ابتعد عنه. الوجيز ص (١١٩).

(٢) يعني: تضطرب. الوجيز ص (٣٦٧).

القدير العظيم، رب المشرقين والمغربين، ثم أمره الله تعالى بإدخال يده في جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضًا من غير سوء، أي: من غير بَرَصٍ ولا بَهَقٍ، ولهذا قال: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص:٣٢] قيل معناه: إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك. وهذا وإن كان خاصًا به، إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

وقال في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل:١٢] أي هاتان الآيتان وهما: العصا واليد، وهما البرهانان المشار إليهما في قوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص:٣٢] ومع ذلك سبع آيات أخر. فذلك تسع آيات بينات وهي المذكورة في آخر سورة سبحان، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠١-١٠٢].

وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣٣].

كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه. وهذه التسع الآيات غير العشر الكلمات. فإن التسع من كلمات الله القدرية، والعشر من كلماته الشرعية، وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة، فظن أن هذه هي هذه، كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل.

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٣-٣٥].

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام، في جوابه لربه عز وجل، حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فرارًا من سطوته[1] وظلمه، حين كان من أمره ماكان في قتل ذلك القبطي ولهذا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص:٣٣-٣٤] أي: اجعله معي معينًا وردءًا ووزيرًا يساعدني، ويعنني على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لسانًا وأبلغ بيانًا.

قال الله تعالى مجيبًا له إلى سؤاله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ [القصص:٣٥] أي برهانًا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص:٣٥] أي فلا ينالون منكما مكروهًا بسبب قيامكما بآياتنا، وقيل

(١) بطشه وقهره. الوجيز ص (٣١٠).

ببركة آياتنا. ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص :٣٥].

وقال في سورة طه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه :٢٤-٢٨]قيل إنه أصابه في لسانه لثغة [(١)]، بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله، فخافت عليه آسية وقالت: إنه طفل، فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلي الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها. فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية. قال الحسن البصري: والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت في لسانه بقية.

ولهذا قال فرعون – قبحه الله – فيما زعم أنه يعيب به الكليم: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف :٥٢]أي: يفصح عن مراده، ويعبر عما في ضميره وفؤاده. ثم قال موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه :٢٩-٣٦].

أي قد أجبناك إلى جميع ماسألت، وأعطيناك الذي طلبت. وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه، وهذا جاه عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب :٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم :٥٣].

وقد سَمِعَتْ أم المؤمنين عائشة رجلًا يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحج: أي أخ آمَن على أخيه؟ فسكت القوم، فقالت عائشة لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحى إليه. قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم :٥٣].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٠-١٩].

تقدير الكلام: فأتياه فقالا له ذلك، وبلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له، وأن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه.

فتكبر فرعون في نفسه وعتا [(٢)] وطغى، ونظر إلي موسى بعين الازدراء والتنقص قائلا له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء :١٨] أي أما أنت الذي ربيناه في منزلنا؟ وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر؟ وهذا يدل على أن فرعون الذي بعث إليه هو الذي فر منه، خلافًا لما

(١) لثغ: تحول لسانه من حرف إلى حرف غيره، كأن يجعل السين تاء أو الراء غينًا. الوجيز ص (٥٥١).
(٢) عتا: استكبر وجاوز الحد. الوجيز ص (٤٠٦).

عند أهل الكتاب: من أن فرعون الذي فر منه مات في مدة مقامه بمدين، وأن الذي بعث إليه فرعون آخر.

وقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩] أي وقتلت الرجل القبطي، وفررت منا وجحدت نعمتنا. ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي قبل أن يوحى إلى وينزل على، ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]. ثم قال مجيبًا لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي وهذه النعمة التي ذكرت، من إنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله، واستعبدتهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨].

يذكر الله تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجة والمناظرة، وما أقامة الكليم على فرعون اللئيم، من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية. وذلك أن فرعون -قبحه الله- أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى وزعم أنه الإله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]. وهو في هذه المقالة معاند، يعلم أنه عبد مربوب، وأن الله هو الخالق البارئ المصور، الإله الحق كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. ولهذا قال لموسى - عليه السلام - على سبيل الإنكار لرسالته، والإظهار أنه ما ثَمَّ رَبٌّ أرسله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] لأنهما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] فكأنه يقول لهما: ومَنْ رب العالمين؟ الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما؟ فأجابه موسى قائلاً: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] يعني: رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة، وما بينهما من المخلوقات المتعددة، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق. وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين.

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ [الشعراء: ٢٥] من أمرائه ومرازبته ووزرائه، على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥] يعني: كلامه هذا.

﴿قَالَ﴾ موسى مخاطبًا له ولهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم، من الآباء والأجداد، والقرون السالفة في الآباد، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه، ولا أبوه ولا أمه، ولا يَحْدُثُ مِنْ غَيْرِ مُحْدِثٍ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين.

وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومع هذا كله لم يَسْتَفِقْ فرعون من رقدته، ولا نَزَعَ عن ضلالته، بل استمر على طغيانه وعناده

وكقراته: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء :٢٧-٢٨] أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة، المسير للأفلاك الدائرة. خالق الظلام والضياء، ورب الأرض والسماء، رب الأولين والآخرين، وخالق الشمس والقمر، والكواكب السائرة، والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون، وفي فلك يسبحون، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون. فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء.

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه، ولم يبق له قول سوى العناد، عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [الشعراء :٢٩-٣٣].

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما، وهما العصا واليد، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم، الذي بهر به العقول والأبصار، حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، أي عظيم الشكل، بديع في الضخامة والهول، والمنظر العظيم الفظيع الباهر، حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه، أخذه رهب شديد وخوف عظيم، بحيث إنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة في اليوم، وكان قبل ذلك لا يتبرز في كل أربعين يومًا إلا مرة واحدة، فانعكس عليه الحال.

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها، أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نورًا يبهر الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى.

ومع هذا كله لم ينتفع فرعون - لعنه الله - بشيء من ذلك، بل استمر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم في رعيته وتحت قهره ودولته، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه، من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه، وأهل دولته وملته. ولله الحمد والمنة.

وقال تعالى في سورة طه: ﴿. . . فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ۝ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٠-٤٦]. ويقول تعالى مخاطبًا لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه، وأنعم بالنبوة عليه، وكلمه منه إليه: قد كنت مشاهدًا لك وأنت في دار فرعون، وأنت تحت كنفي[1] وحفظي ولطفي، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدبيري، فَلَبِثْتَ فيها سنين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾[طه :٤٠] أي مني لذلك، فوافق ذلك تقديري وتسييري ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[طه :٤١] أي اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي.

(١) كنف الله: رحمته وستره وحفظه. الوجيز ص (٥٤٣).

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه: ٤٢]يعني ولا تفترا في ذكري إذ قدمتما عليه ووفدتما إليه، فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته، وأداء النصيحة إليه وإقامة الحُجَّة عليه.
وقد جاء في بعض الأحاديث: يقول الله تعالى: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه» وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ثم قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤] وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره، وهو إذ ذاك أدرى بخلقه، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتي هي أحسن برفق ولين، ويعاملاه بألطف معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى. كما قال لرسوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. قال الحسن البصري: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] أعذرا إليه، قولا له: إن لك ربًا ولنا معادًا، وإن بين يديك جنة ونارًا

وقال وهب بن منبه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ﴾ [طه: ٤٤] إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة. وقال يزيد الرقاشي عند هذه الآية: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟ ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] وذلك أن فرعون كان جبارًا عنيدًا وشيطانًا مريدًا، له سلطان في بلاد مصر طويل عريض، وجاه وجنود، وعساكر وسطوة فهاباه من حيث البشرية، وخافا أن يسطو عليهما في بادئ الأمر، فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى فقال: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥].
﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٧-٤٨] يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى، أن يعبده وحده لا شريك له وأن يرسل معهما بني إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم. ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾[طه: ٤٧] وهو البرهان العظيم في العصى واليد، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[طه: ٤٧] تقييد مفيد بليغ عظيم، ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب فقالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[طه: ٤٨] أي كذب بالحق بقلبه، وتولى عن العمل بقالبه.

وقد ذكر السدي وغيره: أنه لما قدم من بلاد مدين، دخل على أمه وأخيه هارون، وهما يتعشيان من طعام فيه «الطفشيل» وهو اللفت، فأكل معهما، ثم قال: يا هارون. إن الله أمرني وأمرك أن ندعوا فرعون إلى عبادته، فقم معي.

فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق. فقال موسى للبوابين والحجبة، أعلموه أن رسول الله بالباب، فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به. وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين

طويل، وقال محمد بن إسحاق: أذن لهما بعد سنتين، لأنه لم يك أحد يتجاسر [1] على الاستئذان لهما. فالله أعلم. ويقال: إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه، فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما، فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما.

وعند أهل الكتاب: أن الله قال لموسى عليه السلام: إن هارون اللاوي - يعني الذي من نسل لاوي بن يعقوب - سيخرج ويتلقاك، وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى فرعون، وأمره أن يظهر ما آتاه من الآيات وقال له: إني سأقسي قلبه فلا يرسل الشعب، وأكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر.

وأوحى الله إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه. فلما دخلا مصر جمعًا شيوخ بني إسرائيل وذهبا إلى فرعون، فلما بلّغاه رسالة الله قال: من هو الله؟ لا أعرفه ولا أرسل بني إسرائيل.

وقال الله مخبرًا عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٤٩-٥٥].

يقول الله تعالى مخبرًا عن فرعون: إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩-٥٠] أي هو الذي خلق الخلق وقدر لهم أعمالاً وأرزاقًا وآجالاً، وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له، فطابق عمله فيهم على الوجه الذي قدره وعلمه، لكمال علمه وقدرته وقدره.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:١-٣] أي قدر قدرًا وهدى الخلائق إليه.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه:٥١] يقول فرعون لموسى: فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادي الخلائق لما قدره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه، فلم عبد الأولون غيره؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت؟ فهلا اهتدي إلى ما ذكرته القرون الأولى؟ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] أي هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك، ولا يدل على خلاف ما أقول لأنهم جهلة مثلك، كل شيء فعلوه مسطر عليهم في الزبر، من صغير وكبير، وسيجزيهم على ذلك ربي عز وجل، ولا يظلم أحدًا مثقال ذرة، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربي شيئًا. ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء، وجَعلهُ الأرض مهادًا [2] والسماء سقفًا محفوظًا، وتَسْخِيرَهُ السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم، كما قال الله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه:

---

(١) يتشجع ويجرؤ. الوجيز ص (١٠٥).

(٢) مبسوطة: يمكن العيش عليها. الوجيز ص (٥٩٣).

:٥٤] أي لذوي العقول الصحيحة المستقيمة. والفطر القويمة غير السقيمة، فهو تعالى الخالق الرزاق، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر، واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال: ﴿مِنْهَا﴾ أي من الأرض ﴿خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥] كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٦-٥٩].

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله، في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى: إن هذا الذي جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم.

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام: أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس. ولهذا قال ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه:٥٩] وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩] أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام، كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهارًا جهرة، لأنه على بصيرة من ربه، ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رَغِمَتْ أنوف[1] القبط!.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٠-٦٤].

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء، في فنهم غاية، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خَلْقٌ كثير وجَمٌّ غفير، فقيل: كانوا ثمانين ألفًا - قاله محمد بن كعب - وقيل سبعين ألفًا قاله القاسم بن أبي بردة، وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفًا، وعن أبي أمامة: تسعة عشر ألفًا، وقال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفًا. وقال كعب الأحبار: كانوا اثنى عشر ألفًا.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: كانوا سبعين رجلاً، وروى عنه أيضًا أنهم كانوا أربعين غلامًا

(١) رَغَم فلانًا: قسره وأذله. رَغِم أنفه: ألصقه بالتراب. الوجيز ص (٢٦٩).

من بني إسرائيل، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العُرَفاء فيتعلموا السحر، ولهذا قالوا: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ [طه :٧٣]وفي هذا نظر.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم. وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء :٤٠]. وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم، وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ [طه :٦١-٦٢].

قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم، فقائل يقول: هذا كلام نبي وليس بساحر، وقائل منهم يقول: بل هو ساحر .. فالله أعلم. وأسروا التناجي بهذا وغيره. ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ [طه :٦٣]يقولون: إن هذا وأخاه هارون، ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما ويصولا [١]على الملك وحاشيته، ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة.

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه :٦٤]وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا، ويأتوا بجميع ماعندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان، وهيهات، كذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء، أَنَّي يُعَارِضُ البهتان، والسحر والهذيان خوارق العادات التي أجراها الديان، على يدي عبده الكليم، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان، الذي يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان. وقولهم: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ [طه :٦٤]أي جميع ماعندكم ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ [طه :٦٤]أي جملة واحدة، ثم حضوا بعضكم بعضًا على التقدم في هذا المقام، لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه :٦٥-٦٩].

ولما اصْطَفَّ السحرةُ ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له: إما أن تلقي قبلنا، وإما أن نلقي قبلك ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ [طه :٦٦] أنتم، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى، فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطرابًا يخيل للرائي أنها تسعي باختيارها، وإنما تتحرك بسبب ذلك، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وألقوا حبالهم وعصيهم، وهم يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء :٤٤].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف :١١٦]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه :٦٦-

(١) صال عليه: سطا عليه ليقهره. الوجيز ص (٣٧٤).

٦٧] أي خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم، قبل أن يلقي مافي يده، فإنه لا يصنع شيئًا قبل أن يؤمر، فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٨-٦٩] فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١-٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٢].

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها، صارت حية عظيمة ذات قوائم، فيما ذكره غير واحد من علماء السلف، وعنق عظيم وشكل هائل مزعج، بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعًا وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي، فجعلت تلقفه واحدًا واحدًا في أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم[1] وحيرهم في أمرهم، واطلعوا على أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعتهم وأشغالهم، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا محال ولا خيال، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق، الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحق.

وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

كما قال تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٠-٧٦].

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بردة والأوزاعي وغيرهم: لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تُهَيَّأ لهم، وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده. وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة أفزعه ذلك ورأى أمرًا بهره، وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله، فقال مخاطبًا للسحرة بحضرة الناس:

(١) أفزعهم. الوجيز ص (٦٥٥).

﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١] أي هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي؟!، ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد، وكذب فأبعد قائلاً: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وهذا الذي قاله من البهتان الذي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان بل لا يُرَوَّجُ مِثْلُه على الصبيان، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يَرَهُ هؤلاء يومًا من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟ ثم هو لا يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم، واجتباهم من كل فج عميق، وواد سحيق، من حواضر بلاد مصر والأطراف، ومن المدن والأرياف.

قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣-١٢٦].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٧٥-٨٢].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟

أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء :٢٩-٥١].

والمقصود أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه :٧١]وأتى ببهتان يعلمه العالمون بل العالمون في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف :١٢٣]، وقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف :١٢٤]يعني: يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء :٤٩]أي: ليجعلهم مثلة ونكالاً لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته، وأهل ملته.

ولهذا قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه :٧١]أي: على جذوع النخل، لأنها أعلى وأشهر ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه :٧١]يعني: في الدنيا. ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الشعراء: ٤٩]أي: لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه: ٧٢]والذي ﴿فَطَرَنَا﴾ قيل: معطوف، وقيل قسم ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [الشعراء: ٤٩]أي: فافعل ما قدرت عليه ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه :٧٢]أي: إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله، ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه :٧٣]أي: وثوابه خير مما وعدتنا من التقريب والترغيب، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: وأدوم من هذه الدار الفانية.

وفي الآية الأخرى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ [الشعراء :٥٠-٥١]أي: ما اجترمناه من المآثم والمحارم ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء :٥١]أي: من القبط بموسى وهارون عليهما السلام.

وقالوا له أيضًا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦]أي: ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [الأعراف :١٢٦]أي: ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد، والسلطان الشديد، بل الشيطان المريد، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف :١٢٦].

وقالوا أيضًا يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه :٧٤]يقولون: فإياك أن تكون منهم، فكان منهم. ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه :٧٥]أي: المنازل العالية، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ

مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه :٧٦] فاحرص أن تكون منهم، فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب ولا تمانع، وحكم العلي العظيم بأن فرعون لعنه الله من أهل الجحيم، ليباشر العذاب الأليم، يصب من فوق رأسه الحميم، ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ، وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان :٤٩].

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضي الله عنهم. قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة! ويؤيد هذا قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف :١٢٦].

كبراء قوم فرعون يحرضونه على إيذاء موسى

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم، وهو الغلب الذي غُلِبَتْهُ القبط في ذلك الموقف الهائل، وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم، ولم يزدهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا وبعدًا عن الحق.

قال تعالى بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف :١٢٧-١٢٩].

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون، وهم الأمراء والكبراء، أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام، ومقاتلته بدل التصديق بما جاء به، بالكفر والرد والأذى. قالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف :١٢٧] يعنون - قبحهم الله - أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة ما سواه، فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط، لعنهم الله. وقرأ بعضهم: «ويذرك وإلهتك»[1] أي: وعبادتك، ويحتمل شيئين: أحدهما: ويذر دينك، وتقويه القراءة الأخرى. والثاني: ويذر أن يعبدك، فإنه كان يزعم أنه إله، لعنه الله.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الأعراف :١٢٧] أي لئلا يكثر مقاتلتهم ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف :١٢٧] أي غالبون: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف :١٢٨] أي إذا هَمُّوا هُمْ بأذيتكم والفتك بكم، فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ

---

(١) قرأ ابن مسعود وابن عباس والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية وابن محيصن: ﴿وإلَٰهتك﴾ بكسر الهمزة وقصرها وفتح اللام وبألف بعدها. قال الزجاج: المعنى: ويذرك وربوبيتك. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الإلاهة: العبادة، فالمعنى: ويذرك وعبادة الناس إياك. قال ابن قتيبة: من قرأ: ﴿وإلهتك﴾ أراد: ويذرك والشمس التي تعبد، وقد كان في العرب قوم يعبدون الشمس ويسمونها إلهةً. قال الأعشى:

فما أذكر الرهب حتى انقلبت ... قبيل الإلهة منها قريبًا

يعني الشمس، والرهب: ناقته. يقول اشتغلت بهذه المرأة عن ناقتي إلى هذا الوقت. انظر زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٢٤٤).

﴿مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف :١٢٨] أي فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [يونس :٨٤-٨٦].

وقولهم: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ [الأعراف :١٢٩] أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف :١٢٩].

وقال تعالى في سورة حم المؤمن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]. وكان فرعون الملك، وهامان الوزير، وكان قارون إسرائيليًّا من قوم موسى، إلا أنه كان على دين فرعون وملئه، وكان ذا مال جزيل جدًّا، كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [غافر :٢٥] وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال، والتقليل لملأ بني إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها، ويصولون على القبط بسببها وكان القبط منهم يحذرون، فلم ينفعهم ذلك، ولم يرد عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر :٢٦]. ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم: «صار فرعون مذكرًا» وهذا منه، فإن فرعون في زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام!.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر :٢٧] أي عذت بالله ولجأت إليه [واستجرتُ] بجنابه، من أن يسطو فرعون وغيره عَلَيَّ بسوء. وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ [غافر :٢٧] أي جبار عنيد لا يرعوى ولا ينتهي، ولا يخاف عذاب الله وعقابه، لأنه لا يعتقد معادًا ولا جزاء. ولهذا قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر :٢٧].

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝٢٨ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر :٢٨-٢٩] وهذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفًا منهم على نفسه. وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيليًّا، وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظًا ومعنى. والله أعلم.

قال ابن جريج: قال ابن عباس: لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا، والذي جاء من أقصا المدينة وامرأة فرعون. ورواه ابن أبي حاتم. وقال الدارقطني لا يعرف من اسْمُهُ «شمعان» بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون. وحكاه السهيلي. وفي تاريخ الطبراني: أن اسمه «خير». فالله أعلم.

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه، فلما هم فرعون - لعنه الله - بقتل موسى عليه السلام، وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب، فقال على وجه المشورة والرأي.

وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر[1]»[2] وهذا من أعلى مراتب هذا المقام، فإن فرعون لا أشد جورًا منه، وهذا الكلام لا أعدل منه، لأنه فيه عصمة نبي ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه، وصرح لهم بما كان يكتمه. والأول أظهر. والله أعلم.

قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] أي من أجل أنه قال ربي الله فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام أو الموادعة وترك الانتقام. يعني لأنه: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] أي بالخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله، فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة، لأنه: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ [غافر: ٢٨] ولا يضركم ذلك ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ [غافر: ٢٨] وقد تعرضتم له ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] أي وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزء مما يتوعدكم به، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم؟ وهذا الكلام في هذا المقام، من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام. وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢٩] يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز، فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم.

وكذا وقع لآل فرعون، ما زالوا في شك وريب، ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور، والنعمة والحبور، ثم حُوِّلُوا إلى البحر مهانين، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين. ولهذا قال هذا الرجل المؤمن الصادق، البار الراشد، التابع للحق، الناصح لقومه، الكامل العقل: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢٩] أي عالين على الناس حاكمين عليهم، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]؟ أي لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة، والقوة والشدة لما نفعنا ذلك، ولا رد عنا بأس ملك الممالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ [غافر: ٢٩] أي في جوابه هذا كله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩] أي ما أقول لكم إلا ما عندي ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين، فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة، إنما كان يظهر خلافه بغيًا وعدوانًا، وعتوا وكفرانًا.

قال الله تعالى إخبارًا عن موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ۝ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ

---

(١) يعني: ظالم. الوجيز ص (١٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠١١)، والترمذي (٢١٧٤) كلهم من طريق إسرائيل قال: حدثنا محمد بن جحادة، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري فذكره مرفوعًا.

إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء:١٠٢-١٠٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٣-١٤]. وأما قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] فقد كذب أيضًا، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر، بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال، فكان أولا ممن يعبد الأصنام والأمثال، ثم دعا قومه الجهلة الضُّلالَ إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر والمحال، في دعواه أنه رب، تعالى الله ذو الجلال!.

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥١-٥٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٠-٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود:٩٦-٩٩]. والمقصود: بيان كذبه في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غافر:٢٩] وفي قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٠-٣٥].

يحذرهم وَلِيُّ الله إن كَذَّبُوا برسول الله موسى أن يَحِلَّ بهم ما حل بالأمم من قبلهم، من النقمات[1] والمثُلات، مما تواتر عندهم وعند غيرهم، مما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلي زمانهم ذلك، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة، في صدق ما جاءت به الأنبياء، لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة، وهو يوم التناد، أي حين ينادى الناس بعضهم بعضًا، حين يولون إن قدروا على ذلك، ولا إلى ذلك سبيلاً.

يقول تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة:١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا

(١) النقمات جمع نقمة: وهي العقوبة. الوجيز ص (٦٣٢).

بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٣-٣٦]. وقرأ بعضهم: ﴿يَوْمَ التَّنَادِّ﴾ [غافر:٣٢] بتشديد الدال، أي يوم الفرار. ويحتمل أن يكون يوم القيامة، ويحتمل أن يكون يوم يَحِلُّ الله بهم البأس، فَيَودُّونَ الفرار ولات حين مناص. ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:١٢-١٣].

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم. وهذا من سلالته وذريته، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته، وألا يشركوا به أحدًا من بريته، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان، وأن من سجيتهم التكذيبَ بالحق ومخالفةَ الرسل.

ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ [غافر:٣٤] أي وكذبتم في هذا. ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ﴾ [غافر:٣٤-٣٥] أي يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده، بلا حجة ولا دليل عندهم من الله، فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت، أي يبغض من تلبس به من الناس، ومن اتصف به من الخلق، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥] قرئ بالإضافة وبالنعت [1]، وكلاهما متلازم: أي هكذا إذا خالفت القلوب الحق - ولا تخالفه إلا بلا برهان - فإن الله يطبع عليها، أي يختم عليها [بما فيها].

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

السبيلكَذَّبَ فرعونُ موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله، وزعم فرعون لقومه ما كَذَبَه وافتراه في قوله لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨]. وقال هاهنا: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر:٣٦-٣٧] أي طرقها ومسالكها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ﴾ [غافر:٣٧].

ويحتمل هذا معنيين: أحدهما: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ﴾ [غافر:٣٧] في قوله أن للعالم ربا غيري. والثاني: في دعواه أن الله أرسله. والأول أشبه بظاهر حال فرعون، فإنه كان ينكر ظاهرًا إثبات

---

(١) قرأ أبوعمرو: «على كلِّ قلبٍ» بالتنوين، وغيره من القراء السبعة بالكسر. وقال أبو علي: المعنى: يطبع على جملة القلب من المتكبر. واختار قراءةَ الإضافة الزجاج، قال: لأن المتكبر هو الإنسان، لا القلب. فإن قيل: لو كانت هذه القراءة أصوب لتقدم القلب على الكل؟. فالجواب: أن هذا جائز عند العرب، قال الفراء: تقدم هذا وتأخره واحد، سمعت بعض العرب يقول: هو يرجل شعره يوم كل جمعة، يريد: كل يوم جمعة، والمعنى واحد. وقد قرأ ابن مسعود وأبو عمران الجوني: ﴿على قلب كل متكبر﴾ بتقديم القلب. انظر زاد المسير لابن الجوزي (٧/ ٢٢٣).

الصانع والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٧] أي فأسأله هل أرسله أم لا؟ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر: ٣٧] أي في دعواه ذلك. وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام، وأن يحثهم على تكذيبه.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ [غافر: ٣٧] وقُرِئَ: «وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ»[1] ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ [غافر: ٣٧] قال ابن عباس ومجاهد: يقول: إلا في خسار، أي باطل، لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه، فإنه لاسبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبدًاة أعني السماء الدنيا - فكيف بما بعدها من السموات العلى؟ وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل؟ وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح، وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له لم ير بِنَاءٌ أعلى منه، وأنه كان مبنيًا من الآجر المشوي بالنار ولهذا قال: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾ [القصص: ٣٨].

وعند أهل الكتاب: أن بني إسرائيل كانوا يُسَخَّرُونَ في ضرب اللبن، وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه، ويطلب منهم كل يوم قسط معين، إن لم يفعلوه ضربوا وأهينوا غاية الإهانة وأوذوا غاية الأذية، ولهذا قالوا لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط، وكذلك وقع، وهذا من دلائل النبوة.

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [غافر: ٣٨-٤٠]. يدعوهم - رضي الله عنه - إلى طريق الرشاد الحق، وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من عند ربه ثم زهَّدَهُم في الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة، ورَغَّبَهُم في طلب الثواب عند الله الذي لا يضيع عمل عامل لديه، القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه. الذي يعطي على القليل كثيرًا، ومن عدله لا يجازي على السيئة إلا مثلها، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار، التي من وافاها - مؤمنا قد عمل الصالحات - فلهم الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والخيرات الكثيرة الفائقات، والأرزاق الدائمة التي لا تبيد، والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد. ثم شرع في إبطال ما هم عليه، وتخويفهم مما يصيرون إليه، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿وَصُدَّ﴾ بضم الصاد، والباقون بفتحها. انظر زاد المسير لابن الجوزي (٧/ ٢٢٣).

﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤١-٤٦]. كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض، الذي يقول للشيء كن فيكون، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون!.

ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۞ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [غافر: ٤١-٤٢].

ثم بين لهم بطلان ماهم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان، وأنها لاتملك من نفع ولا إضرار فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] أي لا تملك تصرفًا ولا حكمًا في هذه الدار، فكيف تملكه يوم القرار؟ وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار، وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم، فيدخل طائعهم الجنة، وعاصيهم إلى النار.

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

قال الله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٥] أي بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله، ومكرهم في صدهم عن سبيل الله، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمَحالات، التي ألبسوا بها على عوامهم وطغامهم، ولهذا قال: ﴿وَحَاقَ﴾ [غافر: ٤٥] أي أحاط ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۞ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٥-٤٦] أي تعرض أرواحهم في برزخهم صباحًا ومساءً على النار. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في التفسير [(١)]، ولله الحمد.

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم، وإرسال الرسول إليهم، وإزاحة الشبهة عنهم، وأخذ الحجة عليهم منهم، بالترهيب تارة والترغيب تارة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۞ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣]. يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه من القبط بالسنين وهي أعوام الجدب التي لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع. وقوله: ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] وهي قلة الثمار من الأشجار ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦] أي فلم ينتفعوا ولم يرتدعوا، بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ [الأعراف: ١٣١] والخصب ونحوه ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] أي هذا الذي نستحقه، وهذا الذي يليق بنا ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١] أي يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا، ولا يقولون في الأول إنه ببركتهم وحسن مجاورتهم لهم، ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق، إذا جاء

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٨٣، ٨٤).

الشر أسندوه إليه، وإن رأوا خيرًا أدَّعوهُ لأنفسهم. قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف :١٣١] أي الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام :٣٧].

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف :١٣٢] أي مهما جئتنا به من الآيات - وهي الخوارق للعادات - فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك، ولوجئتنا بكل آية، وهكذا أخبر الله عنهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس :٩٦-٩٧].

قال الله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف :١٣٣]

أما الطوفان فعن ابن عباس: هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك، وعن ابن عباس وعطاء هو كثرة الموت، وقال مجاهد: الطوفان الماء والطاعون على كل حال، وعن ابن عباس: أَمْرٌ طَافَ بِهِم.

وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان، عن المنهال بن خليفة، عن الحجاج، عن الحكم بن ميناء، عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «الطوفان الموت» [١] وهو غريب.

وأما الجراد فمعروف، وقد روى أبو داود عن أبي عثمان، عن سلمان الفارسي، قال: سئل رسول الله عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه» [٢]. وترك النبي ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذر له، كما ترك أكل الضب، وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث، ولما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفي قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد [٣]، وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في التفسير.

والمقصود أنه استاق خَضْرَاءَهُم فلم يترك لهم زرعًا ولا ثمارًا ولا سبدًا ولا لبدا وأما القُمَّلُ فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة. وعنه أنه الجراد الصغار الذي له أجنحة، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة، وقال سعيد بن جبير والحسن: هو دواب سُودٌ صغار وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: القُمَّل هي البراغيث. وحكى ابن جرير عن أهل العربية: أنها الحِمْنَانُ، وهو صغار القِرْدَان فوق القمامة، فدخل معهم البيوت والفرش، فلم يقر لهم قرار ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش. وفَسَّرَه عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف. وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف.

وأما الضفادع فمعروفة، لبستهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، حتى أن أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع. وأما الدم فكان قد مُزِجَ ماؤهم كله به فلا

---

(١) ابن جرير (٦/ ٩/ ٣١) وسنده ضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨١٣)، (٣٨١٤)، وابن ماجه (٣٢١٩) كلاهما من طريق أبي عثمان النهدي به. وهو مرسل.

(٣) أخرجه الحميدي (٧١٣)، وأحمد (٤/ ٣٥٧، ٣٨٠) وعبد بن حميد (٥٢٦)، والدارمي (٢٠١٦)، والبخاري (٧/ ١١٧)، ومسلم (٦/ ٧٠، ٧١)، وأبو داود (٢/ ٣٨)، والترمذي (١٨٢١)، (١٨٢٢)، والنسائي (٧/ ٢١٠) كلهم من طريق أبي يعفور عن عبد الله بن أبي أوفى به.

يستقون من النيل شيئًا إلا وجدوه دمًا عَبيطًا [١] ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دمًا في الساعة الراهنة .

هذا كله ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية . وهذا من تمام المعجزة الباهرة ، والحجة القاطعة ، أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام ، فينالهم عن آخرهم ، ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل ، وفي هذا أَدَلُّ دليل .

قال محمد بن إسحاق : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبًا مغلولاً ، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر ، فتابع الله عليه الآيات ، فأخذه بالسنين : فأرسل عليه الطوفان ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان - وهو الماء - ففاض على وجه الأرض ثم ركد ، لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئًا ، حتى جهدوا جوعًا . فلما بلغهم ذلك : ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف :١٣٤].

فدعا موسى ربه فكشفه عنهم . فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر فيما بلغني ، حتى إنْ كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فذكر لي : أن موسى عليه السلام ، أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم ، فضربه بها ، فانثال عليهم قملاً ، حتى غلب على البيوت والأطعمة ، ومنعهم النوم والقرار .

فلما جَهِدَهُم قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلم يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا ، إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه .

فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فصارت مياه آل فرعون دمًا ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء ، إلا عاد دمًا عبيطًا . وقال زيد بن أسلم : المراد بالدم الرعاف . رواه ابن أبي حاتم .

قال الله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٦].

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل ، والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله ، مع ما أيده به من الآيات العظيمة الباهرة ، والحجج البليغة القاهرة ، التي أراهم الله إياها عيانًا ، وجعلها عليهم دليلاً وبرهانًا . وكلما شاهدوا آية وعاينوها ، جهدهم وأضنكهم ، حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به ، وليرسلن معه من هو من حزبه ،

(١) يعني : طريًا . الدم العبيط : الطري . انظر القاموس المحيط ص (٨٧٤) .

فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى، فيقولون ويكذبون، ويَعِدُونَ ولا يفون: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل [١]، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل. هذا، والعظيم الحليم القدير، ينظرهم ولا يعجل عليهم، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم، والإعذار إليهم، أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفًا لمن أشبههم من الكافرين، ومثلا لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين.

كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين، في سورة حم والكتاب المبين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾

[الزخرف: ٤٦-٥٦].

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم، وأنه تعالى أيَّدَ رسوله بآيات بينات واضحات، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق، وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم، فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون، وعن سبيل الله يصدون، وعن الحق ينصرفون، فأرسل الله عليهم الآيات تَتْرَى يتبع بعضها بعضًا، وكل آية أكبر من التي تتلوها، لأن التوكيد أبلغ مما قبله.

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨-٤٩]لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصًا ولا عيبًا، لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة، ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه، وضراعتهم لديه، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠]ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه، وعظمة بلده وحسنها، وتخرق الأنهار فيها، وهي الخلجانات التي يكسرونها أيام زيادة النيل ثم تبجح بنفسه وحليته، وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام، ويزدريه بكونه ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] يعني كلامَه، بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة، التي هي شرف له وكمال وجمال، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه. وتنقصه فرعون - لعنه الله - بكونه لا أساور في يديه، ولا زينة عليه، وإنما ذلك من حلية النساء، لا يليق بشهامة الرجال، فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلاً، وأتم معرفة، وأعلى همة وأزهد في الدنيا، وأعلم بما

(١)يعني: العذاب الشديد.

أعد الله لأوليائه في الأخرى؟.

وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] لا يحتاج الأمر إلى ذلك، إن كان المراد أن تعظمه الملائكة، فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير، كما جاء في الحديث: «إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع»[(١)] فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم؟ وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أُيِّدَ من المعجزات بما يدل قطعًا لذوي الألباب، ولمن قصد إلى الحق والصواب، ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور، وترك لب اللباب، وطبع على قلبه رب الأرباب، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب، كما هو حال فرعون القبطي العَمِيّ الكذاب.

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] أي استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية، لعنه الله وقبحهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٤-٥٥] أي أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي بالغرق والإهانة وسلب العز، والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة، والهوان بعد الرفاهية، والنار بعد طيب العيش، عياذًا بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ [الزخرف: ٥٦] أي لمن اتبعهم في الصفات ﴿وَمَثَلًا﴾ [الزخرف: ٥٦] أي لمن اتعظ بهم: خاف من وبيل مصرعهم، ممن بلغه جلية خبرهم وما كان من أمرهم.

كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٦-٤٢].

يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق، وادعى ملكهم الباطل، ووافقوه عليه وأطاعوه فيه، اشتد غضب الرب القدير العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع عليهم، فانتقم منهم أشد الانتقام، وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد، ولم يبق منهم ديار، بل كُلٌّ قد غَرِقَ فدخل النار، وأُتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين، ويوم القيامة بئس الرفد[(٢)] المرفود، ويوم القيامة هم من المقبوحين.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، والدارمي (٣٤٩)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣) كلهم من طريق عاصم بن رجاء بن حيوة، عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء ضمن في حديث طويل، وأخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، والترمذي (٢٦٨٢) من طريق أخرى عنه. وهو حديث حسن.

(٢) العطاء والصلة. الوجيز ص (٢٧٠).

ذكر هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم، متابعة لملكهم فرعون، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول، وهم مع ذلك لا يَرْعَوُونَ ولا ينتهون، ولا يَنْزِعُونَ ولا يرجعون. ولم يؤمن منهم إلا القليل. قيل ثلاثة: وهم امرأة فرعون - ولا علم لأهل الكتاب بخبرهاة ومؤمن آل فرعون الذي تقدمت حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم، والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصا المدينة، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ومراده غير السحرة، فإنهم كانوا من القبط.

وقيل: بل آمن به طائفة من القبط من قوم فرعون، والسحرة كلهم وجميع شعب بني إسرائيل. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

فالضمير في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس: ٨٣] عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه، وقيل: على موسى لقربه، والأول أظهر كما هو مقرر في التفسير، وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته، وجبروته وسلطته، ومن ملئهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم. قال الله تعالى مخبرًا عن فرعون وكفى بالله شهيدًا: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٨٣] أي جبار عنيد مشتغل بغير الحق، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣] أي في جميع أموره وشئونه وأحواله ولكنه جرثومة قد حان انْجِعَافُها وثمرة خبيثة قد آن قِطَافُها، ومَنْهَجَةٌ ملعونة قد حتم إتلافها. وعند ذلك قال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦] فأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به، والالتجاء إليه، فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجًا ومخرجًا.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]. أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتًا متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط، ليكونوا على أهبة من الرحيل إذا أمروا به، ليعرف بعضهم بيوت بعض. وقوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧] قيل مساجد، وقيل معناه كثرة الصلاة فيها. قاله مجاهد وأبو مالك، وإبراهيم النخعي والربيع، والضحاك، وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم. ومعناه على هذا: الاستعانة على ما هم فيه من الضُّرِّ والشدةِ والضِّيقِ بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلَّى [١]. وقيل معناه: أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود (١٣١٩) كلاهما من طريق يحيى بن زكريا، عن عكرمة بن عمار، عن محمد

ومعابدهم، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، عوضًا عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق في ذلك الزمان، الذي اقتضى حالهم إخفاءه خوفًا من فرعون وملئه، والمعنى الأول أقوى لقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧] وإن كان لا ينافي الثاني أيضًا. والله أعلم. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧] أي متقابلة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨-٨٩].

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون، غضبًا لله عليه، لتكبره عن اتِّباع الحق، وصَدِّه عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده، واستمراره على الباطل، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي، والبرهان القطعي، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ [يونس: ٨٨] يعني قومه من القبط، ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨] أي وهذا يغتر به من يُعَظم أمر الدنيا، فيحسب الجاهل أنهم على شيء، لكون هذه الأموال وهذه الزينة، ومن اللباس والمراكب الحسنة الهنيه، والدور الأنيقة والقصور المبنية، والمآكل الشهية والمناظر البهية، والملك العزيز والتمكين، والجاه العريض في الدنيا لا الدين.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨] قال ابن عباس ومجاهد: أي أهلكها. وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ماكانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم صارت حجارة، وقال محمد بن كعب: جعل سُكَّرَهُم حجارة، وقال أيضًا: صارت أموالهم كلها حجارة ذُكِرَ ذلك لعمر بن عبد العزيز، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: قُمْ ائْتِنِي بكيس، فجاءه بكيس، فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة! رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] قال ابن عباس: أي اطبع عليها. وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه. فاستجاب الله تعالى لها، وحققها وتقبلها، كما استجاب لنوح في قومه حيث قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧] ولهذا قال تعالى مخاطبًا لموسى حين دعا على فرعون وملئه، وأمن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعي أيضًا: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩] قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب: استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم فأذِنَ لهم وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له[1]، وإنما كان في نفس الأرض مكيدة بفرعون وجنوده، ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم.

بن عبد الله الدؤلي عن عبد العزيز بن أخي حذيفة، عن حذيفة فذكره وأخرجه أحمد (١/ ٢٤٥، ٣٠٩)، وعبد بن حميد (٦٦٤) والترمذي (٣١٠٧) كلهم من طريق حماد بن سلمة به. وهو حديث حسن.

(١) استعدوا. الوجيز ص (٢٩).

وأمرهم الله تعالى - فيما ذكره أهل الكتاب - أن يستعيروا حُليًا منهم، فأعاروهم شيئًا كثيرًا، فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم، طالبين بلاد الشام، فلما علم بذهابهم فرعونُ حَنِقَ[١] عليهم كل الحَنْقِ، واشتد غضبه عليهم، وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٨].

قال علماء التفسير: لما ركب فرعون في جنوده طالبًا بني إسرائيل يقفو أثرهم كان في جيش كثيف عَرَمْرَم، حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف، فالله أعلم، وقيل: إن بني إسرائيل كانوا نحو ستمائة ألف مقاتل غير الذرية. وكان بين خروجهم من مصر بصحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها بصحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستا وعشرين سنة شمسية.

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود، فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان، ولم يبق ثَمَّ ريب ولا لبس، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة. فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١].

وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا مَحِيدٌ إلا سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة، وفرعون قد غالقهم وواجههم، وعاينوه في جنوده وجيوشه وعَدَدِه وَعُدته، وهم منه في غاية الخوف والذعر، لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر. فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه. فقال لهم الرسول الصادق المصدوق: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وكان في الساقة، فتقدم إلى المقدمة، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه، ويتزايد زبد أُجَاجِهِ، وهو يقول: هاهنا أمرت. ومعه أخوه هارون، ويوشع بن نون، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبَّادهم الكبار، وقد أوحى الله إليه وجعله نبيًا بعد موسى وهارون عليهما السلام كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله، ومعهم أيضًا مؤمن آل فرعون، وهم وقوف، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف. ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مرارًا في البحر، هل يمكن سلوكه؟ فلا يمكن، ويقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله هاهنا أمرت؟ فيقول: نعم. فلما تَفَاقَمَ[٢] الأمر

(١) اشتد غيظه. الوجيز ص (١٧٥).

(٢) تفاقم الأمر: استفحل شره. الوجيز ص (٤٧٨).

وضاق الحال واشتد الأمر، واقترب فرعون وجنوده في جَدِّهِم وحَدِّهِم وحديدهم، وغضبهم وحنقهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير، رب العرش الكريم، إلى موسى الكليم: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء:٦٣] فلما ضربه، يقال إنه قال له: انفلق بإذن الله. ويقال: إنه كناه بأبي خالد. فالله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣] ويقال: إنه انفلق اثني عشر طريقًا، لكل سَبْطٍ طريق يسيرون فيه، حتى قيل إنه صار فيه أيضًا شبابيك ليرى بعضهم بعضًا!، وفي هذا نظر، لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه. وهكذا كان ماء البحر قائمًا مثل الجبال، مكفوفًا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون، وأمر الله ريح الدبور فلفحت حال البحر فأذهبته، حتى صار يابسًا لا يعلق في سنابك الخيول والدواب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٧-٧٩].

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال، بإذن الرب العظيم الشديد المِحَال، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم مايحير الناظرين، ويهدي قلوب المؤمنين. فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه، وانفصلوا عنه، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه، ووفودهم عليه. فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه. لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه، ولا سبيل عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال، كما قال وهو الصادق في المقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ [الدخان:١٧-٣٣].

فقوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان:٢٤] أي ساكنًا على هيئته، لا تغيره عن هذه الصفة. قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك ابن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون، فرأى ما رأى، وعاين ما عاين، هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنوده تجلدًا وعاملهم معاملة العداء، وحملته النفس الكافرة والسجية

الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه، وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين [١] من يدي، الخارجين عن طاعتي وبلدي؟ وجعل يورى في نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيهات ويقدم تارة ولكنه يحجم تارات!

فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى في صورة فارس راكب على رمكة حايل فمر بين يدي فحل فرعون لعنه الله، فحمحم إليها وأقبل عليها، وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر، واستبق الجواد وقد أجاد، فبادر مسرعًا، هذا فرعون لا يملك من نفسه شيئًا ولا ضرًا ولا نفعًا، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا البحر أجمعين أكتعين أبصعين، حتى هَمَّ أولهم بالخروج منه، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه. فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان، فلم ينج منهم إنسان.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٨] أي في إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحدًا. وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد، آية عظمية، وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة، وصدق رسوله فيما جاء به ربه مِنْ الشريعة الكريمة، والمناهج المستقيمة. وقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ليكون أَقَرَّ لأعين بني إسرائيل، وأشفى لنفوسهم. فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به، وباشر سكرات الموت أناب حينئذ وتاب، وآمن حين لاينفع نفسًا إيمانها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه، أن يطمس على أموالهم، ويَشْدُد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، أي حين لا ينفعهم ذلك، ويكون حسرة عليهم وقد قال تعالى لهما - أي لموسى وهارون - حين دعوا بهذا: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام.

ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد ابن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من

(١) جمع آبق، والعبد الآبق هو الذي فر من سيده.

حال البحر فدسسته في فيه، مخافة أن تناله الرحمة».

ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة، وقال الترمذي: حديث حسن. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت، وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فِي فرعون مخافة أن تدركَه الرحمةُ»[1]. ورواه الترمذي وابن جرير من حديث شعبة، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح. وأشار ابن جرير في رواية إلى وقفه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي. عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] فقال: فخاف جبريلُ أن تسبقَ رحمةُ الله فيه غَضَبَه، فجعل يأخذُ الحال بجناحيه، فيضرب به وجهه فيرمسه[2]. ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به.

وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زاذان وليس بمعروف، وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه، مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له»[3] يعني فرعون. وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التيمي وقتادة وميمون بن مهران، ويقال: إن الضحاك بن قيس خطب به الناس، وفي بعض الروايات أن جبريل قال: «ما بغضت أحدًا بغضي لفرعون حين قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ولقد جعلت أدس في فِيْهِ الطين حين قال ما قال».

وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] استفهام إنكار، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك، لأنه - والله أعلم - لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] قال الله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

قال ابن عباس وغير واحد: شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون، حتى قال بعضهم إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع، قيل: على وجه الماء، وقيل: على نجوة من الأرض، وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه. ليتحققوا بذلك هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه. ولهذا قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢] أي: مصاحبًا درعك المعروفة بك: ﴿لِتَكُونَ﴾ [يونس: ٩٢] أي: أنت آية ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ [يونس: ٩٢] أي: من بني إسرائيل، ودليلا على قدرة الله الذي أهلكك، ولهذا قرأ بعض السلف: «لتكون لمن خلفك آية» ويحتمل أن يكون المراد: ننجيك بجسدك مصاحبًا درعك، لتكون - ودرعك - علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنك هلكت والله

---

(١) الطيالسي في مسنده (٢٦١٨)، والترمذي (١٣٠٨) وهو صحيح الإسناد.

(٢) رمس الشيء: طمس أثره. الوجيز ص (٢٧٧). (٣) ابن جرير.

أعلم، وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء. كما قال الإمام البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة عن أبي بشر، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه»؟ فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. قال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموا» وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما [(١)]. والله أعلم.

فصل فيما كان من أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٣٦-١٤١]

يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم، وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم، وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥] وقال هاهنا: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] أي: أهلك ذلك جميعه، وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا، وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده، ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا. فذكر ابن عبد الحكم في «تاريخ مصر»: أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها، بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة، فكانت لهن السطوة عليهم واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومنا هذا!.

وعند أهل الكتاب: أن بني إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم وأمروا أن يذبح أهل كل بيت حَمَلاً من الغنم، فإن كانوا لا يحتاجون إلي حمل فليشترك الجار وجاره فيه. فإذا ذبحوه فلينضحوا [(٢)] من دمه على أعتاب أبوابهم، ليكون علامة لهم على بيوتهم، ولا يأكلونه مطبوخًا، ولكن مشويًا برأسه وأكارعه وبطنه، ولا يبقوا منه شيئًا، ولا يكسروا له عظمًا، ولا

(١) أخرجه الحميدي (٥١٥)، وأحمد (١/ ٢٩١، ٣١٠، ٣٣٦، ٣٤٠)، والدارمي (١٧٦٦)، والبخاري (٣/ ٥٧)، (٤/ ١٨٦)، (٥/ ٨٩)، (٦/ ٩١، ١٢٠)، ومسلم (٣/ ١٤٩، ١٥٠)، وأبو داود (٢٤٤٤)، والنسائي في الكبرى (٥٤٥٠)، (٥٥٢٨)، وابن خزيمة (٢٠٨٤) كلهم من طريق سعيد بن جبير به.

(٢) يعني: فليرشوا من دمه. يقال نضح الثوب: رشه بماء أو طيب. الوجيز ص (٦٢٠).

يخرجوا منه شيئًا إلى خارج بيوتهم، وليكن خبزهم فطيرًا سبعة أيام، ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم، وكان ذلك في فصل الربيع، فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة، وخفافهم في أرجلهم، وعصيهم في أيديهم، وليأكلوا بسرعة قيامًا، ومهما فضل من عشائهم فما بقى إلى الغد فليحرقوه بالنار، وشرع لهم هذا عيدًا لأعقابهم ما دامت التوراة معمولاً بها فإذا نسخت بطل شرعها. وقد وقع. قالوا: وقتل الله عز وجل في تلك الليلة أبكار [1]القبط وأبكار دوابهم، ليشتغلوا عنهم، وخرج بنو اسرئيل حين انتصف الليل، وأهل مصر في مناحة عظيمة على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم، ليس من بيت إلا وفيه عويل.

وحين جاء الوحي إلي موسى خرجوا مسرعين، فحملوا العجين قبل اختماره، وحملوا الأزواد في الأردية وألقوها على عواتقهم، وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حليا كثيرًا، فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذراري بما معهم من الأنعام، وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة.. هذا نص كتابهم. وهذه السّنة عندهم تسمى سنة «الفسخ» وهذا العيد عيد الفسخ ولهم عيد «الفطير» وعيد «الحمل» وهو أول السنة، وهذه الأعياد الثلاثة آكَدُ أعيادهم، منصوص عليها في كتابهم.

ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، وخرجوا على طريق بحر يوسف، وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عمود نور، وبالليل أمامهم عمود نار، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك، وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين، وهم هنالك حلول على شاطئ اليم، فقلق كثير من بني إسرائيل، حتى قال قائلهم: كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية. فقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة: لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلي بلدهم بعد هذا. قالوا: وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس، وصار الماء من هاهنا وهاهنا كالجبلين، وصار وسطه يبسًا، لأن الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم فجاز بنو إسرائيل البحر وأتبعهم فرعون وجنوده، فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه، فرجع الماء كما كان عليهم لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان في الليل، وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح. وهذا من غلطهم وعدم فهمهم في تعريبهم... والله أعلم.

قالوا: ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ سبح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب، وقالوا: «نسبح الرب البهي، الذي قهر الجنود، ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود» وهو تسبيح طويل.

قالوا: وأخذت مريم النبية - أخت هارون - دفًّا بيدها، وخرج النساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول، وجعلت مريم ترتل لهن وتقول: سبحان الرب القهار، الذي قهر الخيول وركبانها إلقاء في البحر. هكذا رأيته في كتابهم. ولعل هذا هو الذي حمل محمد بن كعب القرظي على زعمه: أن

(١) أبكار جمع بكر وهي العذراء، ويقصد هنا: أفضلهم وأعظمهم. وانظر القاموس المحيط: ص (٤٥١).

مريم بنت عمران أم عيسى. هي أخت هارون وموسى. مع قوله: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨]. وقد بينا غلطه في ذلك، وأن هذا لا يمكن أن يقال، ولم يتابعه أحد عليه، بل كل واحد خالفه فيه. ولو قدر أن هذا محفوظ، فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام. وأم عيسى عليها السلام وافقتها في الاسم واسم الأب واسم الأخ، لأنهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة، لما سأله أهل نجران عن قوله: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨] فلم يدر ما يقول لهم: حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم» [(١)] رواه مسلم.

وقولهم: «النبية» كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة، ومن بيت الإمرة أميرة، وإن لم تكن مباشرة شيئًا من ذلك، فكذا هذه استعارة لها، لا أنها نبية حقيقة يوحى إليها. وضربها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو من أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف في العيد، وهذا مشروع لنا أيضًا في حق النساء: لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة تضربان بالدف في أيام منى، ورسول الله ﷺ مضطجع مولى ظهره إليهن، ووجهه إلى الحائط فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال أَبِمَزْمُورِ الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فقال: «دعهن يا أبا بكر.. فإن لكل قوما عيدًا وهذا عيدنا» [(٢)] وهكذا يشرع عندنا في الأعراس ولقدوم الغياب، كما هو مقرر في موضعه.. والله أعلم.

وذكروا أنهم لما جازوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء، فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك، فوجدوا ماء زعاقًا أجاجًا لم يستطيعوا شربه، فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه، فحلا وساغ شربه، وعلمه الرب هنالك فرائض وسننا، ووصاه وصايا كثيرة.

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨-١٣٩]. قالوا: هذا الجهل والضلال، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصنامًا، قيل: كانت على صور البقر، فكأنهم سألوهم. لِمَ يعبدونها؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون [(٣)] عند الضرورات، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم، أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة، فقال لهم مبينًا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٢)، ومسلم (٦/ ١٧١)، والترمذي (٣١٥٥)، والنسائي في الكبرى (٨/ ١١٥١٩ تحفة) كلهم من طريق عبد الله بن أدريس، عن أبيه، عن سماك بن حرب، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة فذكره.

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٢٠)، (٤/ ٤٧)، ومسلم (٣/ ٢٢) كلهم من طريق ابن وهب، قال: أخبرنا عمرو، أن محمد بن عبد الرحمن الأسدي حدثه، عن عروة عن عائشة فذكرت الحديث نحوه، وللحديث روايات أخرى.

(٣) يعني: يطلبون بها الرزق.

لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] ثم ذكرهم نعمة الله عليهم، في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع، والرسول الذي بين أظهرهم، وما أحسن به إليهم وما امْتَنَّ به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العتيد، وإهلاكه إياه وهم ينظرون، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة، وما كانوا يعرشون، وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له، لأنه الخالق الرازق القهار، وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال، بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] أي: قال بعضهم كما في قوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٧-٤٨] فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن سنان ابن أبي سنان الديلي عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر! هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] إنكم تركبون [1] سنن الذين من قبلكم» [2]. ورواه النسائي عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به. ورواه الترمذي عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، عن سفيان بن عيينة، عن الزهري به، ثم قال: حسن صحيح.

وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحاق ومعمر وعقيل عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي، أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين. قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم. يقال لها: «ذَاتُ أَنْوَاطٍ» قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله.. اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. قال: «قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٣٩]» [3].

والمقصود أن موسى عليه السلام، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قومًا من الجبارين، من الحَيْثَانِيِّينَ والفَزَارِيِّينَ والكنعانيين وغيرهم. فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم، وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس، فإن الله كتبه لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل، فأبوا ونكلوا عن الجهاد، فسلط الله عليهم

---

(١) يعني: تفعلون كما كانوا يفعلون.

(٢) أخرجه الحميدي (٨٤٨)، وأحمد (٥/٢١٨)، والترمذي (٢١٨٠)، والنسائي في الكبرى (١/١٥٥١٦ تحفة) كلهم من طريق ابن الشهاب به. وهو حديث صحيح.

(٣) ابن جرير (٦/٩/٤٥) وإسناده صحيح.

الخوف، وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون، في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢١ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] أي: تنكصوا على أعقابكم، وتنكلوا عن قتال أعدائكم ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١] أي: فتخسروا بعد الربح، وتنقصوا بعد الكمال.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢] أي عتاة كفرة متمردين ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢] خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسًا، وأكثر جمعًا وأعظم جندًا. وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة، ومذمومون على هذه الحالة، من الذلة عن مُصَاوَلَةِ [(١)] الأعداء، ومقاومة المردة الأشقياء.

وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا آثارًا فيها مجازفات كثيرة باطلة، يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخامًا جدًا حتى أنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين، فجعل يأخذهم واحدًا واحدًا، ويلفهم في أكمامه وحجره وسراويله [(٢)]، وهم اثنا عشر رجلاً، فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبارين، فقال: ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عَرَّفُوهُ. وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها. وأن الملك بعث معهم عنبًا كل عنبة تكفي الرجل، وشيئًا من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم، وهذا ليس بصحيح.

وذكروا هاهنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعًا وثلث ذراع. هكذا ذكره البغوي وغيره، وليس بصحيح، كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعًا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن» [(٣)] قالوا: فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها، ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى،

(١) صاوله مصاولة وصيالاً: غالبه ونافسه. الوجيز ص (٣٧٤).
(٢) السراويل: لباس يغطي السرة والركبتين وما بينهما. الوجيز ص (٣٠٩).
(٣) سبق تخريجه.

فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقا في عنق عوج بن عنق. ثم عمد موسى إليه فوثب في الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع، فوصل إلى كعب قدمه فقتله.

يروى هذا عن نوف البكالي، ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفي إسناده إليه نظر، ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات، وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل، فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها. ثم لو كان هذا صحيحًا لكان بنو إسرائيل معذورين في النُّكُولِ عن قتالهم، وقد ذمهم الله على نكولهم، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رَسُولَهُم، وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام، ونهياهم عن الإحجام، ويقال: إنهما يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس، وغير واحد.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [المائدة: ٢٣] أي يخافون الله، وقرأ بعضهم: «يُخَافُون» أي: يُهابون: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣] أي بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] أي: إذا توكلتم على الله، واستعنتم به ولجأتم إليه، نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فصمم مَلَؤهم على النكول عن الجهاد، ووقع أمر عظيم ووهن كبير، فيقال: إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام شقا ثيابهما، وإن موسى وهارون سجدا إعظامًا لهذا الكلام وغضبًا لله عز وجل، وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥] قال ابن عباس: اقض بيني وبينهم: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦] عوقبوا على نكولهم بالتَّيَهَانِ(١) في الأرض، ويسيرون إلى غير مقصد. ليلًا ونهارًا وصباحًا ومساءً. ويقال إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله، بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة. ولم يبق إلا ذراريهم، سوى يوشع وكالب عليهما السلام.

لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى، بل لما استشارهم في الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن وتكلم غيره من المهاجرين. ثم جعل يقول: «أشيروا على» حتى قال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول الله؟ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد وبسطه ذلك.

---

(١) تاه في الأرض: ضل وذهب متحيرًا. الوسيط ص (٩٥، ٩٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا سفيان، عن مخارق بن عبد الله الأحمسي، عن طارق - هو ابن شهاب - أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله! إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون [١]. وهذا إسناد جيد من هذا الوجه، وله طرق أخرى.

قال أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل، عن مخارق، عن طارق بن شهاب، قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، لقد شهدت من المقداد مشهدًا، لأن أكون أنا صاحبه، أحب إلى مما عدل به، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكننا نقاتل عن يمينك، وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يُشرقُ لذلك وسُرَّ بذلك [٢]. رواه البخاري في «التفسير»، و «المغازي» من طرق عن مخارق به [٣].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدَويه: حدثنا علي بن الحسين بن علي، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري: حدثنا حُميد عن أنس، أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، استشار المسلمين فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار! إياكم يريد رسول الله ﷺ. قالوا: إذن لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى بَرْكِ الغَمَادِ [٤] لاتبعناك [٥].

رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد، عن حميد الطويل، عن أنس به، ورواه النسائي عن محمد بن المثني، عن خالد ابن الحارث، عن حميد، عن أنس به نحوه. وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى، عن عبد الأعلى عن معتمر، عن حميد، عن أنس به نحوه.

فصل في دخول بني إسرائيل التيه وماجرى لهم فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبارين، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه، وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة. ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين، ولكن فيها: أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار، وأن موسى وهارون وخور جلسوا على رأس أكمة، ورفع موسى عصاه، فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم، وكلما مالت يده بها من تعب بها أو نحوه غلبهم أولئك وجعل هارون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٩، ٤٢٨، ٤٥٧)، والبخاري (٥/ ٩٣)، (٦/ ٦٤)، والنسائي في الكبرى (٩٣١٨ تحفة) كلهم من طريق مخارق بن عبد الله الأحمسي به.

(٢) السابق. (٣) يعني: بنفس الإسناد.

(٤) بَرْكُ الغماد: هو أقصى معمور الأرض. انظر القاموس المحيط ص (٣٨٩). والمعنى: أنك لو ذهبت بنا إلى أقصى مكان يتخوف الفرسانُ الذهابَ إليه لذهبنا معك، ولا نهاب ذلك في ذات الله. وقيل: هو مكان في أقصى اليمن.

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٥، ١٨٨)، والنسائي في فضائل الصحابة (٢٤٣) كلاهما من طريق حميد به. ابن مردويه، وابن حبان.

الشمس، فانتصر حزب يوشع عليه السلام. وعندهم أن «يثرون» كاهن مدْين وختن موسى عليه السلام بلغه ماكان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون، فقدم على موسى مسلمًا، ومعه ابنته «صفورًا» زوجة موسى، وابناها منه، «جرشون» و «عازر» فتلقاه موسى وأكرمه، واجتمع به شيوخ بني إسرائيل وعظموه وأَجَلُّوه. وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بني إسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم، فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعِفَّاء، يبغضون الرشاء والخيانة، فيجعلهم على الناس رءوس ألوف ورءوس مئين، ورءوس خمسين، ورءوس عشرة، فيقضوا بين الناس، فإذا أشكل عليهم أمر جاءوك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم، ففعل ذلك موسى عليه السلام. قالوا: ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء، في الشهر الثالث من خروجهم من مصر، وكان خروجهم في أول السنة التي شرعت لهم، وهي أول فصل الربيع، فكأنهم دخلوا التيه في أول الصيف. والله أعلم.

قالوا: ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء، وصعد موسى الجبل فكلمه ربه، وأمره أن يذكر بني إسرائيل ما أنعم به عليهم، من إنجائه إياهم من فرعون وقومه، وكيف حملهم على مثل جناحي نسر من يده وقبضته، وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا إلى اليوم الثالث، فإذا كان في اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل، ولا يقتربن أحد منهم إليه، فمن دنا منه قُتِلَ، حتى ولا شيء من البهائم، ما داموا يسمعون صوت القرن فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه. فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا. فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة، وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جدًا. ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعًا شديدًا، وخرجوا فقاموا في سفح الجبل، وغشى[1] الجبلَ دخانٌ عظيم في وسطه عمود نور وتزلزل الجبل كله زلزلة شديدة، واستمر صوت الصور، وهو البوق واشتد، وموسى عليه السلام فوق الجبل، والله يكلمه ويناجيه، وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل فيأمر بني إسرائيل أن يتقربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله، ويأمر الأحبار، وهم علماؤهم أن يدنوا فيصعدوا الجبل، ليتقدموا بالقرب. وهذا نص في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة.

فقال موسى: يا رب! إنهم لا يستطيعون أن يصعدوه، وقد نهيتهم عن ذلك، فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتي معه بهارون أخيه، ولكن الكهنة وهم العلماء، والشعب وهم بقية بني إسرائيل، غير بعيد ففعل موسى. وكلمه ربه عز وجل، فأمره حينئذ بالعشر الكلمات. وعندهم أن بني إسرائيل سمعوا كلام الله، ولكن لم يفهموا حتى فهمهم موسى، وجعلوا يقولون لموسى: بلغنا أنت عن الرب عز وجل، فإنا نخاف أن نموت. فبلغهم عنه فقال هذه العشر الكلمات. وهي: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن الحلف بالله كاذبًا، والأمر بالمحافظة على السبت، ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة، وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ الله به السبت، أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض. الذي يعطيك الله ربك. لا تقتل، لا تزن. لا تسرق. لا تشهد على

(١) يعني: غطاه وحواه. الوسيط (٦٧٧).

صاحبك شهادة زور. ولا تمد عينك إلى بيت صاحبك، ولا تشته امرأة صاحبك، ولا عبده ولا أمته ولا ثوره، ولاحماره، ولا شيئًا من الذي لصاحبك، ومعناه النهي عن الحسد.

وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم: مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن، وهما قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكامًا متفرقة عزيزة، كانت فزالت، وعملوا بها حينًا من الدهر ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها، ثم عمدوا إليها فبدلوها وحرفوها وأولوها، ثم بعد ذلك كله سلبوها فصارت منسوخة مبدلة، بعد ما كانت مشروعة مكملة. فلله الأمر من قبل ومن بعد، وهو الذي يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

وقال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٠-٨٢].

يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة نبيهم كليمه إلى جانب الطور الأيمن أي منهم، لينزل عليه أحكامًا عظيمة فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع، منًا من السماء، يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم، فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلي مثله من الغد، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فَسُدَ، ومن أخذ منه قليلاً كفاه، أو كثيرًا لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز، وهو في غاية البياض والحلاوة، فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى، فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشائهم. وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم بالغمام، وهو السحاب الذي يستر عنهم حَرَّ الشمس وضوءها الباهر، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤٠-٤١].

إلى أن قال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)

وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٤٩-٥٧].

إلى أن قال: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَاشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦٠-٦١].

فذكر تعالى إنعامه عليهم، وإحسانه إليهم، بما يسر لهم من المن والسلوى - طعامين شهيين - بلا كلفة ولا سعى لهم فيه، بل ينزل الله المن باكرًا، ويرسل عليهم طير السلوى عشيا، وأنبع الماء لهم بضرب موسى عليه السلام حجرًا كانوا يحملونه معهم بالعصا فتنفجر منه اثنتا عشرة عينًا، لكل سبط عين منه تنبجس [1]، ثم تنفجر ماء زلالا فيستقون ويشربون ويسقون دوابهم، ويدخرون كفايتهم، وظلل عليهم الغمام من الحر. وهذه نعم من الله عظيمة، وأعطيات جسيمة، فما رعوها حق رعايتها، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها، ثم ضجر كثير منهم منها وتبرموا بها، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها، مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] أي هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها، وإذا هبطتم إليها أي: ونزلتم عن هذه المرتبة التى لا تصلحون لمنصبها تجدون بها ما تشتهون وما ترومون بما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية، ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك هاهنا، ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى. وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم، تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١] أي: فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار، وقد حل عليه غضب الملك الجبار.

ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد، بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد، فقال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

سؤال الرؤية [2]

قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ

(١) يعني: تنشق.

(٢) يعني: سؤال موسى ربه أن يراه.

رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٢-١٤٧].

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد: الثلاثون ليلة هي شهر ذى القعدة بكماله، وأتمت أربعين ليلة بعشر من ذي الحجة. فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر، وفي مثله أكمل الله عز وجل لمحمد ﷺ دينه، وأقام حجته وبراهينه. والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات، وكان فيه صائمًا يقال إنه لم يستطعم بطعام، فلما كَمُلَ الشهر أخذ لحاء (١) شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه، فأمره الله أن يمسك عشرًا أخرى، فصارت أربعين ليلة، ولهذا ثبت في الحديث: أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك (٢). فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون، المحبب المبجل الجليل. وهو ابن أمه وأبيه، ووزيره في الدعوة إلي مصطفيه، فوصاه، وأمره وليس في هذا لعلو منزلته في نبوته منافاة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي: في الوقت الذي أمر بالمجيء فيه ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي: كلمه الله من وراء حجاب، إلا أنه أسمعه الخطاب، فناداه وناجاه، وقربه وأدناه، وهذا مقام رفيع ومعقل منيع، ومنصب شريف ومنزل منيف، فصلوات الله عليه تترى، وسلامه عليه في الدنيا والأخرى. ولما أعطى هذه المنزلة العَلِيَّة والمرتبة السَّنِيَّة، وسمع الخطاب، سأل رفع الحجاب، فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار القوى البرهان: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى، لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتًا وأشد ثباتًا من الإنسان، لا يثبت عند التجلي من الرحمن. ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وفي الكتب المتقدمة: أن الله تعالى قال له: «يا موسى! إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده» وفي الصحيحين عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حجابه النور - وفي رواية: النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» (٣).

---

(١) اللِّحَاءُ: قشر كل شيء. الوسيط (٨٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨١)، والبخاري (٧/ ٢١١)، ومسلم (٣/ ١٥٧)، والنسائي (٤/ ١٦٤) كلهم من طريق سعيد بن المسيب عن أبي هريرة فذكره مرفوعًا. والحديث له روايات كثيرة عنه وعن غيره من الصحابة.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٥، ٤٠٠، ٤٠٥)، ومسلم (١/ ١١١)، وابن ماجه (١٩٥)، (١٩٦) كلهم من طريق عمرو

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣]ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى لشيء لا يقوم له شيء. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

قال مجاهد: ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣]فإنه أكبر منك وأشد خلقًا ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف:١٤٣]فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صَعِقًا.

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد والترمذي، وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت، زاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول الله ﷺقرأ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣]قال هكذا بإصبعه، ووضع النبي ﷺالإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ [(١)] الجبل [(٢)]، لفظ ابن جرير.

وقال السدي عن عكرمة، عن ابن عباس: ما تجلى - يعني من العظمة - منه إلا قدر الخنصر فجعل الجبل دكًا، قال: ترابًا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]أي: مغشيًا عليه. وقال قتادة: ميتًا. والصحيح الأول لقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ [الأعراف:١٤٣]فإن الإفاقة إنما تكون عن غشي ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته الإفاقة أحد ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]أي فلست أسأل بعد هذا الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]أنه لا يراك أحد حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده.

وقد ثبت في الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزِي بصعقة الطور؟» [(٣)] لفظ البخاري. وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاري حين قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر. فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني من بين الأنبياء» [(٤)].

وفي الصحيحين من طريق الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة عن النبي ﷺبنحوه. وفيه: «لا تخيروني على موسى» [(٥)] وذكر تمامه.

وهذا من باب الهضم والتواضع، أو نهى عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية، أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وليس ينال هذا بمجرد الرأي،

بن مرة عن أبي عبيدة عن أبي موسى فذكره.

(١) يعني: انخسف. الوسيط (٤٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٥، ٢٠٩)، والترمذي (٣٠٧٤) كلاهما من طريق حماد بن سلمة به. ورواه ابن جرير (٦/ ٩/ ٥٣). وهو حديث حسن.

(٣)، (٤)، (٥) سبق تخريجه.

بل بالتوقيف. ومن قال إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل، ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم ففي قوله نظر، لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة، وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخرًا، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا. والله أعلم.

ولا شك أنه، صلوات الله وسلامه عليه، أفضل البشر بل الخليقة، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠] وما كملوا إلا بشرف نبيهم. وثبت بالتواتر عنه، صلوات الله وسلامه عليه، أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» (١). ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون، حتى أولو العزم الأكملون: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم.

وقوله ﷺ: «فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش - أي: آخذًا بها - فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور» دليل على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات (٢) يوم القيامة، حين يتجلي الرب لفصل القضاء بين عباده: فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال، فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء، ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء، فيجد موسى باطشًا بقائمة العرش. قال الصادق المصدوق: «فلا أدري أصعق فأفاق قبلي؟» أي: كانت صعقته خفيفة، لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق «أو جوزي بصعقة الطور؟» يعني فلم يصعق بالكلية.

وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية، ولا يلزم تفضيله بها مطلقًا من كل وجه. ولهذا نبه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة، لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر (٣)، قد يحصل في نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه الصلاة والسلام، فبين النبي ﷺ فضيلته وشرفه.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤] أي: في ذلك الزمان، لا ما قبله؛ لأن إبراهيم الخليل أفضل منه، كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم، ولا ما بعده، لأن محمدًا ﷺ أفضل منهما، كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء، وكما ثبت أنه قال: «سأقوم مقامًا يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم» (٤).

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤] أي: فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام، ولا تسأل زيادة عليه، وكن من الشاكرين على ذلك. وقال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥] وكانت الألواح من جوهر نفيس، ففي الصحيح: أن الله كتب له التوراة بيده، وفيها مواعظ عن الآثام، وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من

(١) سبق تخريجه.
(٢) عرصات: جمع عرصة، وعَرِصَ البرق عرصًا: اضطرب. الوسيط (٦١٤).
(٣)، (٤) سبق تخريجه.

الحلال والحرام ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أي: بعزم ونية صادقة قوية ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] أن يصنعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة الخارجين عن طاعتي، المخالفين لأمري، المكذبين لرسلي ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ [الأعراف: ١٤٦] أي: عن فهمها وتدبرها، وتعقل معناها الذي أريد منها، ودل عليه مقتضاها ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٦] أي: ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات، لا ينقادون لاتباعها ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] أي: لا يسلكوه ولا يتبعوه، ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦] أي: صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا، وتغافلهم عنها، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكير في معناها، وترك العمل بمقتضاها. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧].

قصة عبادتهم العجل في غيبة كليم الله [1] عنهم

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى

---

(١) يعني: موسى ﷺ

إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه :٨٣-٩٨].

يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل، حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها. فعمد رجل منهم يقال له هارون السامري، فأخذ ما كانوا استعاروه من الحلي، فصاغ منه عجلا وألقي فيه قبضة من التراب، كان أخذها من أثر فرس جبريل، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها في فيه خار [١] كما يخور العجل الحقيقي. ويقال إنه استحال عجلاً جسدًا، أي: لحمًا ودمًا حيا يخور، قاله قتادة وغيره. وقيل بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون. ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه :٨٨] أي: فنسى موسى ربه عندنا، وذهب يتطلبه وهو هاهنا، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرًا، وتقدست أسماؤه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه وعداته. قال الله تعالى مبينًا ما ذهبوا إليه، وما عولوا عليه من إلهية هذا الذي قصاراه أن يكون حيوانًا بهيمًا أو شيطانًا رجيمًا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه :٨٩] وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف :١٤٨] فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جوابًا، ولا يملك ضرًا ولا نفعًا، ولا يهدي إلى رشد، اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم، عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال. ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف :١٤٩] أي: ندموا على ما صنعوا ﴿وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف :١٤٩]

ولما رجع موسى عليه السلام إليهم، ورأى ما هم عليه من عبادة العجل، ومعه الألواح المتضمنة التوراة، ألقاها، فيقال إنه كسرها. وهكذا هو عند أهل الكتاب، وإن الله أبدله غيرها، وليس في اللفظ القرآني ما يدل على ذلك، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين. وعند أهل الكتاب: أنهما كانا لوحين، وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل، فأمره بمعاينة ذلك.

ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أحمد وابن حبان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة» [٢].

ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه، بما ليس بصحيح، قالوا: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه :٨٧] تحرجوا من تملك حلى آل فرعون وهم أهل حرب، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم، ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذي له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار !، ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام قائلاً له: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾

(١) خار خُوارًا، والخُوارُ: صوت البقر والغنم والظباء والسهام. القاموس المحيط (٤٩٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٣)، (٥٣٧٤) وابن حبان.

[طه :٩٢-٩٣]أي : هلاَّ [1]لما رأيت ما صنعوا اتبعتني فأعلمتني بما فعلوا . فقال : ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه :٩٤]أي : تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم .

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف :١٥١]وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي ، وزجرهم عنه أتم الزجر .

قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ﴾ [طه :٩٠]أي إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختبارًا لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه :٩٠]أي لا هذا ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ [طه :٩٠]أي : فيما أقول لكم ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِي ۝٩٠ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩٠-٩١]يشهد الله لهارون عليه السلام ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه .

ثم أقبل موسى على السامري ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ [طه :٩٥]أي : ماحملك على ماصنعت؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [طه :٩٦]أي : رأيت جبريل وهو راكب فرسًا : ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه :٩٦]أي : من أثر فرس جبريل . وقد ذكر بعضهم أنه رآه ، وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخْضَرَّ وأعشب ، فأخذ من أثر حافرها ، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ، ولهذا قال : ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ﴾ [طه: ٩٦-٩٧] وهذا دعاء عليه بألا يمس أحدًا ، معاقبة له على مَسِّهِ ما لم يكن له مَسُّهُ ، هذا معاقبة له في الدنيا ، ثم توعده في الأخرى فقال : ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ﴾ [طه :٩٧] وقرئ : «لَّنْ نخلِفه» ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه :٩٧] قال : فعمد موسى عليه السلام إلي هذا العجل ، فحرقه : قيل : بالنار ، كما قال قتادة وغيره ، وقيل : بالمبارد ، كما قاله عَلِيٌّ وابن عباس وغيرهما ، وهو نص أهل الكتاب ، ثم ذراه في البحر ، وأمر بني إسرائيل فشربوا ، فمن كان من عابديه علق في شفاههم من ذلك الرماد مايدل عليه ، وقيل : بل اصفرت ألوانهم . ثم قال تعالى إخبارًا عن موسى أنه قال لهم : ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه :٩٨] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف :١٥٢] وهكذا وقع . وقد قال بعض السلف : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف : ١٥٢] مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة . ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه ، وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه ، فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف :١٥٣] لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة :٥٤]

---

(١) هلاَّ : كلمة تحضيض ، يعني : أليس كان الأفضل أن تتبعني وتعلمني بذلك . وانظر الوسيط ص (١٠٣٣) .

فيقال: إنهم أصبحوا يومًا وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف وألقى الله عليهم ضبابًا حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم، فيقال: إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] استدل بعضهم بقوله: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ [الأعراف: ١٥٤] على أنها تكسرت، وفي هذا الاستدلال نظر وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت، والله أعلم.

وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتون كما سيأتي: أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر، وما هو ببعيد، لأنهم حين خرجوا: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وهكذا عند أهل الكتاب، فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم، بلاد بيت المقدس. وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل، قتلوا في أول يوم ثلاثة آلاف، ثم ذهب موسى يستغفر لهم، فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة.

قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٧].

ذكر السدي وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل، ومعهم موسى وهارون ويوشع وناذاب وأبيهو، ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل، وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع صعد موسى الجبل. فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله. وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وليس هذا بلازم، لقوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أي: مبلغًا، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغًا من موسى عليه السلام. وزعموا أيضًا أن السبعين رأوا الله، وهذا غلط منهم، لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥] قال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً. الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله

فتوبوا إليه بما صنعتم إليه وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء، لميقات وَقَّتَهُ له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم.

فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل في الغمام، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله، وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأخذتهم الرجفة، وهي الصاعقة [١] فأتلفت أرواحهم فماتوا جميعًا. فقام موسى يناشد ربه، ويدعوه، ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا بُرَاءُ مما عملوا.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل. وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: اختبارك وابتلاؤك وامتحانك. قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف، يعني: أنت الذي قدرت هذا، وخلقت ماكان من أمر العجل اختبارا تختبرهم به كما: ﴿قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ [طه: ٩٠] أي اختبرتم. ولهذا قال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من شئت أضللته باختبارك إياه، ومن شئت هديته، لك الحكم والمشيئة لا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ۝ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٦] أي: تبنا إليك ورجعنا وأنبنا، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمي والضحاك والسدي وقتادة وغير واحد. وهو كذلك في اللغة. ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها. ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتابًا فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» [٢] ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: فسأوجبها حتمًا لمن يتصف بهذه الصفات: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآية.

---

(١) الصاعقة: نار تسقط من السماء، أو: كل عذاب مهلك، قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ١٣]. أو هي جسم ناري مشتعل يسقط من السماء في رعد شديد. الوسيط ص (٥٣٥).

(٢) أخرجه الحميدي (١١٢٦)، وأحمد (٢/ ٢٤٢، ٢٥٧، ٢٥٩، ٣٥٨)، والبخاري (٤/ ١٢٩)، (٩/ ١٥٣، ١٦٥)، ومسلم (٨/ ٩٥) كلهم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة به.

وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته من الله لموسى عليه السلام، في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه. وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها في التفسير بما فيه كفاية ومقنع [١]، ولله الحمد والمنة.

وقال قتادة: قال موسى: يارب: إني أجد في الألواح أمة هي خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر، رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هُمُ الآخرون في الخلق، السابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها، وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظرًا، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئًا ولم يعرفوه، وأن الله أعطاهم من الحفظ شيئًا لم يعطه أحدًا من الأمم، قال: رب: اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فضول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارًا فأكلتها، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير، وأن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم، قال: رب فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، فإني أجد في الألواح أمة إذا هَمَّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال: رب، اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد قال: رب. إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد.

وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام، وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها، ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه، وحسن هدايته ومعونته وتأييده:

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان في صحيحه: «ذكر سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنى أهل الجنة [٢] وأرفعهم منزلة» [٣] أخبرنا عمر بن سعيد الطائي ببلخ، حدثنا حامد بن يحيى البلخي، حدثنا سفيان، حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن أبجر شيخان صالحان، قالا: سمعنا الشعبي يقول: سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبي ﷺ: «إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل: أي أهل الجنة أدنى منزلة؟ فقال: رجل يجيء بعدما يدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: كيف ادخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخاذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: نعم أي رب، فيقال: لك هذا ومثله معه. فيقول: أي رب رضيت، فيقال له: لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك، وسأل ربه: أي أهل الجنة أرفع منزلة؟ قال: سأحدثك عنهم، غرست كرامتهم بيـدي،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤١ - ٢٤٤).

(٢) أي: أقلهم. (٣) أي: أعلاهم وأحسنهم.

وختمت عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[(١)] . ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] الآية .

وهكذا رواه مسلم والترمذي كلاهما عن ابن أبي عمر، عن سفيان - وهو ابن عيينة - به . ولفظ مسلم: «فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِكٍ مِنْ ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب فيقال له: لك ذلك ومثله ومثله ومثله فيقول في الخامسة رضيت رب فيقال هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت رب . قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر» . قال: ومصداقه من كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة :١٧][(٢)] . قال الترمذي: حسن صحيح، قال: ورواه بعضهم عن الشعبي عن المغيرة فلم يرفعه، والمرفوع أصح .

وقال ابن حبان: «ذِكْرُ سؤال الكليم ربَّه عن خصال سبع»: حدثنا عبد الله بن محمد ابن مسلم ببيت المقدس، حدثنا حرملة بن يحيى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو ابن الحارث، أن أبا السمح حدثه عن ابن حجيرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «سأل موسى ربه عز وجل عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة، والسابعة لم يكن موسى يحبها . قال: يا رب، أي عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكر ولا ينسى[(٣)] . قال: فأي عبادك أهدى؟ قال: الذي يتبع الهدى . قال: فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه . قال: فأي عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشبع من العلم، يجمع علم الناس إلى علمه . قال: فأي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قدر غفر . قال: فأي عبادك أغنى؟ قال: الذي يرضى بما يؤتى . قال: فأي عبادك أفقر: قال: صَاحِبٌ مَنْقُوصٌ»[(٤)] .

وقال رسول الله ﷺ : «ليس الغني عن ظهر، إنما الغني غني النفس، وإذا أراد الله بعبد خيرًا جعل غناه في نفسه، وتقاه في قلبه، وإذا أراد بعبد شرًا جعل فقره بين عينيه»[(٥)] قال ابن حبان: قوله: «صاحب منقوص» يريد به: مَنْقُوصٌ حَالَتُهُ، يستقلُّ ما أوتي، وَيَطْلُبُ الفَضْلَ .

وقد رواه ابن جرير في تاريخه عن ابن حميد، عن يعقوب التيمي . عن هارون بن هبيرة، عن أبيه، عن ابن عباس قال: سأل موسى ربه عز وجل فذكر نحوه . وفيه: «قال: أي رب فأي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلي علمه، عسى أن يجد كلمة تهديه إلي هدى أو ترده عن رَدى . قال: أي رب فهل في الأرض أحد أعلم مني؟ قال: نعم الخضر» . فسأل السبيل إلى لقيه فكان ما سنذكره بعد إن شاء الله، وبه الثقة .

---

(١) أخرجه الحميدي (٧٦١)، ومسلم (١/ ١٢٠، ١٢١)، والترمذي (٣١٩٨) كلهم من طريق الشعبي به . ابن حبان .

(٢) هو السابق .

(٣) يعني: يذكرني ولا ينسى ذكري . فهو لهج بذكر الله دائمًا، بلسانه وجوارحه .

(٤) ابن حبان (٦٢١٧) وهو حسن بشواهده .

(٥) ابن جرير في تاريخه (١/ ٢٢٣) وهو حسن بشواهده .

ذكر حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن موسى قال: أي رب عبدك المؤمن مقتر عليه في الدنيا! قال: ففتح له باب من الجنة فنظر إليها، قال: يا موسى هذا ما أعددت له. فقال موسى: يا رب وعزتك وجلالك لو كان مقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة، وكان هذا مصيره لم ير بؤسًا قط. قال: ثم قال: أي رب عبدك الكافر مُوَسَّعٌ عليه في الدنيا، قال: ففتح له باب إلي النار فقال: يا موسى: هذا ما أعددت له. فقال موسى: أي رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلي يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيرًا قط» [1]. تفرد به أحمد من هذا الوجه، وفي صحته نظر. والله أعلم.

وقال ابن حبان: «ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئًا يذكره به» حدثنا ابن سلمة، حدثنا حرملة بن يحيى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجًا حدثه عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «قال موسى: يارب علمني شيئًا أذكرك به وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقول هذا. قال: قل لا إله إلا الله. قال: إنما أريد شيئًا تخصني به. قال: يا موسى لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله» [2]. ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة، وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الدعاء دعاء عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي. لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» [3].

وقال ابن أبي حاتم عند تفسير آية الكرسي [4]: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدسكي، حدثني أبي عن أبيه، حدثنا أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة. عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى: هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربه عز وجل: يا موسى سألوك هل ينام ربك؟ فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل، ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلثه نعس فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨١) به. وإسناده ضعيف.

(٢) ابن حبان (٦٢١٨).

(٣) أخرجه مالك في موطئه عن طلحة بن عبيد بن كريز مرسلاً، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠٢)، وانظر الصحيحة (١٥٠٣).

(٤) وآية الكرسي هي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وسميت بآية الكرسي لذكر الكرسي فيها قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾.

نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال: يا موسى لوكنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك! قال: وأنزل الله على رسوله آية الكرسي.

وقال ابن جرير: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال: «وقع في نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل؟ فأرسل الله إليه ملكًا فأرقه ثلاثًا، ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما. قال: فجعل ينام وكادت يداه تلتقيان، فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى، حتى نام نومة فاصطفقت[1] يداه فانكسرت القارورتان، قال: فضرب ضرب الله له مثلاً: أن لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض»[2]. وهذا حديث غريب رفعه، والأشبه أن يكون موقوفًا، وأن يكون أصله إسرائيليًا.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣-٦٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

قال ابن عباس: لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم. فقالوا: انشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها، فقال: بل اقبلوها بما فيها فراجعوه مرارًا، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رءوسهم حتى صار كأنه ظلة -أي غمامة- على رءوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم، فقبلوا ذلك، وأمروا بالسجود فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم، فصارت سنة لليهود إلى اليوم، يقولون: لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب. وقال سنيد بن داود عن حجاج بن محمد، عن أبي بكر بن عبد الله قال: فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس على وجه الأرض يهودي صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾[البقرة: ٦٤] أي ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾[البقرة: ٦٤] بأن تدارككم بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[البقرة: ٦٤].



(١) اصطفق الشيء: اضطرب وتحرك. الوجيز ص (٣٦٦).

(٢) ابن جرير (٣/ ٨/ ٨). والصحيح أنه موقوف على ابن عباس، ولا يصح مرفوعًا.

قصة بقرة بني إسرائيل

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٦٧-٧٣].

قال ابن عباس وعبيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسدي، وغير واحد من السلف: كان رجل في بني إسرائيل كثير المال، وكان شيخًا كبيرًا، وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق [(١)]، ويقال على باب رجل منهم. فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم، فقالوا: مالكم تختصمون ولا تأتون نبي الله؟ فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى ﷺ. فقال موسى عليه السلام: «أنشد اللهَ رجلاً [(٢)] عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به» فلم يكن عند أحد منهم علم منه، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عز وجل. فسأل ربه عز وجل ذلك، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:٦٧] يعنون: نحن نسألك عن أمر هذا القتيل، وأنت تقول لنا هذا؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧] أي: أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إليَّ، وهذا هو الذي أجابني حين سألته عما سألتموني أن أسأله فيه. قال ابن عباس وعبيد ومجاهد وعكرمة والسدي وأبو العالية وغير واحد. فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها، ولكن شددوا فشدد عليهم. وقد ورد فيه حديث مرفوع، وفي إسناده ضعف.

فسألوا عن صفتها، ثم عن لونها، ثم عن سنها، فأجيبوا بما عز وجوده عليهم. وقد ذكرنا تفسير ذلك كله في التفسير [(٣)].

والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان، وهي الوسط النصف بين الفارض وهي الكبيرة والبكر وهي الصغيرة، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة، ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها، فأمروا بصفراء فاقع لونها، أي: مشرب بحمرة تسر الناظرين، وهذا اللون عزيز، ثم شددوا أيضًا ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٧٠].

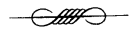
---

(١) يعني: مكان التقاء الطرق.

(٢) يقال: أنشد فلانًا الله، وبه: سأله به مُقسمًا عليه. الوجيز ص (٦١٥).

(٣) انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٠٣ . ١٠٩).

ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه: «لولا أن بني إسرائيل استثنوا لما أعطوا»[1] وفي صحته نظر. والله أعلم. ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] وهذه الصفات أضيق مما تقدم، حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول، وهي المذللة بالحراثة وسقي الأرض بالساقية، مسلمة وهي الصحيحة التي لا عيب فيها، قاله أبو العالية وقتادة، وقوله ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١] أي ليس فيها لون يخالف لونها، بل هي مسلمة من العيوب، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها. فلما حددها بهذه الصفات، وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١] ويقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان بارًّا بأبيه، فطلبوها منه فأبى عليهم، فأرغبوه في ثمنها حتى أعطوه، فيما ذكره السدي، بوزنها ذهبًا فأبى عليهم، حتى أعطوه بوزنها عشر مرات، فباعها لهم. فأمرهم نبي الله موسى بذبحها ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أي: وهم يترددون في أمرها، ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها قيل: بلحم فخذها، وقيل بالعظم الذي يلي الغضروف وقيل بالبضعة التي بين الكتفين، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى، فقام وهو يشخب أوداجه، فسأله نبي الله موسى: من قتلك؟ قال: قتلني ابن أخي، ثم عاد ميتًا كما كان. قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] أي: كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له، كذلك أمره في سائر الموتى، إذا شاء إحياءهم أحياهم في ساعة واحدة كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].



(١) ابن أبي حاتم (٧٢٢) وهو حديث ضعيف.

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ **[الكهف: ٦٠-٨٢].**

قال بعض أهل الكتاب: إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر - هو موسى بن منسا ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم، منهم نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي. ويقال: إنه دمشقي، وكانت أمه زوجة كعب الأحبار. والصحيح الذي دل عليه سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه: أنه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل. قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، قال: أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله. حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه، إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يارب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله بمكتل [(١)] فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمّ، فأخذ حوتًا فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون،

(١) المكتل: قفة تعمل من الخوص.

حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما. واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر، واتخذ سبيله في البحر سربًا. وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق [١] فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما. حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] قال ولم يجد موسى النصب حتي جاوز المكان الذي أمره الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣] قال: فكان للحوت سربًا، ولموسى ولفتاه عجبًا فقال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] قال: فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى [٢] بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر، وأني بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠ فَٱنطَلَقَا﴾ [الكهف: ٧٠-٧١] يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلي سفينتهم فخرقتها ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۝٧١ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧١-٧٣] قال: وقال رسول الله ﷺ: «فكانت الأولى من موسى نسيانا». قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعِلْمُك من علم الله إلا مثلَ ما نقص هذا العصفورُ بمنقاره من هذا البحر! . ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٤-٧٥] قال: وهذه أشد من الأولى ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] قال: مائل. فقام الخضر: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٧] بيده، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ...﴾ [الكهف: ٧٧-٧٨] إلى قوله ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢] فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: «كان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا»

---

(١) الطاق: ما عطف وجعل كالقوس.

(٢) يعني: مغطى.

وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين» [(١)].

ثم رواه البخاري أيضًا عن قتيبة عن سفيان بن عيينة بإسناده نحوه، وفيه: «فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام» [(٢)]. قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة، لا يصيب من مائها شيء إلا حيي، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال: فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا﴾ [الكهف: ٦٢] الآية. وساق الحديث. وقال: ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره. وذكر تمام الحديث.

وقال البخاري [(٣)]: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف: أن ابن جريج أخبرهم، قال: أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير، يزيد أحدهما على صاحبه وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير قال: إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال: سلوني، فقلت: أي أبا عباس – جعلني الله فداك – بالكوفة رجل قاص يقال له نوف، يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل. أما عمرو فقال لي، قال: قد كذب عدو الله. وأما يعلى فقال لي: قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «موسى رسول الله قال: ذكر الناس يومًا حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب ولي، فأدركه رجل فقال: أي رسول الله! هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، قيل: بلى. قال: أي رب فأين؟ قال: بمجمع البحرين، قال: أي رب اجعل لي علمًا أعلم ذلك به. قال لي عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت، وقال لي يعلى: قال: خذ حوتًا ميتًا حيث ينفخ فيه الروح.

فأخذ حوتًا فجعله في مكتل، فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كثيرًا، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠] يوشع بن نون، ليست عن سعيد بن جبير، قال: وبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ اضطرب الحوت وموسى نائم، فقال فتاه لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، واضطرب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية الماء حتى كان أثره في حجر، قال لي عمرو: هكذا، كأن أثره في حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليهما.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] قال: وقد قطع الله عنك النصب – ليست هذه عن سعيد – أخبره فرجعا فوجدا خضرًا – قال لي عثمان بن أبي سليمان – على طنفسة [(٤)] خضراء على

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١١٦، ١١٨، ١١٩، ٢٢١) وعبد بن حميد (١٦٩)، والبخاري (١/ ٢٨٤١، ٢٩،)، (٣/ ١١٧، ٢٥١)، (٤/ ١٥٠، ١٨٧، ١٨٨)، (٦/ ١١٠، ١١٢)، (٨/ ١٧٠)، (٩/ ١٧١)، ومسلم (٧/ ١٠٣، ١٠٥، ١٠٧)، وأبو داود (٤٧٠٧)، والترمذي (٣١٤٩)، والنسائي في الكبرى (٣٩) كلهم من طريق ابن عباس به.

(٢) هو السابق.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢٢٦٧).

(٤) الطنفسة: البساط، أو: النمرقة فوق الرحل. الوسيط (٥٨٨).

كبد البحر، قال سعيد بن جبير: مسجى بثوبه، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرض من سلام؟ من أنت؟ فقال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئتك لتعلمني مما علمت رشدًا، قال: أما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك؟ يا موسى إن لي علمًا لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علمًا لا ينبغي لي أن أعلمه. فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال: والله ما علمي وعلمك في جانب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾ [الكهف: ٧١] وجدا معابر صغارًا تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر، عرفوه فقالوا: عبد الله الصالح. قال: فقلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم. لا نحمله بأجر، فخرقها ووتد فيها وتدًا ﴿قَالَ﴾ [الكهف: ٧١] موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] قال مجاهد: منكرًا. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢] كانت الأولى نسيانًا. والوسطى شرطًا، والثالثة عمدًا ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٣-٧٤] قال يعلى: قال سعيد: وجد غلمانًا يلعبون فأخذ غلامًا كافرًا ظريفًا فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ [الكهف: ٧٤] لم تعمل بالخبيث. وكان ابن عباس قرأها: زكية زاكية مسلمة. كقولك: غلامًا زكيًا. فانطلقا ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٧] قال سعيد بيده هكذا، ورفع يده فاستقام.

قال يعلى: حسبت أن سعيدًا قال: فمسحه بيده فاستقام: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] قال سعيد، أجرًا نأكله. ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ [الكهف: ٧٩] وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: أمامهم ملك يزعمون عن غير سعيد أنه «هدد بن بدد» ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] فأردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها، منهم من يقول: سدوها بقارورة، ومنهم من يقول بالقار. والغلام المقتول يزعمون «جيسور» ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٠] وكان كافرًا ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] أي: يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١] لقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ [الكهف: ٧٤] ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] هما به الولد الذي يبدلهما الله به أرحم منهما بالأول الذي قتل الخضر. وزعم سعيد بن جبير أنه ابن جارية، وأما داود ابن أبي عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية (١).

وقد رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خطب موسى بني إسرائيل، فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره مني، فأمر أن يلقى هذا الرجل، فذكر نحو ما تقدم. وهكذا رواه محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عيينة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضًا (٢).

ورواه العوفي عنه موقوفًا. وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس: أنه تماري هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر، فمرَّ بهما

(١) سبق تخريجه.

(٢) عبد الرزاق في التفسير (١٦٩٧).

أبي بن كعب فدعاه ابن عباس، فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه، فهل سمعت من رسول الله فيه شيئًا؟ قال: نعم، وذكر الحديث [١]، وقد تقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه في تفسير سورة الكهف [٢]. ولله الحمد.

وقوله: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ **[الكهف :٨٢]** قال السهيلي: وهما أصرم وصريم ابنا كاشح ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ **[الكهف :٨٢]** قيل كان ذهبًا، قاله عكرمة. وقيل علمًا، قاله ابن عباس. والأشبه أنه كان لوحًا من ذهب مكتوبًا فيه علم.

قال البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث ابن عبد الله اليحصبي، عن عياش بن عباس الغساني، عن ابن حجيرة، عن أبي ذر رفعه قال: «إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من الذهب مصمت مكتوب فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب؟ وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك؟ وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله» [٣]. وهكذا روى عن الحسن البصري وعمر مولى غفرة وجعفر الصادق نحو هذا.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ **[الكهف :٨٢]** وقد قيل: إنه كان الأب السابع وقيل العاشر، وعلى كل تقدير: فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته. والله المستعان.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ **[الكهف: ٨٢]** دليل على أنه كان نبيًا، وأنه ما فعل شيئًا من تلقاء نفسه، بل بأمر ربه فهو نبي، وقيل رسول، وقيل ولي، وأغرب من هذا من قال إنه كان ملكًا. قلت: وقد أغرب جدًا من قال هو ابن فرعون، وقيل إنه ابن الضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة.

قال ابن جرير: والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان في زمن «أفريدون» ويقال: إنه كان على مقدمة ذي القرنين، الذي قيل إنه كان أفريدون، وذو الفرس هو الذي كان في زمن الخليل، وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن.

وقيل: إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم، وهاجر معه من أرض بابل. وقيل اسمه «ملكان» وقيل «أرميا بن حلقيا» وقيل كان نبيًا في زمن سباسب بن بهرلسب.

قال ابن جرير: وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب، قال ابن جرير: والصحيح أنه كان في زمن أفريدون، واستمر حيًا إلى أن أدركه موسى عليه السلام. وكانت نبوة موسى في زمن «منو شهر» الذي هو من ولد أبرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس، وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده وكان عادلاً. وهو أول من خندق الخنادق. وأول من جعل في كل قرية دِهْقَانًا وكانت مدة ملكه قريبًا من مائة وخمسين سنة. ويقال: إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم.

وقد ذُكِرَ عنه من الخطب الحسان والكَلِم البليغ النافع الفصيح مايبهر العقل، ويحير السامع، وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل. والله أعلم.

(١) سبق تخريجه. (٢) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٩٠ – ٩٨).

(٣) البزار برقم (٤٠٦٥) كما في البحر الزخار. والحديث ضعيف.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ **[آل عمران: ٨١]** .

فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره واستلزم ذلك الإيمان وأخذ الميثاق لمحمد ﷺ لأنه خاتم الأنبياء فحق على كل نبي أدركه أن يؤمن به وينصره فلو كان الخضر حيًا في زمانه، لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره، ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر، كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة.

وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبيًا، وهو الحق، أو رسولاً كما قيل، أو ملكًا فيما ذكر، وأيًا ما كان فجبريل رئيس الملائكة، وموسى أشرف من الخضر، ولو كان حيا لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته، فكيف إن كان الخضر وليًا كما يقوله طوائف كثيرون؟ فأولى أن يدخل في عموم البعثة وأحرى، ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد إنه جاء يومًا واحدًا إلى رسول الله ﷺ، ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التعزية فيه، وإن كان الحاكم قد رواه، فإسناده ضعيف . . . والله أعلم، وسنفرد للخضر ترجمة على حدة بعد هذا.



ذكرُ الحديثِ الملقبِ بحديثِ الفتونِ
المتضمنِ قصةَ موسى مبسوطةً من أولها إلى آخرها

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب التفسير من سننه، عند قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]

حديث الفتون:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أصبغ بن زيد، حدثنا القاسم ابن أبي أيوب، أخبرني سعيد بن جبير قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى لموسى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثًا طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأتنجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكًا، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار، يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك.

فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يُذَبَّحُون قالوا: توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر واتركوا بناتهم، ودعوا عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم. فأجمعوا أمرهم على ذلك، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة.

فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام، فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون، يا ابن جبير ما دخل عليه في بطن أمه مما يراد به.

فأوحى الله إليها أن ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت وتلقيه في اليم. فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان، فقالت قالت في نفسها: مافعلت بابني؟ لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إليَّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى عند فرضة تستسقى منها جواري امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه، فَهَمَمْنَ أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن: إن في هذا مالاً، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئًا حتى دفعنه إليها. فلما فتحته رأت فيه غلامًا، فألقي الله عليه منها محبة لم تلق منها على أحد قط ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠] من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه.

وذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت لهم: أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل. حتى أتى فرعون فاستوهبه منه، فإن وهبه مني كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألمكم، فأتت فرعون فقالت ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص:٩] فقال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه، فقال رسول الله ﷺ: «والذي يُحلَفُ به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له، كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك».

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لأن تختار له ظِئْرًا[1]، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك. فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئرًا تأخذه منها، فلم يقبل. وأصبحت أم موسى والهة، فقالت لأخته: قصي أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكرًا؟ أَحَيٌّ ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ [القصص:١١] أخته ﴿عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:١١] والجنب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يُشْعَرُ به. فقالت من الفرح حين أعياهم الظئرات: أنا ﴿أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص:١٢] فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شَكُّوا في ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئرًا، فأرسلت إليها فأتت بها وبه. فلما رأت مايصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئًا حبه قط، قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه، فأذهب به إلى بيتي، فيكون معي لا آلوه خيرًا، فعلت، فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها، فتعاسرت على امرأة فرعون. وأيقنت أن الله منجز موعوده، فرجعت إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتًا حسنًا، وحفظه لما قد قضي فيه. فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية، ممتنعين من السُّخْرَةِ والظلم ماكان فيهم.

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أزيريني ابني، فوعدتها يومًا تزيرها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظئورها وقَهَارِمَتِهَا: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة، لأرى ذلك فيه وأنا باعثة أمينًا يحصى كل ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنُّحَلُ تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه. ثم قالت: لآتين به فرعون فَلَيَنْحَلَنَّهُ ولَيُكْرِمَنَّهُ. فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه؟ إنه زعم أنه يرثك ويعلوك ويصارعك، فأرسل

---

(١) الظِّئْرُ: المرضعة لغير ولدها. الوسيط (٥٩٦).

إلى الذباحين ليذبحوه، وذلك من «الفتون» يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلي به وأريد به فتونًا . فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترينه يزعم أن يصرعني ويعلوني؟ فقالت: اجعل بيني وبينك أمرًا تعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه، فإن بطش [(١)] باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحدًا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به، وكان الله بالغًا فيه أمره. فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة، إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه [(٢)] الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضبًا شديدًا، لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا أنه من الرضاع إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره. فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي، فقال موسى حين قُتِلَ الرجل: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٥] ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٦-١٨] فأتى فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم، فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صفوة من قومه، لا ينبغي له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة، إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلا من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه من وكزه ذلك الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٨] فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٨] أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراده، إنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص:١٩] وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا [(٣)].

وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص:١٩] فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هينتهم، يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقًا حتى سبقهم إلي موسى فأخبره. وذلك من الفتون يا ابن جبير.

---

(١) يعني إنْ أخذ بيده. (٢) أي طلب منه العون.
(٣) يعني: ترك الفرعوني والإسرائيلي كل واحد منهما قتال الآخر.

فخرج موسى متوجهًا نحو مَدْيَنَ لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٢-٢٣]يعني بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص :٢٣]معتزلتين لا تسقيان مع الناس. قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم. فسقي لهما فجعل يغترف من الدلو ماء كثيرًا حتى كان أول الرِّعاء وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص :٢٤].

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطانًا فقال: إن لكما اليوم نشأنًا، فأخبرتاه بما صنع موسى فأمر إحداهما أن تدعوه فأتت موسى فدعته. فلما كَلَّمَهُ: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص :٢٥]ليس لفرعون ولا لقومه علينا من سلطان ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص :٢٦]فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وما أمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقي لنا لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إليَّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك. ثم قال لي: امش خلفي وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين. فسرى عن أبيها وصدقها، وظن به الذي قالت. فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص :٢٧]ففعل، فكانت على نبي الله موسى ثماني حجج واجبة، وكانت السنتان عِدَةً منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرًا.

قال سعيد - وهو ابن جبير -لقيني رجلٌ من أهل النصرانية من علمائهم، قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدري. فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له، فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة، لم يكن نبي الله لينقص منها شيئًا؟ وتعلم أن الله كان قاضيًا عن موسى عدته التي وعده، فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته، فأخبرك أعلم منك بذلك، قلت: أجل وأولى. فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده، ما قص الله عليك في القرآن. فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه من عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له ردءًا، يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه الله عز وجل سُؤْلَهُ وحل عقدةً من لسانه، وأوحى الله إلى هارون فأمره أن يلقاه. فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هارون، فانطلقا جميعًا إلى فرعون، فأقاما على بابه حينًا لا يُؤْذَنُ لهما. ثم أُذِنَ لهما بعد حجاب شديد فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه :٤٧] قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه :٤٩] فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن. قال: فما تريدان؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معي بني إسرائيل،

فأبى عليه وقال: ائت بآية ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:١٠٦-١٠٧]حية عظيمة فَاغِرَةً [1] فَاهًا مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل.

ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني: من غير برص، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول. فاستشار الملأ من حوله فيما رأى فقالوا له: ﴿إِنَّ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه:٦٣] يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش، وَأَبَوْا على موسى أن يعطوه شيئًا مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير، حتى تغلب بسحرك سحرهما.

فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذي نعمل، فما أَجْرُنَا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانعٌ إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا: ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩]. قال سعيد: فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة: اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠] يعنون: موسى وهارون استهزاءً بهما، فقالوا: يا موسى، بعد تريثهم [2] بسحرهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥] قال: بل ألقوا ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الشعراء:٤٤] فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفةً، فأوحى الله إليه: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف:١١٧] فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصا تلتبس بالحبال، حتى صارت حرزًا [3] على الثعابين، أن تدخل فيه حتى ما أبقت عصا ولا حبلاً إلا ابتلعته. فلما عرف السحرةُ ذلكَ، قالوا: لو كان هذا سحرًا لم تبلع مِنْ سِحرِنا كلَّ هذا، ولكنه أمرٌ من الله تعالى، آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله مما كنا عليه.

فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحقُّ ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ﴾ [الأعراف:١١٨-١١٩]. [illegible] أة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده، وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله على

---

(١) فَغَرَ فمه: فتحه. الوسيط (٧٢٢).

(٢) راث ريثًا: أبطأ، والريث: البطء والمقدار. الوجيز ص (٢٨٣).

(٣) الحرز: الوعاء الحصين يحفظ فيه الشيء. الوجيز ص (١٤٤).

قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات. كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يَكُفَّهَا عنه، ليوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه أخلف بوعده ونكث عهده، حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلاً. فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين، فتتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر: إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فَانْفَلِق اثنتي عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التَقِ على مَنْ بقى بَعْدُ، مِنْ فرعون وأشياعه.

فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف[1] مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيًا لله عز وجل، فلما تراءى الجمعان وتقاربا ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١] افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب، قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أُجَاوِزَه، ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائلُ جندِ فرعونَ من أواخر جند موسى. فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاوز موسى وأصحابُهُ كلُّهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أُمِر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف :١٣٨-١٣٩] قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم. ومضى فأنزلهم موسى منزلا، وقال: أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم، فإني ذاهب إلى ربي. وَأَجَّلَهم ثلاثين يومًا أن يرجع إليهم فيها. فلما أتى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه في ثلاثين يومًا، وقد صامهن ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه ورِيحُ فِيهِ رِيحُ فَم الصائم، فتناول موسى شيئًا من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لِمَ أفطرت؟ - وهو أعلم بالذي كان - قال: يا رب، إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، ارجع فصم عشرًا ثم ائتني، ففعل موسى ما أمره به ربه. فلما رأى قومُ موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم فقال: إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوارٍ[2] وودائع، ولكم فيها مثل ذلك، وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئًا من ذلك، ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيرًا، وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حيث احتملوا، فقُضِيَ له أنْ رأى أثرًا، فقبض منه قبضة، فمر بهارون فقال

---

(١) يعني: صوت.

(٢) عوارٍ: جمع عارية: وهي ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك. الوجيز ص (٤٤٠).

له هارون: يا سامري. ألا تلقي ما في يدك؟ وهو قابض عليه لا يراه أحدٌ طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشيء، إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد، فألقاها ودعا له هارون. فقال: أريد أن تكون عجلاً، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح وله خوار[1].

قال ابن عباس: لا والله ماكان فيه صوت قط، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقًا، فقالت فرقة: يا سامري. ما هذا وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق!.

وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعكفنا عليه حتى رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان وليس بربنا، ولا نؤمن به ولا نصدق، وأُشْرِبَ فرقةٌ في قلوبهم الصدق بما قاله السامري في العجل، وأعلنوا عدم التكذيب به.

فقال لهم هارون عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه:٩٠] ليس هذا. قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يومًا ثم أخلفنا؟ هذه أربعون يومًا قد مضت. وقال سفهاؤهم: أخطأ رَبَّهُ فهو يطلبه ويبتغيه. فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقى قومه من بعده: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ﴾ [طه:٨٦] فقال لهم: ما سمعتم ما في القرآن ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الأعراف:١٥٠] وألقى الألواح من الغضب. ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له، وانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم فقذفتها ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه:٩٦-٩٧] ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه. فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا بابَ توبة نصنعها فتكفر عنا ما عملنا. فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لذلك، لا يألو الخير من خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في الحق، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض. فاستحيا نبي الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فُعِل بهم ما فعل فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ﴾ [الأعراف:١٥٥] وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أُشْرِبَ قَلْبُهُ من حبِّ العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

---

(١) الخوار: صوت البقر وما أشبهها.

فقال: يارب. سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة. فقال له: إن توبتهم أن يقتلَ كلُّ رجلٍ منهم مَنْ لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن. وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون أمرهم، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول. ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهًا نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها، ونَتَقَ [(١)] اللهُ عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، وأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خَلْقهم خَلْق منكر، وذكروا من ثمارهم أمرًا عجيبًا من عظمها. فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢] لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة:٢٢].

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [المائدة:٢٣] قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم، من الجبارين، آمنا بموسى وخرجنا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا مَنَعَة عندهم، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. ويقول أناس: إنهم من قوم موسى. فقال الذين يخافون من بني إسرائيل: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤] فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم، حتى كان يومئذ فاستجاب الله له، وسماهم كما سماهم موسى فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى، وجعل لهم ثيابًا لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجرًا مربعًا، وأمر موسى فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، في كل ناحية ثلاثة أعين، وَأَعْلَمَ كلَّ سِبْطٍ عَيْنَهُمُ التي يشربون منها، فلا يرتحلون من مَحِلَّةٍ إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالمنزل الأول بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وصدق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل. فقال: كيف يفشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟ فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري، فقال له: يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره [(٢)].

(١) نتقه: زعزعه ونفضه. القاموس المحيط (١١٩٤).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (١١٣٢٦)، وابن جرير في تفسيره (٩/ ١٦/ ١٦٤). وهو حديث حسن وهو موقوف

هكذا ساق هذا الحديثَ الإمامُ النسائي، وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون . والأشبه - والله أعلم - أنه موقوفٌ، وكونه مرفوعًا فيه نظر . وغالبه متلقّى من الإسرائيليات، وفيه شيءٌ يسيرٌ مُصَرَّحٌ برفعه في أثناء الكلام . وفي بعض ما فيه نَظَرٌ ونَكَارَةٌ، والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المِزِّي يقول ذلك . والله أعلم .

ذكر بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب: وقد أمر الله تعالى موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشَّمْشَاز وجُلُودِ الأنعام وشعر الأغنام، وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب، ولها عشر سرادقات، طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعًا، وعرضه أربعة أذرع ولها أربع أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة، وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره .

وبعمل تابوت من خشب الشمشاز يكون طوله ذراعين ونصفًا، وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعًا ونصفًا، يكون مضببا بذهب خالص من داخله وخارجه، وله أربع حِلَقٍ في أَرْبَعِ زواياه، ويكون على حافتيه كُرُوبيان من ذهب - يعنون صفة ملكين بأجنحة - وهما متقابلان، صنعه رجل اسمه : «بصليال» .

وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشاز طولها ذراعان وعرضها ذراع ونصف، ولها ضبات ذهب وإكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب، وأربع حلق من نواحيها من ذهب، مغرزة في مثل الرمان من خشب ملبس ذهبًا . وأن يعمل صحافًا ومصافي وقصاعًا على المائدة، ويصنع منارة من الذهب، دلي فيها ست قصبات من ذهب، من كل جانب ثلاثة، على كل قصبة ثلاثة سُرُج، وليكن في المنارة أربعة قناديل، ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب . صنع ذلك «بصليال» أيضًا، وهو الذي عمل المذبح أيضًا

ونصبت هذه القبة أول يوم من سنتهم، وهو أول يوم من الربيع ونصب تابوت الشهادة، وهو - والله أعلم - المذكور في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة :٢٤٨] .

وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جدًا، وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم، وكيفيته . وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس، وأنها كانت لهم كالكعبة، يصلون فيها وإليها، ويتقربون عندها، وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها، وينزل عمود الغمام على بابها، فيخرون عند ذلك سجدًا لله عز وجل .

على ابن عباس .

ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام - الذي هو نور - ويخاطبه ويناجيه، ويأمره وينهاه، وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبيين فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهي.

وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء، يجيء إلى قبة الزمان، ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذَيْنِكَ الكروبيين، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة.

وقد كان هذا مشروعًا لهم في زمانهم، أعني استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ، في معبدهم وعند مصلاهم، فأما في شريعتنا فلا، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها، لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما وسع في مسجد رسول الله ﷺ، للذي وكله على عمارته: ابن للناس ما يُكِنُّهُم [(١)]، إياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس. وقال ابن عباس: لا تزخرفها كما زخرف اليهود والنصارى كنائسهم.

وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه، فهذه الأمة غير مشابهة مَنْ كان قبلهم من الأمم، إذ جمع الله هممهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه، وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر في غير ما هم بصدده، من العبادة العظيمة فلله الحمد والمنة. وقد كانت قبة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه، يصلون إليها وهي قبلتهم وكعبتهم، وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام، ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام. فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمر بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم، من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن.

وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون عليه السلام، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس كما سيأتي بيانه.

والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس، نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس فكانوا يصلون إليها. فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي الصخرة، فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ، وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة، وكان يجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر أُمِرَ بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليه ستة عشر - وقيل: سبعة عشر - شهرًا. ثم حولت القبلة إلى الكعبة - وهي قبلة إبراهيم الخليل - في شعبان سنة اثنتين في وقت صلاة العصر، وقيل الظهر [(٢)]، كما بسطنا ذلك في التفسير عند قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] إلى قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤] الآيات.



(١) يعني: يسترهم، ويقيهم حر الصيف، وبرد الشتاء.
(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٧٩ - ١٨٤).

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨٣].

قال الأعمش: عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان قارون ابن عم موسى، وكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وسماك ابن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وزاد فقال: هو قارون بن يصهب بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث. قال ابن جرير: وهذا قول أكثر أهل العلم، أنه كان ابن عم موسى، ورد قول ابن إسحاق: إنه كان عم موسى. قال قتادة: وكان يسمى المُنَوَّر لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نَافَقَ السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله.

وقال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبرًا طولا ترفعًا على قومه. وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه، حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد، وقد قيل: إنها كانت من الجلود، وإنها كانت تحمل على ستين بغلا. فالله أعلم.

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ [القصص: ٧٦]أي: لا تبطر بما أُعْطِيتَ وتفخر على غيرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧]يقولون: لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة، فإنه خير وأبقى، ومع هذا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]أي: وتناول منها بمالك ما أحل الله لك، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]أي: وأحسن إلى خلق الله كما أحسن اللهُ خالقُهُم وبَارِئُهُمْ إليك ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧]أي: ولا تسيء إليهم ولا تفسد فيهم، قابلهم ضد ما أُمِرْتَ به فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]فما كان جواب قارون لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن قال ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] يعني: أنا لا أحتاج إلى استماع ما ذكرتم، ولا إلي ما إليه أشرتم، فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه، وأني أهل له، ولولا أني حبيب إليه وحَظِيٌّ عنده لما أعطاني ما أعطاني.

قال الله تعالى ردًا عليه فيما ذهب إليه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] أي: قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالا وأولادًا، فلو كان ما قال صحيحًا لم نعاقب أحدًا ممن كان أكثر مالاً منه. ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ:٣٧] وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦] وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨] وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال، فليس بصحيح، لأن الكيمياء تخييل وصنعة، لا تحيل الحقائق، ولا تُشَابِهُ صنعةَ الخالق. والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافرًا في الباطن منافقًا في الظاهر [١]، ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على التقدير، ولا يبقى بين الكلامين تلازم، وقد وضحنا هذا في كتابنا التفسير [٢]، ولله الحمد.

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص:٧٩] ذكر كثيرٌ من المفسرين أنه خرج في تَجَمُّلٍ عظيم، من ملابس ومراكب وخَدَم وحَشَم، فلما رآه من يُعَظِّمُ زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله، وغَبَطُوه بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء، ذوو الفهم الصحيح الزهادُ الألِبَّاءُ، قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص:٨٠] أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجَلُّ وأعلى. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:٨٠] أي: وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة. وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية، عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية - إلا من هدى الله قلبه وثَبَّتَ فؤاده، وأيَّدَ لُبَّهُ وحقق مراده. وما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات. قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١] لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها، وفخره على قومه بها قال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص:٨١].

كما روى البخاري من حديث الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» [٣].

ثم رواه البخاري من حديث جرير بن زيد عن سالم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه [٤]، وقد ذكر عن ابن عباس والسدي: أن قارون أعطى امرأة بَغِيًّا مالا على أن تقول لموسى عليه السلام وهو

---

(١) أي: يبطن الكفر ويظهر الإيمان. (٢) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٤ - ٣٨٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٦٦)، والبخاري (٤/ ٢١٥)، (٧/ ١٨٣)، والنسائي (٨/ ٢٠٦) كلهم من طريق الزهري به.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٠)، والبخاري (٧/ ١٨٣)، والنسائي في الكبرى (٩/ ١٢٩١٣ تحفة) كلهم من طريق جرير بن حازم عن عمه جرير بن زيد به.

في ملأ من الناس: إنك فعلت بي كذا وكذا، فيقال: إنها قالت له ذلك، فأُرْعِدَ من الفرق وصلى ركعتين، ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك، وما حملك عليه، فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك، واستغفرتِ اللهَ وتابت إليه. فعند ذلك خَرَّ موسى لله ساجدًا ودعا الله على قارون. فأوحى الله إليه: إني قد أمرت الأرض أن تطعيك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره، فكان ذلك. فالله أعلم.

وقد قيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته مَرَّ بِجَحْفَلِهِ [1] وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام، وهو يُذَكِّرُ قومه بأيام الله. فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثيرة منهم ينظرون إليه، فدعاه موسى عليه السلام، فقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فُضِّلْتَ عَلَيَّ بالنبوة، فقد فُضِّلْتُ عليك بالمال، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون عَلَيَّ ولأدعون عليك.

فخرج موسى وخرج قارون في قومه، فقال له موسى: تدعو أو أدعو أنا؟ قال: أدعو أنا، فدعا قارون فلم يجب له في موسى، فقال موسى: أدعو؟ قال: نعم. فقال موسى: اللهم مُرِ الأرضَ فَلْتُطِعْنِي اليوم، فأوحى الله إليه: إني قد فعلت، فقال موسى: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم. ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم، فأقبلت بها حتى نظروا إليها، ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوي، فاستوت بهم الأرض.

وقد روى عن قتادة أنه قال: يُخسفُ بهم كلَّ يوم قامةً إلى يوم القيامة، وعن ابن عباس أنه قال: خُسِفَ بهم إلى الأرض السابعة. وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا إسرائيليات كثيرة، أضربنا عنها صفحًا وتركناها قصدًا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١] لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١٠]. ولما حَلَّ به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار، وإهلاك النفس والأهل والعقار، ندم من كان تمنى مثل ما أوتى، وشكروا الله تعالى، الذي يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون، ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص:٨٢] وقد تكلمنا على لفظ: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ [القصص:٨٢] في التفسير [2]، وقد قال قتادة، ويكأن بمعنى: ألم تر أن. وهذا قول حسن من حيث المعنى. والله أعلم.

ثم أخبر تعالى: أن ﴿ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ [القصص:٨٣] وهي دار القرار، وهي الدار التي يُغْبَطُ مَن أُعْطِيَهَا ويُعَزَّى مَن حُرِمَهَا إنما هي مُعَدَّةٌ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص:٨٣] فالعلو: هو التكبر والفخر والأشر والبطر. والفساد: هو عمل المعاصي اللازمة والمتعدية، من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم، والإساءة إليهم وعدم النصح لهم. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

---

(١) الجحفل: الجيش الكبير. الوجيز ص (٩٣). (٢) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٧).

وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر، لقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص :٨١] فإن الدارِ ظاهرة في البنيان، وقد تكون بعد ذلك في التيه، وتكون الدار عبارة عن المحلة التي تضرب فيها الخيام، كما قال عنترة:

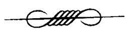
يا دَارَ عَبْلَةَ بِالجِوَاءِ تَكَلَّمِي ... وعِمِي صَبَاحًا دار عبلة واسْلَمِي

والله أعلم.

وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن [(١)]، قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣-٢٤] وقال تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت :٣٩-٤٠].

فالذي خَسَفَ اللهُ به الأرضَ: قارون كما تقدم، والذي أَغْرَقَ: فرعونَ وهامان وجنودهما إنهم كانوا خاطئين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا سعيد، حدثنا كعب بن علقمة، عن عيسى بن هلال الصدفي، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا فقال: «من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف» [(٢)]. انفرد به أحمد رحمه الله.



(١) ذكر قارون في القرآن خمس مرات.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩)، وعبد بن حميد (٣٥٣)، والدارمي (٢٧٢٤) كلهم به. وهو حديث حسن.

باب ذكر فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته ووفاته

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٥١-٥٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤]. وتقدم في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تفضلوني على موسى، فإن الناس يُصْعَقُونَ يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي؟ أم جوزي بصعقة الطور؟».

وقد قدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع، وإلا فهو - صلوات الله وسلامه عليه - خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، قطعًا جزمًا لا يحتمل النقيض.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء:١٦٣]. إلى أن قال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩].

قال الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، عن روح بن عبادة، عن عوف، عن الحسن ومحمد وخلاس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلًا حَيِيًّا ستيرًا لا يُرَى من جِلْدِهِ شَيءٌ استحياء منه. فآذاه مَنْ آذاه مِنْ بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، أو أدرة، وإما آفة. وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وبرأه الله مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا. فذلك قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩]»[1]. وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن شقيق وهمام بن منبه عن أبي هريرة به [2]. وهو في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عنه به. ورواه

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٩٠)، (٦/ ١٥١)، والترمذي (٣٢٢١) كلاهما من طريق روح بن عبادة به.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٥)، والبخاري (١/ ٧٨)، ومسلم (١/ ١٨٣)، (٧/ ٩٩) كلهم من طريق عبد الرزاق قال: حدثنا معمر عن همام بن منبه به. وأخرجه أحمد (٢/ ٣٢٤) قال: حدثنا عبد الصمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا الجريري، عن عبد الله بن شقيق به.

مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي عنه [١]. قال بعض السلف: كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله، وطلب منه أن يكون معه وزيرًا، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طِلْبَتَه وجعله نبيًّا، كما قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم:٥٣]. ثم قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن الأعمش قال: سمعت أبا وائل، قال: سمعت عبد الله، قال: قَسَّمَ رسول الله ﷺ قسمًا، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب، حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر». وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به [٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن حجاج، سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هشام مولى لهمدان، عن زيد بن أبي زائد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يبلغني أحدٌ عن أحد شيئًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» قال: وأتى رَسولَ الله ﷺ مَالٌ فقسمه، قال: فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد [illegible] ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنك قلت لنا: «لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئًا» وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا. فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه، ثم قال: «دعنا منك فقد أوذي موسى أكثر من ذلك فصبر» [٣]، وهكذا رواه أبو داود والترمذي من حديث إسرائيل عن الوليد بن أبي هشام به. وفي رواية للترمذي ولأبي داود من طريق ابن عبد الله عن إسرائيل عن السدي عن الوليد به. وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه. وقد ثبت في الصحيحين في أحاديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره. ورواه مسلم عن أنس [٤].

وفي الصحيحين من رواية قتادة عن أنس، عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه مر ليلة أسرى به بموسى في السماء السادسة، فقال له جبريل: هذا موسى، فسلم عليه، قال: «فسلمت عليه فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا بُعِثَ بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي»، وذكر إبراهيم في السماء السابعة، وهذا هو المحفوظ.

وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر، عن أنس، من أن إبراهيم في السادسةُ وموسى في السابعة، بتفضيل كلام الله فقد ذكر غير واحد من الحفاظ: أن الذي عليه الجادة [٥]: أن موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة، وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفًا

---

(١) أخرجه مسلم (٧/ ٩٩) به.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٠، ٤٢٧، ٤٤١، ٤٥٣، ٤٥٦)، والدارمي (٢٤٧١)، والبخاري (٤/ ٢١٣)، (٩/ ٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٥٧)، ومسلم (٥/ ١٧٩)، وابن ماجه (٤٠٢٥) كلهم من طريق شقيق به.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥)، وأبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦) كلهم من طريق إسرائيل بن يونس به. وهو حديث ضعيف.

(٤) البخاري ومسلم (١٦٤، ١٦٢). (٥) أي: القول الصحيح.

من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة مر بموسى فقال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة، وإن أمتك أضعف أسماعًا وأبصارًا وأفئدة. فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل، ويخفف عنه في كل مرة، حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة. وقال الله تعالى: هي خمس وهي وخمسون. أي: بالمضاعفة، فجزى الله عنا محمدًا ﷺ خيرًا، وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيرًا.

وقال البخاري: حدثنا مسدد، حدثنا حصين بن نمير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال: «عُرِضَتْ على الأمم ورأيت سوادًا كثيرًا سدَّ الأفق، فقيل هذا موسى في قومه»(١). هكذا روى البخاري هذا الحديث هاهنا مختصرًا.

وقد رواه الإمام أحمد مطولاً فقال: حدثنا شريح، حدثنا هشام، أخبرنا حصين بن عبد الرحمن، قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: إني لم أكن في صلاة ولكن لدغت. قال، وكيف فعلت؟ قلت: استرقيت، قال: وما حملك على ذلك؟ قال قلت: حديث حدثناه الشعبي عن بريدة الأسلمي أنه قال: «لا رقية إلا من عين أو حُمَةٍ» فقال سعيد - يعني ابن جبير - قد أحسن من انتهى إلى ما سمع. ثم قال: حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي معه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فقلت: هذه أمتي؟ فقيل هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق. فإذا سواد عظيم، ثم قيل: انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم، فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. ثم نهض رسول الله ﷺ فدخل، فخاض القوم في ذلك، فقالوا: من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟ فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ. وقال بعضهم: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئًا قط، وذكروا أشياء. فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه؟» فأخبروه بمقالتهم فقال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة ابن محصن الأسدي فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «أنت منهم» ثم قام آخر فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: «سبقك بها عكاشة» وهذا الحديث له طرق كثيرة جدًا وهو في الصحاح والحسان وغيرها وقد أوردناها في باب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها(٢).

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيرًا، وأثنى عليه وأورد قصته في كتابه العزيز مرارًا، وكررها كثيرًا، مطولة ومبسوطة ومختصرة، وأثنى عليه ثناء بليغًا. وكثيرًا ما يقرنه الله

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٧١، ٣٢١) والبخاري (٤/ ١٩٢) (٧/ ١٧٤)، (٨/ ١٢٤، ١٤٠)، ومسلم (١/ ١٣٧، ١٣٨)، والترمذي (٢٤٤٦)، والنسائي في الكبرى (٥٤٩٣ تحفة) كلهم من طريق حصين ابن عبد الرحمن به.

(٢) يعني من كتابه الفتن والملاحم.

ويذكره، ويذكر كتابه مع محمدﷺ وكتابه، كما قال في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿الم (١) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤)﴾ [آل عمران: ١-٤].

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩١-٩٢].

فأثنى الله تعالى على التوراة، ثم مدح القرآن العظيم مدحًا عظيمًا. وقال تعالى في آخرها: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤-١٥٥].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة: ٤٤] إلى أن قال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٧-٤٨].

فجعل القرآن حاكمًا على سائر الكتب غيره، وجعله مصدقًا لها ومبينا ما وقع فيها من التحريف والتبديل، فإن أهل الكتاب اسْتُحْفِظُوا على ما بأيديهم من الكتب، فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصَوْنِهَا، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم، ولسوء فهمهم وقصورهم في علومهم، ورَدَاءَةِ قُصُودِهِمْ وخيانتهم لمعبودهم، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، وما لا يوجد مثله ولا يعرف.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠) وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٠].

وقال الله تعالى في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٨-٤٩].

فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام.

وقالت الجن لقومهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقال ورقةُ بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من أول الوحي وتلا عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ [العلق: ١-٥]. قال: سُبُّوحٌ سُبُّوح، هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران.

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت شريعة عظيمة، وأمته كانت أمة كثيرة، ووجد فيها أنبياء وعلماء، وعُبَّاد وزُهاد وألباء وملوك وأمراء، وسادات وكبراء، لكنهم خانوا فبادوا، وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها. ولكن سنورد ما فيه مَقْنَعٌ [١] لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

ذكر حجه عليه السلام إلى البيت العتيق وصفته

قال الإمام أحمد: حدثنا هُشيم، حدثنا داود بن أبي هند، عن أبي العالية، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال: «أي واد هذا؟» قالوا: وادي الأزرق، قال: «كأني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية، وله جؤار [٢] إلى الله عز وجل بالتلبية»، حتى أتى على ثنية هرشاء فقال: «أي ثنية هذه؟» قالوا: هذه ثنية هرشاء، قال «كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء، عليه جبة من صوف، خطام ناقته خلبة» قال هُشيم: يعني: ليفًا «وهو يلبي» [٣] أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به.

وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعًا: «أن موسى حج على ثور أحمر» [٤] وهذا غريب جدًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن ابن عون، عن مجاهد قال: كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال، فقال: إنه مكتوب بين عينيه: «ك ف ر» قال: ما يقولون؟ قال: يقولون مكتوب بين عينيه: «ك ف ر» فقال ابن عباس: لم أسمعه قال ذلك، ولكن قال: «أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة، كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي» [٥] قال هشام: الخلبة: الليف. ثم رواه الإمام أحمد عن أسود، عن إسرائيل، عن عثمان ابن المغيرة، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم: فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم

---

(١) المَقْنَعُ: ما فيه كفاية. الوسيط ص (٧٩٣).

(٢) جأر إلى الله: تضرع واستغاث، قال تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾. انظر الوسيط (١٠٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، ومسلم (١/ ١٠٥)، وابن ماجه (٢٨٩١)، وابن خزيمة (٢٦٣٢)، (٢٦٣٣) كلهم من طريق داود بن أبي هند به.

(٤) الطبراني.

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٦، ٢٧٧)، والبخاري (٢/ ١٧١)، (٤/ ١٧٠)، (٧/ ٢٠٨)، ومسلم (١/ ١٠٦) كلهم من طريق ابن عون به.

سبط» قالوا: فإبراهيم؟ قال: «انظروا إلى صاحبكم» [١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا شيبان، قال: حدثنا قتادة، عن أبي العالية، حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال: قال نبي الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعدًا، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس» [٢].

وأخرجاه من حديث قتادة به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ حين أسري به: «لقيت موسى» قال: فنعته، فقال: «رجل - حسبته قالة مضطرب، رَجِلُ [٣] الرأسِ، كأنه من رجال شنوءة، ولقيت عيسى» فنعته رسول الله ﷺ فقال: «ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني: الحمام - قال: ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به...» الحديث [٤].

وقد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل.

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخاري في صحيحه: «وفاة موسى عليه السلام» حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه عز وجل، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة. قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن.

قال: فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر» [٥]. قال: وأنبأنا معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

وقد روى مسلم الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به، ورواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة، عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة مرفوعًا وسيأتي.

وقال الإمام أحمد [٦]: حدثنا الحسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس - يعني: سليم بن جبير - عن أبي هريرة، قال الإمام أحمد: لم يرفعه، قال: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٦) به. (٢) سبق تخريجه.

(٣) يعني: شعره بين السبوطة والجعودة، أو بين النعومة والخشونة. وانظر القاموس المحيط ص (١٢٩٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨١، ٥١٢)، والدارمي (٢٠٩٤)، والبخاري (٤/ ١٨٦، ٢٠٢)، (٦/ ١٠٤)، (٧/ ١٣٥، ١٤٠)، ومسلم (١/ ١٠٤، ١٠٦)، والترمذي (٣١٣٠)، والنسائي (٨/ ٣١٢)، وفي الكبرى (١٠/ ١٣٢٠٤، ١٣٢٥٥ تحفة) كلهم من طريق الزهري به.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٩)، والبخاري (٢/ ١١٣)، (٤/ ١٩١)، ومسلم (٧/ ٩٩)، والنسائي (٤/ ١١٨) كلهم من طريق عبد الرزاق به.

(٦) أحمد في مسنده (٢/ ٣٥١).

فقال: أجب ربك، فلطم موسى عينَ ملكِ الموتِ ففقأها، فرجع الملك إلى الله، فقال: إنك بعثتني إلى عبد لك لا يريد الموت، قال: وقد فقأ عيني. قال: فرد الله عينه، وقال: ارجع إلى عبدي فقل له: الحياةَ تريدُ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بكل شعرة سنة. قال: ثم مه؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن يا رب من قريب». تفرد به أحمد، وهو موقوف بهذا اللفظ. وقد رواه ابن حبان في صحيحه[١] من طريق معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه عن أبي هريرة، قال معمر: وأخبرني من سمع الحسن عن رسول الله ﷺ فذكره.

ثم استشكله ابن حبان، وأجاب عنه بما حاصله: أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه، لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام كما جاء جبريل في صورة أعرابي، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب، فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولا. وكذلك موسى لعله لم يعرفه، لذلك لطمه ففقأ عينه؛ لأنه دخل داره بغير إذن، وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن. ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه، قال له: أجب ربك، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأ عينه» وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخاري. ثم تأوله على أنه لما رفع يده ليلطمه، قال له: أجب ربك، وهذا التأويل لا يتمشى على ما ورد به اللفظ، من تعقيب قوله: أجب ربك بلطمه ولو استمر على الجواب الأول لتمشى له، وكأنه لم يعرفه في تلك الصورة، ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق، إذ لم يتحقق في تلك الساعة الراهنة أنه ملك كريم؛ لأنه كان يرجو أمورًا كثيرة كان يحب وقوعها في حياته، من خروجهم من التيه، ودخولهم الأرض المقدسة، وكان قد سبق في قدر الله أنه عليه السلام يموت في التيه بعد هارون أخيه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى. وقد زعم بعضهم: أن موسى عليه السلام هو الذي خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة. وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين.

ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت: «رب أدنني إلى الأرض المقدسة رمية حجر» ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك، ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها، وحث قومه عليها. ولكن حال بينهم وبينها القدر، رمية بحجر. ولهذا قال سيد البشر، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر: «فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا ثابت وسليمان التيمي، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما أسرى بي مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر»[٣]. ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به.

---

(١) ابن حبان بعد حديث (٦٢٢٤، ٦٢٢٣). (٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠، ١٤٨، ٢٤٨)، وعبد بن حميد (١٢٠٥)، ومسلم (٧/ ١٠٢)، والنسائي (٣/ ٢١٥، ٢١٦)، وفي الكبرى (١٢٣٨) كلهم من طريق سليمان التيمي به أو في طريق حماد بن سلمة قال: عن سليمان التيمي

وقال السدي عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة قالوا: ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إني متوف هارونَ فائت به جبلَ كذا وكذا. فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل، فإذا هم بشجرة لم تُرَ شجرةٌ مثلُها، وإذا هم ببيت مبني، وإذا هم بسرير عليه فرش، وإذا فيه ريح طيبة. فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه، قال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير، قال له موسى: فنم عليه، قال: إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب على، قال له: لا ترهب أنا أكفيكَ رب هذا البيت فنم. قال: يا موسى بل نم معي فإن جاء رب هذا البيت غضب عَلَيَّ وعليك جميعًا. فلما ناما أخذ هارونَ الموتُ. فلما وجد حسه قال: يا موسى خدعتني. فلما قبض رفع ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، ورفع السرير به إلى السماء. فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون قالوا: إن موسى قتل هارون وحسده على حب بني إسرائيل له، وكان هارون أكف عنهم وألين لهم من موسى، وكان في موسى بعضُ الغلظةِ عليهم، فلما بلغه ذلك قال لهم: ويحكم! كان أخي أفتروني أقتله؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين، ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض.

ثم إن موسى عليه السلام بينما وهو يمشي ويوشع فتاه إذ أقبلت ريحٌ سوداءُ، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة، فالتزم موسى وقال: تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبي الله، فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص في يدي يوشع. فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا: قتلت نبي الله. فقال: لا والله ما قتلته، ولكنه استل مني، فلم يصدقوه وأرادوا قتله. قال: فإذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام، فدعا اللهَ، فأتى كل رجل ممن كان يحرسه في المنام فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى، وإنا قد رفعناه إلينا، فتركوه. ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات ولم يشهد الفتح. وفي بعض هذا السياق نكارة وغرابة. والله أعلم.

وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى، سوى يوشع بن نون، وكالب بن يوفا، وهو زوج مريم أخت موسى وهارون، وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم[١]، اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم.

وذكر وهبُ بنُ مُنَبِّه: أن موسى عليه السلام مر بملأ من الملائكة يحفرون قبرًا، فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج، فقال: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد من عباد الله كريم، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدد فيه وتوجه إلى ربك، وتنفس أسهل تنفس، ففعل ذلك، فمات صلوات الله وسلامه عليه، فصلت عليه الملائكة ودفنوه.

وذكر أهل الكتاب وغيرهم، أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة.

وثابت عن أنس به.

(١) في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ٢٣].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أمية بن خالد ويونس، قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال يونس: رفع هذا الحديث إلى النبي ﷺ قال: «كان ملك الموت يأتي الناس عيانًا، قال: فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه، فأتى ربه فقال: يا رب عبدك موسى فقأ عيني، ولولا كرامته عليك لعتبت عليه - وقال يونس: لشققت عليه - قال له: اذهب إلى عبدي، وقل له: فليضع يده على جلد - أو: مسك - ثور فله بكل شعرة وارت يَدُه سنةٌ، فأتاه فقال له، فقال: ما بعد هذا؟ قال: الموت. قال: فالآن. قال: فشمه شمة فقبض روحه» (١).

قال يونس: فرد الله عليه عينه وكان يأتي الناس خفية. وكذا رواه ابن جرير (٢) عن أبي كريب، عن مصعب بن المقدام، عن حماد بن سلمة به، فرفعه أيضًا.



(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٣) به. وإسناده حسن.
(٢) رواه ابن جرير في التاريخ (١/ ٢٥٦).

ذكر نبوة يوشع وقيامه بأعباء بني إسرائيل بعد موسى وهارون عليهما السلام

هو الخليل يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وأهل الكتاب يقولون: يوشع ابن عم هود.

وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر كما تقدم من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠] ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٢] وقدمنا ما ثبت في الصحيح من رواية أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ من أنه يوشع بن نون [(١)]. وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب. فإن طائفة منهم وهم السامرة، لا يقرون بنبوة أحدٍ بعد موسى إلا يوشع بن نون؛ لأنه مصرح به في التوراة، ويكفرون بما وراءه وهو الحق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] من ربهم فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق: من أن النبوة حُوِّلَتْ من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى، فكان موسى يلقى يوشع فيسأله ما أحدث الله إليه من الأوامر والنواهي، حتى قال له: يا كليم الله إني كنت لا أسألك عما يوحي الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداء من تلقاء نفسك. فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت، ففي هذا نظر؛ لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه في جميع أحواله، حتى توفاه الله عز وجل، ولم يزل معززًا مكرمًا مدللاً وجيهًا عند الله، كما قدمنا في الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها، قال، ثم ماذا؟ قال: الموت، قال: فالآن يا رب، وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر، وقد أجيب إلى ذلك صلوات وسلامه عليه. فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب، ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة: أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزمان. ولقد ذكروا في السفر الثالث: أن الله أمر موسى وهارون أن يعدا بني إسرائيل على أسباطهم، وأن يجعلا على كل سبط من الاثنى عشر أميرًا وهو النقيب، ما ذاك إلا ليتأهبوا للقتال، قتال الجبارين عند الخروج من التيه، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة، ولهذا قال بعضهم: إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت؛ لأنه لم يعرفه في صورته تلك، ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجى وقوعه في زمانه، ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه، بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام. كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام فوصل إلى تبوك ثم رجع عامه ذلك في سنة تسع ثم حج في سنة عشر، ثم رجع فجهزه جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه، ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ

(١) سبق تخريجه.

ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ولما جهز رسول الله ﷺ جيش أسامة، توفى عليه الصلاة والسلام وأسامة مخيم بالجرف، فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم لما لَمَّ شَعْثَ جزيرة العرب - وما كان دُهِيَ مِنْ أمرِ أهلِهَا، وعاد الحق إلي نصابه - جهز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم، ففتح الله لهم ومَكَّنَ لهم وبهم، وملكهم نواصي أعدائهم. وهكذا موسى عليه السلام: كان الله قد أمره أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

يقول لهم: لئن قمتم بما أوجبت عليكم، ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة ؛ لأجعلن ثواب هذه مكفرًا لما وقع عليكم من عقاب تلك، كما قال الله تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢] ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم، كما ذم مَنْ بعدهم مِنْ النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم، وقد ذكرنا ذلك في التفسير مستقصى ولله الحمد [1]. والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل ممن يحمل السلاح، ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعدًا، وأن يجعل على كل سبط نقيبًا منهم. السبط الأول: سبط روبيل ؛ لأنه بكر يعقوب، وكان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفًا وخمسمائة، ونقيبهم منهم وهو اليصور بن شديئورا. السبط الثاني: سبط شمعون، وكانوا تسعة وخمسين ألفًا وثلاثمائة، ونقيبهم شلوميئيل بن هوريشداي، السبط الثالث: سبط يهوذا، وكانوا أربعة وسبعين ألفًا وستمائة، ونقيبهم نخشون بن عمينا ذاب، السبط الرابع: سبط إيساخر وكانوا أربعة وخمسين ألفًا وأربعمائة، ونقيبهم نشائيل بن صوعر. السبط الخامس: سبط يوسف عليه السلام وكانوا أربعين ألفًا وخمسين، ونقيبهم يوشع بن نون. السبط السادس: سبط ميشا، وكانوا أحدًا وثلاثين ألفًا ومائتين، ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور. السبط السابع: سبط بنيامين، وكانوا خمسة وثلاثين ألفًا وأربعمائة، ونقيبهم أبيدن بن جدعون. السبط الثامن: سبط حاد، وكانوا خمسة وأربعين ألفًا وستمائة وخمسين رجلاً، ونقيبهم الياساف بن رعوئيل. والسبط التاسع: سبط أشير، وكانوا أحدًا وأربعين ألفًا وخمسمائة، ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن، السبط العاشر: سبط دان، وكانوا اثنين وستين ألفًا وسبعمائة، ونقيبهم

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣١، ٣٢).

أخيعزر بن عمشداي. السبط الحادي عشر: سبط نفتالي، وكانوا ثلاثة وخمسين ألفًا وأربعمائة، ونقيبهم أخبرع بن عين. السبط الثاني عشر: سبط زابلون، وكان سبعة وخمسين ألفًا وأربعمائة، ونقيبهم الباب بن حيلون. هذا نص كتابهم الذي بأيديهم. والله أعلم.

وليس منهم «بنو لاوي» فقد أمر الله موسى ألا يعدهم معهم؛ لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وضربها وخزنها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا، وهم سبط موسى وهارون عليهما السلام، وكانوا اثنين وعشرين ألفًا، من ابن شهر فما فوق ذلك، وهم في أنفسهم قبائل، من كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها، وهم كلهم حولها، ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها

وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بني لاوي خمسمائة ألف وواحد وسبعون ألفًا وستمائة وستة وخمسون. لكن قالوا: فكان عدد بني إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك، ممن حمل السلاح، ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلاً، سوى بني لاوي. وفي هذا نظر، فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا في كتابهم، لا تطابق الجملة التي ذكروها. والله أعلم.

فكان بنو لاوي الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون في وسط بني إسرائيل، وهم القلب، ورأس الميمنة بنو روبيل، ورأس الميسرة بنو دان، وبنو نفتالي يكونون ساقة. وقرر موسى عليه السلام - بأمر الله تعالى - له الكهانة في بني هارون، كما كانت لأبيهم من قبلهم، وهم: ناداب وهو بكره، وأبيهو، وألعازر، ويثمر، والمقصود أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] قاله الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس، وقاله قتادة وعكرمة، ورواه السدي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة، حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف: ومات موسى وهارون قبله كلاهما في التيه جميعًا. وقد زعم ابن إسحاق أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى، وإنما كان يوشع على مقدمته. وذكر في مروره إليها قصة «بلعام بن باعوراء» الذي قال تعالى فيه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧].

وقد ذكرنا قصته في التفسير [1]، وأنه كان - فيما قاله ابن عباس وغيره - يعلم الاسم الأعظم، وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه فامتنع عليهم، ولما ألحوا عليه ركب حمارة له، سار نحو معسكر بني إسرائيل، فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته فضربها حتى قامت، فسارت غير بعيد وربضت فضربها ضربًا أشد من الأول فقامت ثم ربضت، فضربها فقالت له: يا بلعام أين

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٣ - ٢٥٦).

تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل «حسبان» ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل، فأخذ يدعو عليهم، فجعل لِسَانُه لا يطيعه إلا أن يدعوَ لموسى وقومه، ويدعو على قومِ نَفْسِهِ، فلاموه على ذلك، فاعتذر إليهم بأنه لا يجري على لسانه إلا هذا، واندلع لسانه حتى وقع على صدره، فقال لقومه: قد ذهبت الآن مني الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة. ثم أمر قومه أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهن، ويتعرضن لهم لعلهم يقعون في الزنا، فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم، ففعلوا، وزينوا نساءهم، وبعثوهن إلى المعسكر، فمرت امرأة منهم اسمها «كسبتي» برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو «زمري بن شلوم» يقال: إنه كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب فدخل بها قبته، فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل، فجعل يجوس فيهم، فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن العيزار بن هارون، أخذ حربته وكانت من حديد، فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعًا فيها، ثم خرج بهما على الناس والحربة في يده، وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته، ورفعهما نحو السماء وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورفع الطاعون، فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفًا، والمقلل يقول: عشرين ألفًا، وكان فنحاص بكر أبيه العيزار بن هارون، فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة اللبة والذراع واللحى، ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسها. وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح، وقد ذكره غير واحد من علماء السلف، لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية، ولعله مراد ابن إسحاق، ولكنه غير ما فهمه بعض الناقلين عنه، وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا. والله أعلم.

ولعل هذه قصة أخرى كانت في خلال سيرهم في التيه، فإن في هذا السياق ذكر «حسبان» وهي بعيدة عن أرض بيت المقدس، أو لعله كان هذا لجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون، حين خرج بهم من التيه قاصدًا بيت المقدس، كما صرح به السدي، والله أعلم. وعلى كل تقدير فالذي عليه الجمهور، أن هارون توفي بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين، وبعده موسى في التيه أيضًا، كما قدمنا، وأنه سأل ربه أن يقربه إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك. فكأن الذي خرج بهم من التيه، وقصد بهم بيت المقدس، هو يوشع بن نون عليه السلام، فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع ببني إسرائيل نهر الأردن، وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سورًا، وأعلاها قصورًا، وأكثرها أهلاً، فحاصرها ستة أشهر، ثم إنهم أحاطوا بها يومًا وضربوا بالقرون يعني الأبواق وكبروا تكبيرة رجل واحد، فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة، فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم، وقتلوا اثنى عشر ألفًا من الرجال والنساء، وحاربوا ملوكًا كثيرة، ويقال: إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكًا من ملوك الشام. وذكروا أنه انتهت محاصرته إلى يوم الجمعة بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب، ويدخل عليهم السبت الذي جعل وشرع لهم ذلك الزمان، قال لها: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علي فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح

البلد، وأمر القمر فوقف عند الطلوع، وهذا يقتضي أن هذه الليلة كانت الرابعة عشرة من الشهر الأول، وهو قصة الشمس المذكورة في الحديث الذي سأذكره. وأما القمر فمن عند أهل الكتاب، ولا ينافي الحديث، بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدق ولا تكذب، ولكن ذكرهم أن هذا في فتح أريحا فيه نظر، والأشبه والله أعلم أن هذا كان في فتح بيت المقدس الذي هو المقصود الأعظم، وفتح أريحا كان وسيلة إليه، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس»[1]. انفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو على شرط البخاري. وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام، لا موسى، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا. وفيه: أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام، فيدل على ضعف الحديث الذي رويناه: أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب صلاة العصر، بعد ما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ على ركبته، فسأل رسول الله أن يردها الله عليه حتى يصلي العصر فرجعت، وقد صححه أحمد بن صالح المصري، ولكنه ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان وهو مما تتوفر الدواعي على نقله، وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن، ولا آخر قد بنى بنيانًا ولم يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنمًا أو خلفات وهو ينتظر أولادها. فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عليَّ شيئًا، فحبست عليه حتى فتح الله عليه، فجمعوا ما غنموا، فأتت النار لتأكله فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول فليبايعني قبيلتك، فبايعته قبيلته فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول، أنتم غللتم. قال فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال فوضعوه بالمال وهو بالصعيد، فأقبلت النار فأكلته، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا»[2]. انفرد به مسلم من هذا الوجه، وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة، عن عبيد الله بن سعيد المقبري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه، قال: ورواه محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، قال: ورواه قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. والمقصود: أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجدًا أي: ركعًا متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما من به عليهم من الفتح العظيم الذي كان الله وعدهم إياه وأن يقولوا حال دخولهم: «حطة» أي حط عنا

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٥) به.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٧، ٣١٨)، والبخاري (٤/ ١٠٤)، (٧/ ٢٧)، ومسلم (٥/ ١٤٥) كلهم من طريق معمر به.

خطايانا التي سلفت، من نكولنا الذي تقدم منا. ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها، دخلها وهو راكب ناقته، وهو متواضع حامد شاكر، حتى إن عثنونه وهو طرف لحيته ليمس مورك رحله، مما يطأطئ رأسه خضعانًا لله عز وجل ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق، ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله ﷺ ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثماني ركعات وهي صلاة الشكر على النصر، على المشهور من قول العلماء، وقيل إنها صلاة الضحى، وما حمل هذا القائل على قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى. وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً، فدخلوا الباب يزحفون على استاههم وهم يقولون: حبة في شعرة، وفي رواية: حنطة في شعرة. وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزءوا به، كما قال تعالى حاكيًا عنهم في سورة الأعراف وهي مكية: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١-١٦٢].

وقال مخاطبًا لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩]. وقال الثوري عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨] قال: ركعًا من باب صغير، رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم، وكذا روى العوفي عن ابن عباس، وكذا روى الثوري عن ابن إسحاق عن البراء. قال مجاهد والسدي والضحاك: والباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس. قال ابن مسعود: فدخلوا مقنعي رءوسهم ضد ما أمروا به، وهذا لا ينافي قول ابن عباس أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم. وهكذا في الحديث الذي سنورده بعد، فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعو رءوسهم. وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] الواو هنا حالية لا عاطفة، أي: ادخلوا سجدًا في حال قولكم حطة، قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع: أمروا أن يستغفروا. قال البخاري: حدثنا محمد، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن ابن المبارك، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة» (١). وكذا رواه النسائي من حديث ابن المبارك يرفعه، ورواه عن محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم، عن ابن مهدي به موقوفًا. وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن همام بن منبه، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ «قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] فبدلوا، فدخلوا الباب يزحفون على استاههم، فقالوا: حبة في شعرة» (٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٢، ٣١٨)، والبخاري (٤/ ١٩٠)، (٦/ ٢٢، ٧٥)، ومسلم (٨/ ٢٣٧)، والترمذي (٢٩٥٦)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ١٤٦٨٠ تحفة) كلهم من طريق معمر به.

(٢) هو السابق.

ورواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عبد الرزاق، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة وعمن لا أتهم، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجدًا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعيرة» [1]. وقال أسباط عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود، قال في قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة:٥٩] قال: قالوا: «هطى سقانا أزمة مزيا» فهي في العربية: «حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء». وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة، بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم، وهو الطاعون، كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري، عن عامر بن سعد، ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم أبي النضر، عن عامر بن سعد، عن أسامة بن زيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم» [2].

وروى النسائي وابن أبي حاتم وهذا لفظه من حديث الثوري، عن حبيب ابن أبي ثابت، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم» [3].

وقال الضحاك عن ابن عباس: الرجز العذاب، وكذا قال مجاهد وأبو مالك والسدي والحسن وقتادة. وقال أبو العالية: هو الغضب. وقال الشعبي: الرجز إما الطاعون وإما البرد. وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون. ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه، وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة، فكانت مدة حياته بعد موسى سبعًا وعشرين سنة.



---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١/ ١/ ٣٠٣)، وهو صحيح لغيره.

(٢) أخرجه مالك في موطئه (٥٥٨)، والحميدي (٥٤٤)، وأحمد (٥/ ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨)، والبخاري (٤/ ٢١٢)، (٩/ ٣٤)، ومسلم (٧/ ٢٦، ٢٧)، والنسائي في الكبرى (٩٢ تحفة) كلهم من طريق عامر بن سعد به.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٨٢)، (٥/ ٢١٣)، وعبد بن حميد (١٥٥)، ومسلم (٧/ ٢٨)، والنسائي في الكبرى (٨٤ تحفة) كلهم من طريق وكيع عن سفيان به.

ذكر قصتي الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخضر: فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللدني، وقص الله من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف، وذكرنا تفسير ذلك هنالك، وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرح بذكر الخضر عليه السلام، وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام، الذي أنزلت عليه التوراة.

وقد اختلف في الخضر، في اسمه، ونسبه، ونبوته، وحياته إلى الآن، على أقوال، سأذكرها ها هنا إن شاء الله وبحوله وقوته.

قال الحافظ ابن عساكر: يقال: إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه، ثم روى من طريق الدارقطني: حدثنا محمد بن الفتح القلانسي حدثنا العباس بن عبد الله الرومي، حدثنا رواد بن الجراح، حدثنا مقاتل بن سليمان، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: الخضر بن آدم لصلبه، ونسئ له في أجله حتى يكذب الدجال. وهذا منقطع غريب.

وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني: سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا: إن أطول بني آدم عمرًا الخضر، واسمه خضرون بن قابيل بن آدم. قال: وذكر ابن إسحاق، أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة، وأن يدفنوه في مكان عينه لهم، فلما كان الطوفان حملوه معهم، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى، فقالوا: إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة، فحرضهم وحثهم على ذلك، وقال: إن آدم دعا لمن يلي دفنه بطول العمر، فهابوا المسير إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت، فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه، وأنجز الله ما وعده، فهو يحيا إلى ما شاء الله له أن يحيا.

وذكر ابن قتيبة في المعارف عن وهب بن منبه: أن اسم الخضر «بليا» ويقال: إيليا ابن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

وقال إسماعيل بن أبي أويس: اسم الخضر فيما بلغنا والله أعلم المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن الأزد، وقال غيره: هو خضرون بن عمايل بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال: هو أرميا بن حلقيا، فالله أعلم. وقيل: إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر، وهذا غريب جدًا، قال ابن الجوزي: رواه محمد بن أيوب عن ابن لهيعة، وهما ضعيفان. وقيل: إنه ابن مالك وهو أخو إلياس، قاله السدي كما سيأتي، وقيل: كان على مقدمة ذي القرنين، وقيل: كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه، وقيل: كان نبيًا في زمن بشتاسب بن بهراسب.

قال ابن جرير: والصحيح أنه كان متقدمًا في زمن أفريدون بن أثفيان حتى أدركه موسى عليهما السلام. وروى الحافظ ابن عساكر [1] عن سعيد بن المسيب أنه قال: الخضر أمه رومية وأبوه

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/ ٤٠١)، ومسنده ضعيف.

فارسي. وقد ورد ما يدل على أنه كان من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضًا، قال أبو زرعة في «دلائل النبوة»: حدثنا صفوان بن صالح الدمشقي، حدثنا الوليد، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ: أنه ليلة أسري به وجد رائحة طيبة، فقال: «يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة»؟ قال: هذه ريح قبر الماشطة وابنها وزوجها. وقال: وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بني إسرائيل، وكان ممره براهب في صومعته، فتطلع عليه الراهب، فعلمه الإسلام، فلما بلغ الخضر زوجه أبوه امرأة فعلمها الإسلام، وأخذ عليها ألا تعلم أحدًا، وكان لا يقرب النساء ثم طلقها. ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الإسلام، وأخذ عليها ألا تعلم أحدًا، ثم طلقها، فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى. فانطلق هاربًا حتى أتى جزيرة في البحر، فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر، قال: قد رأيت الخضر، قيل: ومن رآه معك؟ قال: فلان، فسئل فكتم، وكان من دينهم أنه من كذب قتل، فقتل، وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة، قال: فبينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس فرعون، فأخبرت أباها، وكان للمرأة ابنان وزوج، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما، فأبيا، فقال: إني قاتلكما، فقالا: إحسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد، فجعلهما في قبر واحد، فقال: وما وجدت ريحًا أطيب منهما، وقد دخلت الجنة. وقد تقدمت قصة ماثلة بنت فرعون، وهذا المشط في أمر الخضر قد يكون مدرجًا من كلام أبي بن كعب أو عبد الله بن عباس، والله أعلم. وقال بعضهم: كنيته أبو العباس، والأشبه، والله أعلم، أن الخضر لقب غلب عليه.

قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني، حدثنا ابن المبارك، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إنما سمي الخضر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء»[1].

تفرد به البخاري، وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمر به. ثم قال عبد الرزاق: الفروة: الحشيش الأبيض وما أشبهه، يعني الهشيم اليابس، وقال الخطابي: وقال أبو عمر: الفروة الأرض البيضاء التي لا نبات فيها، وقال غيره: هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة، ومنه قيل فروة الرأس وهي جلدته بما عليها من الشعر، كما قال الراعي:

ولقد ترى الحبشيَّ حول بيوتنا ... جَـذِلاً إذا ما نـال يـومًـا مـأكَـلا
صـعْـلًا أصـك كـأنّ فـروة رأسـه ... بُـذرتْ فَـأنـبـتَ جـانـبـاه فُـلـفـلا

قال الخطابي: إنما سمي الخضر خضرًا لحسنه وإشراق وجهه، قلت: هذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح، فإذا كان ولا بد من التعليل بأحدهما، فما ثبت في الصحيح أولى وأقوى، بل لا يلتفت إلى ما عداه. وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث أيضًا من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الأيلي، حدثنا عثمان وأبو جزي وهمام بن يحيى، عن قتادة، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إنما سمي الخضر خضرًا، لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٢، ٣١٨)، والبخاري (٤/ ١٩٠)، والترمذي (٣١٥١) كلهم من طريق معمر به.

خضراء»⁽¹⁾. وهذا غريب من هذا الوجه.

وقال قبيصة عن الثوري عن منصور عن مجاهد قال: إنما سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله. تقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الأثر، وجداه على طنفسة خضراء على كبد البحر، وهو مسجي بثوب قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه، فسلم عليه السلام فكشف عن وجهه فرد، وقال: إني بأرضك السلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى [نبي] بني إسرائيل؟ قال: نعم، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه عنهما. وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه: أحدها قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

الثاني قول موسى له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٦-٧٠].

فلو كان وليا وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه، فلو كان غير نبي، لم يكن معصومًا، ولم تكن لموسى وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة كبير رغبة ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عنه، ولو أنه يمضي حقبًا من الزمان، قيل: ثمانين سنة. ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه، واتبعه في صورة مستفيد منه، فدل على أنه نبي مثله يوحى إليه كما يوحى إليه، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية، بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم، نبي بني إسرائيل الكريم، وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرماني على نبوة الخضر عليه السلام.

الثالث: أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام، وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده، لأن خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم، علمًا منه بأنه إذا بلغ يكفر، ويحمل أبويه على الكفر، لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته، دل ذلك على نبوته، وأنه مؤيد من الله بعصمته. وقد رأيت الشيخ أبا الفرج ابن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه، وحكى الاحتجاج عليه عن الرماني أيضًا.

الرابع: أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلي، قال بعد ذلك كله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ [الكهف: ٨٢] يعني ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمرت به وأوحي إليَّ فيه.

---

(١) عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى الطبراني في الكبير عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٦٤).

فدلت هذه الوجوه على نبوته، ولا ينافي ذلك حصول ولايته، بل ولا رسالته، كما قاله آخرون، وأما كونه ملكًا من الملائكة [فقول] غريب جدًا، وإذا ثبتت نبوته كما ذكرناه لم يبق لمن قال بولايته، وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر، بلا مستند يستندون إليه، ولا معتمد يعتمدون عليه. وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا، فالجمهور على أنه باقٍ إلى اليوم، قيل: لأنه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة، وقيل: لأنه شرب من عين الحياة فحيي. وذكروا أخبارًا استشهدوا بها على بقائه إلى الآن، وسنوردها مع غيرها إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وهذه وصيته لموسى حين: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]روى في ذلك آثار منقطعة كثيرة: قال البيهقي: أنبأنا أبو سعيد بن أبي عمرو، حدثنا أبو عبد الله الصفار، حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا جرير، حدثني أبو عبد الله الملطي قال: لما أراد موسى أن يفارق الخضر قال له موسى: أوصني. قال: كن نفاعًا ولا تكن ضرارًا، كن بشاشًا ولا تكن غضبانًا، ارجع عن اللجاجة [1]ولا تمش في غير حاجة. وفي رواية من طريق أخرى زيادة: ولا تضحك إلا من عجب.

وقال وهب بن منبه: قال الخضر: يا موسى إن الناس معذبون في الدنيا على قدر همومهم بها.

وقال بشر بن الحارث الحافي: قال موسى للخضر: أوصني. فقال: يسر الله عليك طاعته.

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع، رواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى الوقادة إلا أنه من الكذابين الكبار - قال: قرئ على عبد الله بن وهب وأنا أسمع، قال الثوري، قال مجالد، قال أبو الوداك، قال أبو سعيد الخدري، قال عمر بن الخطاب، قال رسول الله ﷺ: «قال أخي موسى: يا رب وذكر كلمته فأتاه الخضر وهو فتى طيب الريح حسن بياض الثياب مشمرها، فقال: السلام عليك ورحمة الله يا موسى بن عمران، إن ربك يقرأ عليك السلام. قال موسى: هو السلام وإليه السلام، والحمد لله رب العالمين، الذي لا أحصي نعمه، ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته. ثم قال موسى: أريد أن توصني وصية ينفعني الله بها بعدك، فقال الخضر: يا طالب العلم إن القائل أقل ملالة من المستمع، فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم، واعلم أن قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك، واعزف عن الدنيا وانبذها وراءك؛ فإنها ليست بدار ولا لك فيها محل قرار، وإنما جعلت بلغة للعباد والتزود منها ليوم المعاد ورض نفسك على الصبر تخلص من الإثم. يا موسى تفرغ للعلم إن كنت تريده، فإنما العلم لمن تفرغ له، ولا تكن مكثارًا للعلم مهذارًا فإن كثرة المنطق تشين العلماء وتبدي مساوئ السخفاء ولكن عليك بالاقتصاد، فإن ذلك من التوفيق والسداد، وأعرض عن الجُهَّال ومِطالهم، واحلم عن السفهاء، فإن ذلك فعل الحكماء وزين العلماء، وإذا شتمك الجاهل فاسكت عنه حلمًا، وجانبه حزمًا، فإن ما بقي من جهله عليك وسبه إياك أكثر وأعظم. يا ابن عمران ولا ترى أنك ما أوتيت من العلم إلا قليلاً، فإن الاندلاث والتعسف من الاقتحام والتكلف. يا ابن

(١) اللجاجة: الخصومة. القاموس المحيط (٢٦٠).

عمران لا تفتحن بابًا لا تدري ما غلقه، ولا تغلقن بابًا لا تدري ما فتحه، يا ابن عمران من لا تنتهي من الدنيا نهمته، ولا تنقضي منها رغبته، ومن يحقر حاله ويتهم الله فيما قضى له كيف يكون زاهدًا؟ هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه؟ أو ينفعه طلب العلم والجهل قد حواه؟ لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على دنياه. يا موسى تعلم ما تعلمت لتعمل به، ولا تتعلمه لتحدث به، فيكون عليك بواره، ولغيرك نوره، يا موسى بن عمران، اجعل الزهد والتقوى لباسك، والعلم والذكر كلامك، واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات، وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يرضي ربك، واعمل خيرًا فإنك لا بد عامل سوءًا، قد وُعِظْتَ إن حَفِظْتَ. قال: فتولى الخضر وبقي موسى محزونا مكروبًا يبكي»[١]. لا يصح هذا الحديث، وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقاد المصري. وقد كذبه غير واحد من الأئمة، والعجب أن الحافظ ابن عساكر سكت عنه.

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، حدثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصي، حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندي، حدثنا بقية بن الوليد، عن محمد بن زياد، عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «ألا أحدثكم عن الخضر؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل أبصره رجل مكاتب، فقال: تصدق عَلَيَّ بارك الله فيك، فقال الخضر آمنت بالله، ما شاء الله من أمر يكون، ما عندي من شيء أعطيكه، فقال المسكين: أسألك بوجه الله لما تصدقت علي، فإني نظرت إلى السماء في وجهك، ورجوت البركة عندك. فقال الخضر: آمنت بالله ما عندي شيء أعطيكه، إلا أن تأخذني فتبيعني، فقال المسكين: وهل يستقيم هذا؟ قال: نعم، الحق أقول لك لقد سألتني بأمر عظيم، أما إني لا أخيبك بوجه ربي، بعني. قال: فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم، فمكث عند المشتري زمانًا لا يستعمله في شيء، فقال له: إنك إنما ابتعتني التماس خير عندي فأوصني بعمل، قال: أكره أن أشق عليك، إنك شيخ كبير ضعيف، قال: ليس تشق علي، قال: فانقل هذه الحجارة، وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم. فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة، فقال: أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه، ثم عرض للرجل سفر، فقال: إني أحسبك أمينا فاخلفني في أهلي خلافة حسنة، قال: فأوصني بعمل، قال: إني أكره أن أشق عليك، قال: ليس تشق عَلَيَّ، قال: فاضرب من اللبن لبيتي حتى أقدم عليك. فمضى الرجل لسفره، فرجع وقد شيد بناءه. فقال: أسألك بوجه الله ما سبيلك وما أمرك؟ فقال: سألتني بوجه الله، والسؤال بوجه الله أوقعني في العبودية، سأخبرك من أنا. أنا الخضر الذي سمعت به، سألني مسكينٌ صدقةً فلم يكن عندي من شيء أعطيه، فسألني بوجه الله فأمكنته من رقبتي، فباعني، وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر، وقف يوم القيامة جلده لا لحم له ولا عظم يتقعقع. فقال الرجل: آمنت بالله، شققت عليك يا نبي الله ولم أعلم، فقال: لا بأس أحسنت وأبقيت. فقال الرجل: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، احكم في أهلي ومالي بما أراك الله. أو

(١) ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/ ٤١٤)، وهو موضوع.

أخيرك فأخلي سبيلك، فقال: أحب أن تخلي سبيلي، فأعبد ربي، فخلى سبيله. فقال الخضر: الحمد لله الذي أوقعني في العبودية ثم نجاني منها»[(١)].

وهذا الحديث رفعه خطأ، والأشبه أن يكون موقوفًا، وفي رجاله من لا يعرف، فالله أعلم.

وقد رواه ابن الجوزي في كتابه «عجالة المنتظر في شرح حال الخضر» من طريق عبد الوهاب بن الضحاك، وهو متروك، عن بقية

وقد روى الحافظ ابن عساكر بإسناده إلى السدي: أن الخضر وإلياس كانا أخوين، وكان أبوهما ملكًا، فقال إلياس لأبيه: إن أخي الخضر لا رغبة له في الملك، فلو أنك زوجته لعله يجيء منه ولد يكون الملك له، فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر، فقال لها الخضر: إنه لا حاجة لي في النساء، فإن شئت أطلقت سراحك، وإن شئت أقمت معي تعبدين الله عز وجل وتكتمين عَلَيَّ سري، فقالت: نعم، وأقامت معه سنة. فلما مضت السنة دعاها الملك، فقال: إنك شابة وابني شاب فأين الولد؟ فقالت: إنما الولد من عند الله، إن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن، فأمره أبوه فطلقها وزوجه بأخرى ثيبًا قد ولد لها، فلما زفت إليه قال لها كما قال للتي قبلها، فأجابت إلى الإقامة عنده. فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد، فقالت: إن ابنك لا حاجة له بالنساء، فتطلبه أبوه فهرب، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه، فيقال: إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره، فهرب من أجل ذلك، وأطلق سراح الأخرى. فأقامت تعبد الله في بعض نواحي تلك المدينة، فمر بها رجل يومًا فسمعته يقول: باسم الله. فقالت له: أنى لك هذا الاسم؟ فقال: إني من أصحاب الخضر، فتزوجته فولدت له أولادًا. ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون، فبينما هي يومًا تمشطها إذ وقع المشط من يدها، فقالت: باسم الله، فقالت ابنة فرعون: أبي؟ فقالت: لا، ربي وربك ورب أبيك الله. فأعلمت أباها فأمر بنقرة[(٢)] من نحاس فأحميت، ثم أمر بها فألقيت فيها. فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها، فقال لها ابن معها صغير: يا أمه اصبري فإنك على الحق. فألقت نفسها في النار فماتت، رحمها الله.

وقد روى ابن عساكر عن أبي داود الأعمى نفيع - وهو كذاب وضاع - عن أنس بن مالك، ومن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف - وهو كذاب أيضًا - عن أبيه عن جده: أن الخضر جاء ليلة فسمع النبي ﷺ وهو يدعو ويقول: «اللهم أعني على ما ينجيني مما خوفتني، وارزقني شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه» فبعث إلية رسول الله ﷺ أنس بن مالك فسلم عليه فرد عليه السلام وقال: قل له «إن الله فضلك على الأنبياء كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور، وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على غيره»[(٣)] الحديث.

وهو مكذوب لا يصح سندًا ولا متنًا، فكيف لا يتمثل بين يدي رسول الله ﷺ ويجيء بنفسه

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/ ٤١٧) من طريق أبي نعيم، وهو ضعيف كما قال الحافظ ابن كثير.
(٢) النقرة: الحفرة الصغيرة المستديرة. الوجيز ص (٦٣٠).
(٣) ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/ ٤٢٢)، وهو موضوع.

مسلمًا ومتعلمًا؟ وهم يذكرون في حكاياتهم وما يسندونه عن بعض مشايخهم أن الخضر يأتي إليهم ويسلم عليهم، ويعرف أسماءهم ومنازلهم وَمَحَالَّهم، وهو مع هذا لا يعرف موسى بن عمران كليمَ الله، الذي اصطفاه الله في ذلك الزمان على من سواه، حتى يتعرف إليه بأنه موسى بني إسرائيل.

وقد قال الحافظ أبو الحسن بن المنادي، بعد إيراده حديث أنس هذا: وأهل الحديث متفقون على أنه حديث منكرُ الإسنادِ سقيمُ المتنِ، يتبين فيه أثر الصنعة.

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي قائلاً: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر بن بالويه، حدثنا محمد بن بشر بن مطر، حدثنا كامل بن طلحة، حدثنا عباد بن عبد الصمد، عن أنس بن مالك قال: لما قبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه، فبكوا حوله واجتمعوا، فدخل رجل أشهب [(١)] اللحية جسيم صَبِيحٌ [(٢)] فتخطى رقابهم فبكى، ثم التفت إلى أصحاب الرسول ﷺ فقال: إن في الله عزاء من كل مصيبة، وعوضًا من كل فائت، وخلفًا من كل هالك، فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا، ونظر إليكم في البلاء فانظروا، فإن المصاب من لم يجبر. وانصرف. فقال بعضهم لبعض: أتعرفون الرجل؟ فقال أبو بكر وعمر وعلي: نعم، هذا أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام [(٣)].

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن كامل بن طلحة به. وفي متنه مخالفة لسياق البيهقي. ثم قال البيهقي: عباد بن عبد الصمد ضعيف، وهذا منكر بمرة. قلت: عباد بن عبد الصمد هذا هو ابن معمر البصري، روى عن أنس نسخة، قال ابن حبان والعقيلي: أكثرها موضوع، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث جدًا منكره، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه في فضائل على، وهو ضعيفٌ غالٍ في التشيع.

وقال الشافعي في مسنده: أنبأنا القاسم بن عبد الله بن عمر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده عن على بن الحسين قال: لما توفى رسول الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول: إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودركًا من كل فائت، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب، قال على بن الحسين أتدرون من هذا؟ هذا الخضر [(٤)].

شيخ الشافعي القاسم العمري متروك. قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين: يكذب. زاد أحمد: ويضع الحديث، ثم هو مرسل. ومثله لا يعتمد عليه هاهنا. والله أعلم. وقد روى من وجه آخر ضعيف، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن أبيه عن على، ولا يصح

وقد روى عبد الله بن وهب عمن حدثه، عن محمد بن عجلان، عن محمد بن المنكدر: أن

---

(١) يعني: خالط سوادَ لحيته بياضٌ. الوجيز ص (٣٥٢).
(٢) يقال: صَبُحَ الوجه يصبُح صباحةً: أشرق وجُمل، فهو صَبِيحٌ. الوجيز ص (٣٥٨).
(٣) في دلائل النبوة (٧/ ٢٦٩)، وقال: هذا منكر بِمَرَّة.
(٤) الشافعي في مسنده (٦٠٠).

عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة إذ سمع هاتفًا وهو يقول: لا تسبقنا يرحمك الله، فانتظره حتى لحق بالصف. فذكر دعاءه للميت: إن تعذبه فكثيرًا عصاك، وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك. ولما دفن قال: طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفًا أو جابيًا أو خازنًا أو كاتبًا أو شُرَطِيًّا. فقال عمر: خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عمن هو؟ قال: فتوارى عنهم، فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع، فقال عمر: هذا والله الخضر الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ[1]. وهذا الأثر فيه مبهم، وفيه انقطاع ولا يصح مثله.

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثوري عن عبد الله بن محرز، عن يزيد بن الأصم، عن علي بن أبي طالب قال: دخلت الطواف في بعض الليل، فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يمنعه سمع عن سمع، ويا من لا تغلطه المسائل، ويا من لا يبرمه إلحاح الملحين ولا مسألة السائلين ارزقني بَرْدَ عفوك وحلاوةَ رحمتك. قال: فقلت أعد على ما قلت، فقال لي: أو سمعته؟ قلت: نعم. فقال لي: والذي نفس الخضر بيده - قال: وكان هو الخضر - لا يقولها عبد خلف كل صلاة مكتوبة إلا غفر الله له ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم، لغفرها الله له.

وهذا ضعيف من جهة عبد الله بن المحرز، فإنه متروك الحديث، ويزيد بن الأصم لم يدرك عليًّا، ومثل هذا لا يصح. والله أعلم. وقد رواه أبو إسماعيل الترمذي: حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا صالح بن أبي الأسود، عن محفوظ بن عبد الله الحضرمي، عن محمد بن يحيى قال: بينما علي بن أبي طالب يطوف بالكعبة، إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ويا من لا يغلطه السائلون، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين ارزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك. قال: فقال له علي: يا عبد الله أعد دعاءك هذا، قال: أو قد سمعته؟ قال: نعم. قال: فادع به في دبر كل صلاة، فوالذي نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها، وحصباء الأرض وترابها، لغفر لك في أسرع من طرفة عين. وهذا أيضًا منقطع، وفي إسناده من لا يعرف. والله أعلم.

وقد رواه ابن الجوزي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن يوسف، حدثنا مالك بن إسماعيل فذكر نحوه. ثم قال: وهذا إسناد مجهول منقطع، وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر. وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: أنبأنا أبو القاسم بن الحصين، أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد، أنبأنا أبو إسحاق المزكي، حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملاه علينا بعبادان، أنبأنا عمرو بن عاصم، حدثنا الحسن بن رزين، عن ابن جريج، عن عطاء عن ابن عباس قال: - ولا أعلمه إلا مرفوعًا إلى النبي ﷺ - قال: «يلتقي الخضر وإلياس كل عام في الموسم فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه، ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات: باسم الله ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله كان من نعمة

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/ ٤٢٤)، وسنده ضعيف.

فمن الله، ما شاء الله، ما تشاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله» [١] قال: وقال ابن عباس: من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات، أمنه الله من الغرق والحرق والسرق. قال: وأحسبه قال: ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب.

قال الدارقطني في «الأفراد»: هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يُحَدِّثْ به غير هذا الشيخ عنه يعني: الحسن بن رزين هذا. وقد روى عن محمد بن كثير العبدي أيضًا، ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي، ليس بالمعروف. وقال الحافظ أبو جعفر العقيلي: مجهول وحديثه غير محفوظ. وقال أبو الحسن بن المنادي: هو حديث واه بالحسن بن رزين. وقد روى ابن عساكر نحوه من طريق على بن الحسن الجهضمي - وهو كذاب - عن ضمرة بن حبيب المقدسي، عن أبيه، عن العلاء بن زياد القشيري، عن عبد الله بن الحسن، عن أبيه عن جده عن على بن أبي طالب مرفوعًا قال: «يجتمع كل يوم عرفة بعرفات جبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر». وذكر حديثًا طويلاً موضوعًا تركنا إيراده قصدًا. ولله الحمد.

وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد عن الحسن بن يحيى الخشني، عن ابن رواد قال: إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس، ويحجان في كل سنة، ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تكفيهما إلى مثلها من قابل [٢].

وروى ابن عساكر: أن الوليد بن عبد الملك بن مروان - باني جامع دمشق - أحبَّ أنْ يَتَعَبَّدَ ليلة في المسجد، فأمر القوم أن يخلوه له ففعلوا، فلما كان من الليل جاء من باب الساعات فدخل الجامع، فإذا رجل قائم يصلي فيما بينه وبين باب الخضراء، فقال للقوم: ألم آمركم أن تخلوه؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجيء كل ليلة يصلي هاهنا.

قال ابن عساكر أيضًا: أنبأنا أبو القاسم بن إسماعيل بن أحمد، أنبأنا أبو بكر بن الطبري، أنبأنا أبو الحسين بن الفضل، أنبأنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب - هو ابن سفيان الفسوي - حدثني محمد بن عبد العزيز، حدثنا ضمرة عن السري بن يحيى، عن رباح بن عبيدة، قال: رأيت رجلاً يماشي عمر بن عبد العزيز معتمدًا على يديه، فقلت في نفسي: إن هذا الرجل حافٍ، قال: فلما انصرف من الصلاة قلت: مَنِ الرجل الذي كان معتمدًا على يدك آنفًا؟ قال: وهل رأيته يا رباح؟ قلت: نعم. قال: ما أحسبك إلا رجلاً صالحًا، ذلك أخي الخضر بشرني أني سألي وأعدل. قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي: الرملي مجروح عند العلماء. وقد قدح أبو الحسن بن المنادي في ضمرة والسرى ورباح، ثم أورد من طرق آخر عن عمر بن عبد العزيز، أنه اجتمع بالخضر، وضعفها كلها.

وروى ابن عساكر أيضًا أنه اجتمع بإبراهيم التيمي وبسفيان بن عيينة وجماعة يطول ذكرهم. وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم. وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جدًا لا يقوم بمثلها حجة في الدين، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف الإسناد،

(١) ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/ ٤٢٦، ٤٢٧) (٢) ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/ ٤٢٨).

وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره، لأنه يجوز عليه الخطأ. والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن أبا سعيد قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثًا طويلاً عن الدجال، وقال فيما يحدثنا: «يأتي الدجال - وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة - فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس - أو من خيرهم - فيقول: أشهد أنك أنت الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا وأحييته أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحيا: والله ما كنت أشد بصيرة فيك مني الآن. قال: فيريد قتله ثانية فلا يسلط [1] عليه» [2].

قال معمر: بلغني أنه يُجعل على حلقه صحيفة من نحاس، وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحييه. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري به.

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوي عن مسلم: الصحيح أن يقال: إن هذا الرجل الخضر. وقول معمر وغيره: بلغني ليس فيه حجة. وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث: «فيأتي بشاب ممتلئ شبابًا فيقتله» وقوله الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ لا يقتضي المشافهة، بل يكفي التواتر.

وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في كتابه: «عجالة المنتظر في شرح حال الخضر» للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعات، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد.

وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات، ومنهم البخاري وإبراهيم الحربي وأبو الحسن بن المنادي والشيخ أبو الفرج بن الجوزي، وقد انتصر لذلك وألَّفَ فيه كتابًا سماه «عجالة المنتظر في شرح حال الخضر» فيحتج لهم بأشياء كثيرة: منها قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] فالخضر إن كان بشرًا فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح، والأصل عدمه حتى يثبت، ولم يذكر فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله. ومنها أن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بُعِثَ محمد وهو حَيٌّ ليؤمنن به ولينصرنه. وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق، لئن بعث محمدًا وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه. ذكره

(١) يعني: لم يمكن من قتله.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٦) من طريق عبد الرزاق به. وأخرجه البخاري (٣/ ٢٨)، (٩/ ٧٦)، ومسلم (٨/ ١٩٩) والنسائي في الكبرى (٤١٣٩ تحفة) كلهم من طريق الزهري به.

البخاري عنه. فالخضر إن كان نبيًّا أو وليًّا، فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حيًّا في زمان رسول اللهﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه، يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه، لأنه إن كان وليًّا فالصديق أفضل منه، وإن كان نبيًّا فموسى أفضل منه.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده: حدثنا شريح بن النعمان، حدثنا هشيم، أنبأنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله، أن رسول اللهﷺ قال: «والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني»[1]، وهذا الذي يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة، وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة: أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول اللهﷺ لكانوا كلهم أتباعًا له، وتحت أوامره وفي عموم شرعه. كما أن صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع بهم ليلة الإسراء رُفِعَ فوقهم كلهم. ولما هبطوا معه إلى البيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل - عن أمر الله - أن يؤمهم، فصلى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم. فدل على أنه الإمام الأعظم، والرسول الخاتم المبجل المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

فإذا عُلِمَ هذا - وهو معلوم عند كل مؤمن - عُلِمَ أنه لو كان الخضر حيًّا لكان من جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك، هذا عيسى ابن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة، لا يخرج منها ولا يحيد عنها، وهو أحد أولى العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بني إسرائيل، والمعلوم أن الخضرَ لم يُنْقَلْ بسندٍ صحيح ولا حسن - تسكن النفس إليه - أنه اجتمع برسول اللهﷺ في يوم واحد، ولم يشهد معه قتالا في مشهد من المشاهد. وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به ربه عز وجل، واستنصره واستفتحه على من كفره: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض»[2] وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ، وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام، كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له، في بيت يقال: إنه أفخر بيت قالته العرب:

وببدر إذ يرد وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد

فلو كان الخضر حيًّا، لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته. قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي: سئل بعض أصحابنا عن الخضر: هل مات؟ فقال: نعم. قال: وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري قال: وكان يحتج بأنه لو كان حيًّا لجاء إلى رسول اللهﷺ. نقله ابن الجوزي في «العجالة».

فإن قيل: فهل يقال: إنه كان حاضرًا في هذه المواطن كلها ولكن لم يكن أحدٌ يراه؟

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠، ٣٢)، وعبد بن حميد (٣١)، ومسلم (٥/ ١٥٦)، وأبو داود (٢٦٩٠)، والترمذي (٣٠٨١) كلهم من طريق عكرمة بن عمار قال: حدثنا أبو زميل سماك الحنفي، قال: سمعت ابن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب فذكره في حديث طويل. وهذا الدعاء مروي عن غير عمر بن الخطاب مرفوعًا أيضًا، رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٦٠٦)، وفي الكبرى (٧/ ٩٦٢٣ تحفة) عن ابن مسعود مرفوعًا.

فالجواب: أن الأصلَ عدمُ هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات. ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء؟ وظهوره أعظم لأجره وأعلى في مرتبته وأظهر لمعجزته؟ ثم لو كان باقيًا بعده، لكان تَبْلِيغُهُ عن رسول اللهﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة، والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم، ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم، وتسديده العلماء والحكام، وتقريره الأدلة والأحكام أفضلَ ما يقال عنه من كونه في الأمصار، وَجَوْبه الفيافي والأقطار. واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم. وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف فيه أحد بعد التفهيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عمر: أن رسول اللهﷺ صلى ليلة العشاء ثم قال: «أرأيتم ليلتكم هذه؟ فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد»[(١)] . وفي رواية «عين تطرف» قال ابن عمر: فذهل الناس من مقالة رسول اللهﷺ هذه، وإنما أراد انخرام قرنه[(٢)] .

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهري قال: أخبرني سالم ابن عبد الله وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، أن عبد الله بن عمر قال: صلى رسول اللهﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلم قام فقال: «أرأيتم ليلتكم هذه؟ فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد»[(٣)] . وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الزهري. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن سليمان التيمي، عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول اللهﷺ قبل موته بقليل أو بشهر: «ما من نفس منفوسة - أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة - يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية»[(٤)] .

وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر عن النبيﷺ أنه قال - قبل أن يموت بشهر -: «يسألونني عن الساعة وإنما علمها عند الله، أقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة». وهكذا رواه مسلم من طريق أبي نضرة وأبي الزبير: كل منهما عن جابر بن عبد الله به نحوه. وقال الترمذي: حدثنا عباد، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول اللهﷺ: «ما على الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة»[(٥)] . وهذا أيضًا على شرط مسلم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٨٨، ١٢١)، والبخاري (١/ ٤٠، ١٥٦)، ومسلم (٧/ ١٨٦، ١٨٧)، وأبو داود (٤٣٤٨)، والترمذي (٢٢٥١)، والنسائي في الكبرى (٦٩٣٤ تحفة) كلهم من طريق الزهري به.

(٢) يعني: فناء أهل قرنه، ومن يعيش معه في هذا القرن. وانظر الوجيز ص (١٩٣).

(٣) السابق.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٥، ٣٧٩)، ومسلم (٧/ ١٨٧) كلاهما من طريق سليمان التيمي به.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٢٥٠) به وهو حديث صحيح.

قال ابن الجوزي: فهذه الأحاديث الصحاح تقطعُ دَابِرَ دَعْوَى حياةِ الخضر. قالوا: فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع، فلا إشكال، وإن كان قد أدرك زمانه، فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعد مائة سنة، فيكون الآن مفقودًا لا موجودًا، لأنه داخل في هذا العموم والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله. والله أعلم.

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتابه «التعريف والإعلام» عن البخاري وشيخه أبي بكر بن العربي: أنه أدرك حياة النبي ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث. وفي كون البخاري رحمه الله يقول بهذا وأنه بقى إلى زمان النبي ﷺ نظرٌ. ورجح السهيلي بقاءه، وحكاه عن الأكثرين.

قال: وأما اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعده فمروي من طرق صحاح، ثم ذكر ما تقدم مما ضعفناه، ولم يورد أسانيدها. والله أعلم.



وأما إلياس عليه السلام

فقال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣-١٣٢].

قال علماء النسب هو: إلياس النشبي، ويقال: ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون. وقيل: إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران. وقالوا: وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربي دمشق، فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه «بَعْلًا» وقيل: كانت امرأة اسمها «بعل». والله أعلم.

والأول أصح ؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٤-١٢٦] فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله. فيقال: إنه هرب منهم واختفى عنهم. قال أبو يعقوب الأذرعي، عن يزيد بن عبد الصمد، عن هشام بن عمار قال: وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال: إن إلياس اختفى من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم عشر سنين، حتى أهلك الله الملك وولى غيره، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو محمد القاسم بن هاشم، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقي، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال: أقام إلياس عليه السلام هاربًا من قومه في كهف جبل عشرين ليلة - أو قال: أربعين ليلة - تأتيه الغربان برزقه.

وقال محمدُ بنُ سعد، كاتبُ الواقديّ: أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه قال: أول نبي بعث إدريس، ثم نوح، ثم إبراهيم. ثم إسماعيل وإسحاق، ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب، ثم موسى وهارون ابنا عمران، ثم إلياس النشبي بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام. هكذا قال: وفي هذا الترتيب نظر.

وقال مكحول عن كعب: أربعة أنبياء أحياء: اثنان في الأرض إلياس والخضر، واثنان في السماء: إدريس وعيسى عليهما السلام. وقد قدمنا قول مَنْ ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان ببيت المقدس، وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل. وأوردنا الحديث الذي فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة. وَبيَنَّا أنه لم يَصِحَّ شيْء من ذلك، وأن الذي يقوم عليه الدليل: أن الخضر مات، وكذلك إلياس عليهما السلام. وما ذكره وهب بن منبه وغيره: أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه، فجاءته دابة لونها لون النار فركبها، وجعل الله له ريشًا وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار ملكيًا بشريًا

سماويًّا أرضيًّا، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب، ففي هذا نظر وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل الظاهر أن صحتها بعيدة. والله تعالى أعلم.

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثني أبو العباس أحمد بن سعيد المعداني البخاري، حدثنا عبد الله بن محمود: حدثنا عبدان بن سنان، حدثني أحمد بن عبد الله البرقي، حدثنا يزيد بن يزيد البلوي، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، عن الأوزاعي، عن مكحول، عن أنس بن مالك قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلاً فإذا رجل في الوادي يقول: اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ المرحومة المتاب لها، المُتَاب عليها. قال: فأشرفت على الوادي فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع، فقال لي: من أنت؟ فقلت: أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال: فأين هو؟ قلت: هو ذا يسمع كلامك، قال: فأته فأقرئه مني السلام، وقل له: أخوك إلياس يقرئك السلام. قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم، ثم قعدا يتحدثان فقال له: يا رسول الله. إني ما آكل في السنة إلا يومًا، وهذا يوم فطري فآكل أنا وأنت. قال: فنزلت عليهما مائدة من السماء، عليها خبز وحوت وكرفس، فأكلا وأطعماني وصلينا العصر، ثم ودعه ورأيته مرة[(١)] في السحاب نحو السماء[(٢)]. فقد كفانا البيهقي أمره، وقال: هذا حديث ضعيف بمرة[(٣)].

والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري أخرجه في مستدركه على الصحيحين، وهذا مما يستدرك به على المستدرك: فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه، ومعناه لا يصح أيضًا؛ فقد تقدم في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعًا في السماء - إلى أن قال -: ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن»[(٤)].

وفيه أنه لم يأت رسول الله ﷺ حتى كان هو الذي ذهب إليه، وهذا لا يصح؛ لأنه كان أحق بالسعي إلى بين يدي خاتم الأنبياء. وفيه أنه يأكل في السنة مرة، وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب، وفيما تقدم عن بعضهم: أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر. وهذه أشياء متعارضة وكلها باطلة لا يصح شيء منها.

وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طرق أخرى، واعترف بضعفها وهذا عجب منه، كيف تكلم عليه؟ فإنه أورده من طريق حسين بن عرفة، عن هانئ بن الحسن، عن بقية، عن الأوزاعي، عن مكحول، عن واثلة بن الأسقع، فذكر نحو هذا مطولاً، وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك، وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك وحذيفة ابن اليمان، قالا: فإذا هو أعلى جسمًا منا بذراعين أو ثلاثة، واعتذر بعدم قدرته لئلا تنفر منه الإبل، وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنة، وقال: إن لي في كل أربعين يومًا أكلة، وفي المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورطب وبقل، ما عدا الكراث، وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر فقال: عهدي به عام أول، وقال لي: إنك

---

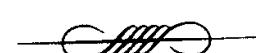
(١) لعلها: «مَرَّ».
(٢) البيهقي والحاكم.
(٣) يعني: ضعيف ضعفاً شديدًا.
(٤) سبق تخريجه.

ستلقاه قبلي فأقرئه مني السلام(١) . وهذا يدل على أن الخضر وإلياس، بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة، وهذا لا يسوغ شرعًا . وهذا موضوع أيضًا . وقد أورد ابن عساكر طرقًا فيمن اجتمع بإلياس من العباد، وكلها لا يفرح بها، لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها .

ومن أحسنها ما قاله أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني بشر بن معاذ، حدثنا حماد بن واقد، عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة، فدخلت حائطًا أصلي فيه ركعتين فافتتحت : ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[غافر :١-٣] فإذا رجل من خلفي على بغلة شهباء، عليه مقطعات يمنية فقال لي : إذا قلت : ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾[غافر :٣] فقل : يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي، وإذا قلت : ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾[غافر :٣] فقل : يا قابل التوب تقبل توبتي، وإذا قلت : ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾[غافر :٣] فقل : يا شديد العقاب لا تعاقبني، وإذا قلت : ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾[غافر :٣] فقل : يا ذا الطول(٢) تطول على برحمة . فالتفت فإذا لا أحد . وخرجت فسألت : مر بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية؟ فقالوا : ما مر بنا أحد . فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس .

وقوله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[الصافات :١٢٧] أي : للعذاب، إما في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة . والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون(٣) .

وقوله : ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[الصافات :٤٠] أي : إلا من آمن منهم . وقوله : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾[الصافات :٧٨] أي : أبقينا بعده ذكرًا حسنًا له في العالمين فلا يُذْكَرُ إلا بخير، ولهذا قال : ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾[الصافات :١٣٠] أي : سلام على إلياس، والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا : إسماعيل وإسماعين وأسرائيل وإسرائين، إلياس وإلياسين وقد قرئ : «سلام على آل ياسين» أي : على آل محمد، وقرأ ابن مسعود وغيره : «سلام على إدراسين»، ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال : إلياس هو إدريس . وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم، وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق . والصحيح أنه غيره كما تقدم . والله أعلم .



(١) ابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/ ٢١٦) . وإسناده ضعيف .
(٢) الطَّوْلُ : الفضل والغنى واليسر . الوجيز ص (٣٩٨) .
(٣) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢١) .

باب ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام

قال ابن جرير في تاريخه: لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع: كالب بن يوفنا، يعنى: أحد أصحاب موسى عليه السلام وهو زوج اخته مريم، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله، وهما يوشع وكالب وهما القائلان لبنى إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]

قال ابن جرير: ثم مِنْ بعده كان القائمُ بأمور بنى إسرائيل حزقيل بن بوذي، وهو الذي دعا الله فأحيا الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

قصة حزقيل

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه: إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف في بني إسرائيل حزقيل بن بوذي، وهو ابن العجوز، وهو الذي دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه فيما بلغنا. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣] قال ابن إسحاق: فروا من الوباء فنزلوا بصعيد من الأرض، فقال لهم الله: موتوا، فماتوا جميعًا فحظروا عليهم حظيرة دون السباع[1] فمضت عليهم دهور طويلة فمر بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكرًا فقيل له: أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر؟ فقال: نعم فأُمِرَ أن يدعو تلك العظام أن تكتسى لحمًا وأن يتصل العصب بعضه ببعض فناداهم عن أمر الله له بذلك فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد.

وقال أسباط عن السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] قالوا: كانت قرية يقال لها داوردان قبل واسط، وقع بها الطاعون، فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها، فهلك من بقي في القرية، وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا بقينا، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم، فوقع في قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفًا حتى نزلوا ذلك المكان، وهو واد أفيح فناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه: أن موتوا فماتوا، حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مر بهم نبي يقال له حزقيل، فلما رآهم وقف

---

(١) يعني: تحميهم من السباع.

عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوى شدقيه وأصابعه، فأوحى الله إليه، تريد أن أريك كيف أحييهم؟ قال: نعم، وإنما كان تفكيره أنه تعجب من قدرة الله عليهم، فقيل له: ناد، فنادى: يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعى. فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض، حتى إذا كانت أجسادًا من عظام، ثـم أوحى الله إليه: أن ناد: يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسى لحمًا، فاكتست لحمًا ودما وثيابها التى ماتت فيها، ثم قيل له: ناد، فنادى: أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومى. فقاموا.

وقال أسباط: فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا: «سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت» فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى، سَحْنَة [1] الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبًا إلا عاد رسمًا، حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم.

وعن ابن عباس: أنهم كانوا أربعة آلاف، وعنه: ثمانية آلاف، وعن أبى صالح: تسعة آلاف، وعن ابن عباس أيضًا: كانوا أربعين ألفًا، وعن سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات. وقال ابن جريج عن عطاء: هذا مثل. يعنى أنه سيق مثلاً مبينًا أنه لن يغنى حذر من قدر، وقول الجمهور أقوى: أن هذا وقع.

وقد روى الإمام أحمد وصاحبا الصحيح من طريق الزهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد الله بن عباس، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فذكر الحديث. يعني فى مشاورته المهاجرين والأنصار، فاختلفوا عليه، فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبًا ببعض حاجته، فقال: إن عندى من هذا علمًا: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان [2] بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه، وإذا سمعتم بـه بأرض فلا تقدموا عليه» [3] فحمد اللهَ عمرُ، ثم انصرف

وقال الإمام: حدثنا حجاج ويزيد المفتى قالا: حدثنا ابن أبى ذؤيب عن الزهرى، عن سالم، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبى ﷺ أن هذا السقم عُذِّب بِه الأمم قبلكم، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلـوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه، قال: فرجع عمر من الشام [4]. وأخرجاه من حديث مالك عن الزهرى بنحوه.

قال محمد بن إسحاق: ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل في بني إسرائيل. ثم إن الله قبضه إليه، فلما

---

(١) يعني: هيئة الموت. انظر الوجيز ص (٣٠٥).

(٢) يعني: الطاعون.

(٣) أخرجه مالك في موطئه (ص٥٥٧)، وأحمد (١/ ١٩٢، ١٩٤)، والبخاري (٧/ ١٦٨)، ومسلم (٧/ ٢٩، ٣٠)، وأبو داود (٣١٠٣) كلهم من طريق ابن عباس به.

(٤) أخرجه مالك في موطئه (ص ٥٥٩)، وأحمد (١/ ١٩٤)، والبخاري (٧/ ١٦٩)، (٩/ ٣٤)، ومسلم (٧/ ٣٠) كلهم من طريق مالك ليس فيه سالم، ورواه أحمد (١/ ١٩٣) بالإسناد الذي ذكره المصنف.

قبض نسى بنو إسرائيل عهد الله إليهم، وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان، وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له: «بعل» فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران.

قلت: وقد قدمنا قصة إلياس تبعًا لقصة الخضر ؛ لأنهما يقرنان في الذكر غالبًا ؛ ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات فتعجلنا قصته لذلك. والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق فيما ذكر له عن وهب بن منبه قال: ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه اليسع بن أخطوب عليه السلام.

قصة اليسع عليه السلام

وقد ذكره الله تعالى من الأنبياء فى سورة الأنعام في قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٦]. وقال تعالى في سورة ص: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٨].

قال ابن إسحاق: حدثنا بشر أبو حذيفة، أنبأنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن قال: كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام، فمكث ما شاء الله أن يمكث، يدعوهم إلي الله، مستمسكا بمنهاج إلياس وشريعته، حتى قبضه الله عز وجل إليه، ثم خلف فيهم الخلوف، وعظمت فيهم الأحداث والخطايا، وكثرت الجبابرة، وقتلوا الأنبياء، وكان فيهم ملك عنيد طاغ، ويقال: إنه الذي تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة فسمى ذا الكفل.

قال محمد بن إسحاق: هو اليسع بن أخطوب.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في حرف «الياء» من تاريخه: اليسع، وهو الأسباط بن عدي بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال: هو ابن عم إلياس النبى عليهما السلام، ويقال: كان مستخفيًا معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك، ثم ذهب معه إليها، فلما رفع إلياس خلفه اليسع في قومه ونبأه الله بعده. ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس عن أبيه، عن وهب بن منبه، قال: وقال غيره: وكان الأسباط ببانياس.

ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ: اليسع بالتخفيف والتشديد، ومن قرأ: والليسع، وهو اسم لنبى من الأنبياء. قلت: قد قدمنا قصة ذا الكفل بعد قصة أيوب عليه السلام ؛ لأنه قد قيل: إنه ابن أيوب، فالله تعالى أعلم.



فصل

قال ابن جرير وغيره: ثم مرج أمر بني إسرائيل، وعظمت منهم الخطوب والخطايا، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء، وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكًا جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم، وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضا، وكانوا إذا قاتلوا أحدًا من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قبة الزمان، كما تقدم ذكره، فكانوا ينصرون ببركته، وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آلُ موسى وآل هارون.

فلما كان في بعض حروبهم من أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه، فانتزعوه من أيديهم، فلما علم بذلك مَلِكُ بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمدًا [1] وبقى بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبيًا من الأنبياء يقال له: شمويل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا ليقاتلوا معه الأعداء، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله في كتابه.

قال ابن جرير: فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عز وجل شمويل بن بالي أربعمائة سنة وستون سنة، ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحدا واحدًا تركنا ذكرهم قصدًا.

قصة شمويل عليه السلام وفيها بدء أمر داود عليه السلام

هو شمويل - ويقال: أشمويل - بن بالي بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا. قال مقاتل: وهو من ورثة هارون. وقال مجاهد: هو أشويل بن هلفاقا، ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا. فالله أعلم.

حكى السدي بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبي وغيرهم: أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وَسَبَوْا من أبنائهم جمعًا كثيرًا، وانقطعت النبوة من سبط لاوي، ولم يبق فيهم إلا امرأة حُبْلَى، فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولدًا ذكرًا، فولدت غلامًا، فسمته أشمويل، ومعناه بالعبرانية: إسماعيل، أي: سمع الله دعائى. فلما ترعرع بعثته إلي المسجد، وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عُنده ليتعلم من خيره وعبادته، وكان عنده، فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعورًا، فَظَنَّه الشيخ يدعوه فسأله: أدعوتنى؟ فكره أن يفزعه، فقال: نعم، نم، فنام. ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه، فجاءه فقال: إن ربك قد بعثك إلى قومك، فكان من أمره معهم ما قص الله في كتابه.

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا

(١) يعني: مات حزنًا.

مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥١].

قال أكثر المفسرين: كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل، وقيل: شمعون، وقيل: هما واحد، وقيل: يوشع، وهذا بعيد؛ لما ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه: أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة وستين سنة، فالله أعلم.

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبي الله في ذلك الزمان، وطلبوا منه أن يُنَصِّب لهم مَلِكًا يكونوا تحت طاعته؛ ليقاتلوا مِنْ ورائه ومعه ومِنْ بين يديه الأعداءَ فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٦] أي: وأي شيء يمنعنا من القتال ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة:٢٤٦] يقولون: نحن محروبون موتورون، فحقيقٌ لنا أن نقاتل عن أبنائنا المقهورين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦].

كما ذكر في آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال، وقال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٧] قال الثعلبى: وهو طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس ابن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

قال عكرمة والسدى: كان سَقَّاءً. وقال وهب بن منبه: كان دباغًا، وقيل غير ذلك، فالله أعلم. ولهذا ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة:٢٤٧] ولقد ذكروا أن النبوة كانت في سبط لاوي، وأن الملك كان في سبط يهوذا، فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا في إمارته عليهم، وقالوا: نحن أحق بالملك منه، وقد ذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه، فكيف يكون مثل هذا ملكًا؟.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧] قيل: كان الله قد أوحى إلى شمويل أن أى بنى إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا، وإذا حضر عندك يفور هذا القرن الذى فيه من دهن القدس فهو ملكهم، فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا، فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت، ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه وعَيَّنَه للملك عليهم، وقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧] قيل: في أمر الحروب، وقيل: بل مطلقا ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ قيل: الطول وقيل: الجمال، والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام، ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٤٧] فله الحكم وله الخلق والأمر ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧].

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٤٨] وهذا أيضًا من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويُمْنِه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان سُلِبَ منهم وقهرهم الأعداء عليه، وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:٢٤٨] قيل: طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء، وقيل: السكينة مثل الريح الخجوح، وقيل: صوتها مثل الهرة إذا صرخت في حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٨] قيل: كان فيه رضاض الألواح وشىء من المن الذي كان نزل عليهم بالتيه ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة:٢٤٨] أي: تأتيكم به الملائكة يحملونه، وأنتم ترون ذلك عيانًا ليكون آية لله عليكم وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم، وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم. ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٤٨] وقيل: إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة، وقيل: كان فيه التوراة أيضًا، فلما استقر في أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم، فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم، فوضعوه تحته، فلما كان اليوم الثانى إذا التابوت فوق الصنم، فلما تكرر هذا علموا أن هذا الأمر من الله تعالى، فأخرجوه من بلدهم، وجعلوه في قرية من قراهم، فأخذهم داء في رقابهم، فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين وأرسلوهما، فيقال: إن الملائكة ساقتها حتى جاءوا بها ملأ بني إسرائيل، وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك، فالله أعلم على أية صفة جاءت به الملائكة، والظاهر أن الملائكة كانت تحملة بأنفسهم كما هو المفهوم من الآية. والله أعلم، وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة:٢٤٩]. قال ابنُ عباس وكثيرٌ من المفسرين: هذا النهر هو نهر الأردن، وهو المسمى بالشريعة فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبى الله له عن أمر الله له اختبارًا وامتحانا: أن من شرب من هذا النهر فلا يصحبنى في هذه الغزوة، ولا يصحبنى إلا من لم يطعمه إلا غرفة بيده. قال الله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٩]

قال السدي: كان الجيش ثمانين ألفًا فشرب منه ستةٌ وسبعون ألفًا فبقى معه أربعة آلاف، كذا قال [(١)]. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث إسرائيل وزهير والثورى، عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلاثمائة مؤمن [(٢)]. وقول السدي: إن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفًا فيه نظر؛ لأن أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلوه يبلغون ثمانين ألفًا. والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٤٩]أي: استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلتهم وكثرة عدد عدوهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]يعنى: ثَبَّتَهُم الشجعان منهم والفرسان أهل الإيمان والإيقان، الصابرون على الجلاد والجدال والطعان. ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠]طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر، أي: يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق، وأن يُثَبِّتَ أقدامهم فى مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى والدعاء إلي النزال؛ فسألوا التثبيت الظاهر والباطن، وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه، فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا وأنالهم ما إليه فيه رغبوا.

ولهذا قال: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥١]أي: بحول الله وقوته لا بحولهم، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [آل عمران:١٢٣].

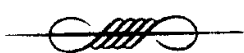
وقوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾ [البقرة:٢٥١] فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام، وأنه قتله قتلاً أَذَلَّ به جنده وكسر جيشه، ولا أعظمَ من غزوةٍ يَقْتُلُ فيها ملكٌ عدوَّه فَيَغْنَم بسبب ذلك الأموالَ الجزيلة، ويَأْسِر الأبطال والشجعان والأقران، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ويدال لأولياء الله على أعدائه، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه.

وقد ذكر السدي فيما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه، وكانوا ثلاثة عشر ذكرًا كان سمع طالوت ملك بنى إسرائيل وهو يحرض بنى إسرائيل على قتل جالوت وجنوده، وهو يقول: من قتل جالوت زَوَّجتُه بابنتي، وأشركته في ملكى، وكان داود عليه السلام يرمى بالقذافة - وهو المقلاع - رميًا عظيمًا، فبينا هو سائر مع بنى إسرائيل إذ ناداه حجر أن خُذْنِى فإن بى تَقْتُل جالوت. فأخذه ثم حجر آخر كذلك ثم آخر كذلك فأخذ الثلاثة فى مخلاته، فلما تواجه الصفان برز جالوتُ ودعا إلى نفسه فتقدم إليه داود فقال له: ارجع فإنى أكره قتلك. فقال: لكنى أحب قتلك. وأخذ تلك الأحجار

(١)رواه ابن أبي حاتم (٢٥٠٢)، وإسناده حسن. (٢)البخاري برقم (٣٩٥٧).

الثلاثة فوضعها فى القذافة ثم أدارها فصارت الثلاثة حجرًا واحدًا. ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه، وفر جيشه منهزمًا، فوفى له طالوتُ بما وعده، فزوجه ابنته، وأجرى حكمه في ملكه، وعَظُمَ داود عليه السلام عند بنى إسرائيل، وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت، فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله، واحتال على ذلك ولم يصل إليه، وجعل العلماء ينهون طالوت عن قتل داود فتسلط عليهم فقتلهم حتى لم يبق منهم إلا القليل. ثم حصل له توبة وندم وأقلع عما سلف منه وجعل يُكْثِرُ من البكاء ويخرج إلى الجبانة فيبكى حتى يبل الثرى بدموعه، فنودي ذات يوم من الجبانة: أن يا طالوت قتلتنا ونحن أحياء وآذيتنا ونحن أموات. فازداد لذلك بكاؤه وخوفه واشتد وجله، ثم جعل يسأل عن عالم يسأله عن أمره وهل له من توبة فقيل له: وهل أبقيت عالمًا؟ حتى دُلَّ على امرأة من العابدات، فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشع عليه السلام. قالوا: فدعتِ الله، فقام يوشع من قبره فقال: أقامت القيامة؟ فقالت: لا، ولكن هذا طالوت يسألك: هل له من توبة؟ فقال: نعم ينخلع من الملك ويذهب فيقاتل في سبيل الله حتى يُقْتَلَ. ثم عاد ميتًا. فترك المُلك لداود عليه السلام، وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده، فقاتلوا فى سبيل الله حتى قتلوا قالوا: فذلك قوله: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] هكذا ذكره ابن جرير في تاريخه من طريق السدي بإسناده. وفي بعض هذا نظر ونكارة. والله أعلم. وقال محمد ابن إسحاق: النبي الذى بُعِثَ فأخبرَ طالوتَ بتوبته هو اليسع بن أخطوب حكاه ابن جرير أيضًا، وذكر الثعلبى أنها أتت به إلى قبر شمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور، وهذا أنسب ولعله إنما رآه فى النوم لا أنه قام من القبر حيًّا فإن هذا إنما يكون معجزة لنبي، وتلك المرأة لم تكن نبية. والله أعلم.

قال ابن جرير: وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت إلى أن قتل مع أولاده أربعون سنة. فالله أعلم.



قصة داود عليه السلام وما كان في أيامه
وذكر فضائله وشمائله ودلائل نبوته وأعلامه

هو داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن إرم بن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته فى أرض بيت المقدس. قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم، عن وهب ابن منبه: كان داود عليه السلام قصيرًا أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونقيه. تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر، فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم، فكان من أمر طالوت ما كان، وصار الملك إلى داود عليه السلام وجمع الله له بين الملك والنبوة، بين خير الدنيا والآخرة، وكان الملك يكون في سبط، والنبوة في آخر، فاجتمع فى داود هذا وهذا كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١]

أى :لولا إقامة الملوك حكامًا على الناس لأكل قويُّ الناس ضعيفَهُم. ولهذا جاء في بعض الآثار: «السلطان ظل الله في أرضه» [(١)]. وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه أن جالوت لما بارز طالوت فقال له: اخرج إلي وأخرج إليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت. قال وهب بن منبه: فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر، وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود. وقيل: إن ذلك عن أمر شمويل حتى قال بعضهم: إنه ولاه قبل الوقعة.

قال ابن جرير :والذى عليه الجمهور أنه إنما ولي ذلك بعد قتل جالوت. والله أعلم. وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز: أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم، وأن النهر الذي كان هناك هو المذكور في الآية. فالله أعلم.

وقال تعالى :﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ:١٠-١١]

وقال تعالى :﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٧٩-٨٠]أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ﴾ [سبأ:١١]أي: لا تدق

(١)أورده السيوطي في الجامع الصغير من روايات عديدة: رواه أبو الشيخ عن أبي بكر، والديلمي في مسنده الفردوس عن ابن عمر، وأبو الشيخ عن أنس، والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن أبي بكرة، والطبراني في الكبير عن أنس، وابن النجار عن أبي هريرة، والحكم الترمذي والبزار والبيهقي في الشعب عن ابن عمر، وضعفها جميعًا الألباني في ضعيف الجامع: (٣٣٤٧)، (٣٣٤٨)، (٣٣٤٩)، (٣٣٥٠)، (٣٣٥١)، (٣٣٥٢)، (٣٣٥٣)، وانظر الضعيفة (٤٧٥)، (٦٠٤)، (١٦٦١)، (١٦٦٢)، (١٦٦٣)، (٣٧٣٥).

المسمار فيفلق، ولا تغلظه فيفصم، قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة، قال الحسن البصري وقتادة والأعمش: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة قال قتادة: فكان أول من عمل الدروع من زرد[1] وإنما كانت قبل ذلك من صفائح. قال ابن شوذب: كان يعمل كل يوم درعًا يبيعها بستة آلاف درهم.

وقد ثبت في الحديث أن «أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن نبى الله داود كان يأكل من كسب يده»[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[ص:١٧-٢٠]. قال ابن عباس ومجاهد: الأيد: القوة في الطاعة. يعنى: ذا قوة في العبادة والعمل الصالح. قال قتادة: أعطى قوة في العبادة وفقهًا في الإسلام، قال: وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر. وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقى»[3].

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[ص:١٨-١٩].

كما قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[سبأ:١٠] أى: سبحى معه. قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[ص:١٨] أي: عند آخر النهار وأوله، وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحدًا بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بُكْرَةً وعشيا صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الأوزاعى: حدثني عبد الله بن عامر، قال: أُعْطِيَ داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط، حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا، وحتى أن الأنهار لتقف!

---

(١) الزَّرَدُ: حلق المغفر والدِّرْع. الوسيط ص (٤٠٥).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٤/ ١٣١، ١٣٢)، والبخاري (٣/ ٧٤)، وفي الأدب المفرد (٨٢)، (١٩٥)، وابن ماجه (٢١٣٨) كلهم من طريق خالد بن معدان عن المقدام مرفوعًا: «ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود -عليه السلام- كان يأكل من عمل يده».

وأخرج شطره الأول أحمد (٦/ ٤٢، ٢٢٠)، وابن ماجه (٢١٣٧)، والنسائي (٧/ ٢٤١) كلهم من طريق الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة فذكرته مرفوعًا، وأخرج شطره الثاني أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٣/ ٧٤)، (٤/ ١٩٤)، وفي خلق أفعال العباد (٧٥) كلاهما من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة مرفوعًا: «خفف على داود عليه السلام القراءة، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده».

(٣) أخرجه الحميدي (٥٨٩)، وأحمد (٢/ ١٦٠، ٢٠٦)، والدارمي (١٧٥٩)، والبخاري (٢/ ٦٣)، (٤/ ١٩٥)، ومسلم (٣/ ١٦٥)، وأبو داود (٢٤٤٨)، وابن ماجه (١٧١٢)، والنسائي (٣/ ٢١٤)، (٤/ ١٩٨)، وفي الكبرى (١٢٣٦)، وابن خزيمة (١١٤٥) كلهم من طريق عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس عن عبد الله بن عمرو بن العاص فذكره مرفوعًا.

وقال وهب بن منبه: كان لا يسمعه أحد إلا حجل كهيئة الرقص، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذانُ بمثله، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعًا. وقال أبو عوانة الأسفراييني: حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، حدثنا محمد بن منصور الطوسي، سمعت صبيحًا أبا تراب، ح، قال أبو عوانة: حدثني أبو العباس المدني، حدثنا محمد بن صالح العدوي، حدثنا سيار - هو ابن أبي حاتم - عن جعفر، عن مالك قال: كان داود عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تفتقت العذارى. وهذا غريب.

وقال عبد الرزاق عن ابن جريج، سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال: وما بأس بذلك؟ سمعت عبيد بن عمر يقول: كان داود عليه السلام يأخذ المعزفة فيضرب بها فيقرأ عليها فترد عليه صوته يريد بذلك أن يَبْكى ويُبكِي.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال: «لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود». وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أعطى أبو موسى من مزامير داود» [١] على شرط مسلم.

وقد روينا عن أبي عثمان النهدي أنه قال: لقد سمعت البربط [٢] والمزمار فما سمعت صوتًا أحسن من صوت أبي موسى الأشعري. وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خفف على داود القراءة، فكان يأمر بدابته فتسرج فيقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه» [٣].

وكذلك رواه البخاري منفردًا به عن عبد الله بن محمد، عن عبد الرزاق به ولفظه: «خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يديه» [٤]. ثم قال البخاري: ورواه موسى بن عقبة عن صفوان هو ابن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. وقد أسنده ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام في تاريخه من طرق عن إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، ومن طريق أبي عاصم عن أبي بكر السبري، عن صفوان بن سليم به.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٤، ٣٦٩، ٤٥٠)، والدارمي (٣٥٠٢)، وابن ماجه (١٣٤١)، والنسائي (٢/ ١٨٠)، وفي الكبرى (١٠٠١) كلهم عن أبي سلمة به.

(٢) البَرْبَطُ: العود، وهو من آلات الموسيقى، وهو لفظ معرب. انظر الوسيط ص (٤٨).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (٧٥) موصولاً قال: حدثنا أحمد بن حفص النيسابوري، قال: حدثني أبي، قال: حدثني إبراهيم - وإبراهيم هو ابن طهمان - عن موسى بن عقبة به. ولعل المصنف لم يطلع على إسناد البخاري فأورد إسناد ابن عساكر.

والمراد بالقرآن هاهنا الزبور الذى أنزله الله عليه وأوحاه إليه وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظًا، فإنه كان ملكًا له أتباع، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب، وهذا أمر سريع من التدبر والترنم والتغنى به على وجه التخشع صلوات الله وسلامه عليه. وقد قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣، الإسراء: ٥٥] والزبور: كتاب مشهور وذكرنا في التفسير الحديث الذي رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان، وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه.

وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠] أى: أعطيناه ملكا عظيما وحكما نافذًا.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام فى بقرة ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه فأنكر المدَّعَى عليه، فأرجأ أمرهما إلى الليل، فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعي، فلما أصبح قال له داود: إن الله قد أوحى إليَّ أن أقتلك، فأنا قاتلك لا محالة فما خبرك فيما ادعيته على هذا؟. قال: والله يا نبى الله إنى لمحق فيما ادعيت عليه، ولكني كنت اغتلت أباه قبل هذا فأمر به داود فقتل. فعظم أمر داود في بنى إسرائيل جدًّا وخضعوا له خضوعا عظيما. قال ابن عباس: وهو قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ [ص:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [ص:٢٠] أي: النبوة، ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠] قال شريح والشعبى وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمى وغيرهم ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠]: الشهود والأيمان، يعنون بذلك: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر»، وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهمه. وقال مجاهد: وهو الفصل في الكلام وفى الحكم. واختاره ابن جرير. وهذا لا ينافي ما روى عن أبي موسى الأشعري أنه قال: «وأما بعد».

وقال وهب بن منبه: لما كثر الشر وشهادات الزور فى بنى إسرائيل أعطى داود سلسلة لفصل القضاء. فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس، وكانت من ذهب فإذا تشاجر الرجلان في حق فأيهما كان محقًّا نالها والآخر لا يصل إليها، فلم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلاً لؤلؤة فجحدها منه، وأخذ عكازا وأودعها فيه، فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعى، فلما قيل للآخر خذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه المدعى وفيه تلك اللؤلؤة وقال: اللهم إنك تعلم أنى دفعتها إليه. ثم تناول السلسلة فنالها. فأشكل أمرها على بنى إسرائيل ثم رفعت سريعًا من بينهم. ذكره بمعناه غيرُ واحدٍ من المفسرين وقد رواه إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص:٢١-٢٥]

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هاهنا قصصًا وأخبارًا أكثرها إسرائيليات، ومنها

ما هو مكذوب لا محالة تركنا إيرادها فى كتابنا قصدًا واكتفاء واقتصارًا على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقد اختلف الأئمةُ فى سجدة «ص» هل هى من عزائم السجود، أو إنما هى سجدة شكر ليست من عزائم السجود؟ على قولين: قال البخارى: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى، عن العوام، قال: سألت مجاهدًا عن سجدة «ص» فقال: سألت ابن عباس من أين سجدت؟ قال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ [الأنعام:٨٤]، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺأن يقتدى به، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ [(١)].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل - هو ابن علية - عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: فى السجود في «ص» ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺيسجد فيها [(٢)].

وكذا رواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث أيوب، وقال الترمذى: حسن صحيح، وقال النسائى: أخبرني إبراهيم بن الحسن المقسمى، حدثنا حجاج بن محمد، عن عمرو بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن النبى ﷺسجد في «ص» وقال: «سجدها داود توبة، ونسجدها شكرًا» [(٣)]. تفرد به أحمد ورجاله ثقات.

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنى عمرو ابن الحارث، عن سعيد بن أبى هلال، عن عياض بن عبد الله ابن سعيد بن أبي سرح، عن أبى سعيد الخدري، قال: قرأ رسول الله ﷺوهو على المنبر «ص» فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد معه الناس، فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود فقال: «إنما هي توبة نبى ولكن رأيتكم تشزنتم» [(٤)] فنزل وسجد. تفرد به أبو داود [(٥)]، وإسناده على شرط الصحيح [(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حديثا يزيد بن زريع، حدثنا حميد، حدثنا بكر، هو ابن عمر، أبو الصديق الناجى، أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى رأى رؤيا أنه يكتب «ص» فلما بلغ إلى التى يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته انقلب ساجدًا قال فقصها على النبى ﷺفلم يزل يسجد بها بعد [(٧)]. تفرد به أحمد.

(١)أخرجه أحمد (١/ ٣٠٦)، والبخاري (٤/ ١٩٦)، (٦/ ٧١، ١٥٥)، وابن خزيمة (٥٥٢) كلهم من طريق مجاهد به.

(٢)أخرجه الحميدي (٤٧٧)، وأحمد (١/ ٢٧٩، ٣٦٠)، وعبد بن حميد (٥٩٥)، والدارمي (١٤٧٥)، والبخاري (٢/ ٥٠)، (٤/ ١٩٦)، وأبو داود (١٤٠٩)، والترمذي (٥٧٧)، والنسائي في الكبرى (٥٩٨٨ تحفة)، وابن خزيمة (٥٥٠) كلهم من طريق أيوب به.

(٣)أخرجه النسائي (٢/ ١٥٩)، وفي الكبرى (٩٣٩) به.

(٤)أخرجه الدارمي (١٤٧٤)، (١٥٦٢)، وأبو داود (١٤١٠)، وابن خزيمة (١٤٥٥)، (١٧٩٥) كلهم من طريق سعيد بن أبي هلال به.

(٥)تشزن: تأهب وتهيأ.

(٦)أخرجه الدارمي (١٤٧٤)، (١٥٦٢)، وأبو داود (١٤١٠)، وابن خزيمة (١٤٥٥)، (١٧٩٥) كلهم من طريق سعيد بن أبي هلال به.

(٧)أخرجه أحمد (٣/ ٧٨، ٨٤) به.

وروى الترمذي وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن خنيس، عن الحسن بن محمد ابن عبيد الله بن أبي يزيد، قال: قال لي ابن جريج: حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: «اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وضع عني بها وزرا، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود».

قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة [1]. ثم قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه

وقد ذكر بعض المفسرين أنه عليه السلام مكث ساجدًا أربعين يومًا، وقاله مجاهد والحسن وغيرهما، وورد في ذلك حديثٌ مرفوعٌ لكنه من رواية يزيد الرقاشي، وهو ضعيف متروك الرواية. قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:٢٥]أي: إن له يوم القيامة لزلفى، وهي القربة التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها، كما ثبت في الحديث: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهليهم وحكمهم وما وُلُوا».

وقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فضيل، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابًا إمام جائر». وهكذا رواه الترمذي من حديث فضيل بن مرزوق الأغر به، وقال: لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه [2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، سمعت مالك بن دينار في قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:٢٥]قال: يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله: يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني في الدنيا فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إني أرده عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

هذا خطاب من الله تعالى مع داود، والمراد ولاة الأمور وحكام الناس، وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء، وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك، وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به في ذلك الزمان في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٠٥٣)، والترمذي (٥٧٩)، (٣٤٢٤)، وابن خزيمة (٥٦٢)، (٥٦٣) وابن حبان (٢٧٥٧) كلهم من طريق محمد بن يزيد به.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢، ٥٥)، والترمذي (١٣٢٩) كلاهما من طريق فضيل به.

حتى أنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته فى عبادة ليلاً ونهارًا، كما قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]. قال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام، حدثنا صالح المرى، عن أبى عمران الجوني، عن أبي الجلد، قال: قرأت في مسأله داود عليه السلام أنه قال: يا رب كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟ قال: فأتاه الوحى: «أن يا داود ألست تعلم أن الذى بك من النعم منى؟ قال: بلى يا رب. قال: فإنى أرضى بذلك منك».

وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر بن بالويه، حدثنا محمد بن يونس القرشى، حدثنا روح بن عبادة، حدثنى عبد الله بن لاحق، عن ابن شهاب قال: قال داود: «الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، فأوحى الله إليه: إنك أتعبت الحفظة يا داود». ورواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن على بن الجعد، عن الثوري مثله. وقال عبد الله بن المبارك فى كتاب «الزهد»: أنبانا سفيان الثوري، عن رجل عن وهب بن منبه قال: إن في حكمة آل داود: حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام للقلوب، وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه، وحق على العاقل ألا يظعن إلا في إحدى ثلاث: زاد لمعاده، ومَرَمَّة [1] لمعاشه، ولذة في غير محرم.

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا، عن أبي بكر بن أبي خيثمة، عن ابن مهدى، عن سفيان، عن أبى الأغر، عن وهب بن منبه فذكره. ورواه أيضًا عن على بن الجعد، عن عمر بن الهيثم الرقاشي، عن أبى الأغر، عن وهب بن منبه فذكره، وأبو الأغر هذا هو الذى أبهمه ابن المبارك فى روايته، قاله ابن عساكر.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا بشر بن رافع، حدثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له: أبو عبد الله قال: سمعت وهب بن منبه، فذكر مثله. وقد أورد الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة منها قوله: كن لليتيم كالأب الرحيم، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد. وروى بسند غريب مرفوعًا قال داود: «يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحَسَكَهَا [2]» [3] عن داود عليه السلام أنه قال: مثل الخطيب الأحمق في نادي القوم كمثل المغنى عند رأس الميت. وقال أيضًا: ما أقبح الفقر بعد الغنى، وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى. وقال: انظر ما تكره أن يذكر عنك في نادي القوم فلا تفعله إذا خلوت. وقال: لا تَعِدَنَّ أخاك بما لا تنجزه له، فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه.

---

(١) المرمة: متاع البيت. والمعنى ما يلزم لمعاشه من أمور الدنيا. وانظر الوسيط ص (٣٨٧، ٣٨٨).

(٢) الحَسَكُ: نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل. الوسيط ص (١٨٠).

(٣) ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧/ ٨٠-١٠٩).

وقال محمد بن سعد: أنبأنا محمد بن عمر الواقدى، حدثني هشام بن سعيد، عن عمر مولى عفرة، قال: قالت يهود، لما رأت رسول الله ﷺ يتزوج النساء؟ انظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطعام ولا والله ما له همة إلا إلى النساء: حسدوه لكثرة نسائه، وعابوه بذلك، فقالوا: لو كان نبيًّا ما رغب في النساء. وكان أشدهم في ذلك حيى بن أخطب فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله وسلامه عليه فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤] يعنـى بالناسِ رسـولَ الله ﷺ ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤] يعنى: ما آتى الله سليمان بن داود: كانت له ألف امرأة: سبعمائة مهرية [1] وثلاثمائة سُرِّيَّة [2]، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة، منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التى تزوجها بعد الفتنة، هذا أكثر مما لمحمد ﷺ [3]. وقد ذكر الكلبى نحو هذا وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأه، ولسليمان ألف امرأة منهن ثلاثمائة سرية.

وروى الحافظ في تاريخه فى ترجمة «صدقة الدمشقى» الذى يروى عن ابن عباس من طريق الفرج بن فضالة الحمصى، عن أبى هريرة الحمصى، عن صدقة الدمشقي، أن رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام فقال: لأحدثنك بحديث كان عندى في البحث مخزونًا، إن شئت أنبأتك بصوم داود فإنه كان صَوَّامًا قوامًا، وكان شجاعًا لا يفر إذا لاقى، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وقال رسول الله ﷺ: «أفضلُ الصيامِ صيامُ داود» وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتًا يُكَوِّن فيها، وكانت له ركعة من الليل يبكى فيها نفسه، ويبكى ببكائه كل شىء، ويصرف بصوته المهموم والمحموم». وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام، ومن وسطه ثلاثة أيام، ومن آخرة ثلاثة أيام، يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام. وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى بن مريم فإنه كان يصوم الدهر يأكل الشعير ويلبس الشعر، ويأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد، ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب، وكان أينما أدركه الليل صَفَّ بين قدميه، وقام يصلى حتى يصبح، وكان راميًا لا يفوته صيد يريده، وكان يمر بمجالس بنى إسرائيل فيقضى لهم حوائجهم. وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران، فإنها كانت تصوم يومًا وتفطر يومين. وإن شئت أنبأتك بصوم النبى العربى الأمى محمدٍ ﷺ، فإنه كان يصوم مـن كل شهر ثلاثة أيام، ويقول: إن ذلك صـوم الدهر [4]. وقد روى الإمام أحمد عن بى النضر، عن فرج بن فضالة، عن أبى هرم، عن، صدقة عن ابن عباس مرفوعًا في صوم داود [5].

ذكر حياته وكيفية وفاته

قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلاً يزهر فقال: أى رب، من هذا؟ قال: هذا ابنك داود، قال:

---

(١) يعني: تزوجها بمهر. (٢) السُّرِّيَّة: هي الأمة التي يطؤها سيدها رجاء ولدها.
(٣) ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ١٦٣) وإسناده ضعيف جدًّا.
(٤) ابن عساكر في تاريخ دمشق. (٥) أخرجه أحمد (١/ ٣١٤) به. وإسناده ضعيف.

أي رب، كم عمره؟ قال ستون عامًا قال: أي رب، زد في عمره قال: لا، إلا أن أزيده من عمرك. وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عامًا فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: بقي من عمري أربعون سنة ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة(١).

رواه أحمد عن ابن عباس، والترمذي وصححه عن أبي هريرة، وابن خزيمة وابن حبان قال الحاكم: على شرط مسلم، وقد تقدم ذكر طرقه وألفاظه في قصة آدم.

قال ابن جرير، وقد زعم أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعًا وسبعين سنة. قلت: هذا غلط مردود عليهم. قالوا: وكانت مدة ملكه أربعين سنة، وهذا قد يقبل نقله؛ لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه.

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب ابن عبد الرحمن بن محمد عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع. قال: فخرج ذات يوم، وغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة؟ والله لتفتضحن بداود، فجاء داود فإذا الرجل في وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمتنع من الحجاب، فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت؛ مرحبًا بأمر الله، ثم مكث حتى قبضت روحه، فلما غُسِّلَ وكُفِّنَ وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي على داود، فأظلت عليهم الطير حتى أظلمت عليهم الأرض، فقال سليمان للطير: اقبضي جناحًا». قال أبو هريرة: فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله ﷺ بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية(٢).

انفرد بإخراجه الإمام أحمد، وإسناده جيد قوي ورجاله ثقات. ومعنى قوله: «وغلبت عليه يومئذ المضرحية» أي: وغلبت على التظليل عليه المضرحية، وهي الصقور الطوال الأجنحة، واحدها مضرحي، قال الجوهري: هو الصقر الطويل الجناح. وقال السدي عن أبي مالك عن ابن مالك، عن ابن عباس قال: مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت، وكانت الطير تُظِلُّه. وقال السدي أيضًا، عن أبي مالك وعن سعيد بن جبير قال: مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة.

وقال إسحاق بن بشر، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، قال: مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة، ومات يوم الأربعاء فجأة، وقال أبو السكن الهجري: مات إبراهيم الخليل فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. رواه ابن عساكر. وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه فقال له: دعني أنزل أو أصعد، فقال: يا نبي الله، قد نفدت السنون والشهور والآثار والأرزاق، قال: فخر ساجدًا على مرقاة من تلك المراقي، فقبضه وهو ساجد.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٤١٩) به. وإسناده منقطع.

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا وافر بن سليمان، عن أبي سلميان الفلسطيني، عن وهب ابن منبه قال : إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف قال : وكان قد شَيَّعَ جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعًا عليه منهم على داود . قال : فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر، فخرج سليمان فنادى الطيرَ، فأجابت، فأمرها أن تظل الناس فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه، حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غمًّا، فصاحوا إلى سليمان - عليه السلام - من الغم، فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلى الناس من ناحية الشمس، وتنحى عن الريح ففعلت، فكان الناس في ظل تهب عليهم الريح فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع، حدثني الوليد بن مسلم، عن الهيثم بن حميد، عن الوضين بن عطاء، عن نصر بن علقمة، عن جبير بن نفير، عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : «لقد قُبِضَ داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا، ولقد مكث أصحاب المسيح على سننه وهديه مائتى سنة»[١] .

هذا حديث غريب وفى رفعه نظر، والوضين بن عطاء كان ضعيفًا في الحديث . والله أعلم .



(١) ورواه ابن حبان في صحيحه (٦٢٣٦)، وهو ضعيف كما قال الحافظ .

قصة سليمان بن داود عليهما السلام

ذكر تفاصيل حياة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الحافظ ابن عساكر: وهو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نخشون بن عمين أداب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبى الربيع، نبى الله ابن نبي الله. جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق. قال ابن ماكولا: فارص بالصاد المهملة، وذكر نسبه قريبًا مما ذكره ابن عساكر.

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦] أي: ورثه في النبوة والملك، وليس المراد ورثه في المال؛ لأنه قد كان له بنون غيره، فما كان ليخصه بالمال دونهم؛ ولأنه قد ثبت في الصحيح من غير وجه عن جماعة من الصحابه أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»[1] وفي لفظ: «نحن معاشر الأنبياء لا نُوَرَّث» فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها أقرباءهم؛ لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك، كما هى عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل:١٦] يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما تتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها. وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا على بن حشاد، حدثنا إسماعيل بن قتيبة، حدثنا على بن قدامة، حدثنا أبو جعفر الأسواني يعني محمد بن عبد الرحمن، عن أبي يعقوب العمى، حدثني أبو مالك، قال: مَرَّ سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: وما يقول يا نبى الله: قال يخطبها إلى نفسه ويقول: زوجينى أسكنك أي غرف دمشق شئت! قال سليمان عليه السلام: لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد، ولكن كل خاطب كذاب؟.

رواه ابن عساكر، عن أبى القاسم زاهر بن طاهر، عن البيهقي به، وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات، والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل:١٦] أى: من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦] أي: من بارئ البريات، وخالق الأرض والسموات، كما قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ

---

(١) أخرجه مالك في موطئه (ص ٦١٤)، وأحمد (٦/ ١٤٥، ٢٦٢)، والبخاري (٥/ ١١٥)، (٨/ ١٨٥، ١٨٧)، ومسلم (٥/ ١٥٣)، وأبو داود (٢٩٧٦)، (٢٩٧٧)، والترمذي في الشمائل (٤٠٢)، والنسائي في الكبرى (١٢/ ١٦٥٩٢ تحفة) كلهم من طريق الزهري عن عروة عن عائشة أم المؤمنين فذكرته مرفوعًا. والحديث رواه غيرها من الصحابة: رواه أبو بكر وعمر وأبو هريرة.

جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل :١٧-١٩] . يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يومًا في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير، فالجن والإنس يسيرون معه والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة - أي نقباء - يردون أوله على آخره. فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه، ولا يتأخر عنه.

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل :١٨] . فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور، وقد ذكر وهب أنه مر وهو على البساط بواد بالطائف وأن هذه النملة كان اسمها جرس، وكانت من قبيلة يقال لهم: بنو الشيصبان وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب. وفي هذا كله نظر، بل في هذا السياق دليل على أنه كان في موكبه راكبًا في خيوله وفرسانه، لا كما زعمه بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط؛ لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطء؛ لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام والطير من فوق ذلك كله، كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى. والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور، بما أطلعه الله عليه دون غيره، وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان، وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد، وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك، فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون، ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره، إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك، ولو كان قد أخذ عليها العهد ألا تتكلم مع غيره، وكان هو يفهمها لم يكن في هذا أيضا فائدة يعول عليها؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ [النمل :١٩] أي: ألهمني وأرشدني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل :١٩] فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه، وعلى ما خصه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين، وقد استجاب الله تعالى له. والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه، وكانت من العابدات الصاحات كما قال سنيد بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر عن النبي ﷺ قال: «قالت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل؛ فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرًا يوم القيامة»[1] رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٢) به.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة رافعة إحدى قوائمها تستسقى، فقال لأصحابه: ارجعوا فقد سقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها!.

قال ابن عساكر: وقد روى مرفوعًا ولم يُذْكَرْ فيه سليمان، ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز، عن سلامة بن روح، عن خالد، عن عقيل، عن ابن شهاب، حدثني أبو سلمة، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺيقول «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله، فإذا هم بنملةٍ رافعةٍ بعضَ قوائمها إلى السماء، فقال النبي: ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة» [(١)].

وقال السدى: أصاب الناسَ قحطٌ على عهد سليمان عليه السلام، فأمر الناس فخرجوا، فإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يدها وهى تقول: «اللهم إنا خلق من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك»، قال فَصَبَّ الله عليهم المطر. وقال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٢٠-٣٧].

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد، وذلك أن الطيورَ كانت على كل صنف منها مقدمون، يقومون بما يطلب منهم، ويحضرون عنده بالنوبة كما هى عادة الجنود مع الملوك، وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره، أنهم كانوا إذا أعوزوا [(٢)] الماء في القفار فى حال الإسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء، وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض، فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم، فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذاتَ يوم فقده ولم يجده في موضعه من محل خدمته فقال: ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]أي: ما له مفقود من هاهنا، أو قد غاب عن بصرى فلا أراه بحضرتى ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١]توعده بنوع من العذاب اختلف

(١)ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٨٨) وهو ضعيف.
(٢)يعني: احتاجوا إلى الماء. القاموس المحيط ص (٦٦٧).

المفسرون فيه، والمقصودُ حاصلٌ على كل تقدير ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٢١]أي بحجة تنجيه من هذه الورطة [١].

قال الله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل:٢٢]أي: فغاب الهدهدُ غيبةً ليست بطويلة، ثم قدم منها ﴿فَقَالَ﴾ [النمل:٢٢]لسليمان ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل:٢٢]أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢]أي: بخبر صادق ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين، وكان المُلْكُ قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يُخَلِف غيرها فمَلَّكُوهَا عليهم.

وذكر الثعلبى وغيره أن قومها ملَّكوا عليهم بعد أبيها رجلاً، فعمَّ به الفساد، فأرسلت إليه تخطبه، فتزوجها، فلما دخلت عليه سقته خمرًا، ثم حزت رأسه ونصبته على بابها، فأقبل الناسُ عليها ومَلَّكوها عليهم، وهي بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد، وقيل: شراحيل بن ذى جدن بن السيرح بن الحارث بن قيس بن سيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وكان أبوها من أكابر الملوك، وكان قد تأبى أن يتزوج من أهل اليمن، فيقال: إنه تزوج بامرأة من الجن، اسمها ريحانة بنت السكن، فولدت له هذه المرأة، واسمها تلقمة ويقال لها: بلقيس. وقد روى الثعلبى من طريق سعيد بن بشير عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بشير بن نهيك، عن أبى هريرة عن النبى ﷺأنه قال: «كان أحد أبوى بلقيس جنيًّا» [٢]. وهذا حديث غريب، وفي سنده ضعف.

وقال الثعلبى: أخبرني أبو عبد الله بن قبحونة، حدثنا أبو بكر بن حرجة، حدثنا ابن أبى الليث، حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن أبى بكرة قال: ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺفقال: «لا يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة» [٣]. إسماعيل بن مسلم هذا هو المكى الضعيف.

وقد ثبت في صحيح البخارى من حديث عوف، عن الحسن، عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» [٤]. ورواه الترمذى والنسائى من حديث حميد، عن الحسن، عن أبى بكرة عن النبى ﷺبمثله وقال الترمذى: حسن صحيح. وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٢٣]أي: مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]يعنى: سرير مملكتها كان مزخرفًا بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحلى الباهر. ثم ذكر كفرهم بالله، وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشيطان لهم، وصده إياهم

---

(١)الوَرْطَةُ: كل أمر تعسر النجاة منه. الوسيط ص (١٠٦٧).

(٢)الثعلبي في عرائس المجالس.

(٣)رواه ابن جرير في تفسيره (١١/١٩/١٦٩)، وهو ضعيف.

(٤)أخرجه أحمد (٥/ ٤٣، ٤٧، ٥١)، والبخاري (٦/ ١٠)، (٩/ ٧٠)، والترمذي (٢٢٦٢)، والنسائي (٨/ ٢٢٧) كلهم من طريق الحسن به.

عن عبادة الله تعالى وحده لا شريك له الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون. أي: يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل :٢٦] أي: له العرش العظيم، الذي لا أعظم منه في المخلوقات. فعند ذلك بعث سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله، والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه، ولهذا قال لهم: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ [النمل :٣١] أي: لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامرى ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل :٣١] أي: واقدموا عليَّ سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة، فلما جاءها الكتاب مع الطير، ومن ثَمَّ اتخذ الناسُ البطائقَ، ولكن أين الثريا من الثرى ! تلك البطاقة كانت مع سائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب، وجاء إلى قصرها، فألقاه إليها وهى في خلوة لها، ثُمَّ وقف في ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن الكتاب، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل :٢٩] ثم قرأت عليهم عنوانه أولا ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ [النمل :٣٠] ثم قرأته: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل :٣٠-٣١] ثم شاورتهم في أمرها وما قد حَلَّ بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل :٣٢] تعنى: ما كنت لأَبِتُّ أمرًا إلا وأنتم حاضرون ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل :٣٣] يعنون: لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال، فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين ﴿وَ﴾ مع هذا فـ ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل :٣٣] فبذلوا لها السمع والطاعة، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة، وفوضوا إليها في ذلك الأمر، لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم. فكان رَأْيُهَا أتَمَّ وأسدَّ من رأيهم، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل :٣٤] تقول برأيها السديد: إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر بينكم إلا إليَّ، ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا عليَّ ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل :٣٥] أرادت أن تصانع عن نفسها. وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتُحَفٍ تبعثها. ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفًا ولا عدلاً لأنهم كافرون، وهو وجنوده عليهم قادرون ﴿وَ﴾ لهذا: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل :٣٦] هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة ذكرها المفسرون. ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذى قدم عليه والناس حاضرون يسمعون: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل :٣٧] يقول: ارجع بهديتك التى قدمت بها إلى من قد مَنَّ بها، فإن عندى مما أنعم الله عليَّ وأسداه إليَ من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا، وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به، وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ [النمل :٣٧] أي: فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم، ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم

أذلة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧] عليهم الصغار والعار والدمار. فلما بلغهم ذلك عن نبى الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة، وأقبلوا بصحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين. فلما سمع بقدومهم عليه، ووفودهم إليه، قال لمن بين يديه - ممن هو مسخر له من الجان - ما قصه الله عنه فى القرآن: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٣٨-٤٤].

لما طلب سليمانُ من الجنِّ أن يُحْضِرُوا له عرشَ بلقيس، وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها، قبل قدومها عليه ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ﴾ [النمل: ٣٩] يعني: قبل أن ينقضي مجلس حكمك، وكان - فيما يقال - من أول النهار إلى قريب الزوال، يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩] أي: وإني لذو قدرة على إحضاره إليه، وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠] المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان، وقيل: رجل من مؤمني الجان، وكان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم. وقيل رجل من بني إسرائيل من علمائهم، وقيل: إنه سليمان، وهذا غريب جدًّا. وضعفه السهيلي بأنه لا يصح في سياق الكلام. وقال: وقد قيل فيه قول رابع وهو: جبريل ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾ [النمل: ٤٠] قيل معناه: قبل أن تبعث رسولاً إلى أقصى ما ينتهى إليه طرفك من الأرض، ثم يعود إليك. وقيل: قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس، وقيل: قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك، وقيل: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك، ثم أغمضته. وهذا أقرب ما قيل.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل: ٤٠] أي: فلما رأى عرش بلقيس مستقرًا عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ﴾ [النمل: ٤٠] أي: هذا من فضل الله، وفضله على عباده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ [النمل: ٤٠] أي: إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] أي: غني عن شكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين. ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حُلِيَّ هذا العرش، ويُنَكِّر لها ليختبر فهمها وعقلها ولهذا قال: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾ [النمل: ٤١-٤٢] وهذا من فطنتها وغزارة فهمها، لأنها استبعدت أن يكون عرشها؛ لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحدًا يقدرُ على هذا الصنع العجيب الغريب، قال الله تعالى إخبارًا عن سليمان وقومه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت

تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[النمل: ٤٢-٤٣] أي: ومنعتها من عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعًا لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك. وكان سليمانُ قد أمرَ ببناءِ صَرْحٍ من زجاج وعمل في ممره ماء، وجعل عليه سقفًا من زجاج، وجعل فيه السمك وغيره من دواب الماء، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[النمل: ٤٤] وقد قيل: إن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان، وأن تُبْدِي عن ساقيها ليرى ما عليهما من الشعر فينفره ذلك منها، وخشوا أن يتزوجها؛ لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه. وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة، وهذا ضعيف، وفي الأول أيضًا نظر. والله أعلم.

إلا أن سليمان قيل: إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها سأل الإنس عن زواله فذكروا له الموسى[1]، فامتنعت من ذلك فسأل الجان فصنعوا له النُّوْرة[2]، ووضعوا له الحمام، فكان أول من دخل الحمام، فلما وجد له مسه قال: أوه من عذاب أوه أوه قبل ألا ينفع أوه. رواه الطبراني مرفوعًا وفيه نظر. وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليه[3]، وكان يزورها في كل شهر مرة، فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن: غمدان وسالحين وبيتون. فالله أعلم.

وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه أن سليمان لم يتزوجها، بل زوجها بملك همدان، وأقرها على ملك اليمن، وسخر زوبعة ملك اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرناها باليمن، والأول أشهر وأظهر. فالله أعلم.

وقال تعالى في سورة ص: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[ص: ٣٠-٤٠].

يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان [illegible]ما السلام، ثم أثنى الله تعالى عليه فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص: ٣٠] أي: رَجَّاعٌ مطيع لله، ثم ذكر تعالى ما كان من أمره فيالخيل الصافنات، وهي التي تقف على ثلاثة وطرف حافر الرابعة، الجياد وهي المضمرة السراع. ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[ص: ٣٢] يعني: الشمس. وقيل: الخيل على ما سنذكره من القولين ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[ص: ٣٣] قيل: مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف. وقيل: مسح

---

(١) المُوسَى: آلة يحلق بها الشعر، تذكر وتؤنث، وتنون ولا تنون. الوسيط ص (٩٢٧).

(٢) النورة: أخلاط من أملاح الكالسيوم والباريون، تستعمل لإزالة الشعر. الوسيط ص (١٠٠٠).

(٣) يعني: إلى اليمن.

عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر . والذي عليه أكثر السلف الأول، فقالوا: اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس . روى هذا عن علي بن أبي طالب وغيره . والذي يُقْطَعُ به أنه لم يترك الصلاة عمدًا من غير عذر ، اللهم إلا أن يقال : إنه كان سائغًا في شريعتهم ، فأخر الصلاةَ لأجلِ أسبابِ الجهادِ ، وعرضُ الخيلِ من ذلك

وقد ادعى طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعًا إذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف [1] قاله الشافعي وغيره . وقال مكحول والأوزاعي : بل هو حكم محكم إلى اليوم : أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد ، كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف . وقال آخرون : بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسيانًا ، وعلى هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا ، والله أعلم . وأما من قال : الضمير في قوله : ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] عائد على الخيل ، وأنه لم يَفُتْهُ وقتُ الصلاةِ ، وأن المراد بقوله : ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣] يعني : مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها ، فهذا القول اختاره ابنُ جرير ، ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق . وَوَجَّهَ هذا القولَ ابنُ جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ويهلك مالاً بلا سبب ولا ذنب لها ، وهذا الذي قاله فيه نظر ؛ لأنه قد يكون هذا سائغًا في ملتهم . وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفرَ الكفارُ على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها لئلا يتقووا بها ، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بمؤتة . وقد قيل : إنها كانت خيلاً عظيمة . قيل : كانت عشرة آلاف فرس . وقيل : عشرين ألف فرس ، وقيل : كان فيها عشرون فرسًا من ذوات الأجنحة .

وقد روى أبو داود في سننه : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، أنبأنا يحيى بن أيوب ، حدثني عمارة بن غزية ، أن محمد بن إبراهيم حدثه ، عن محمد بن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة قالت : قدم الرسول ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها [2] ستر ، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب فقال : «ما هذا يا عائشة؟» فقالت : بناتي ، ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رقاع . فقال : «ما هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت : فرس . قال : «وما الذي عليه هذا؟» قالت : جناحان . قال : «فرس له جناحان !» قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟! قالت : فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ [3]. وقال بعض العلماء : لما ترك الخيل لله عوضه الله عنها بما هو خير له منها ، وهو الريح التي كانت غدوها شهر ورواحها شهر ، كما سيأتي الكلام عليها .

كما قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال ، عن أبي قتادة ، وأبي الدهماء ، وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا : أتينا على رجل من أهل البادية فقال

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٥١٨ - ٥٢٠) .

(٢) السَّهْوَةُ : شبه الخزانة الصغيرة يكون فيها المتاع . الوسيط ص (٤٧٧) .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٣٢) ، والنسائي في الكبرى (١٢/ ١٧٧٤٢ تحفة) كلاهما من طريق سعيد بن أبي مريم به .

البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل، وقال: «إنك لا تدع شيئًا اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيرًا منه» (١). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثارًا كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة، وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير (٢)، واقتصرنا هاهنا على مجرد التلاوة. ومضمون ما ذكروه أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يومًا ثم عاد إليه، ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناء محكمًا، وقد قدمنا أنه جدده وأن أول من جعله مسجدًا إسرائيل عليه السلام، كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر. قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «مسجد بيت المقدس» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» (٣). ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنة وليس أربعين سنة، وكان سؤاله الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعد إكماله البيت المقدس؟ قال الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثًا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأله حكمًا يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه (٤). فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها». فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

وقد ذكر شريحٌ القاضي وغيرُ واحدٍ من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين، أي: رعته بالليل فأكلت شجرة بالكلية، فتحاكموا إلى داود عليه السلام، فحكم لأصحاب الكرم بقيمته، فلما خرجوا على سليمان قال: بم حكم لكم نبي الله؟ فقالوا: بكذا وبكذا، فقال: أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم، فيستغلوها نتاجًا ودرًّا حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه، ثم يتسلموا غنمهم، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به. وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئبُ، فأخذ ابن إحداهما، فتنازعتا في الآخر، فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك. وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧٨، ٧٩، ٣٦٣)، والنسائي في الكبرى (١١/ ١٥٦٦٠ تحفة) كلاهما من طريق سليمان بن المغيرة به.

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥ - ٤٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦)، وابن ماجه (١٤٠٨)، والنسائي (٢/ ٣٤)، وفي الكبرى (٦٨٣)، وابن خزيمة (١٣٣٤) كلهم من طريق عبد الله بن الديلمي به.

داود فحكم به للكبرى، فخرجتا على سليمان، فقال: ائتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه. فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها. فقضى به لها» (١).

ولعل كلا من الحكمين كان سائغًا في شريعتهم، ولكن ما قاله سليمان أرجح، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٩-٨٠].

ثم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]أي: وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ۝ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١-٨٢].

وقال في سورة ص: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٣٦-٤٠].

لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوَّضَهُ الله منها الريح التي هي أسرع سيرًا وأقوى وأعظمُ ولا كلفة عليه لها ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]أي: حيث أراد من أي البلاد، كان له بساط مركب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجن، وغير ذلك من الحيوانات والطيور، فإذا أراد سفرًا أو مستنزهًا أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط، أمر الريح فدخلت تحته فرفعته، فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به، فإذا أراد أسرعَ من ذلك أمر العاصفة، فحملته أسرع ما يكون، فوضعته في أي مكان شاء، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس، فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار، ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس. كما قال تعالى ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢-١٣].

قال الحسن البصري: كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحًا منها فيبيت بكابل، وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر، وبين إصطخر وكابل مسيرة شهر. قلت: قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن إصطخر بَنَتْهَا الجانُّ لسليمان، وكان فيها قرار مملكة الترك قديمًا، وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر وبيت المقدس وباب جيرون وباب البريد اللذين بدمشق على أحد الأقوال.

وأما القِطْرُ: فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد: هو النحاس. قال قتادة:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٢، ٣٤٠)، والبخاري (٤/ ١٩٧)، (٨/ ١٩٤)، ومسلم (٥/ ١٣٣)، والنسائي (٨/ ٢٣٤، ٢٣٦) كلهم من طريق أبي الزناد به.

وكانت باليمن أنبعها الله له، قال السدي: ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ:١٢] أي: وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته، ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكّل به ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ [سبأ:١٣] وهي: الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ وهي الصور في الجدران، وكان هذا سائغًا في شريعتهم وملّتهم ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ:١٣] قال ابن عباس: الجفنة كالجوبة من الأرض، وعنه: كالحياض. وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم. وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء، قال الأعشى:

تروح على آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تَفْهَق[1]

وأما القدور الراسيات: فقال عكرمة: أثافيها منها، يعني: أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن، وهكذا قال مجاهد وغير واحد. ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وحيوان قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص:٣٧-٣٨] يعني: أن منهم من قد سخره في البناء، ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلئ وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك، وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص:٣٨] أي: قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود، وهذا كله من جملة ما هيأه الله، وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده، ولم يكن أيضًا لمن كان قبله.

وقد قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتًا من الجن تَفَلَّتَ على البارحة؛ ليقطع على صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص:٣٥] فرددته خاسئًا»[2]. وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة. وقال مسلم: حدثنا محمد بن سلمة المرادي، حدثنا عبد الله بن وهب، عن معاوية بن صالح، حدثني ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك، ألعنك بلعنة الله» ثلاثًا، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله من قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك! قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار، ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث

---

(١) فَهِق الإناء والحوض: امتلأ حتى تصبب. الوسيط ص (٧٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٩٨)، والبخاري (١/١٢٤)، (٢/٨١)، (٤/١٥١، ١٩٧)، (٦/١٥٦)، ومسلم (٢/٧٢)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ١٤٣٨٤ تحفة) كلهم من طريق شعبة به.

مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدينة»[1]. وكذا رواه النسائي عن محمد بن سلمة به.

وقال أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا مرة بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان، قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائمًا يصلي، فذهبت أمرُ بين يديه فردني ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتَبَسَتْ عليه القراءة. فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعي هاتين: الإبهام والتي تليها، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطًا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»[2]. وروى أبو داود منه: «فمن استطاع...» إلى آخره عن أحمد بن سريج، عن أحمد الزبيري به. وقد ذكر غير واحدٍ من السلف: أنه كانت لسليمان من النساء ألف: امرأة سبعمائة بمهور وثلاثمائة سراري، وقيل: بالعكس ثلاثمائة حرائر، وسبعمائة من الإماء، وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمرًا عظيمًا جدًّا.

قال البخاري: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسًا يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله. فلم يقل، فلم تحمل شيئًا إلا واحدًا ساقطًا أحد شقيه» فقال النبي ﷺ: «لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»[3]. قال شعيب وابن أبي الزناد: «تسعين» وهو أصح. تفرد به البخاري من هذا الوجه. وقال أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا يزيد، أنبأنا هشام ابن حسان بن محمد، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، كل امرأة منهن تلد غلامًا يضرب بالسيف في سبيل الله. ولم يقل إن شاء الله، فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة إلا امرأة ولدت له نصف إنسان» فقال رسول الله ﷺ: «لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلامًا يضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل»[4]. إسناده على شرط الصحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله، ولم يستثن. فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان، قال رسول الله ﷺ: «لو استثنى لولد له مائة غلام

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٧٢)، والنسائي (٣/ ١٣)، وفي الكبرى (٤٦٤)، (١٠٤٧)، وابن خزيمة (٨٩١) كلهم من طريق عبد الله بن وهب به.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٨٢) به، وهو حديث صحيح لغيره.

(٣) أخرجه الحميدي (١١٧٤)، والبخاري (٤/ ١٩٧)، (٨/ ١٦٢، ١٨٢)، ومسلم (٥/ ٨٧، ٨٨) والنسائي (٧/ ٢٥)، وفي الكبرى (١٠/ ١٣٩٢٠ تحفة) كلهم من طريق أبي الزناد به.

(٤) مسند أبي يعلى (٦٣٤٧)، ورجاله ثقات.

كلهم يقاتل في سبيل الله عز وجل» [(١)]. تفرد به أحمد أيضًا. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله، قال: ونسي أن يقول إن شاء الله، فأطاف بهن، قال: فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة ولدت نصف إنسان». فقال رسول الله ﷺ: «لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دَرَكًا لحاجته» [(٢)].

وهكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله. قال إسحاق بن بشر: أنبأنا مقاتل، عن أبي الزناد، وابن أبي الزناد عن أبيه، عن عبدالرحمن، عن أبي هريرة، أن سليمان بن داود كان له أربعمائة امرأة وستمائة سرية فقال يومًا: لأطوفن الليلة على ألف امرأة تحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله. ولم يستثن، فطاف عليهن فلم تحمل واحدة منهن إلا امرأة واحدة منهن جاءت بشق إنسان. فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لو استثنى فقال إن شاء الله لولد له ما قال فرسان ولجاهدوا في سبيل الله عز وجل» [(٣)].

وهذا إسناد ضعيف لحال إسحاق بن بشر، فإنه منكر الحديث، ولا سيما وقد خالف الروايات الصحاح. وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله، ولا يعطيه الله أحدًا بعده كما قال: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:١٦]، و﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥]وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق. ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٩]أي: أعط من شئت، واحرم من شئت، فلا حساب عليك، أي: تَصَرَّفْ في المال كيف؛ شئت فإن الله قد سوغ لك ما تفعله من ذلك، ولا يحاسبك على ذلك، وهذا شأن النبي الملك، بخلاف العبد الرسول، فإن من شأنه ألا يعطي أحدًا إلا بإذن الله له في ذلك.

وقد خُيِّرَ نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبدًا رسولاً، وفي الروايات أنه استشار جبريل في ذلك؛ فأشار إليه أن تواضع، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً، صلوات الله وسلامه عليه، وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامة، فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة، فلله الحمد والمنة. ولما ذكر الله تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا، نبه على ما أعده له في الآخرة من الثواب الجزيل، والأجر الجميل، والقربة التي تقربه إليه، والفوز العظيم والإكرام بين يديه، وذلك يوم المعاد والحساب، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:٢٥].

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٩، ٥٠٦)، والبخاري (٩/ ١٦٩)، ومسلم (٥/ ٨٧) كلهم من طريق محمد بن سيرين به.
(٢) أخرجه الحميدي (١١٧٥)، وأحمد (٢/ ٢٧٥)، والبخاري (٧/ ٥٠)، (٨/ ١٨٢)، ومسلم (٥/ ٨٧، ٨٨)، والنسائي (٧/ ٣١) كلهم من طريق طاووس به.
(٣) إسحاق بن بشر متهم، وكذلك شيخه مقاتل بن سليمان، والحديث رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٥٨).

ذكر وفاته وكم كانت مدة ملكه وحياته

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ:١٤].

روي ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «كان سليمانُ نبي الله عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نَابِتَةً بين يديه، يقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا. فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء أنبتت. فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب. قال: لأي شيء أنت؟ قالت لخراب هذا البيت. فقال سليمان: اللهم عَمِّ على الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. فَنَحَتَها عصًا فتوكأ عليها حولا والجن تعمل، فأكلتها الأرضة [١] فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولا في العذاب المهين». قال: - وكان ابن عباس يقرؤها كذلك - فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء» [٢]. لفظ ابن جرير.

وعطاء الخرساني في حديثه نَكَارة. وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفًا. وهو أشبه بالصواب. والله أعلم.

وقال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن أناس من الصحابة: كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل طعامه وشرابه. فأدخله في المرة التي توفي فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت المقدس شجره فيأتيها فيسألها ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمى كذا وكذا. فإن كانت لغرس غرسها، وإن كانت نبتت دواء، قالت: نبتُّ دواءً لكذا وكذا، فيجعلها كذلك، حتى نبتت شجرة يقال لها: الخروبة، فسألها ما اسمك؟ فقالت: أنا الخروبة. فقال: ولأى شيء نَبَتِّ؟ فقالت: نَبَتُّ لخراب هذا المسجد، فقال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التى على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط له. ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئًا على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين. وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول: ألست جليدًا إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب فيدخل حتي يخرج من الجانب الآخر. فدخل شيطان من أولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر إلي سليمان عليه السلام وهو في المحراب إلا احترق فلم يسمع صوت سليمان، ثم رجع فلم يسمع ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق ونظر إلى سليمانَ عليه السلام قد سقط ميتًا، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد

(١) حشرة بيضاء مصفرة تشبه النملة. المعجم الوسيط ص (١٤).
(٢) ابن جرير في تفسيره (١٢/ ٢٢/ ٧٤)، وإسناده ضعيف.

مات، ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته - وهي العصا بلسان الحبشة - قد أكلتها الأَرَضَة ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يومًا وليله، ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة - وهي قراءة ابن مسعود - فمكثوا يَدْأَبُونَ له من بعد موته حولاً كاملاً، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له، وذلك قول الله عز وجل: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبا:١٤]يقول: تَبَيَّنَ أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم، ثم إن الشياطين قالوا للأَرَضَة: لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكنا سننقل إليك الماء والطين، قال: فإنهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت. قال: ألم ترَ إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب فهو ما يأتيها بها الشيطان تشكرًا لها، وهذا فيه من الإسرائيليات التي لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب.

وقال أبو داود في كتاب «القدر»: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن خَيْثمة، قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت: إذا أردتَ أن تقبض روحي فأعلمني، قال: ما أنا أعلم بذلك منك إنما هي كتب تلقي إليَّ فيها تسمية من يموت. وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال سليمان لملك الموت: إذا أُمِرْتَ بي فأعلمني، فأتاه فقال: يا سليمان. قد أُمِرْت بك قد بقيت لك سويعة. فدعا الشياطين فبنوا له صرحًا من قوارير ليس له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه قال: فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه، ولم يصنع ذلك فرارًا من ملك الموت. قال: والجن تعمل بين يديه ينظرون إليه يحسبون أنه حي، قال: فبعث الله دابة الأرض - يعني إلى مِنْسأته - فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثَقُلَ عليها فخر فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا. قال: فذلك قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبا:١٤]قال أصبغ: وبلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل من منسأته حتى خَرَّ. وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم. والله أعلم.

قال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق، عن الزُّهري وغيره أن سليمان عليه السلام عاش اثنتين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة. وقال إسحاق: أنبأنا أبو ورق، عن عكرمة، عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة. فالله أعلم. وقال ابن جرير: فكان جميع عمر سليمان ابن داود عليهما السلام نيفًا وخمسين سنة.

وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذُكِرَ، ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير. وقال: ثم تفرَّقت بعده مملكة بني إسرائيل.



باب ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام ممن لا يعلم وقت زمانهم على التعيين إلا أنهم بعد داود وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام

فمنهم:

شعيا بن أمصيا

قال محمد بن إسحاق: وكان قبل زكريا ويحيى، وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام. وكان في زمانه ملك اسمه حزقيا على بني إسرائيل ببلاد بيت المقدس، وكان سامعًا مطيعًا لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح، وكانت الأحداث قد عَظُمَتْ في بني إسرائيل، فمرض الملك وخرجت في رجله قرحة، وقصد بيت المقدس ملك بابل في ذلك الزمان وهو سنحاريب. قال ابن إسحاق: في ستمائة ألف راية. وفزع الناس فزعًا شديدًا. وقال الملك للنبي شعيا: ماذا أوحى الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده؟ فقال: لم يوح إليَّ فيهم شيء بعد، ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك حزقيا بأن يوصى ويستخلف على ملكه من يشاء، فإنه قد اقترب أجله. فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسَبَّحَ ودعا وبكى فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتَوَكُّلٍ وصبر: اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل، وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسي، وسري وإعلاني لك.

قال: فاستجاب الله له ورحمه، وأوحى الله إلي شعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر في أَجَلِهِ خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب، فلما قال له ذلك ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخَرَّ ساجدًا وقال في سجوده: اللهم أنت الذي تعطي الملك من تشاء، وتنزعه ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، عالم الغيب والشهادة، فأنت الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين. فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برئ. ففعل ذلك فشفى.

وأرسل الله على جيش سنحاريب الموتَ فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصر فأرسل ملك بني إسرائيل فجاء بهم فجعلهم في الأغلال وطاف بهم البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يومًا، ويُطْعِمُ كلَّ واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير، ثم أودعهم السجن وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حلَّ بهم، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم فقال له السحرة والكهنة: إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا، وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربهم، فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به. ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين.

قال ابن إسحاق: ثم لما مات حزقيا ملك بني إسرائيل مرج أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم، فأوحى الله تعالى إلى شعيا فقام فيهم فوعظهم وذَكَّرَهُم وأخبرهم عن الله بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه. فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه، فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بِهُدْبَةِ ثَوْبِه فأبرزها فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومنهم:

ارميا بن حلقيا من سبط لاوي بن يعقوب

وقد قيل: إنه الخَضر. رواه الضحاك عن ابن عباس. وهو غريب وليس بصحيح.

قال ابن عساكر: جاء في بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال: أيها الدم. فتنت الناسَ فاسكن. فسكن ورسب حتى غاب.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني عَلِي بن أبي مريم، عن أحمد بن حباب، عن عبد الله بن عبد الرحمن قال: قال أرميا: أي رب. أي عبادك أحب إليك؟ قال: أكثرهم لي ذكرًا، الذين يشتغلون بذكري عن ذكر الخلائق، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء، ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء، الذين إذا عُرِضَ لهم عيش الدنيا قَلَوْهُ، وإذا زَوَى عنهم سُرُّوا بذلك، أولئك أنحلهم محبتي وأعطيهم فوق غاياتهم.

ذكر خراب بيت المقدس

وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٢-٨]

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له أرميا حين ظهرت فيهم المعاصي: أن قم بين ظَهْرَانَيْ قَوْمِك فأخبرهم أن لهم قلوبًا ولا يفقهون، وأعينًا ولا يبصرون وآذانًا ولا يسمعون، وإني تذكرت صلاح آبائهم فعَطَّفَنِي ذلك على أبنائهم. فسلهم كيف وجدوا غِبَّ طاعتي، وهل سعد أحد ممن عصاني بمعصيتي، وهل شقى أحد ممن أطاعني بطاعتي؟ إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها، وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير وجهها، أما أحبارهم فأنكروا حقي، وأما قُرَّاؤهم فعبدوا غيري، وأما نُسَّاكُهُم فلم ينتفعوا بما علموا، وأما وُلاتُهم فكذبوا عَلَيَّ وعلى رسلي، خَزَنُوا المكر في قلوبهم وعَوَّدُوا الكذب ألسنتهم، وإني أقسم بجلالي وعزتي لأُهَيِّجَنَّ عليهم جيوشًا لا يفقهون ألسنتهم، ولا يعرفون

وجوههم ولا يرحمون بُكَاءَهُم، ولأبعثن فيهم ملكًا جبارًا قاسيًا له عساكر كقِطع السحاب، ومواكب كأمثال الفجاج، كأن خَفَقَانَ راياتِه طيرانَ النسور، وكأن حمل فرسانه كَرُّ العُقْبان، يعيدون العمران خرابًا ويتركون القرى وَحْشَة، فيا ويل إيليا وسكانها كيف أُذَلِّلُهم للقتل، وأسلط عليهم السِّبَاء، وأعيد بعد لَجَبِ [1] الأعراس صراخًا، وبعد صهيل الخيل عُوَاءَ الذئاب، وبعد شرفات القصور مساكن السباع، وبعد ضوء السرج وهج العجاج، وبالعز الذل وبالنعمة العبودية، وأُبَدِّلَنَّ نساءهم بعد الطيب التراب، وبالمشي على الزرابي الخَبَبْ، ولأجعلن أجسادهم زِبَلا للأرض، وعظامَهُن ضاحية الشمس، ولأَدُوسَنَّهم بألوان العذاب، ثم لآمرن السماء فتكون طبقا من حديد، والأرض سبيكة من نحاس، فإن أمطرت لم تنبت الأرض، وإن أنبتت شيئًا في خلال ذلك فبرحمتي للبهائم، ثم أحبسه في زمان الزرع وأرسله في زمان الحصاد. فإن زرعوا في خلال ذلك شيئًا سَلَّطْتُ عليه الآفة، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة، فإن دعوني لم أجبهم، وإن سألوا لم أعطهم، وإن بكوا لم أرحمهم، وإن تضرَّعُوا صرفت وجهي عنهم. رواه ابن عساكر بهذا اللفظ.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا إدريس، عن وهب بن منبه، قال: إن الله تعالى لما بعث أرميا إلى بني إسرائيل، وذلك حين عظمت الأحداث فيهم فعملوا بالمعاصي، وقتلوا الأنبياء، طمع بختنصر فيهم وقذف الله في قلبه وحَدَّثَ نفسه بالمسير إليهم لما أراد الله أن ينتقم به منهم، فأوحى الله إلى أرميا: إني مهلك بني إسرائيل ومنتقم منهم، فقم على صخرة بيت المقدس يأتك أمري ووحيي. فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجدًا وقال: يا رب. وددت لو أن أمي لم تلدني حين جعلتني آخر أنبياء بني إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس وبوار بني إسرائيل من أجلي، فقال له: ارفع رأسك. فرفع رأسه فبكى ثم قال: يا رب من تسلط عليهم؟ فقال: عبدة النار لا يخافون عقابي، ولا يرجون ثوابي، قم يا أرميا فاستمع وحيي أخبرك خبرك وخبر بني إسرائيل: من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصورك في رحم أمك قدستك، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل أن تبلغ نبأتك، ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك ولأمر عظيم اجتبيتك، فقم مع الملك تسدده وترشده. فكان مع الملك يسدده ويأتيه الوحي من الله حتى عظمت الأحداث، ونسوا ما نجاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده، فأوحى الله إلى أرميا: قم فاقصص عليهم ما آمرك به، وذَكِّرْهُم نعمتي عليهم، وعَرِّفْهُم أحداثهم. فقال أرميا: يا رب. إني ضعيف إن لم تقوني، عاجز إن لم تبلغني، مخطئ إن لم تسددني، مخذول إن لم تنصرني، ذليل إن لم تعزني، فقال الله تعالى: أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي، وأن الخلق والأمر كله لي، وأن القلوب والألسنة كلها بيدي فأُقَلِّبُها كيف شئت فتطيعني، فأنا الله الذي ليس شيء مثلي قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتي، وأنه لا يخلص التوحيد، ولم تتم القدرة إلا لي، ولا يعلم ما عندي غيري، وأنا الذي كلمت البحار ففهمت قولي، وأمرتها ففعلت أمري، وحددت عليها حدودًا فلا تعدو حدي، وتأتي بأمواج كالجبال فإذا بلغت حدي ألبستها مذلة لطاعتي وخوفًا واعترافًا لأمري،

(١) ارتفاع الصوت. المعجم الوسيط ص (٨٤٩).

وإني معك ولن يصل إليك شيء معي، وإني بعثتك إلى خلق عظيم من خلقي لتبلغهم رسالاتي فتستوجب لذلك أجر من اتبعك، ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا. وإن تقصر عنها تستحق بذلك مني وزر من تركته فى عماية، ولا ينتقص ذلك من أوزارهم شيئًا، انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل لهم: إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم فلذلك استبقاكم، يا معشر أبناء الأنبياء، وكيف وجد آباؤكم مَغَبَّةَ طاعتي وكيف وجدتم مغبة معصيتي، وهل وجدوا أحدًا عصاني فسعد بمعصيتي وهل علموا أحدًا أطاعني فشقى بطاعتي؟ إن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نَزَعَتْ إليها، وإن هؤلاء القوم رَتَعُوا في مروج الهلكة وتركوا الأمر الذي أكرمت به آباءهم، وابتغوا الكرامة من غير وجهها. فأما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادي خولاً يتعبدونهم، ويعملون فيهم بغير كتابي حتى أَجْهَلُوهُم أمري، وأَنْسَوْهُمْ ذكري وسنتي، وغَرُّوهم عني، فَدَانَ لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي، فهم يطيعونهم في معصيتي. وأما ملوكهم وأمراؤهم فبَطَرُوا بنعمتي، وأمنوا مكري، وغرتهم الدنيا حتى نبذوا كتابي ونسوا عهدي، فهم يُحَرِّفُونَ كتابي، ويفترون على رسلي جرأة منهم وغرة بي، فسبحان جلالي وعلو مكاني وعظمة شأني، هل ينبغي أن يكون لي شريك في ملكي؟ وهل ينبغي لبشر أن يطاع في معصيتي؟ وهل ينبغي لي أن أخلق عبادًا أجعلهم أربابًا من دوني، أو آذن لأحد بالطاعة لأحد وهي لا تنبغي إلا لي؟!.

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون، فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني، ويطيعونهم في معصيتي، ويوفو ن لهم بالعهود الناقضة لعهدي، فهم جهلة بما يعلمون لا ينتفعون بشيء مما علموا من كتابي. وأما أولاد النبيين فمقهورون ومفتونون، يخوضون مع الخائضين يتمنون مثل نصرى آباءهم والكرامة التي أكرمتهم بها، ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم بغير صدق منهم ولا تفكر، ولا يذكرون كيف كان صبر آبائهم وكيف كان جهدهم في أمري حين اغتر المغترون، وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عَزَّ أمري وظهر ديني، فتأنيت هؤلاء القوم لعلهم يستحيون مني ويرجعون، فتطولت عليهم وصفحت عنهم فأكثرت ومددت لهم في العُمُر وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون. وكل ذلك أمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض، وألبسهم العافية، وأظهرهم على العدو ولا يزدادون إلا طغيانًا وبعدًا مني فحتي متى هذا؟ أبي يسخرون؟ أم بي يتحرشون؟ أم إياي يخادعون؟ أم على يجترئون؟ فإني أقسم بعزتي لأتيحن عليهم فتنة يتحير فيها الحليم ويضل فيها رأي ذوى الرأي وحكمة الحكيم، ثم لأسلطن عليهم جبارًا قاسيًا عاتيًا ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل الليل المظلم، له فيه عساكر مثل قطع السحاب ومواكب مثل العجاج، وكأن خفيق راياته طيران النسور وحمل فرسانه كسرب العُقْبانِ [1]، يعيدون العمران خرابًا والقرى وحشًا ويعيثون في الأرض فسادًا ويُتَبِّرون ما علوا تتبيرًا، قاسية قلوبهم لا يكترثون ولا يرقبون، ولا يرحمون ولا يبصرون، ولا يسمعون،

(١) جمع عُقَاب: وهو طائر من كواسر الطير قوي المخالب مسْروَلٌ، له منقار أعقف، حاد البصر. المعجم الوسيط ص (٧٣٦).

ويجولون في الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الأسد تَقْشَعِرُّ من هيبتها الجلود، وتطيش من سمعها الأحلام بألسنة لا يفقهونها، ووجوه ظاهر عليها المنكر لا يعرفونها فوعزتي لأُعَطِّلَنَّ بيوتهم من كتبي وقدسي، ولأُخَلِّيَنَّ مجالسهم من حديثها ودروسها، ولأُوحِشَنَّ مساجدهم من عُمَّارِهَا وزُوَّارِهَا الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيري، ويتهجدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين، ويتفقهون فيها لغير الدين، ويتعلمون فيها لغير العمل، لأُبَدِّلَنَّ ملوكها بالعز الذل، وبالأمن الخوف، وبالغني الفقر، وبالنعمة الجوع، وبطول العافية والرخاء ألوان البلاء، وبلباس الديباج والحرير مدارع الوبر والعِباء. وبالأرواح الطيبة والأدهان جيف القتلى، وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال، ثم لأعيدن فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة الخراب، وبعد البروج المشيدة مساكن السباع وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد ضوء السراج دخان الحريق، وبعد الأنس الوحشة والقِفَار. ثم لأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال، وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد، وبألوان الطيب والأدهان النقع والغبار، وبالمشي على الزَرَابِيِّ عبور الأسواق والأنهار، والخَبَبِ إلي الليل في بطون الأسواق، وبالخُدُور والستور الحسور عن الوجوه والسوق والأسفار والأرواح السموم، ثم لأدوسنهم بأنواع العذاب حتى لو كان الكائن منهم في حالق لَوَصَلَ ذلك إليه، إني إنما أُكْرِمُ من أكرمني، وإنما أهين من هان عليه أمري. ثم لآمُرَنَّ السماء خلال ذلك فَلَتَكُونَنَّ عليهم طبقًا من حديد، ولآمرن الأرض فلتكونن سبيكة من نحاس، فلا سماء تمطر، ولا أرض تنبت، فإن أمطرت خلال ذلك شيئًا سَلَّطْتُ عليهم الآفة، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة، وإن دعوني لم أجبهم، وإن سألوني لم أعطهم، وإن بكوا لم أرحمهم، وإن تَضَرَّعُوا إلي صرفت وجهي عنهم، وإن قالوا: اللهم أنت الذي ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك، وذلك بأنك اخترتنا لنفسك وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك، ثم مكنت لنا في البلاد واستخلفتنا فيها وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغارًا، وحفظتنا وإياهم برحمتك كبارًا فأنت أوفى المنعمين وإن غَيَّرْنَا، ولا تبدل وإن بَدَّلْنا وإن تُتِمّ فضلك ومنك وطولك وإحسانك. فإن قالوا ذلك قلت لهم: إني أبتدئ عبادي برحمتي ونعمتي، فإن قَبِلُوا أتممت، وإن استزادوا زِدْت، وإن شكروا ضاعفت، وإن غَيَّرُوا غَيَّرْت. وإذا غَيَّرُوا غضبت، وإذا غضبت عَذَّبت، وليس يقوم شيء بغضبي.

قال كعب: فقال أرميا: بوجهك أصبحت أتعلم بين يديك، وهل ينبغي ذلك لي وأنا أذل وأضعف من أن ينبغي لي أن أتكلم بين يديك، ولكن برحمتك أبقيتني لهذا اليوم، وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد مني بما رضيت به مني طولاً، والإقامة في دار الخاطئين وهم يعصونك حولي بغير نُكْرٍ ولا تغيير مني، فإن تعذبني فبذنبي، وإن ترحمني فذلك ظني بك. ثم قال: يا رب. سبحانك وبحمدك، وتباركت ربنا وتعاليت، أتُهْلِكُ هذه القرية وما حولها وهي مساكن أنبيائك ومنزل وحيك؟ يا رب. سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت لَمُخَرِّبٌ هذا المسجد، وما حوله من المساجد، ومن البيوت التي رفعت لذكرك؟ يا رب. سبحانك وبحمدك، وتباركت وتعاليت لَمُقَتِّلُ هذه الأمة، وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك، وأمة موسى

نَجِيِّك وقوم داود صَفِيِّك، يا رب. أي القرى تأمن عقوبتك بعد؟ وأي العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك إبراهيم، وأمة نَجِيِّك موسى وقوم خليفتك داود، تسلط عليهم عبدة النيران؟ قال الله تعالى: يا أرميا. من عصاني فلا يستنكر نقمتي، فإني أكرمت هؤلاء القوم على طاعتي، ولو أنهم عصوني لأنزلتهم دار العاصين، إلا أن أتداركهم برحمتي. قال أرميا: يا رب. اتخذت إبراهيم خليلاً وحفظتنا به، وموسى قربته نجيًا فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا. فأوحى الله إليه: يا أرميا إني قَدَّسْتُكَ (١) في بطن أمك، وأَخَّرْتُك إلي هذا اليوم، فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل، لكنت الداعم لهم، وكانوا عندي بمنزلة جنةٍ ناعم شجرُها، طاهر ماؤها، ولا يغور ماؤها ولا تبور ثمارها ولا تنقطع، ولكن سأشكو إليك بني إسرائيلَ: إني كنت لهم بمنزلة الراعي الشفيق، أُجَنِّبُهُم كلَّ قحط وكل عُسْرَة، وأُتْبِعُ بهم الخصب حتى صاروا كِبَاشًا ينطح بعضها بعضًا، فيا ويلهم ثم يا ويلهم، إنما أُكْرِمُ من أكرمني، وأهين من هان عليه أمري، إن من كان قبل هؤلاء من القرون يستخفون بمعصيتي، وإن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتي تبرعًا فيظهرونها في المساجد والأسواق، وعلى رءوس الجبال وظلال الأشجار، حتي عَجَّتِ السماء إليّ منهم، وعجت (٢) الأرض والجبال نَفَّرَت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها، وفي كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب. قال فلما بلغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه وقالوا: كذبت وأعظمت على الله الفرية فتزعم أن الله مُعَطِّلٌ أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده؟ فمن يعبده حين لا يبقى له في الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب؟!، لقد أعظمت الفرية على الله واعتراك الجنون، فأخذوه وقيدوه وسجنوه، فعند ذلك بعث الله عليهم بختنصر فأقبل يسير بجنوده حتي نزل بساحتهم ثم حاصرهم فكان كما قال تعالى: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء:٥] قال: فلما طال بهم الحصر نزلوا على حُكْمِه، ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزِقَّة وذلك قوله: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء:٥] وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين، فقتل منهم الثلث، وسبى الثلث، وترك الزمني والشيوخ والعجائز، ثم وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس، وساق الصبيان وأوقف النساء في الأسواق حاسرات، وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة، وسأل عن دانيال الذي كان قد كتب له الكتاب فوجده قد مات، وأخرج أهل بيته الكتاب إليه، وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر، وميشائيل، وعزرائيل، وميخائيل، فأمضى لهم ذلك الكتاب. وكان دانيال بن حزقيل خلفًا من دانيال الأكبر، ودخل بختنصر بجنوده بيت المقدس ووطىء الشام كلها وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم، فلما فرغ منها انصرف راجعًا وحمل الأموال التي كانت بها، وساق السبايا، فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألف غلام، وقذف الكناسات في بيت المقدس وذبح فيه الخنازير، وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود، وأحد عشر ألفًا من سبط يوسف ابن يعقوب وأخيه بنيامين،

(١) طَهَّرْتُك وجعلتك مُطَهَّرًا.

(٢) رفعت صوتها وصاحت. المعجم الوسيط ص (٦٠٦).

وثمانية آلاف من سبط إيشي بن يعقوب وأربعة عشر ألفًا من سبط زبالون ونفتالي ابنى يعقوب، وأربعة عشر ألفًا من سبط [1]دان بن يعقوب، وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب، وألفين من سبط زيكون بن يعقوب، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي، واثنى عشر ألفًا من سائر بني إسرائيل . وانطلق حتى قدم أرض بابل .

قال إسحاق بن بشر: قال وهب بن منبه: فلما فعل ما فعل قيل له: كان لهم صاحب يحذرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم

وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم، فكذبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه . فأمر بختنصر فأخرج أرميا من السجن فقال له: أكنت تُحَذِّر هؤلاء القوم ما أصابهم؟ قال: نعم . قال: فإني علمت ذلك، قال: أرسلني الله إليهم فكذبوني . قال: كذبوك وضربوك وسجنوك؟ قال: نعم . قال: بئس القوم قوم كذبوا نبيهم وكذبوا رسالة ربهم، فهل لك أن تلحق بي فأكرمك وأواسيك، وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أَمَّنْتُكَ . قال له أرميا: إني لم أزل في أمان الله منذ كنت لم أخرج منه ساعة قط، ولو أن بني إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ولم يكن لك عليهم سلطان . فلما سمع بختنصر هذا القول منه تركه فأقام أرميا مكانه بأرض إيليا . وهذا سياق غريب، وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة، وفيه من جهة التعريب غرابة .

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: كان بختنصر أصطفهبذا لما بين الأهواز إلي الروم للملك على الفرس وهو لهراسب، وكان قد بني مدينة بلخ التي تلقب بالخنساء، وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيق الأماكن وبعث بختنصر لقتال بني إسرائيل بالشام فلما قدم الشام صالحه أهل دمشق، وقد قيل: إن الذي بعث بختنصر إنما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب، وذلك لتعدي بني إسرائيل على رسله إليهم

وقد روي ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب عن سليمان بن بلال، عن يحيي بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب، أن بختنصر لما قدم دمشق وجد بها دمًا يغلي على كبا - يعني القمامة - فسألهم: ماهذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا وكلما ظهر عليه الكبا ظهر . قال: فقتل على ذلك سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم فسكن . وهذا إسناد صحيح إلي سعيد بن المسيب، وقد تقدم من كلام الحافظ ابن عساكر ما يدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا، وهذا لا يصح لأن يحيى بن زكريا بعد بختنصر بمدة، والظاهر أن هذا دم نبي متقدم أو دم لبعض الصالحين أو لمن شاء الله ممن الله أعلم به .

قال هشام بن الكلبي: قدم بختنصر بيت المقدس فصالحه ملكها وكان من آل داود وصانعه عن بني إسرائيل وأخذ منه بختنصر رهائن ورجع، فلما بلغ طبرية بلغه أن بني إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحهُ، فضرب رقاب من معه من الرهائن ورجع إليهم فأخذ المدينة عُنْوَةً، وقتل

(١) السِّبط: ولد الابن والابنة. والسبِط من اليهود: كالقبيلة من العرب، وجمعها أسباط. المعجم الوسيط ص (٤٢٩).

المقاتلة وسبي الذرية . قال : وبلغنا أنه وجد في السجن أرميا النبي فأخرجه وقص عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه فقال بختنصر : بئس القوم قوم عصوا رسول الله وخَلَّى سبيله وأحسن إليه وأجمع إليه من بقى من ضعفاء بني إسرائيل فقالوا : إنا قد أسأنا وظلمنا ونحن نتوب إلى الله عز وجل مما صنعنا ، فادع الله أن يقبل توبتنا ، فدعا ربه فأوحى إليه أنه غير فاعل ، فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة . فأخبرهم ما أمره الله تعالى به ، فقالوا : كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وقد غضب الله على أهلها؟ فأبوا أن يقيموا .

قال ابن الكلبي: ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل في البلاد فنزلت طائفة منهم الحجاز وطائفة يثرب وطائفة وادي القرى ، وذهبت شرذمة منهم إلي مصر ، فكتب بختنصر إلي ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه فأبي عليه ، فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية . قال : ثم انصرف بسبي كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن وفي السبي دانيال .

قلت: والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر . على ما ذكره وهب بن منبه . والله أعلم .



ذكر شيء من خبر دانيال عليه السلام

قال ابن أبي الدنيا [١]: حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيباني قال: إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان فحدثني بعض أصحابنا عنه، عن الأجلح الكندي، عن عبد الله بن أبي الهذيل، قال: أحضر بختنصر أسدين فألقاهما في جُبٍّ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه، فمكث ما شاء الله ثم اشتهي ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام: أن أَعِدَّ طعامًا وشرابًا لدانيال، فقال: يا رب. أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق. فأوحى الله إليه. أن أَعِدَّ ما أمرناك به، فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت. ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتي وقف على رأس الجُبِّ فقال دانيال: من هذا؟ قال: أنا أرميا. فقال: ما جاء بك؟ فقال: أرسلني إليك ربك. قال: وقد ذكرني ربي؟ قال: نعم. فقال دانيال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره. والحمد لله الذي يجيب من رجاه، والحمد لله الذي من وثق به لم يُكِلْه إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحسانًا، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاةً، والحمد لله الذي يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذي يَقِينَا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا.

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن خالد بن دينار، حدثنا أبو العالية قال: لما افتتحنا تُسْتر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا. فقلت لأبي العالية، ما كان فيه؟ قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد، قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه. قلت: فما يرجون منه، قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون. قلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال. قلت: منذ كم وجدتموه قد مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما تغير منه شيء؟ قال: إلا شعرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع.

وهذا إسناده صحيح إلى أبي العالية، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظًا من ثلاثمائة سنة فليس بنبي بل هو رجل صالح، لأن عيسى بن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي في البخاري [٢]، والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة، وقيل ستمائة وقيل ستمائة وعشرون سنة،

---

(١) رواه ابن جرير في تاريخه (١/ ٣١٦)، وسنده ضعيف.

(٢) الحديث رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياء أبناء علات، وليس بيني وبين عيسى نبي». أخرجه أحمد (٢/ ٤٦٣)، والبخاري (٤/ ٢٠٣)، ومسلم (٧/ ٩٦)، وأبو داود (٤٦٧٥) كلهم من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة. وأخرجه أحمد (٢/ ٤٠٦، ٤٣٧)، وأبو داود (٤٣٢٤) كلاهما من طريق قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء أخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي. . .».

وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال، وإن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر، فإنه قد يكون رجلا آخر إما من الأنبياء أو الصالحين، ولكن قَرُبَتِ الظنون أنه دانيال لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونًا كما تقدم. وقد روى بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبر، وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع، فيحتمل على هذا أن يكون رجلا من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد. والله تعالى أعلم.

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب «أحكام القبور»: حدثنا أبو بلال محمد بن الحارث بن عبد الله بن أبي بَرَدَة بن أبي موسى الأشعري حدثنا أبو محمد القاسم بن عبد الله، عن أبي الأشعث الأحمري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد» فلما افتتح أبو موسى الأشعري تُسْتَر وجده في تابوت تضرب عروقه ووريده، وقد كان رسول الله ﷺ قال: «من دل على دانيال فبَشِّروه بالجنة». فكان الذي دل عليه رجل يقال له حرقوص فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره فكتب إليه عمر: أن ادفنه وابعث إلي حرقوص فإن النبي ﷺ بشره بالجنة[1]. وهذا مرسل من هذا الوجه وفي كونه محفوظًا نظر. والله أعلم. ثم قال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو بلال، حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد - وكان عالمًا - قال: وجد أبو موسى مع دانيال مصحفًا وجَرَّة[2] فيها ودك ودراهم وخاتمه، فكتب أبو موسى بذلك إلي عمر فكتب إليه عمر: أما المصحف فابعث به إلينا، وأما الودَك فابعث إلينا منه ومُرْ مَنْ قبلك من المسلمين يستشفون به واقسم الدراهم بينهم، وأما الخاتم فقد نفلناكه[3].

وروى ابن أبي الدنيا من غير وجه: أن أبا موسى لما وجده وذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبله، وكتب إلى عمر يذكر له أمره وأنه وجد عنده مالاً موضوعًا قريبًا من عشرة آلاف درهم، وكان من جاء اقترض منها فإن ردها وإلا مرض وإن عنده رَبْعَةً، فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحد، وأمر بالمال أن يرد إلي بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونفله خاتمه.

وروى عن أبي موسى أنه أمر أربعة من الأسراء فسَكَرُوا نَهَرًا وحفروا في وسطه قبرًا فدفنه فيه، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني إبراهيم بن عبد الله، حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، حدثنا ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه قال: رأيت في يد ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري خاتما نَقْشُ فَصِّهِ أَسَدَان بينهما رجل يَلْحَسَانِ ذلك الرجل، قال أبو بردة: وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه، قال أبو بردة: فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا: إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له: إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يغور ملكك ويفسده، فقال

---

(١) إسناده ضعيف.
(٢) الجَرَّة: إناء من خزف. المعجم الوسيط ص (١٢١).
(٣) أعطيناه لك نُفْلَةً.

الملك: والله لا يبقي تلك الليلة غلام إلا قتلته، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه في أجمة الأسد فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضراه، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه الله بذلك حتي بلغ ما بلغ قال أبو بردة: قال أبو موسى: قال علماء تلك القرية: فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك. إسناده حسن.

ذكر عمارة بيت المقدس بعد خرابها
واجتماع الملأ من بني إسرائيل بعد تفرقهم في بقاع الأرض وشعابها

قال الله تعالى في كتابه المبين وهو أصدق القائلين: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

قال هشام بن الكلبي: ثم أوحى الله تعالى إلى أرميا عليه السلام فيما بلغني: إني عَامِرُ بيت المقدس فاخرج إليها فانزلها. فخرج حتى قدمها وهي خراب، قال في نفسه: سبحان الله. أمرني الله أن أنزل هذه البلدة وأخبرني أنه عامرها فمتى يعمرها ومتى يحييها الله بعد موتها؟ ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسلة من طعام، فمكث في نومه سبعين سنة حتى هلك بختنصر والملك الذي فوقه وهو لهراسب، وكان ملكه مائة وعشرين سنة، وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب، وكان موت بختنصر في دولته فبلغته عن بلاد الشام أنها خراب، وأن السباع قد كثرت في أرض فلسطين فلم يبق بها من الإنس أحد، فنادى في أرض بابل في بني إسرائيل: أن من شاء أن يرجع إلي الشام فليرجع، وملك عليهم رجلاً من آل داود وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبني مسجدها فرجعوا فعمروها، وفتح الله لأرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تُبْنَي وكيف تُعَمَّر، ومكث في نومه ذلك حتى تَمَّتْ له مائة سنة. ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة وقد عهد المدينة خرابًا فلما نظر إليها عامرة آهلة قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩] قال: فأقام بنو إسرائيل بها ورد الله عليهم أمرهم فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم في زمن ملوك الطوائف، ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان، يعني بعد ظهور النصارى عليهم. هكذا حكاه ابن جرير في تاريخه عنه، وذكر ابن جرير أن لهراسب كان ملكًا عادلاً سائسًا لمملكته قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقواد وأنه كان ذا رأى جيد في عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل، ثم لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مائة سنة ونيف، نزل عن الملك لولده بشتاسب، فكان في زمانه ظهور دين المجوسية وذلك أن رجلا اسمه زرادشت كان قد صحب أرميا - عليه السلام - فأغضبه، فدعا عليه أرميا - عليه السلام - فبرص زرادشت فذهب فلحق بأرض أذربيجان وصحب بشتاسب فلقنه دين المجوسية الذي اخترعه من تلقاء نفسه -لعنه الله- فقبله منه بشتاسب، وحمل الناس عليه وقهرهم

وقتل منهم خلقًا كثيرًا ممن أباه منهم . ثم كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين، وقد ناب بختنصر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وعُمِّرَ دهرًا طويلاً - قبحه الله - والمقصود أن هذا الذي ذكره ابن جرير من أن هذا المار على هذه القرية هو أرميا عليه السلام، قاله وهب بن منبه، وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهما . وهو قوي من حيث السياق المتقدم، وقد روى عن على وعبد الله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بردة وغيرهم أنه عزير . وهذا أشهر عند كثير من السلف والخلف . والله أعلم .



قصة العزير عليه السلام

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: هو عزير بن جروة، ويقال ابن سوريق بن عديا بن أيوب بن درزنا بن عدي بن تقي بن أسبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران ويقال: عزير بن سروخا، جاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق. ثم ساق من طريق أبي القاسم البغوي عن داود بن عمرو، عن حبان بن على، عن محمد بن كريب، عن أبيه، عن ابن عباس مرفوعًا: «لا أدري العزير بيع أم لا؟، ولا أدري أكان عُزَيْرٌ نبيًّا أم لا؟»[1] ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن، عن محمد بن إسحاق السجزي، عن عبد الرزاق، عن مُعَمَّر، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة مرفوعًا نحوه. ثم روي من طريق إسحاق بن بشر، وهو متروك عن جويبر ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس: أن عزيرًا كان ممن سباه بختنصر وهو غلام حَدَثٌ، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة. قال: ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه. قال: وكان يُذْكر مع الأنبياء حتى محا الله اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر. وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن عبد الله بن سلام، أن عزيرًا هو العبد الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه. وقال إسحاق ابن بشر: أنبأنا سعيد بن بَشِير، عن كعب وسعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن ومقاتل وجويبر عن الضحاك، عن ابن عباس وعبد الله بن إسماعيل السدي عن أبيه، عن مجاهد، عن ابن عباس وإدريس، عن جده وهب بن منبه، قال إسحاق: كل هؤلاء حدثوني عن حديث عزير، وزاد بعضهم على بعض قالوا بإسنادهم: إن عزيرًا كان عبدًا صالحًا حكيمًا، خرج ذات يوم إلى ضَيْعَةٍ له يتعاهدها، فلما انصرف أتى إلى خَرِبَةٍ حين قامت الظهيرة وأصابه الحر، ودخل الخربة وهو على حماره فنزل عن حماره ومعه سَلَّةٌ فيها تين وسلة فيها عنب، فنزل في ظل الخربة وأخرج قَصْعَةً معه فاعتصر من العنب الذي كان معه فى القصعة ثم أخرج خبزًا يابسًا معه فألقاه في تلك القصعة في العصير ليبتل ليأكله، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط فنظر إلى سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها وقد بَادَ أهلها ورأى عظامًا بالية فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] فلم يشك أن الله يحييها ولكن قالها تعجبًا فبعث الله ملك الموت فقبض روحه، فأماته الله مائة عام. فلما أتت عليه مائة عام، وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث. قال: فبعث الله إلى عزير ملكًا فخلق قلبه ليعقل به وعينيه لينظر بهما فَيَعْقِلَ كيف يحيى الله الموتى. ثم رَكَّبَ خَلْقَهُ وهو ينظر، ثم كسا عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح، كل ذلك وهو يرى ويعقل، فاستوى جالسًا فقال له المَلَكُ: كم لبثت؟ قال: لبثت يومًا، وذلك أنه لبث صدر النهار عند الظهيرة وبعث في آخر النهار والشمس لم تغب، فقال: أو بعض يوم ولم يتم لي يوم. فقال له الملك: بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك، يعني الطعام الخبز اليابس، وشرابه العصير الذي كان اعتصره في القصعة،

(١) ابن عساكر في تاريخه (٤٠/ ٣١٧).

فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس، فذلك قوله: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة:٢٥٩]يعني لم يتغير، وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شيء من حالهما، فكأنه أنكر في قلبه، فقال له الملك: أنكرت ما قلت لك؟ فانظر إلى حمارك. فنظر إلى حماره قد بَلِيَتْ عظامه وصارت نَخِرَة. فنادي الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركبه الملك وعزير ينظر إليه ثم ألبسها العروق والعصب، ثم كساها اللحم ثم أنبت عليها الجلدَ والشعر، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعًا رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقًا يظن القيامة قد قامت. فذلك قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة:٢٥٩]يعني وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضًا في أوصالها حتى إذا صارت عظامًا مصورًا حمارًا بلا لحم، ثم انظر كيف نكسوها لحمًا: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩]من إحياء الموتى وغيره. قال: فركب حماره حتي أتى مَحِلَّتَهُ فأنكره الناس وأنكر الناس، وأنكر منزله، فانطلق على وَهْم منه حتي أتى منزله، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أَمَةً لهم، فَخرج عنهم عزير وهي بنت عشرين سنة كانت عرفته وعقلته، فلما أصابها الكبر أصابتها الزمانة، فقال لها عزير: يا هذه. أهذا منزل عزير؟ قالت: نعم هذا منزل عزير. فبكت وقالت: ما رأيت أحدًا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرًا وقد نسيه الناس. قال: فإني أنا عزير، كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني. قالت: سبحان الله، فإن عزيرًا قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر. قال: فإني أنا عزير. قالت: فإن عزيرًا رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء، فادع الله أن يَرُدَّ عَلَيَّ بصري حتى أراك فإن كنت عزيرًا عرفتك. قال: فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال: قومي بإذن الله فأطلق الله رجليها، فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقالٍ. فنظرت فقالت: أشهد أنك عزير. وانطلقت إلي محلة بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم، وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثماني عشر سنة وبني بنيه شيوخ في المجلس، فنادتهم فقالت: هذا عزير قد جاءكم. فكذبوها. فقالت أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فَرَدَّ عَلَيَّ بصري وأطلق رجلي، وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه. قال: فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه فقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير، فقالت بنو إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حُدِّثْنَا غير عزير، وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال، فاكتبها لنا، وكان أبوه سَرُوخًا قد دفن التوراة أيام بختنصر في موضع لم يعرفه أحد غير عزير، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب. قال: وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه، فتذكر التوراة فجددها لبني إسرائيل، فمن ثم قالت اليهود: عزير ابن الله، للذي كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل، وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل، والقرية التي مات فيها يقال لها: سايراباذ.

قال ابن عباس: فكان كما قال الله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢٥٩]يعني: لبني

إسرائيل، وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لأنه مات وهو ابن أربعين سنة، فبعثه الله شابًا كهيئته يوم مات. قال ابن عباس: بعث بعد بختنصر وكذلك قال الحسن. وقد أنشد أبو حاتم السجستاني في معنى ما قاله ابن عباس:

وأسودُ رأس شاب مِنْ قبله ابنُه ... ومِن قبله ابنُ ابنِهِ فهو أكبرُ
يرى ابنه شيخا يَدبُّ على العصا ... ولحيته سوداءَ والرأس أشقرُ
وما لابنه حَيْلٌ ولا فضل قوة ... يقوم كما يمشي الصبي فيعثرُ
يعد ابنه في الناس تسعين حجة ... وعشرين لا يجري ولا يتبخترُ
وعمر أبيه أربعون أمرها ... لابن ابنه تسعون في الناس غُبَّرُ
فما هو في المعقول إن كنت داريًا ... وإن كنت لا تدري فبالجهل تُعذرُ

فصل نبوءة العُزَيْر

المشهور أن عزيرًا نبي من أنبياء بني إسرائيل، وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى، وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها فسردها على بني إسرائيل، كما قال وهب بن منبه: أمر الله ملكًا فنزل بمغرفة من نور فقذفها في عزير فنسخ التوراة حرفًا بحرف حتى فرغ منها.

وروى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كَتْبِهِ لبني إسرائيل التوراة من حفظه وقول بني إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب وإن عزيرًا قد جاءنا بها من غير كتاب. فرماه طوائف منهم وقالوا: عزير ابن الله

ولهذا يقول كثير من العلماء: إن تَواتُر التوراة انقطع في زمن العزير. وهذا متجه جدا إذا كان العزير غير نبي، كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن البصري، وفيما رواه إسحاق ابن بشر عن مقاتل بن سليمان، عن عطاء، وعن عثمان بن عطاء الخرساني عن أبيه، ومقاتل عن عطاء بن أبي رباح قال: كان في الفترة تسعة أشياء: بختنصر، وجنة صنعاء وجنة سبأ، وأصحاب الأخدود، وأمر حاصورا، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، مدينة أنطاكية، وأمر تبع. وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن قال: كان أمر عزير وبختنصر في الفترة. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناسِ بابن مريم، [الأنبياءُ أولادُ عَلَّاتٍ] وليس بيني وبينه نبي»(١).

وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عزيرًا كان في زمن موسى بن عمران، وأنه استأذن عليه فلم يأذن له، يعني لما كان من سؤاله عن القدر، وأنه انصرف وهو يقول: مائة موتة أهون من ذُلِّ ساعة. وفي معنى قول عزير: مائة موته أهون من ذل ساعة، قول بعض الشعراء:

---

(١) سبق تخريجه.

قد يصبر الحر على السيف ويأنف الصبر على الحيف
ويؤثر الموت على حالة يعجز فيها عن قرى الضيف

فأما ما روى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونوف البكالي وسفيان الثوري وغيرهم، من أنه سأل عن القدر فَمُحِيَ اسمه من ذكر الأنبياء، فهو منكر، وفي صحته نظر، وكأنه مأخوذ من الإسرائيليات. وقد روي عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد، عن جعفر بن سليمان، عن أبي عمران الجوني، عن نوف البكالي قال: قال عزير فيما يناجي ربه: يا رب. تخلق خلقًا فتضل من تشاء وتهدي من تشاء؟ فقيل له: أعرض عن هذا. فعاد فقيل له: لتُعْرِضَنَّ عن هذا أو لأَمْحُوَنَّ اسمك من الأنبياء، إني لا أُسْأَلُ عما أفعل وهم يُسْألون: وهذا يقتضي وقوع ما توعد عليه لو عاد فما محى.

وقد روى الجماعة سوى الترمذي من حديث يونس بن يزيد، عن الزهري، عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة، وكذلك رواه شعيب عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجَهَازِهِ فأخرج من تحتها ثم أمر بها فأحرقت بالنار، فأوحى الله إليه: فهلا نملة واحدة»[1] فروى إسحاق بن بشر عن ابن جريج، عن عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه: أنه عزير، وكذا روى عن ابن عباس والحسن البصري أنه عزير. والله أعلم.



(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٢)، والبخاري (٤/ ٧٥)، ومسلم (٧/ ٤٣)، وأبو داود (٥٢٦٦)، وابن ماجه (٣٢٢٥)، والنسائي (٧/ ٢١٠) كلهم من طريق يونس به. وأخرجه أحمد (٢/ ٤٤٩)، والبخاري (٤/ ١٥٨)، ومسلم (٧/ ٤٣)، وأبو داود (٥٢٦٥) كلهم من طريق أبي الزناد به.

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قصة زكريا عليه السلام

قال الله تعالى في كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١-١٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٣٧-٤١].

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل: زكريا بن برخيا ويقال زكريا بن دان، ويقال زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ياخور بن شلوم بن بهفاشاط بن أينامن بن رحيعم بن سليمان بن داود أبو يحيى النبي عليه السلام من بني إسرائيل. دخل البثنة من أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى. وقيل: إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى. والله أعلم. وقد قيل غير ذلك في نسبه. ويقال فيه: زكريا بالمد والقصر، ويقال زكري أيضًا. والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله محمدًا ﷺ أن يَقُصَّ على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولدًا على الكبر وكانت امرأته مع ذلك عاقرًا في حال شبيبتها وقد أسنت أيضًا، حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى فقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٢-٣].

قال قتادة عند تفسيرها: إن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي، وقال بعض السلف: قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عمن كان حاضرًا عنده مخافته فقال: يا رب يا رب يا رب. فقال الله: لبيك لبيك لبيك. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ [مريم:٤] أي ضعف وخار من الكبر ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم:٤] استعارة من اشتعال النار في الحطب أي غلب عَلَى سواد الشعر شيبُهُ كما قال ابن دريد في مقصورته:

أما ترى رأسي حاكى لونُه ... طُرّةَ صبح تحت أذيال الدجا
وأشتعل المبيض في مسوده ... مثل اشتعال النار في جمر الغضا
وآض عودًا للهم يُبْسًا ذاويًا ... من بعد ما قد كان مَجَّاج الثرى

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطنا وظاهرًا، وهكذا قال زكريا عليه السلام: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم:٤].

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم:٤] أي ما عودتني فيما أسألك إلا الإجابة وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كَفَلَ مريم بنت عمران بن ماثان، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير إبّانِهَا ولا في أوانها وهذه من كرامات الأولياء، فعلم أن الرازق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولدًا، وإن كان قد طعن في سنه ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨] وقوله ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ قيل المراد بالموالي: العصبة، وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأله وجود ولد من صلبه يكون برًا تقيًا مرضيًا، ولهذا قال: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ [مريم:٥] أي من عندك بحولك وقوتك: ﴿وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى﴾ [مريم:٥-٦] أي في النبوة والحكم في بني إسرائيل ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٦] يعني كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء، فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي، وليس المراد ها هنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير هاهنا وحكاه عن أبي صالح من السلف، لوجوه:

أحدها: ما قدمناه عند قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦] أي في النبوة والملك لما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين العلماء، المروي في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُوَرَّثُ ما تركنا فهو صدقة»[1] فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث، ولهذا منع الصِّدِّيقُ أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من ورثته الذين لولا هذا النص لصرف إليهم، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضي الله عنهم، واحتج عليهم الصديق في منعه إياهم بهذا الحديث، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم.

(١) سبق تخريجه.

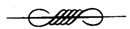
والثاني: أن الترمذي رواه بلفظ يعُم سائر الأنبياء: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» [(١)] وصححه.

الثالث: أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدًا يكون وارثًا له فيها.

الرابع: أن زكريا عليه السلام كان نَجَّارًا يعمل بيده ويأكل من كسبها، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهادًا يستفضل منه مالاً يكون ذخيرة له ولمن يخلفه من بعده. وهذا أَمْرٌ بَيِّنٌ واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهمه. إن شاء الله.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، يعني هارون، أنبأنا حَمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان زكريا نجارًا» [(٢)] وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه، عن حماد بن سلمة به. وقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٧].

وهذا مفسر بقوله: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩].



(١) لم أجد هذا اللفظ في السنن ولا في الشمائل.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٦، ٤٠٥، ٤٨٥)، ومسلم (٧/ ١٠٣)، وابن ماجه (٢١٥٠) كلهم من طريق حماد ابن سلمة به.

قصة يحيى عليه السلام

فلما بُشِّرَ بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨] أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير، قيل كان عمره إذ ذاك سبعًا وسبعين سنة، والأشبه والله أعلم أنه كان أسن من ذلك ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم:٥] يعني: وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقرًا لا تلد. والله أعلم.

كما قال الخليل: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر:٥٤] وقالت سارَّة: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود:٧٢-٧٣].

وهكذا أجيب زكريا عليه السلام، قال له الملك الذي يوحى إليه بأمر ربه: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم:٩] أي: هذا سهل يسير عليه ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩] أي: قَدَّرْتُه، أوجدتك بعد أن لم تكن شيئًا مذكورًا، أفلا يوجد منك ولد وإن كنت شيخًا؟!.

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠] ومعنى إصلاح زوجته: أنها كانت لا تحيض فحاضت. وقيل: وكان في لسانها شيء، أي بذاءة. ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [آل عمران:٤١] أي علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠] يقول: علامة ذلك أن يعتريك سكوت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزًا، وأنت في ذلك سَوِيُّ الخَلِق صحيح المزاج معتدل البِنْيَة، وأُمِرَ بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار، فلما بُشِّرَ بهذه البشارة خرج مسرورًا بها على قومه من محرابه ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١] والوحي ها هنا هو الأمر الخفي إما بكتابة، كما قاله مجاهد والسدي، أو إشارة كما قاله مجاهد أيضًا ووهب وقتادة، قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة: اعتقل لسانه من غير مرض. وقال ابن زيد: كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد.

وقوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢] يخبر تعالى عن وجود الولد وِفْقَ البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه. قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب فقال: ما للعب خُلِقْنَا. قال: وذلك قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢].

وأما قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم:١٣] فروي ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: لا أدري ما الحنان؟. وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم:١٣] أي رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا، فوهبنا له هذا الولد، وعن عكرمة: ﴿وَحَنَانًا﴾ أي محبة عليه ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه،

وهو محبتهما والشفقة عليهما وبرُّهُ بهما . وأما الزكاة : فهو طهارة الخُلُق وسلامته من النقائص والرذائل . والتقوى : طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره . ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمرًا ونهيًا وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال : ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم :١٤]ثم قال : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم :١٥]هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر ، فيفقد الأول بعد ما كان أَلِفَهُ وعرفه ، ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه ، ولهذا يستهل صارخًا إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها ، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها ، وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينهما وبين دار القرار ، وصار بعد الدور والقصور إلى عَرْصَةِ الأموات سكان القبور ، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور ، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور ، وما بين جَبِيرٍ وكَسِيرٍ وفريق في الجنة وفريق في السعير ، ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول :

ولدتك أمك باكيًا مستصرخًا ... والناس حولك يضحكون سرورًا
فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا ... في يوم موتك ضاحكًا مسرورًا

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم ، سلم الله على يحيى في كل موطن منها فقال : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم :١٥].

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيي وعيسى التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لي أنت خير مني . فقال له الآخر : استغفر لي أنت خير مني . فقال له عيسى : أنت خير مني سلمت على نفسي ، وسلم الله عليك . فَعُرِفَ والله فَضْلُهُمَا .

وأما قوله في الآية الأخرى : ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران :٣٩]فقيل : المراد بالحَصُورِ الذي لا يأتي النساء ، وقيل : غير ذلك ، وهو أشبه لقوله : ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران :٣٨].

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد ، أنبأنا علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئة ليس يحيى ابن زكريا ، وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن مَتَّى» [١]. عَلَيّ بن زيد بن جدعان تكلم فيه غير واحد من الأئمة ، وهو منكر الحديث . وقد رواه ابن خزيمة والدارقطني من طريق أبي عاصم العباداني ، عن علي بن زيد بن جدعان به مطولاً . ثم قال ابن خزيمة : وليس على شَرْطِنَا .

وقال ابن وهب : حدثني ابن لهيعة ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يومًا وهم يتذاكرون فضل الأنبياء فقال قائل : موسى كليم الله . وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته ، وقال قائل : إبراهيم خليل الله . وهم يذكرون ذلك فقال : «أين الشهيد ابن الشهيد؟! ، يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب» [٢] قال ابن وهب : يريد يحيى بن زكريا . قد رواه محمد بن إسحاق وهو مدلس ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيب ، حدثني

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٤، ٢٩١، ٢٩٥، ٣٠١، ٣٢٠)، وعبد بن حميد (٦٦٥) كلاهما من طريق حماد بن سلمة . ابن خزيمة الدارقطني .

(٢) إسناده ضعيف .

ابن العاص، أنه سمع رسول الله ﷺيقول: «كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا» [١]فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلسين، وقد عنعن ها هنا. ثم قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب مرسلاً. ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أسامة، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، ثم رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني خطيب دمشق: حدثنا محمد بن الأصبهاني، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: ما أحد إلا يلقى الله بذنب إلا يحيى بن زكريا، ثم تلا ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]ثم رفع شيئًا من الأرض فقال: ما كان معه إلا مثل هذا، ثم ذُبِحَ ذبحًا!.

وهذا موقوف من هذا الطريق وكونه موقوفًا أصح من رفعه. والله أعلم.

وأورده ابن عساكر من طُرُق عن معمر: من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر، وهو ضعيف، عن عثمان بن ساج، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن معاذ عن النبي ﷺ بنحـوه. وروي من طـريق أبي داود الطيالسي وغيـره، عن الحكم بـن عبد الرحمن بن أبي نعيم، عن أبيه، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام» [٢].

وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني: حدثنا إسحاق بن أحمد، حدثنا إبراهيم ابن يوسف، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، سمعت أبا سليمان يقول: خرج عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا يتماشيان فصدم يحيى امرأة، فقال له عيسى: يا ابن خالة. لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه يغفر لك أبدًا. وما هي يا ابن خالة؟ قال امرأة صدمتها. قال: والله ما شعرت بها. قال: سبحان الله. بدنك معي فأين روحك؟، قال: قال: معلق بالعرش ولو أن قلبي اطمأن إلى جبريل لظننت أني ما عرفت الله طرفة عين. فيه غرابة وهو من الإسرائيليات.

وقال إسرائيل عن أبي حصين، عن خيثمة، قال: كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة، وكان عيسى يلبس الصوف وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أَمَةٌ ولا مأوى يأويان إليه أينما جَنَّهُمَا الليل أَوَيَا، فلما أرادا أن يتفرقا قال يحيى: أوصني. قال: لا تغضب. قال: لا أستطيع إلا أن أغضب. قال: لا تقتن مالاً. قال: أما هذه فعسى. وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه: هل مات زكريا عليه السلام موتًا أو قُتِلَ قتلاً؟ على روايتين فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان، عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال: هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليهما، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ، فأوحى الله إليه: لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومَنْ عليها، فسكن أنينه حتى قطع باثنتين. وقد روى هذا في حديث مرفوع سنورده بعد إن شاء الله. وروى إسحاق بن بشر، عن إدريس بن سنان، عن وهب أنه قال:

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٩/١٦/٥٨) وإسناده ضعيف.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/١٦٧)، وإسناده ضعيف.

الذي انصدعت له الشجرة هو شعيا، فأما زكريا فمات موتًا. فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف، - وكان يعد من البدلاء - حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده ممطور، عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهنَّ، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطىء، فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن، وإما أن أبلغهن. فقال: يا أخي. إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي. قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرف، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن: وأولهن: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبدًا من خالص ماله بِوَرِقٍ [1] أو ذَهَب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم يَسَرهُ أن يكون عبده كذلك؟، وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا. وآمركم بالصلاة؛ فإن الله ينصب وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة، كلهم يجد ريح المسك، وإن خَلُوفَ فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك. وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أَسَرَهُ العدو، فشدوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم، فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فَكَّ نفسه. وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرًا، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سِرَاعًا في إثره، فأتى حصنًا حصينًا فتحصن فيه، وإنَّ العبد أحصنُ ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل». قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإن من خرج عن الجماعة قِيْدَ شِبْرٍ فقد خلع رِبْقَ الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو مِنْ حَثَا جهنم» قال: يا رسول الله. وإن صام وصلى؟ قال: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل» [2].

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالد، عن أبان بن زيد، عن يحيى بن أبي كثير به. وكذلك رواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي وموسى بن إسماعيل به، كلاهما عن أبان بن يزيد العطار به، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، عن محمد بن شعيب ابن سابور، عن معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، عن أبي سلام، عن الحارث الأشعري به، ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطري، عن معاوية بن سلام، عن أخيه به. ثم قال: تفرد به مروان الطاطري، عن معاوية بن سلام. قلت: وليس كما قال. ورواه الطبراني عن محمد بن عبدة، عن أبي توبة

---

(١) يعني: بفضة.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠، ٢٠٢)، والترمذي (٢٨٦٣)، (٢٨٦٤)، والنسائي في الكبرى (٢٨٧٤ تحفة) وابن خزيمة (٤٨٣)، (٩٣٠)، (١٨٩٥) كلهم من طريق زيد بن سلام به، وهو صحيح.

الربيع بن نافع، عن معاوية بن سلام، عن أبي سلام، عن الحارث الأشعري، فذكر نحوه فسقط ذكر زيد بن سلام، عن أبي سلام، عن الحارث الأشعري، فذكر نحو هذه الرواية.

ثم روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي، عن أبيه، عن الربيع بن أنس، قال: ذكر لنا عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات، وذكر نحو ما تقدم. وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس، إنما كان يأنس إلى البراري، ويأكل من ورق الأشجار، ويرد ماء الأنهار، ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان، ويقول: من أنعم منك يا يحيى؟. وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديدًا لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل. وقال ابن وهب عن مالك، عن حميد بن قيس، عن مجاهد قال: كان طعام يحيى ابن زكريا العشب، وإنه كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه.

وقال محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا أبو صالح، حدثنا الليث، حَدَّثَني عقيل، عن ابن شهاب، قال: جلست يومًا إلى أبي إدريس الخولاني وهو يقص، فقال: ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعامًا؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال: إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعامًا؟ إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معايشهم. وقال ابن المبارك: عن وهيب بن الورد قال: فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام، فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبرًا وأقام فيه يبكي على نفسه، فقال: يا بني. أنا أطلبك من ثلاثة أيام، وأنت في قبر قد احتفرته قائم تبكي فيه؟ فقال: يا أبت. ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين. فقال له: ابك يا بني. فبكيا جميعًا. وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنحوه.

وروى ابن عساكر عنه أنه قال: إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم، فهكذا ينبغي للصديقين ألا يناموا؛ لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل، ثم قال: كم بين النعيمين وكم بينهما؟!. وذكروا أنه كان كثيرَ البكاءِ حتى أثر البكاء في خديه من كثرة دموعه.

بيانُ سبب قتل يحيى عليه السلام

وذكروا في قتله أسبابًا: من أشهرها: أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج بعض محارمه، أو من لا يحل له تزويجها، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك، فبقي في نفسها منه. فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله، وجاء برأسه ودمه في طَست إلى عندها، فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها.

وقيل: بل أحبته امرأة ذلك الملك، وراسلته، فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته[1] من الملك، فتَمَنَّعَ عليها الملك، ثم أجابها إلى ذلك، فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طَست. وقد ورد معناه في حديث رواه إسحاق بن بشر في كتابه «المبتدأ» حيث قال: أنبأنا

---

(١) يعني: طلبت منه أن يصبه لها.

يعقوب الكوفي، عن عمرو بن ميمون، عن أبيه، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به رأى زكريا في السماء فسلم عليه وقال له: «يا أبا يحيى. خبرني عن قتلك؟ كيف كان؟ ولم قتلتك بنو إسرائيل؟ قال: يا محمد، أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه، وكان أجملهم وأصبحهم وجهًا، وكان كما قال الله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] وكان لا يحتاج إلى النساء، فهويته امرأة ملك بنى إسرائيل، وكانت بغيًّا، فأرسلت إليه، وعصمه الله، وامتنع يحيى، وأبى عليها، فأجمعت على قتل يحيى. ولهم عيد يجتمعون فيه كل عام، وكانت سُنَّةُ الملك أن يَعِدَ ولا يُخْلِف ولا يكذب. قال: فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيعته، وكان بها معجبا، ولم تكن تفعله فيما مضى، فلما أن شيعته قال الملك: سليني، فما سألتني شيئا إلا أعطيتك. قالت: أريد دم يحيى بن زكريا. قال لها: سليني غيره. قالت: هو ذاك: قال: هو لك. قال: فبعثت جلاوزتها [1] إلى يحيى، وهو في محرابه يصلي، وأنا إلى جانبه أصلي، قال: فذُبِحَ في طَست وحُمِلَ رأسُه ودمُه إليها. قال: فقال رسول الله ﷺ «فما بَلَغَ مِنْ صَبْرِك؟» قال: ما انْفَلَتُّ من صلاتي. قال: فلما حُمِلَ رأسه إليها فوضع بين يديها، فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل: غضب إله زكريا لزكريا، فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا. فخرجوا في طلبي ليقتلوني وجاءني النذير، فهربت منهم وإبليس أمامهم يدلهم عليَّ، فلما تخوفت ألا أعجزهم عَرَضَتْ لي شجرة فنادتني وقالت: إليَّ إليَّ. وانصدعت لي ودخلت فيها. قال: وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي والتأمت الشجرة وبقى طرف ردائي خارجًا من الشجرة، وجاءت بنو إسرائيل، فقال إبليس: أما رأيتموه دخل هذه الشجرة، هذا طرف ردائه دخلها بسحره. فقالوا: نحرق هذه الشجرة. فقال إبليس: شقوها بالمنشار شقًّا. قال: فشُقِقْتُ مع الشجرة بالمنشار. قال له النبي ﷺ «هل وجدت له مسًّا أو وجعًا؟» قال: لا، إنما وَجَدَتْ ذلك الشجرةُ التي جَعَلَ اللهُ روحي فيها [2].

هذا سياق غريب جدًّا، وحديث عجيب ورفعه منكر، وفيه ما ينكر على كل حال، ولم يُرَ في شيء من أحاديث الإسراء ذكر زكريا عليه السلام، إلا في هذا الحديث، وإنما المحفوظ في بعض ألفاظ الصحيح في حديث الإسراء: «فمررت بابني الخالة يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة» [3]. فجاء على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث، فإن أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران. وقيل: بل أشياع وهي امرأة زكريا، أم يحيى هي أخت حنة امرأة عمران أم مريم، فيكون يحيى ابن خالة مريم. فالله أعلم.

ثم اختلف في مقتل يحيى بن زكريا هل كان في المسجد الأقصى أم بغيره على قولين: فقال الثوري عن الأعمش عن شمر بن عطية قال: قتل على الصخرة التي ببيت المقدس سبعون نبيًّا، منهم يحيى بن زكريا عليه السلام

---

(١) جلاوزة جمع: جِلَّوْز، وهو الضخم الشجاع، وهو الشُّرَطى. الوسيط ص (١٣٤).

(٢) إسحاق بن بشر في كتابه المبتدأ.

(٣) سبق تخريجه.

وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام :حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: قدم بُخْتِنَصَّرُ دمشق، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه، فقتل على دمه سبعين ألفًا فسكن. وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهو يقتضي أنه قتل بدمشق، وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح، كما قاله عطاء والحسن البصري. فالله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم، عن زيد بن واقد، قال: رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أُخْرِجَ من تحت ركن من أركان القبلة التي تلي المحراب مما يلي الشرق، فكانت البشرة والشعر على حالهما لم يتغيرا. وفي رواية: كأنما قتل الساعة. وذكر في بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السَّكَاسِكَة. فالله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في «المستقصي في فضائل الأقصى» من طريق العباس ابن صبح، عن مروان، عن سعيد بن عبد العزيز، عن قاسم مولى معاوية، قال: كان ملك هذه المدينة - يعني دمشق - هداد بن هدار، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا. وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة، قال: وكان حلف بطلاقها ثلاثًا، ثم إنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال: لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك، فحقدت عليه، وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا، وذلك بإشارة أمها، فأبى عليها، ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلي بمسجد جبرون من أتاه برأسه في صينية، فجعل الرأس يقول له: لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره، فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت بها أمها وهو يقول ذلك، فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها، وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن، ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها، ففعل، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك، ووقعوا في الذل والفناء، ولم يزل دم يحيى بن زكريا يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفًا.

قال سعيد بن عبد العزيز: وهي دم كل نبي. ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال: أيها الدم، أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله. فسكن فرفع السيف وهرب مَنْ هرب مِنْ أهل دمشق إلى بيت المقدس، فتبعهم إليها فقتل خلقًا كثيرًا لا يحصون كثرة، وسبى منهم ثم رجع عنهم.



قصةُ عيسى ابنِ مريمَ عبد الله ورسوله وابن أمته عليه من الله أفضل الصلاة والسلام

قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها في الرد على النصارى - عليهم لعائن الله - الذين زعموا أن لله ولدًا، تعالى الله عما يقولون عُلُوًّا كبيرًا. وكان قد قدم وفد نجران - منهم - على رسول الله ﷺ، فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم[1] ويدعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم، على اختلاف فرقهم، فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة، بَيَّنَ فيها أن عيسى ابن مريم عبدٌ من عباد الله، خلقه وصوره في الرحم، كما صور غيره من المخلوقات، وأنه خلقه من غير أب، كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وقال له كن فكان سبحانه وتعالى. وبَيَّنَ أصل ميلاد أمه مريم، وكيف كان من أمرها، وكيف حملت بولدها عيسى، وكذلك بسط ذلك في سورة مريم كما سنتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته.

فقال تعالى وهو أصدقُ القائلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران:٣٣-٣٧].

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخُلَّصَ من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته، ثم خصص فقال: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[آل عمران:٣٣] فدخل فيهم بنو إسماعيل، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام. وقال محمد بن إسحاق: وهو عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يازم بن يهفاشاط بن إيشا بن إيان بن رحبعام بن داود.

وقال أبو القاسم بن عساكر: مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود بن أخيز بن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن أبيود بن زرابابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط بن إيشا بن إيبا بن رحبعم بن سليمان بن داود عليه السلام. وفيه مخالفة لما ذكره محمد بن إسحاق. ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمها وهي حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم «أشياع» في قول

(١) الأقانيم جمع أُقْنُوم، وهو الأصل. والأقانيم الثلاثة عند النصارى: الأب والابن وروح القدس. الوسيط ص (٧٩٣).

الجمهور، وقيل: زوج خالتها «أشياع». فالله أعلم.

وقـد ذكر محمد بـن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل، فرأت يومًا طائرًا يزق (١) فرخًا له، فاشتهت الولد، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محررًا، أي: حبيسًا في خدمة بيت المقدس. قالوا: فحاضت من فورها، فلما طهرت واقعها بعلها، فحملت بمريم عليها السلام: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ وقرئ بضم التاء ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦] أي: في خدمة بيت المقدس، وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خُدَّامًا من أولادهم.

وقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:٣٦] استدل به على تسمية المولود يوم يولد، كما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول ﷺ، فَحَنَّكَ أخاه، وسماه عبد الله (٢). وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعًا: «كل غلام رهينة بعقيقته، تُذْبَح عنه يوم سابعه، ويسمى ويحلق رأسه» (٣) رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي. وجاء في بعض ألفاظه: «ويدمى» بدل «ويسمى» وصححه بعضهم. والله أعلم.

وقولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٦] قد استجيب لها في هذا كما تقبل منها نذرها، فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود إلا الشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٦] (٤). أخرجاه من حديث عبد الرزاق.

ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرج، عن بقية، عن عبد الله بن الزبيدي، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه. وقال أحمد أيضًا: حدثنا إسماعيل بن عمر، حدثنا ابن أبي ذؤيب، عن عجلان مولى المشمعل، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان بأصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى عليهما السلام» (٥). تفرد به من هذا الوجه.

---

(١) زَقَّ الطائر فرخه: أي أطعمه بفمه. الوسيط ص (٤١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٩، ١٧١، ٢٥٤، ٢٥٩)، والبخاري (٧/ ١٢٦)، ومسلم (٦/ ١٤٦، ١٦٤) وأبو داود (٢٥٦٣)، وابن ماجه (٣٥٦٥)، وابن خزيمة (٢٢٨٣) كلهم من طريق شعبة عن هشام ابن زيد قال سمعت أنس فذكره.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٧، ١٢، ١٧، ٢٢)، والدارمي (١٩٧٥)، وأبو داود (٢٨٣٧)، (٢٨٣٨)، وابن ماجه (٣١٦٥)، والترمذي (١٥٢٢)، والنسائي (٧/ ١٦٦) كلهم من طريق الحسن عن سمرة به، ورواية الحسن عن سمرة قد تكلم فيها علماء الجرح والتعديل إلا حديث العقيقة فقد ثبت سماع الحسن له من سمرة، فروى البخاري (٧/ ١٠٩)، والترمذي (١٨٢)، والنسائي (٧/ ١٦٦) كلهم من طريق قريش بن أنس، عن حبيب بن الشهيد، قال: أمرني ابن سيرين أن أسأل الحسن ممن سمع حديث «في العقيقة» فسألته؟ فقال: من سمرة بن جندب.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٣، ٢٧٤)، والبخاري (٤/ ١٩٩)، (٦/ ٤٢)، ومسلم (٧/ ٩٦) كلهم من طريق الزهري به.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٨، ٢٩٢، ٣١٩) من طريق إسماعيل ويزيد وهاشم عن ابن أبي ذئب به.

ورواه مسلم عن أبي طاهر، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي يونس، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه [١]. وقال أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا حفص بن ميسرة، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «كل إنسان تلده أمه يَلْكُزُهُ الشيطان في حِضْنَيْهِ إلا ما كان من مريم وابنها، ألم تر إلى الصبي حين يسقط كيف يصرخ؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنيه» [٢]. وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه من هذا الوجه.

ورواه قيس عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا وقد عَصَرَهُ الشيطان عصرة - أو عصرتين - إلا عيسى بن مريم» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]. وكذا رواه محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بأصل الحديث.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك، حدثنا المغيرة هو ابن عبد الرحمن الحزامي، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد إلا عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب» [٣] وهذا على شرط الصحيحين ولم يخرجاه من هذا الوجه.

وقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها في خُرُوقها، ثم خرجت بها إلى المسجد، فسلمتها إلى العُبَّادِ الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها، والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها. ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل زوجته: أختها أو خالتها على القولين. فشاحوه في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم، فساعدته المقادير، فخرجت قرعته غالبة لهم، وذلك أن الخالة بمنزلة الأم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] أي: بسبب غلبه لهم في القرعة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] قالوا: وذلك أن كلا منهم ألقى قلمه معروفًا به. ثم حملوها ووضعوها فى موضع، وأمروا غلامًا لم يبلغ الحنث فأخرج واحدا منها، وظهر قلم زكريا عليه السلام. فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية، وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم فى النهر فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء فهو الغالب، ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذى جرى على خلاف جرية الماء، وسارت أقلامهم مع الماء، ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعدًا فهو الغالب ففعلوا، فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها، إذ كان أحق بها شرعًا وقدرًا لوجوه عديدة.

---

(١) أخرجه مسلم (٧/ ٩٧) به. (٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٨) به.
(٣) أخرجه الحميدي (١٠٤٢)، وأحمد (٢/ ٥٢٣)، والبخاري (٤/ ١٥١) كلهم من طريق أبي الزناد به.

قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران :٣٧] .

قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواها، فكانتْ تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها فى بني إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة، والصفات الشريفة حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجدُ عندها رزقًا غريبًا في غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران :٣٧] فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٣٧] أى: رزق رزقنيه الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران :٣٧] فعند ذلك وهنالك طَمِعَ زكريا في وجود ولدٍ من صُلْبِهِ، وإن كان قد أَسَنَّ وكَبُرَ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران :٣٨] قال بعضهم: قال: يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه، هب لي ولدًا وإن كان في غير أوانه، فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره في قصته

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران :٤٢-٥١] .

يذكر تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب، وبشرت بأن يكون نبيًا شريفًا ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ [آل عمران :٤٦] أي في صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكذلك في حال كهولته، فدل على أنه يبلغ الكهولة، ويدعو إلى الله فيها، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة، ولتقوم بشكر هذه النعمة. فيقال: إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفطرت قدماها رضى الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها فقول الملائكة: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ [آل عمران :٤٢] أى: اختارك واجتباك ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران :٤٢] يحتمل أن يكون المراد عالمى زمانها كقوله لموسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف :١٤٤] وكقوله عن بنى إسرائيل: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان :٣٢]

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى وأن محمدًا ﷺ أفضل منهما، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها، وأكثر عددًا، وأفضل علمًا، وأزكى عملاً من بنى إسرائيل وغيرهم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] محفوظ العموم [١]، فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها أو جَدَّ بعدها؛ لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجا بكلام الملائكة والوحى إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] إذ لم يعارضه غيره. والله أعلم.

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعرى وغيره عن أهل السنة والجماعة من: أن النبوة مختصة بالرجال، وليس فى النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها. والله أعلم.

وقد جاء ذكرها مقرونًا مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ ورضى الله عنهن وأرضاهن. وقد روى الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى من طرق عديدة، عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» [٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن قتادة، عن أنس، قال: قال رسول ﷺ: «حَسْبُكَ من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديج خويلد، وفاطمة بنت محمد» [٣].

ورواه الترمذى عن أبى بكر بن زنجويه، عن عبد الرزاق به وصححه، ورواه ابن مردو عبد الله بن أبي جعفر الرازى، وابن عساكر من طريق تميم بن زياد، كلاهما عن أبى عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نساء العالمين أربع مريم بنت أمرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول الله».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهرى، عن ابن أبو هريرة يحدث أن النبى ﷺ قال: «خير نساء ركبن الإبل، صالح نساء قري صغره، وأرعاه لزوج في ذات يده» قال أبو هريرة: ولم تركب مريم بعيرًا صحيحه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به

---

(١) يعني: لم يخص عمومه بشيء يخصصه.

(٢) أخرجه أحمد (٤٨/ ١١٦، ١٣٢، ١٤٣)، والبخاري (٤/ ٢٠٠)، (٥/ ٧ (٣٨٧٧)، والنسائي في الكبرى، كلهم من طريق هشام بن عروة به.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥)، والترمذي (٣٨٧٨) كلهم من طريق عبد ا

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٩، ٢٧٥)، ومسلم (٧/ ١٨٢)، والنسائي في ا ابن شهاب به.

وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني موسى بن علي، سمعت أبي يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرأفه بزوج على قلة ذات يده» (١) قال أبو هريرة: وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم تركب الإبل. تفرد به وهو على شرط الصحيح. ولهذا الحديث طرق أخرى عن أبي هريرة.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا زهير، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا داود بن أبي الفرات، عن علباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خَطَّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط فقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ «أفضل نساء أهل الجنه خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مُزَاحِم امرأة فرعون» (٢) ورواه النسائي من طرق عن داود بن أبي هند. وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داود ...مان بن الأشعث، حدثنا يحيى بن حاتم العسكري، أنبأنا بشر بن مهران بن حمدان، حدثنا ... دينار، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ ... منهن أربع سيدات نساء العالمين: فاطمة بنت محمد، وخديجة بنت خويلد، وآسية بنت عمران». وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا وهب ابن منبه، حدثنا خالد بن ...محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن عائشة، أنها قالت لفاطمة: أرأيتِ ... ﷺ فبكيتِ ثم ضحكتِ؟ قالت: أخبرني أنه ميت من وجعه هذا ... ع أهله لحوقًا به، وأنِّي سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت ... (٣) ... الصحيح. وهذا إسناد على شرط مسلم، وفيه أنهما

... بن محمد، حدثنا جرير، عن يزيد - هو ابن ... الله ﷺ: «فاطمة سيدة نساء ... (٤)

...يت ... عين
...مراء وأبو غالب وأبو

(١)

(٢) ... الكبرى (٦١٥٩ تحفة) كلهم من

(٣)

(٤) ... والنسائي في الكبرى (٤١٣٤ تحفة) كلهم من

عبد الله ابنا البنا، قالوا: أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة أنبأنا أبو طاهر المخلص، حدثنا أحمد بن سليمان، حدثنا الزبير هو ابن بكار، حدثنا محمد ابن الحسن، عن عبد العزيز بن محمد، عن موسى بن عقبة، عن كريب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيدةُ نساءِ أهل الجنة مريم بنت عمران، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية امرأة فرعون»[1]. فإن كان هذا اللفظ محفوظًا بِثُم التى للترتيب فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذَيْن دل عليهما الاستثناء. وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التى وردت بواو العطف التى لا تقتضي الترتيبَ ولا تنفيه. والله أعلم. وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازى، عن داود الجعفرى، عن عبد العزيز ابن محمد، وهو الدراوردى، عن إبراهيم، بن عقبة، عن كريب، عن ابن عباس مرفوعًا، فذكره بواو العطف لا بثم الترتيبية، فخالفه إسنادًا ومتنًا. والله أعلم.

فأما الحديث الذى رواه ابن مردويه من حديث شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أبيه قال: قال: رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» وهكذا الحديث الذى رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مرة الهمدانى، عن أبى موسى الأشعرى، قال قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإنَّ فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[2]. فإنه حديث صحيح كما ترى، اتفق الشيخان على إخراجه، ولفظه يقتضى حصر الكمال في النساء في مريم وآسية، ولعل المراد بذلك: في زمانهما؛ فإن كلا منهما كفلت نبيًّا في حال صغره، فآسية كفلت موسى الكليم، ومريم كفلت ولـدها عبد الله ورسوله، فلا ينفى كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة. فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمس عشرة سنة، وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها، رضى الله عنها وأرضاها. وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها؛ لأنها أصيبت برسول الله ﷺ، وبقية أخواتها مُتْنَ في حياة النبى ﷺ. وأما عائشة: فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، ولم يتزوج بكرًا غيرها، ولا يُعْرَفُ في سائر النساء في هذه الأمة - بل في غيرها - أعلم منها ولا أفهم، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فأنزل الله براءتها من فوق سبع سموات، وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريبًا من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنة وتفتى المسلمين، وتصلح بين المختلفين، وهى أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين، والأحسنُ الوقفُ فيهما رضى الله عنهما؛

---

(١) ابن عساكر.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٤، ٤٠٩)، وعبد بن حميد (٥٦٦)، والبخاري (٤/ ١٩٣، ٢٠٠)، (٥/ ٣٦)، (٧/ ٩٧)، ومسلم (٧/ ١٣٢، ١٣٣)، وابن ماجه (٣٢٨٠)، والترمذي (١٨٣٤)، وفي الشمائل (١٧٤)، والنسائي (٧/ ٦٨)، وفي فضائل الصحابة (٢٤٨)، (٢٥١)، (٢٧٥)، كلهم من طريق شعبة به.

وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ: «وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» (١) يحتمل أن يكون عامًا بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عامًّا بالنسبة إلى ما عدا المذكورات. والله أعلم. والمقصود ها هنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام، فإن الله طهرها واصطفاها على نساء عالمي زمانها، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقا كما قدمنا. وقد ورد في حديث: أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم. وقد ذكرنا في التفسير عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] قال: فالثيب آسية ومن الأبكار مريم بنت عمران. وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم. فالله أعلم.

قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثنا أبي، أنبأنا عمي الحسين، حدثنا يونس بن نفيع، عن سعيد بن جنادة هو العوفي، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى» (٢). رواه ابن جعفر العقيلي من حديث عبد النور به، وزاد فقلت: هنيئًا لك يا رسول الله. ثم قال العقيلي: وليس بمحفوظ (٣).

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الحسن، عن يعلى بن المغيرة، عن أبي داود، قال: دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها: «بالكره مني ما أرى منك يا خديجة، وقد يجعل الله في الكره خيرًا كثيرًا، أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى، وآسية امرأة فرعون؟» قالت: وقد فعل الله بك ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم» قالت: بالرفاء والبنين (٤).

وروى ابنُ عساكر من حديث محمد بن زكريا الغلابي، حدثنا العباس بن بكار، حدثنا أبو بكر الهذلي، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة، وهي في مرض الموت، فقال: «ياخديجة، إذا لقيت ضرائرك فأقرئيهن مني السلام» قالت: يا رسول الله. وهل تزوجت قبلي؟ «قال لا ولكن الله زوجني مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكلثم أخت موسى» (٥). وروى ابن عساكر من طريق سويد بن سعيد، حدثنا محمد بن صالح بن عمر، عن الضحاك ومجاهد، عن ابن عمر: قال: نزل جبريل إلي رسول الله ﷺ بما أرسل به وجلس يحدث رسول الله ﷺ إذ مرت خديجة فقال جبريل: من هذه يا محمد؟ قال: «هذه صديقة أمتي» قال جبريل: معي إليها رسالة من الرب عز وجل يقرئها السلام ويبشرها ببيت في الجنة من قصب بعيد من اللهب لا نصب فيه ولا صخب. قالت الله السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله، وما ذلك البيت الذي من قصب؟ قال: «لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت

(١) السابق.
(٢) الطبراني في الكبير (٥٤٨٥)، وهو ضعيف جدًا.
(٣) رواه العقيلي في الضعفاء (٤/٤٥٩) وهو حديث ضعيف جدًا.
(٤) رواه الطبراني في الكبير (٢٢/ ١١٠٠)، وهو موضوع.
(٥) موضوع.

عمران وبيت آسية بنت مزاحم، وهما من أزواجى يوم القيامة»[١] .

وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا وصب في الصحيح[٢] ، ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جدا وكل من هذه الأحاديث في أسانيدها نظر .

وروى ابن عساكر من حديث أبى زرعة الدمشقى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى معاوية، عن صفوان بن عمرو عن خالد بن معدان عن كعب الأحبار أن معاوية سأله عن الصخرة - يعنى صخرة بيت المقدس - فقال: الصخرة على نخلة والنخلة على نهر من أنهار الجنة وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط أهل الجنة حتى تقوم الساعة .

ثم رواه من طريق إسماعيل بن عيَاش، عن ثعلبة بن مسلم، عن مسعود بن عبد الرحمن، عن خالد بن معدان، عن عبادة بن الصامت عن النبىﷺ بمْثله[٣] . وهذا منكر من هذا الوجة بل هو موضوع .

وقد رواه أبو زرعة عن عبد الله بن صالح، عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن عن ابن عابد، أن معاوية سأل كعبًا عن صخرة بيت المقدس فذكره . قال الحافظ ابن عساكر : وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه .

قلت: وكلام كعب الأحبار هذا إنما تلقاه من الإسرائيليات التي منها ما هو مكذوب مفتعل وضعه بعض زنادقتهم أو جهالهم، وهذا منه . والله أعلم .



(١) منكر .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٠)، والبخاري (٥/ ٤٨)، ومسلم (٧/ ١٣٣)، والنسائي في فضائل الصحابة (٢٥٣) كلهم من طريق حميد بن فضيل، عن عمارة، عن أبي زرعة قال: سمعت أبا هريرة قال: أتى جبريلُ النبيَّﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام، أو طعام، أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب» .

(٣) موضوع: انظر الضعيفة للألباني (١٢٥٢).

ذكر ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مريم العذراء البتول

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ١٦-٣٧].

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها، كما ذكر في سورة آل عمران، قرن بينهما في سياق واحد، وكما قال في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩١].

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس، أنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبي ذلك الزمان زكريا عليه السلام، وأنه اتخذ لها محرابًا وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه، وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة، فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبأنه سيهب لها ولدًا زكيا يكون نبيا كريمًا طاهرًا مكرمًا مؤيدًا بالمعجزات فتعجبت من وجود ولد من غير والد، لأنها لا زوج لها، ولا هي ممن تتزوج فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضي أمرا فإنما يقول له كن فيكون، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت الأمر لله وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل.

وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء، فبينما هي يومًا خرجت لبعض شئونها و ﴿فَانتَبَذَتْ﴾ أي انفردت وحدها شرقي

المسجد الأقصى، إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم :١٧]فلما رأته ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم :١٨]قال أبو العالية : علمت أن التقى ذو نهية . وهذا يرد قول من زعم أنه كان فى بنى إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه «تقي» فإن هذا قول باطل بلا دليل، وهو من أسخف الأقوال .

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم :١٩]أى خاطبها الملك قائلاً : إنما أنا رسول ربك أى : لست ببشر ولكننى ملك بعثنى الله إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم :١٩]أى : ولدًا زاكيا . ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ [مريم :٢٠]أى كيف يكون لي غلام أو يوجد لى ولد ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم :٢٠]أى ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم :٢١]أى فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلا : ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم :٢١]أى وعد أنه سيخلق منك غلامًا ولَسْتِ بذات بعل، ولا تكونين ممن تبغين ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم:٩]أى وهذا سهل عليه ويسير لديه، فإنه على ما يشاء قدير . وقوله : ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم :٢١]أى ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثي وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسي من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى . وقوله : ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم :٢١]أى : نرحم به العباد بأن يدعوهم إلي الله فى صغره وكبره في طفولته وكهولته، بأن يفردوا الله بالعبادة وحدة لا شريك له وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد . وقوله : ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم :٢١]يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها، يعنى أن هذا أمر قضاه الله وحتمه وقدره وقرره، وهذا معنى قول محمد بن إسحاق واختاره ابن جرير ولم يحك سواه . والله أعلم . ويحتمل أن يكون قوله : ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم :٢١]كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم :١٢]. فذكر غير واحد من السلف أن جبريل نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلي فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها . ومن قال أنه نفخ فى فمها أو أن الذى كان يخاطبها هو الروح الذى ولج فيها من فمها فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة فى محالها من القرآن، فإن هذا السياق يدل على أن الذى أُرْسِلَ إليها مَلَكٌ من الملائكة وهو جبريل عليه السلام، وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج بل نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه . كما قال تعالى : ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم :١٢]فدل على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها، كما رواه السدي بإسناده عن بعض الصحابة .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ [مريم :٢٢]أى فحملت ولدها ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم :٢٢]وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعًا، وعلمت أن كثيرًا من الناس سيكون منهم كلام في حقها، فذكر غير واحد من السلف منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل، كان أول من فطن لذلك رجل من عُبَّادِ بنى إسرائيل يقال له : يوسف بن يعقوب النجار،

وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجبًا شديدًا، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حُبْلَى وليس لها زوج، فَعَرَّضَ لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم. هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. قال لها: فأخبريني خبرك. فقالت: إن الله بشرني ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٤٥-٤٦]. ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا. والله أعلم.

وذكر السدى بإسناده عن الصحابة: أن مريم دخلت يومًا على أختها فقالت لها أختها أشعرت أني حبلى؟ فقالت مريم: وشعرت أيضًا أني حبلي؟ فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك وذلك قوله: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٣٩] ومعنى السجود ها هنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان في شرع من قبلنا، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم.

وقال أبو القاسم: قال مالك: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما جميعًا معًا، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أري ما في بطني يسجد لما في بطنك قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام، لأن الله تعالى جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص. رواه ابن أبي حاتم.

وروى عن مجاهد قال: قالت مريم: كنت إذا خلوت حدثني وكلمني واذا كنت بين الناس سَبَّح في بطني. ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن إذ لو كان خلاف ذلك لذكر. وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر، وعن ابن عباس ما هو إلا أن حملت به فوضعته[1]، قال بعضهم: حملت به تسع ساعات واستأنسوا لذلك بقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٢-٢٣] والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه، كقوله: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣]، وكقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤] ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يومًا كما ثبت في الحديث المتفق عليه.

قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريا. قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد، وتوارت عنهم مريم، واعتزلتهم وانتبذت مكانًا قصيًا. وقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٣] أي فالجأها واضطرها الطلق إلي جذع النخلة، وهو بنص الحديث الذى رواه النسائي بإسناد لا بأس به عن

---

(١) متفق عليه: البخاري برقم (٣٢٠٨)، ومسلم (٦٦٦٥).

أنس مرفوعًا والبيهقي بإسناده وصححه[1] عن شداد بن أوس مرفوعًا أيضًا ببيت لحم الذي بني عليه بعض ملوك الروم فيما بعد على ما سنذكره هذا البناء المشاهد الهائل . ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[مريم :٢٣] فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتن ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها ، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات فى المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذه الحال أو كانت ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[مريم :٢٣] أى لم تخلق بالكلية .

وقولة : ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾[مريم :٢٤] وقرئ من «تَحْتِهَا» على الخفض . وفي المضمر قولان ، أحدهما أنه جبريل . قاله العوفي عن ابن عباس قال : ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم . وبهذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدي وقتادة . وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير في رواية : هو ابنها عيسى ، واختاره ابن جرير . وقوله : ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[مريم :٢٤] أي : ناداها قائلاً ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[مريم :٢٤] قيل النهر وإليه ذهب الجمهور . وجاء فيه حديث رواه الطبراني لكنه ضعيف[2] واختاره ابن جرير وهو الصحيح وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم أنه ابنها . والصحيح الأول لقوله : ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[مريم :٢٥] فذكر الطعام والشراب ولهذا قال : ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾[مريم:٢٦] ثم قيل : كان جذع النخلة يابسًا ، وقيل : كانت نخلة مثمرة . فالله أعلم . ويحتمل أنها كانت نخلة ، لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر ، وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[مريم :٢٥] قال عمرو بن ميمون : ليس شيء أجود للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا على بن الحسين حدثنا شيبان ، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي ، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي عن عروة بن رويم عن على بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : «أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم وليس من الشجر شيء يلقح غيرها»[3] وقال رسول الله ﷺ : «أطعموا نساءكم الوُلَّدَ الرطبَ ، فإن لم يكن رطب فتمر ، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران» . وكذا رواه أبو يعلي في مسنده عن شيبان بن فروخ ، عن مسروق بن سعيد ، وفي رواية مسرور بن سعد ، والصحيح مسرور بن سعيد التميمي ، أورد له ابن عدي هذا الحديث عن الأوزاعي به ، ثم قال : وهو منكر الحديث ولم أسمع بذكره إلا في هذا الحديث . وقال ابن حبان : يروى عن الأوزاعي المناكير الكثيرة التي لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها .

وقوله : ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[مريم :٢٦]

---

(١) رواه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٥٥) . (٢) الطبراني في الكبير (١٣٣٠٣)، وهو حديث ضعيف .
(٣) ابن أبي حاتم برقم (١٣١١٣)، وهو حديث منكر .

وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها قال: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم :٢٦] أي فإن رأيت أحدًا من الناس ﴿فَقُولِيٓ﴾ له أي بلسان الحال والإشارة ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم :٢٦] أي صمتًا، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام. قاله قتادة والسدي وابن أسلم، ويدل على ذلك قوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم :٢٦] فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم :٢٧-٢٨].

ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها فمروا على محلتها والأنوار حولها، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم :٢٧] أي أمرًا عظيمًا منكرًا. وفي هذا الذي قالوه نظر، مع أنه كلام ينقض أوله آخره، وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله.

قال ابن عباس: وذلك بعد ما تعالت من نفاسها بعد أربعين يومًا. والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم :٢٧] والفرية: هي الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال. ثم قالوا لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨] قيل: شبهوها بعابد من عباد زمانهم كانت تساميه في العبادة، وكان اسمه هارون. قاله سعيد بن جبير. وقيل: أرادوا بهارون أخا موسى شبهوها به في العبادة، وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهارون نسبًا فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفي على أدنى من عنده من العلم ما يرده عن هذا القول الفظيع، وكأنه غَرَّهُ أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نَجَّىَ الله موسى وقومه وأغرق فرعون وملأه، فاعتقد أن هذه هي هذه.

وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح من نص القرآن كما قررناه في التفسير مطولاً ولله الحمد والمنة. وقد ورد في الحديث الصحيح الدال على أنه كان لها أخ اسمه هارون وليس في ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها على ما يدل أنها ليس لها أخ سواها. والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس، سمعت أبي يذكره، عن سماك، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرءون: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾[مريم :٢٨] وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»[١]. وكذا رواه مسلم والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن إدريس، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وفي رواية: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم». وذكر قتادة

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٢)، ومسلم (٦/ ١٧١)، والترمذي (٣١٥٥)، والنسائي في الكبرى (٨/ ١١٥١٩ تحفة) كلهم من طريق عبد الله بن إدريس به.

وغيره أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهارون حتى قيل إنه حضر بعض جنائزهم بشر كثير منهم ممن يسمى بهارون أربعون ألفًا. فالله أعلم.

والمقصود أنهم قالوا: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبي اسمه هارون وكان مشهورًا بالدين والصلاة والخير، ولهذا قالوا: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨] أي لست من بيت هذه شيمتهم ولا سجيتهم لا أخوك ولا أمك ولا أبوك. فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء. فذكر ابن جرير في تاريخه أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشروه فيها كما قدمناه، ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف ابن يعقوب النجار. فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال، عظم التوكل على ذي الجلال، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ [مريم: ٢٩] أي خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه، فعندها ﴿قَالُواْ﴾ من كان منهم جبارًا شقيا: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ٢٩] أي كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بين مخض وزبده، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والنقص لنا والازدراء إذ لا تردين علينا قولاً منطقيًا، بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبيًا. فعندها: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٠-٣٣] هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم، فكان أول ما تكلم به أن ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] اعترف لربه تعالى بالعبودية، وأن الله ربه فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله، بل هو عبده ورسوله وابن أَمَتِهِ، ثم برَّأ أُمَّهُ مما نسبه إليها الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٣٠] فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا - لعنهم الله وقبحهم - وكما قال تعالى: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٦] وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنى في زمن الحيض - لعنهم الله - فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صِدِّيقَةٌ واتخذ ولدها نبيا مرسلاً أحد أولى العزم الخمسة الكبار ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدس ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣١] وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف وقرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات. ثم قال: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٣٢] أي: وجعلني برًّا بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها، فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها. ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٣٢] أي لست بفظ ولا غليظ، ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي

أمر الله وطاعته.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٣]وهذه المواطن الثلاثة التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام. ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه قال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٤-٣٥]كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٨-٦٣].

ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكبًا يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم، ويئول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم وهم العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة، فجعلوا يناظرون في أمر المسيح فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك، وبيَّنَ أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله. وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكلوا ونكصوا وامتنعوا عن المباهلة (١) وعدلوا إلى المسالمة والموادعة، وقال قائلهم وهو العاقب عبد المسيح: يا معشر النصارى. لقد علمتم أن محمدًا لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أن ما لاعن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجلاً أمينًا، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح وقد بينا ذلك في تفسير آل عمران (٢) وقد بسطنا هذه القصة في السيرة النبوية (٣). والمقصود أن الله تعالى بين أمر المسيح فقال لرسوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم:٣٤] يعني من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله، ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥] أي: لا يعجزه شيء ولا يكترثه ولا يئوده بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦] هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد، وأخبرهم أن الله ربه وربهم وإلهه وإلههم، وأن هذا هو الصراط المستقيم.

قال الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:٣٧] أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه. فمن قائل من اليهود: إنه ولد زانيه، واستمروا على

(١) باهل بعضهم بعضًا: اجتمعوا فتداعوا، فاستنزلوا لعنة الله على الظالم منهم.
(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٧ - ٣٥٠). (٣) يعني: من كتابه البداية والنهاية.

كفرهم وعنادهم. وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا: هو الله، وقال آخرون: هو ابن الله.

وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله، وابن أمته وكلمته ألقاها إلي مريم وروح منه، وهؤلاء هم الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون، ومن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون، وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:٣٧].

قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، أنبأنا الوليد، حدثنا الأوزاعي، حدثني عمير بن هانئ، حدثني جناده بن أبي أمية، عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺقال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» [1]. قال الوليد: فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عمير، عن جنادة: وزاد: «من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء» [2]. وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد، عن الوليد، عن ابن جابر به ومن طريق أخرى عن الأوزاعي به.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٣، ٣١٤)، والبخاري (٤/ ٢٠١)، ومسلم (١/ ٤٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١١٣٠)، (١١٣١) كلهم من طريق عمير بن هانيء.

(٢) السابق.

باب بيان أن الله تعالى منزه عن الولد
تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرًا

وقال تعالى: في آخر سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

فبين أنه تعالى لا ينبغي له الولد لأنه خالق كل شيء ومالكه، وكل شيء فقير إليه، خاضع ذليل لديه وجميع سكان السموات والأرض عبيده، هو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠٣].

فبين أنه خالق كل شيء فكيف يكون له ولد، والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا نظير له ولا شبيه ولا عديل له، فلا صاحبة [(١)] له، فلا يكون له ولد كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

يقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿الصَّمَدُ﴾ وهو السيد الذي كَمُلَ علمه وحكمته ورحمته وبلغ جميع صفاته ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي لم يوجد منه ولد ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي ولم يتولد عن شيء قبله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي وليس له عدل ولا مكافئ. ولا مساوى فقطع النظير المداني والأعلى والمساوي، فانتفي أن يكون له ولد، إذ لا يكون الولد إلا متولدًا بين شيئين متعادلين أو متقاربين، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا. وقال تبارك وتعالى وتقدس: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والإطراء في الدين وهو مجاوزة الحد، فالنصارى لعنهم الله غلوا وأطروا المسيح حتي جاوزوا الحد. فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التي أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ

---

(١) الصاحبة: الزوجة.

فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام. والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم، وهي مخلوق من مخلوقات الله تعالى كما يقول: بيت الله وناقة الله وعبد الله، وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفًا لها وتكريمًا، وسمى عيسى بها لأنه كان بها من غير أب وهي الكلمة أيضًا التي عنها خلق وبسببها وجد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى - عليهم لعائن الله - كل من الفريقين ادعوا على الله شططًا وزعموا أن له ولدًا، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيم ائتفكوه، إلا مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة تشابهت قلوبهم. وذلك أن الفلاسفة - عليهم لعنة الله - زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود الذي يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك، ثم صدر عن الثاني كذلك حتى تناهت العقول إلى عشرة والنفوس إلي تسعة والأفلاك إلي تسعة، باعتبارات فاسدة ذكروها واختيارات باردة أوردوها. ولبسط الكلام معهم، وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر.

وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله وأنه صاهر سروات الجن فتولد منها الملائكة. تعالى الله عما يقولون وتنزه عما يشركون. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩]

وقال تعالى في أول سورة الكهف وهي مكية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١-٥].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ

عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٨-٧٠].

فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن لله ولدا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علوًا كبيرًا.

ولما كانت النصارى - عليهم لعنة الله - المتتابعة إلى يوم القيامة - من أشهر من قال بهذه المقالة ذُكِرُوا في القرآن كثيرًا للردعليهم وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم، وقد تنوعت أقوالهم في كفرهم، وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض. وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فدل على أن الحق يتحد ويتفق، والباطل يختلف ويضطرب فطائفة من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو الله، تعالى الله. وطائفة قالوا: هو ابن الله، عز الله وجل. وطائفة قالوا: هو ثالث ثلاثة. جل الله.

قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم وبين أنه الخالق القادر على كل شيء، وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه. وقال في أواخرها: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٣-٧٥].

حكم تعالى بكفرهم شرعًا وقدرًا، فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم هو عيسى بن مريم، قد بين لهم أنه عبد مربوب مخلوق مصور في الرحم داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار، وعدم الفوز بدار القرار والخزى في الدار الآخرة والهوان والعار، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. ثم قال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] قال ابن جرير وغيره: المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة: أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، على اختلافهم في ذلك ما بين المليكية واليعقوبية والنسطورية - عليهم لعائن الله - كما سنبين كيفية اختلافهم في ذلك ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطس، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] أي وما من إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نظير له ولا كفء له ولا صاحبة له ولا ولد، ثم توعدهم وتهددهم فقال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣] ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التي توجب النار فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] ثم بين حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول وأمه صديقة، أي ليست بفاجرة كما يقول اليهود لعنهم الله، وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا.

وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما، أي ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلها؟!، تعالى الله عن قولهم وجهلهم علوًا كبيرًا.

وقال السدي وغيره، المراد بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] زعمهم في عيسى وأمه أنهما الإلهان مع الله، يعني كما بين تعالى كفرهم في ذلك بقوله في آخر هذه السورة الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتبويخ لعابديه ممن كَذِبَ عليه وافترى وزعم أنه ابن الله، أو أنه الله أو أنه شريكه، تعالى الله عما يقولون، فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة: ١١٦] أي: تعاليت أن يكون معك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] أي: ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة: ١١٧] أي: ما قلت غير ما أمرتني به حين أرسلتني إليهم وأنزلت عَلَيَّ الكتاب الذي كان يتلي عليهم.

ثم فسر ما قاله لهم بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] أي: خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: ١١٧] أي: رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي، فرحمتني وخَلَّصْتَنِي منهم وألقيت شبهي على أحدهم حتى انتقموا منه فلما، كان ذلك ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عز وجل والتبري من أهل النصرانية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] أي: وهم يستحقون ذلك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل الغفور الرحيم. وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر أن

رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتي الصبح: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨] وقال: «إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئًا» (١).

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٦-٢٠].

وقال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر:٤-٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۝ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف:٨١-٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١-٤] وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: «شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، ويزعم أن لي ولدًا وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحدًا» (٢).

وفي الصحيح أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم» (٣).

ولكن ثبت في الصحيح أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» (٤) ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٩) به، وأصله أخرجه أحمد (٥/ ١٥٦، ١٧٠، ١٧٧)، وابن ماجه (١٣٥٠)، والنسائي (٢/ ١٧٧)، وفي الكبرى (٩٩٢) كلهم من طريق قدامة بن عبد الله عن جسرة عن أبي ذر فذكره.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٣)، والبخاري (٤/ ١٢٩)، (٦/ ٢٢٢)، والنسائي (٤/ ١١٢) كلهم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كُفأً أحد». وأخرجه أحمد (٢/ ٣١٧)، والبخاري (٦/ ٢٢٢) كلاهما من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة فذكره.

(٣) أخرجه الحميدي (٧٧٤)، وأحمد (٤/ ٣٩٥، ٤٠١، ٤٠٥)، والبخاري (٨/ ٣١)، (٩/ ١٤١)، وفي الأدب المفرد (٣٨٩)، ومسلم (٨/ ١٣٣، ١٣٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٠ تحفة) كلهم من طريق الأعمش، قال: سمعت سعيد بن جبير، يقول: حدثنا أبو عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى فذكره مرفوعًا.

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٩٣)، ومسلم (٨/ ١٩)، وابن ماجه (٨/ ٤٠)، والترمذي (٣١١٠)، والنسائي في الكبرى (٩٠٣٧ تحفة) كلهم من طريق بريد عن أبي بردة عن أبي موسى فذكره مرفوعًا.

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾

وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠]

وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]

ذكر منشأ عيسى ابن مريم عليهما السلام ومرباه في صغره وصباه وبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى

قد تقدم إنه ولد ببيت لحم قريبًا من بيت المقدس. وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار وهي راكبة على حمار ليس بينهم وبين الأكاف شيء. وهذا لا يصح، والحديث الذي تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم، كما ذكرناه، ومهما عارضه فباطل.

وذكر وهب بن منبه أنه لما خَرَّتِ الأصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها، وأن الشياطين حارت في سبب ذلك حتى كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسى فوجدوه في حجر أمه والملائكة محدقة به، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: هذا لمولد عظيم في الأرض، فبعث رسله ومعهم ذهب ومرمر ولبان هدية إلى عيسى، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس، واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد، فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه، فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا، قيل لها: إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك، فاحتملته فذهبت به إلى مصر، فأقامت به حتي بلغ عمره اثنتي عشرة سنة، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره. فذكر منها أن الدهقان الذي نزلوا عنده أنه افتقد مالاً من داره وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج فلم يدر من أخذها، وعز ذلك على مريم عليها السلام وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها، فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد إلى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه. فقال للأعمى: احمل هذا المقعد وانهض به. فقال: إني لا أستطيع ذلك. فقال: بلي كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار. فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم عيسى في أعين الناس وهو صغيرا جدا.

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب ظهور أولاده، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شرابًا - يعني خمرًا - كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان، لم يجد في جراره شيئًا فشق ذلك عليه، فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شرابًا من خيار الشراب، فتعجب الناس من ذلك جدا، وعَظَّمُوه وعرضوا عليه وعلى أمه مالاً جزيلاً فلم يقبلا وارتحلا قاصدين بيت المقدس. والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا عثمان بن ساج وغيره، عن موسى بن وردان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، وعن مكحول عن أبي هريرة قال: إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل، فمجد الله تمجيدًا لم تسمع له الآذان بمثله لم يدع شمسًا ولا قمرًا ولا جبلاً ولا نهرًا ولا عينًا إلا ذكره في تمجيده فقال: اللهم أنت القريب في علوك، المتعالي في دنوك،

الرفيع على كل شيء من خلقك، أنت الذي خلقت سبعًا في الهواء بكلماتك مستويات طباقًا، أجبن وهن دخان من فرقك فأتين طائعات لأمرك، فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك وجعلت فيهن نورًا على سواد الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار، وجعلت فيهن الرعد المنسبح بحمدك، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك وجعلت فيهن مصابيح يهتدي بهن في الظلمات الحيران، فتباركت اللهم في مفطور سماواتك وفيما دحوت من أرضك دحوتها على الماء فمسكتها على تيار الموج الغامر، فأذللتها إذلال المتظاهر، فذل لطاعتك صعبها، واستحيا لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار، ومن بعد الأنهار الجداول الصغار، ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار، ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار، ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتادًا على ظهر الماء، فأطاعت أطوادها (١) وجلمودها (٢). فتباركت اللهم، فمن يبلغ بنعته نعتك؟ أم من يبلغ بصفته صفتك؟ تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين، لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب، لا إله إلا أنت سبحانك سُتِرْتَ بالسموات عن الناس، لا إله أنت سبحانك إنما يخشاك من عبادك الأكياس، نشهد أنك لست بإله استحدثناك، ولا رب يبيد ذكره، ولا كان معك شركاء يقضون معك فندعوهم ونذرك، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك، نشهد أنك أحد صمد لم تلد ولم تولد، ولم يكن لك كفوًا أحد».

وقال إسحاق بن بشر، عن جويبر ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس، أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان، ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول، وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦]. قال: فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكُتَّاب، فجعل لا يعلمه المعلم شيئًا إلا بدره إليه، فَعَلَّمَه أبا جاد، فقال عيسى: وما أبو جاد؟ فقال المعلم: لا أدرى. فقال عيسى: كيف تعلمني ما لا تدري؟. فقال المعلم: إذًا فعلمني. فقال له عيسى: فقم من مجلسك. فقام فجلس عيسى مجلسه فقال: سلني؟ فقال المعلم: فما أبو جاد؟ فقال عيسى: الألف آلاء الله. والباء بهاء الله. والجيم بهجة الله وجماله. فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد.

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأجابه عن كل كلمة بحديث طويل موضوع لا يسأله عنه ولا يتمادى (٣)، وهكذا روي ابن عدي من حديث إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن أبي مليكة، عمن حدثه عن ابن مسعود، عن مسعر بن كدام عن عطية، عن أبي سعيد، رفع الحديث في دخول عيسى إلى الكتاب وتعليمه المعلم حروف أبي جاد، وهو مطول لا يفرح به. ثم قال ابن عدي: وهذا الحديث باطل بهذا الإسناد لا يرويه غير إسماعيل. وروى ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة قال: كان عبد الله بن عمر يقول: كان عيسى ابن مريم وهو غلام يلعب

---

(١) جمع طود، وهو: الجبل العظيم الذاهب صعدًا في الجو. الوسيط ص (٥٩٠)
(٢) الجلمود: الصخر. الوسيط ص (١٣٧). (٣) ابن عدي.

مع الصبيان فكان يقول لأحدهم: تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك؟ فيقول: نعم فيقول: خبأت لك أمك كذا وكذا. فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها أطعميني ما خبأت لي. فتقول: وأي شيء خبأت لك؟ فيقول: كذا وكذا. فتقول له: من أخبرك؟ فيقول: عيسى ابن مريم فقالوا: والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم. فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم فسمع ضوضاء في بيت فسأل عنهم، فقالوا: إنما هؤلاء قردة وخنازير. فقال: اللهم كذلك. فكانوا كذلك رواه ابن عساكر.

وقال إسحاق بن بشر، عن جويبر، ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهامًا من الله، ففشا ذلك في اليهود، وترعرع عيسى، فهمت به بنو إسرائيل، فخافت أمه عليه، فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون:٥٠]. وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر الله في صفتها أنها ذات قرار ومعين، وهذه صفة غريبة الشكل، وهي أنها ﴿رَبْوَةٍ﴾ وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مُسْتَوٍ يَقِرُّ عليه وارتفاعه متسع، ومع علوه فيه عيون الماء ﴿وَمَعِينٍ﴾ وهو الجاري السارح على وجه الأرض، فقيل: المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس، ولهذا ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾[1] ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم:٢٤] وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف، وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها دمشق فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق. وقيل: ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم. والله أعلم. وقيل هي الرملة.

وقال إسحاق بن بشر: قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه، قال: إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا، قال: فَقَدِمَ عليه يوسف ابن خال أمه فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا، وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة، وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام، والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم، وتحدث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب، فجعلوا يعجبون منه، فدعاهم إلى الله، ففشا فيهم أمره.

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

وقال أبو زرعة الدمشقي: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عمن حدثه قال: «أنزلت التوراة على موسى في ست ليالٍ خلون من شهر رمضان، ونزل الزبور على داود في اثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة، وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عامًا، وأنزل الفرقان على محمدﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان»[2]. وقد ذكرنا في التفسير عن قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[البقرة:١٨٥] الأحاديث الواردة في ذلك،

(١) يعني: فناداها جبريل من تحتها.
(٢) إسناده ضعيف، وروى نحوه ابن أبي حاتم (١٦٤٩).

وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان .

وذكر ابن جرير في تاريخه أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة، ومكث حتي رُفِعَ إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وقال إسحاق بن بشر : وأنبأنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، ومقاتل عن قتادة، عن عبد الرحمن بن آدم، عن أبي هريرة قال : أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم : يا عيسى . جِدَّ في أمري ولا تهن، واسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول، إنك من غير فحل، وأنا خلقتك آية للعالمين، إياي فاعبد وعليَّ فتوكل، خذ الكتاب بقوة، فَسِّرْ لأهل السريانية، بَلِّغْ من بين يديك أني أنا الحق الحي القائم الذي لا أزول، صدقوا النبي الأمي العربي صاحب الجمل والتاج - وهي العمامة - والمدرعة والنعلين والهراوة - وهي القضيب - الأنجل العينين، الصلت الجبين، الواضح الخدين، الجعد الرأس، الكث اللحية، المقرون الحاجبين، الأقنى الأنف، المفلج الثنايا، البادي العنفقة، الذي كأن عنقه إبريق فضة، وكأن الذهب يجري في تراقيه، له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب، ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره، شثن الكف والقدم، إذا التفت التفت جميعًا . وإذا مشى كأنما يتقلع منه صخر وينحدر من صبب، عرقه في وجهه كاللؤلؤ وريح المسك ينفح منه، ولم ير قبله ولا بعده مثله، الحسن القامة، الطيب الريح، نَكَّاحُ النساء، ذا النسل القليل، إنما نسلة من مباركة، لها بيت - يعني في الجنة - من قصب لا نصب فيه ولا صخب، تكفله يا عيسى في آخر الزمان كما كفل زكريا أمك، له منها فرخان مستشهدان، وله عندي منزلة ليست لأحد من البشر، كلامه القرآن ودينه الإسلام وأتاه السلام، طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه .

قال عيسى : يا رب . وما طوبى؟ قال : غرس شجرة أنا غرستها بيدي، فهي للجنان كلها، أصلها من رضوان، وماؤها من تسنيم، وبردها برد الكافور، وطعمها طعم الزنجبيل وريحها ريح المسك، من شرب منها شربة لم يظمأ بعدها أبدًا . قال عيسى : يا رب . اسقني منها . قال : حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبي، وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمة ذلك النبي .

قال : يا عيسى . أرفعك إليَّ . قال : ربِ ولم ترفعني؟ قال : أرفعك ثم أهبطك في آخر الزمان لترى من أمة ذلك النبي العجائب ولتعينهم على قتال اللعين الدجال، أهبطك في وقت صلاة ثم لا تصلي بهم، لأنها أمة مرحومة ولا نبي بعد نبيهم . وقال هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم، عن عبد الرحمن بن زيد، عن أبيه، أن عيسى قال : يا رب أنبئني عن هذه الأمة المرحومة . قال : أمة أحمد، هم علماء حكماء كأنهم أنبياء، يرضون مني بالقليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العمل، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله . يا عيسى . هم أكثر سكان الجنة . لأنه لم تذل ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت به رقابهم . رواه ابن عساكر .

وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقيلي، عن عبد الله بن عوسجة قال: أوحى الله إلى عيسى ابن مريم: أنزلني من نفسك كهمك، واجعلني ذخرًا لك في معادك، وتقرب إليَّ بالنوافل أحبك، ولا تول غيري فأخذلك، اصبر على البلاء، وارض بالقضاء، وكن لمسرتي فيك، فإن مسرتي في أن أطاع فلا أعصى، وكن مني قريبًا وأحى ذكري بلسانك، ولتكن مودتي في صدرك، تيقظ من ساعات الغفلة واحكم في لطيف الفطنة، وكن لي راغبًا راهبًا، وأمت قلبك من الخشيه لي وراع الليل لحق مسرتي واظمأ نهارك ليوم الري عندي، نافس في الخيرات جهدك، واعترف بالخير حيث توجهت، وقم في الخلائق بنصيحتي، واحكم في عبادي بعدلي، فقد نزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان وجلاء الأبصار عن غشاء الكلال، ولا تكن حلسًا [1]كأنك مقبوض وأنت حي تنفس. يا عيسي ابن مرم. ما آمنت بي خليقة إلا خشعت، ولا خشعت لي إلا رجت ثوابي فأشهدك أنها آمنة من عقابي ما لم تغير أو تبدل سنتي.

ياعيسى ابن مريم البكر البتول. ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من وَدَّعَ الأهل وقلى الدنيا وترك اللذات لأهلها وارتفعت رغبته فيما عند إلهه، وكن في ذلك تلين الكلام وتفشى السلام، وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار، حذار ما هو آتٍ من أمر المعاد وزلازل شدائد الأهوال، قبل ألا ينفع أهل ولامال، وأكحل عينك بملول الحزن إذا ضحك البطالون، وكن في ذلك صابرًا محتسبًا، وطوبى لك إن نالك ما وعدت الصابرين، ارج من الدنيا بالله يومًا، وذق مذاقة ما قد حرب منك أين طعمه، وما لم يأتيك كيف لذته، فرح من الدنيا بالبلغة، وليكفك منها الخشن الجنيب، وقد رأيت إلى ما يصير، اعمل على حساب فإنك مسئول، ولو رأت عيناك ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك. وقال أبو داود في كتاب «القدر»: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهري، عن ابن طاووس، عن أبيه قال: لقى عيسى ابن مريم إبليس فقال: أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كُتِبَ لك؟ قال إبليس: فأوف بذروة هذا الجبل فترد منه فانظر هل تعيش أم لا. فقال ابن طاووس: عن أبيه: فقال عيسى: أما علمت أن الله تعالى قال: لا يجربني عبدي فإني أفعل ما شئت. وقال الزهري: إن العبد لا يبتلي ربه، ولكن الله يبتلي عبده. وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن عبدة، أنبأنا سفيان، عن عمرو، عن طاووس قال: أتى الشيطان عيسى ابن مريم، فقال: أليس تزعم أنك صادق؟ فـ هوة فألق نفسك. قال: ويلك. أليس قال: يا ابن آدم. لا تسألني هلاك نفسك فإني أفعل ما أشاء!.

وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا حسين بن طلحة، سمعت خالد بن يزيد، قال: تعبد الشيطان مع عيسى عشر سنين أو سنتين، أقام يومًا على شفير جبل فقال الشيطان: أرأيت إن ألقيت نفسي هل يصيبني إلا ما كتب لي؟ قال: إني لست بالذي أبتلى ربي ولكن ربي إذا شاء ابتلاني. وعرفه أنه الشيطان ففارقه. وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا شريح بن يونس، حدثنا علي بن ثابت، عن الخطاب بن القاسم، عن أبي عثمان، كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل،

(١) الحِلْسُ: الملازم لبيته لا يبرحه.

فأتاه إبليس فقال: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر؟ قال: نعم، قال: ألق نفسك من هذا الجبل وقل قدر على. فقال: يا لعين ! الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عز وجل.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا الفضل بن موسى البصري، حدثنا إبراهيم بن بشار، سمعت سفيان بن عيينة يقول: لقى عيسى ابن مريم إبليس فقال له إبليس: ياعيسي ابن مريم. الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت في المهد صبيا، ولم يتكلم فيه أحد قبلك. قال: بل الربوبية للإله الذي أنطقني ثم يميتني ثم يحييني. قال: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيى الموتى. قال: بل الربوبية لله الذي يحيى ويميت من أحييت ثم يحييه. قال: والله إنك لإله في السماء وإله في الأرض. قال: فصكه جبريل بجناحيه فما نباها دون قرون الشمس. ثم صكه أخرى بجناحيه فما نباها دون العين الحاميه، ثم صكه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه، وفي رواية: فأسلكه فيها، حتى وجد طعم الحمأة فخرج منها وهو يقول: ما لقى أحد من أحد ما لقيت منك يا ابن مريم وقد روى نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر، فقال الحافظ أبو بكر الخطيب: أخبرني أبو الحسن بن رزقويه، أنبأنا أبو بكر أحمد بن سيدي، حدثنا أبو محمد الحسن بن على القطان، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار، أنبأنا على بن عاصم، حدثني أبو سلمة سويد عن بعض أصحابه، قال: صلى عيسى ببيت المقدس فانصرف، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس فاحتبسه فجعل يعرض عليه ويكلمه ويقول له: إنه لا ينبغي لك أن تكون عبدًا. فأكثر عليه وجعل عيسى يحرص على أن يتخلص منه، فجعل لا يتخلص منه فقال له فيما يقول: لا ينبغي لك يا عيسى أن تكون عبدًا. قال: فاستغاث عيسى بربه، فأقبل جبريل وميكائيل فلما رآهما إبليس كف. فلما استقر معه على العقبة اكتنفا عيسى وضرب جبريل إبليس: بجناحه فقذفه في بطن الوادي. قال: فعاد إبليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك.

فقال لعيسى: قد أخبرتك أنه لا ينبغي أن تكون عبدًا، إن غضبك ليس بغضب عبد، وقد رأيت ما لقيت منك حين غضبت ولكن أدعوك لأمر هو لك، آمر الشياطين فليطيعوك فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك، أما إني لا أقول أن تكون إلهًا ليس معه إله ولكن الله يكون إلهًا في السماء وتكون أنت إلهًا في الأرض. فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربه وصرخ صرخة شديدة، فإذا إسرافيل قد هبط فنظر إليه جبريل وميكائيل فكف إبليس، فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصك به عين الشمس، ثم ضربه ضربة أخرى فأقبل إبليس يهوي ومر عيسى وهو بمكانه فقال: يا عيسى. لقد لقيت فيك اليوم تعبًا شديدًا. فرمى به في عين الشمس، فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية قال: فغطوه فجعل كلما خرج غطوه في تلك الحمأة، قال: قال والله ما عاد إليه بعد. قال: وحدثنا إسماعيل العطار، حدثنا أبو حذيفة قال: واجتمع إليه شياطينه فقالوا: سيدنا. لقد لقيت تعبًا، قال: إن هذا عبد معصوم ليس لي عليه من سبيل، وسأضل به بشرًا كثيرًا وأبث فيهم أهواء مختلفة وأجعلهم شيعًا ويجعلونه وأمه إلهين من دون الله. قال: وأنزل الله فيما أيد به عيسى وعصمه من إبليس قرآنًا ناطقًا بذكر نعمته على عيسى فقال: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ

نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠] يعني إذ قويتك بروح القدس، يعني جبريل: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ . . .﴾ [المائدة: ١١٠] الآية كلها، وإذ جعلت المساكين لك بطانة وصحابة وأعوانًا ترضى بهم وصحابة وأعوانًا يرضون بك هاديًا وقائدًا إلى الجنة، فذلك فاعلم خلقان عظيمان من لقيني بهما فقد لقيني بأزكى الخلائق وأرضاها عندي. وسيقول لك بنو إسرائيل صمنا فلم يتقبل صيامنا وصلينا فلم تقبل صلاتنا، وتصدقنا فلم تقبل صدقاتنا، وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يرحم بكاؤنا. فقل لهم: ولم ذلك ومالذي يمنعني؟ أن ذات يدي قلت؟ أو ليس خزائن الأرض والسموات بيدي أنفق منها كيف أشاء؟ أو أن البخل يعتريني؟، أو لست أجود من سئل؟ وأوسع من أعطى؟ أو أن رحمتي ضاقت؟ وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتي. ولولا أن هؤلاء القوم يا عيسى ابن مريم غروا أنفسهم بالحكمة التي تورث في قلوبهم ما استأثروا به الدنيا أثره على الآخرة لعرفوا من أين أوتوا، وإذن لأيقنوا أن أنفسهم هي أعدى الأعداء لهم، وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالأطعمة الحرام، وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلى الذين يحاربوني ويستحلون محارمي، وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها، يا عيسى. إنما أجزى عليها أهلها، وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء؟، ازددت عليهم غضبًا. يا عيسى. وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أن من عبدني وقال فيكما بقولي أن أجعلهم جيرانك في الدار ورفقاءك في المنازل وشركاءك في الكرامة، وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من اتخذك وأمك إلهين من دون الله أن أجعلهم في الدرك الأسفل من النار.

وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أني مثبت هذا الأمر على يدي عبدي محمد وأختم به الأنبياء والرسل، ومولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يتزين بالفحش ولا قوال بالخنا [1]، أسدده لكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم، وأجعل التقوى ضميره والحكم معقوله، والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته والإسلام ملته، اسمه أحمد، وأهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأغنى به بعد العائلة، وأرفع به بعد الضعة، أهدي به وأفتح به بين آذان صم وقلوب غلف وأهواء مختلفة متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وين[illegible] عن المنكر إخلاصًا لاسمى، وتصديقًا لما جاءت به الرسل، ألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل في مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومثواهم يصلون لي قيامًا وقعودًا وركعًا وسجودًا، ويقاتلون في سبيلي صفوفًا وزحوفًا، قربانهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم، وقربانهم في بطونهم، رهبان بالليل، ليوث في النهار، ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم. وسنذكر ما يصدق كثيرًا من هذا السياق مما سنورده من سورة المائدة والصف إن شاء الله وبه الثقة.

---

(١) الخنا: الفحش في الكلام. الوسيط ص (٢٦٩).

وقد روى أبو حذيفة إسحاق بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسي، دخل حديث بعضهم في بعض، قالوا: لما بعث عيسى ابن مريم وجاءهم بالبينات، جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يعجبون ويستهزئون به، فيقولون: ما أكل فلان البارحة وما ادخر في منزله؟ فيخبرهم، فيزداد المؤمنون إيمانًا، والكافرون والمنافقون شكا وكفرانًا.

وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوي إليه، إنما يسيح في الأرض ليس له قرار ولا موضع يعرف به، فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي فقال لها: ما لك أيتها المرأة؟ فقالت: ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها. وإني عاهدت ربي ألا أبرح من موضعي هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله إلي فانظر إليها. فقال لها عيسى: أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت؟ قالت: نعم. قالوا: فصلى ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر فنادى: يا فلانة. قومي بإذن الله الرحمن فاخرجي. قال فتحرك القبر ثم نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله، ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب، فقال لها عيسى: ما أبطأ بك عني؟ فقالت: لما جاءتني الصيحة الأولى بعث الله لي ملكًا فركب خلقي، ثم جاءتني الصيحة الثانية فرجع إليَّ روحي، ثم جاءتني الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة يوم القيامة فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عيني من مخافة القيامة، ثم أقبلت على أمها فقالت: يا أماه. ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين؟ يا أماه. اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا، يا روح الله وكلمته. سل ربي أن يردني إلي الآخرة وأن يُهَوِّنَ على كرب الموت. فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض. فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضبًا. وقدمنا في عقب قصة نوح أن بني إسرائيل سألوه أن يحيى لهم سام بن نوح فدعا الله عز وجل وصلى لله فأحياه الله لهم فحدثهم عن السفينة وأمرها ثم دعا فعاد ترابًا.

وقد روى السدي عن أبي صالح وأبي مالك، عن ابن عباس في خبر ذكره، وفيه أن ملكًا من ملوك بني إسرائيل مات وحمل على سريره فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عز وجل، فأحياه الله عز وجل، فرأى الناس أمرًا هائلاً ومنظر عجيبًا.

وقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١٠-١١١].

يُذَكِّره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خلقه إياه من غير أب، بل من أم بلا ذكر، وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى ثم إرساله بعد هذا كله ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة:١١٠] في اصطفائها

واختيارها لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون، ولهذا قال: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[المائدة:١١٠] وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه، وقرنه معه في حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾[المائدة:١١٠] أي تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[المائدة:١١٠] أي الخط والفهم، نص عليه بعض السلف ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[المائدة: ١١٠] ، وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾[المائدة:١١٠] أي تصوره وتشكله من الطين على هيئة الطير على أمر الله له بذلك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾[المائدة:١١٠] أي بأمري يؤكد تعالى بذكر الإذن له في ذلك لرفع التوهم.

وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾[المائدة:١١٠] .

قال بعض السلف: وهو الذي يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ هو الذي لا طب فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِى﴾ وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مرارًا متعددة بما فيه كفاية.

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[المائدة:١١٠] وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى، وسلامة له من الردى.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[المائدة:١١١] قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهام أي أرشدهم الله إليه ودلهم عليه كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[النحل:٦٨] ، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾[القصص:٧] .

وقيل: المراد وحي بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق، ولهذا استجابوا قائلين: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[المائدة:١١١] .

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصارًا وأعوانًا ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له،

كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال:٦٢-٦٣] .

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٤٩ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[آل عمران:٤٨-٥٤] .

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء، فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقًا له، وأسلموا سراعًا ولم يتلعثموا[1] .

وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره؟ هذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قام به وعلى قدرة من أرسله .

وهكذا محمدﷺ وعليهم أجمعين، بعث في زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال، فهم لم يفعلوا ولن يفعلوا وماذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل، والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم، فانتدب من بينهم طائفة صالحة، فكانوا له أنصارًا وأعوانًا قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته، وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان، فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم وألقي شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه، وهم يعتقدونه عيسى، وهم في ذلك غالطون وللحق مكابرون، وسَلَّمَ لهم كثير من النصارى ما ادعوه، وكلا الفريقين في ذلك مخطئون .

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾[آل عمران :٥٤] . وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[الصف :٦-٨] .

إلى أن قال بعد ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾ [الصف :١٤] .

فعيسي عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد قام فيهم خطيبًا فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده، ونَوَّهَ باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه، إقامة للحجة عليهم وإحسانًا من الله إليهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى

(١) تلعثم في الأمر: توقف وتمكث فيه وتأنى. الوسيط ص (٨٦١).

ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

قال محمد بن إسحاق: حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله. أخبرنا عن نفسك. قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام» (١).

وقد روى عن العرباض بن سارية وأبي أمامة عن النبي ﷺ نحو هذا وفيه: «دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى» وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩] الآية ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيبًا فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦] يحتمل عود الضمير إلى عيسى ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ ثم حرض الله تعالى عباده المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف:١٤] أي من يساعدني في الدعوة، إلى الله ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف:١٤] وكان ذلك في قرية يقال لها: الناصرة فسموا بذلك النصارى، قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف:١٤] يعني لما دعا عيسى ابن مريم بني إسرائيل وغيرهم إلي الله تعالى، منهم من آمن ومنهم من كفر، وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكاملهم فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير بعث إليهم رسلا ثلاثة، أحدهم شمعون الصفا فامنوا واستجابوا، وليس هؤلاء هم المذكورون في سورة يس لما تقدم تقريره في قصة أصحاب القرية، وكفر آخرون من بني إسرائيل وهم جمهور اليهود، فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:٥٥] الآية فكل من كان إليه أقرب كان غالبًا لمن دونه، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه من أنه عبد الله ورسوله كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به. ولما كان النصارى أقرب في الجملة مما ذهب إليه اليهود فيه - عليهم لعائن الله - كان النصارى قاهرين لليهود في أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله.

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١/١/٥٥٦)، وإسناده حسن.

قَالَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

قد ذكرنا في التفسير الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف. ومضمون ذلك: أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يومًا، فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم، وتكون لهم عيدًا يفطرون عليها يوم فطرهم، وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم، فوعظهم عيسى عليه السلام في ذلك وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل.

فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحًا من شعر، وصَفَّ بين قدميه وأطرق رأسه، وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا. فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلاً قليلاً، وكلما دنت سأل عيسى ربه أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة. فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل، فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: «بسم الله خير الرازقين» فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة، ويقال: وخل، ويقال: ورمان وثمار، ولها رائحة عظيمة جدا، قال الله كوني فكانت.

ثم أمرهم بالأكل منها، فقالوا: لا نأكل حتى تأكل. قال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها، فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى [(١)]، وكانوا قريبًا من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها، فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك، ثم قيل: أنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتي قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف. ثم كانت تنزل يومًا بعد يوم، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يومًا بعد يوم، ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء والمحاويج دون الأغنياء. فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم في ذلك، فرفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير. وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير جميعًا، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي، حدثنا سفيان ابن حبيب، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة عن خلاس، عن عمار بن ياسر، عن النبي ﷺ قال: «نزلت المائدة من السماء خبزًا ولحمًا وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمسخوا قردة وخنازير».

---

(١) جمع زَمِن، وهو: من مرض مرضًا يدوم زمانًا طويلاً أو ضعف بكبر سن أو مطاولة علة. انظر الوسيط ص (٤١٦).

ثم رواه ابن جرير عن بندار، عن ابن أبي عدي، عن سعيد، عن قتادة، عن خلاس، عن عمار موقوفًا. وهذا أصح. وكذا رواه من طريق سماك، عن رجل من بني عجل، عن عمار موقوفًا. وهو الصواب. والله أعلم. وخلاس عن عمار منقطع، فلو صح هذا الحديث مرفوعًا لكان فيصلاً في هذه القصة، فإن العلماء اختلفوا في المائدة: هل نزلت أم لا؟ فالجمهور أنها نزلت كما دلت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن، ولا سيما قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:١١٥] كما قرره ابن جرير. والله أعلم.

وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلي مجاهد وإلى الحسن بن أبي الحسن البصري. أنهما قالا: لم تنزل وإنهم أبوا نزولها حين قال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:١١٥] ولهذا قيل إن النصارى لا يعرفون خبرالمائدة وليس مذكورًا في كتابهم، مع أن خبرها مما تتوافر الدواعي على نقله. والله أعلم.

وقد تقصينا الكلام على ذلك في التفسير فليكتب من هناك، ومن أراد مراجعته فلينظره من ثَمَّ. ولله الحمد والمنة.

فصل في أحوال عيسى ومواعظه

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا رجل سقط اسمه، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو هلال محمد بن سليمان، عن بكر بن عبد الله المزني قال: فقد الحواريون نبيهم عيسى فقيل لهم توجه نحو البحر، فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشي على الماء يرفعه الموج مرة ويضعه أخري، وعليه كساء مُرْتَدٍ بنصفه ومؤتزر بنصفه، حتى انتهى إليهم فقال له بعضهم - قال أبو هلال ظننت أنه من أفاضلهم -: ألا أجيء إليك يا نبي الله. قال بلى، قال فوضع إحدى رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الأخرى فقال: أوه. غرقت يا نبي الله. فقال: أرني يدك يا قصير الإيمان، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء!، ورواه أبو سعيد بن الأعرابي، عن إبراهيم بن أبي الجحيم، عن سليمان بن حرب، عن أبي هلال عن بكر بنحوه.

ثم قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن على بن الحسن بن سفيان، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، عن الفضيل بن عياش، قال: قيل لعيسى ابن مريم: يا عيسى. بأي شيء تمشي على الماء؟ قال: بالإيمان واليقين. قالوا: فإنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت. قال: فامشوا إذن. قال: فمشوا معه في الموج فغرقوا، فقال لهم عيسى: ما لكم؟ فقالوا: خفنا الموج. قال: ألا خفتم رب الموج؟، قال: فأخرجهم. ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ثم بسطها. فإذا في إحدى يديه ذهب وفي الأخرى مدر - أو حصى - فقال: أيهما أحلى في قلوبكم؟ قالوا: هذا الذهب. قال: فإنها عندي سواء!

وقدمنا في قصة يحيى بن زكريا عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر ولا يأوي إلى منزل ولا أهل ولا مال ولا يدخر شيئًا لغد. قال بعضهم: كان يلبس من غزل أمه. صلوات الله وسلامه عليه، وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال: كان عيسى عليه

السلام إذا ذكرت عنده الساعة صاح، ويقول لا ينبغي لابن مريم أن يذكر عنده الساعة ويسكت.
وعن عبد الملك بن سعيد بن أبجر: أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكالى [١].
وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر: حدثنا جعفر بن برقان، أن عيسى كان يقول: «اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرتهنا بعملي فلا فقير أفقر مني؟ اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تسوء بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تسلط علي من لا يرحمني». وقال الفضيل بن عياض عن يونس بن عبيد، كان عيسى يقول: لا يصيب أحد حقيقة الإيمان حتى لا يبالي من أكل الدنيا! قال الفضيل: وكان عيسى يقول: فكرت في الخلق فوجدت من لم يخلق أغبط عندي ممن خلق!.

وقال إسحاق بن بشر، عن هشام بن حسان، عن الحسن، قال: إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة. قال: وإن الفرارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى. قال: وبينما عيسى نائم يومًا على حجر قد توسده وقد وجد لذة النوم، إذ مر به إبليس، فقال: يا عيسى. ألست تزعم أنك لا تريد شيئًا من عرض الدنيا؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا. قال: فقام عيسى فأخذ الحجر فرمى به إليه، وقال: هذا لك مع الدنيا!.

وقال معتمر بن سليمان: خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتبان حافيًا باكيًا شعثًا مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش فقال: السلام عليكم يا بني إسرائيل، أنا الذي أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ولا عجب ولا فخر، أتدرون أين بيتي؟ قالوا أين بيتك يا روح الله؟ قال: بيتي المساجد، وطيبى الماء، وإدامي الجوع، وسراجي القمر بالليل، وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس، وريحاني بقول الأرض، ولباسي الصوف، وشعاري خوف رب العزة، وجلسائي الزمنى والمساكين، أصبح وليس لي شيء، وأمسي وليس لي شيء، وأنا طيب النفس غير مكترث، فمن أغنى مني وأربح؟!، رواه ابن عساكر. وروى في ترجمة محمد بن الوليد بن أبان بن حبان أبي الحسن العقيلي المصري، حدثنا هانئ ابن المتوكل الإسكندراني، عن حيوة بن شريح، حدثني الوليد بن أبي الوليد، عن شفى بن ماتع، عن أبي هريرة، عن النبيﷺ قال: «أوحى الله تعالى إلى عيسى: أن يا عيسى انتقل من مكان إلى مكان. لئلا تعرف فتؤذى، فوعزتي وجلالي لأزوجنك ألف حوراء ولأولمن عليك أربعمائة عام». وهذا حديث غريب رفعه، وقد يكون موقوفًا من رواية شفى ابن ماتع، عن كعب الأحبار أو غيره من الإسرائيليين. والله أعلم.

وقال عبد الله بن المبارك: عن سفيان بن عيينة، عن خلف بن حوشب، قال: قال عيسى للحوارين: كم ترك لكم الملوك الحكمة، فكذلك فاتركوا لهم الدنيا. وقال قتادة: قال عيسى عليه السلام: سلوني فإني لين القلب وإني صغير عند نفسي.

وقال إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال عيسى للحواريين: كلوا

---

(١) جمع ثكلى، وهي التي فقدت الولد أو الحبيب. انظر الوسيط ص (١٠٣).

خبز الشعير واشربوا الماء القراح واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين، بحق ما أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين، بحق ما أقول لكم إن شركم عَالِم يُؤْثِرُ هواه على عِلْمه يود أن الناس كلهم مثله.

وروى نحوه عن أبي هريرة. قال أبو مصعب عن مالك: إنه بلغه أن عيسى كان يقول: يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرير وخبز الشعير، وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره.

وقال ابن وهب، عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: كان عيسى يقول: اعبروا الدنيا ولا تعمروها. وكان يقول: حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنظر يزرع في القلب الشهوة. وحكى وهيب بن الورد مثله وزاد: ورب شهوة أورثت أهلها حزنًا طويلاً. وعن عيسى عليه السلام: يا ابن آدم الضعيف. اتق الله حيث ما كنت، وكن في الدنيا ضيفًا، واتخذ المساجد بيتًا، وعلم عينك البكاء وجسدك الصبر وقلبك التفكر، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة. وعنه عليه السلام أنه قال: كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر دارًا فلا يتخذ الدنيا قرارًا. وفي هذا يقول سابق البربري:

لكم بيوت بمستن السيوف وهل يبني على الماء بيت أسه مدر؟

وقال سفيان الثوري: قال عيسى ابن مريم: لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء. وقال إبراهيم الحربي عن داود بن رشيد، عن أبي عبد الله الصوفي قال: قال عيسى: طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا إزداد عطشًا حتى يقتله. وعن عيسى عليه السلام: إن الشيطان مع الدنيا ومكره مع المال وتزينه مع الهوى، واستمكانه عند الشهوات.

وقال الأعمش عن خثيمة: كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول: هكذا فاصنعوا بالقراء. وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام: طوبي لِحِجْر حملك ولثدي أرضعك. فقال: طوبي لمن قرأ كتاب الله واتبعه. وعنه: طوبي لمن بكي من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته. وعنه: طوبي لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير إثم. وعن مالك بن دينار قال: مَرَّ عيسى وأصحابه بِجِيفَةٍ فقالوا: ما أنتن ريحها!، فقال: ما أبيض أسنانها!. لينهاهم عن الغيبة. قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا الحسين بن عبد الرحمن، عن زكريا بن عدي قال: قال عيسى ابن مريم: يا معشر الحواريين. ارضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا.

قال زكريا: وفي ذلك يقول الشاعر:

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال أبو مصعب عن مالك قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله

على العافية».

وقال الثوري: سمعت أبي يقول عن إبراهيم التيمي، قال: قال عيسى لأصحابه: بحق أقول لكم. من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير. وقال مالك بن دينار: قال عيسى: إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس.

وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، قال: قال عيسى: اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم، انظروا إلى هذه الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها، فإن قلتم نحن أعظم بطونًا من الطير فانظروا إلي هذه الأباقر من الوحوش والحمر فإنها تغدو لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها فاتقوا فضول الدنيا فإن فضول الدنيا عند الله رجز.

وقال صفوان بن عمرو: عن شريح بن عبيد، عن يزيد بن ميسرة، قال: قال الحواريون للمسيح: يا مسيح الله. انظر إلي مسجد الله ما أحسنه. قال: آمين آمين. بحق ما أقول لكم لا يترك الله هذا المسجد حجرًا قائمًا إلا أهلكه بذنوب أهله، إن الله لا يصنع بالذهب ولا الفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئًا إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الأرض، وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في «تاريخه»: أخبرنا أبو منصور أحمد بن محمد الصوفي: أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوركانية، قالت: حدثنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن عبد الله بن الهيثم إملاء، حدثنا الوليد بن أبان إملاء، حدثنا أحمد ابن جعفر الرازي، حدثنا سهل بن إبراهيم الحنظلي، حدثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز، عن المعتمر، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺقال: «مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة، فأعجبه البنيان فقال: أي رب. مُرْ هذه المدينة أن تجيبني، فأوحى الله إلى المدينة: أيتها المدينة الخربة جاوبي عيسى. قال: فنادت المدينة: عيسى حبيبي وما تريد مني؟ قال: ما فعلت أشجارك وما فعل أنهارك وما فعل قصورك وأين سكانك؟ قالت: حبيبي. جاء وعد ربك الحق فيبست أشجاري ونشفت أنهاري وخربت قصوري ومات سكاني.

قال: فأين أموالهم؟ فقالت: جمعوها من الحلال والحرام موضوعة في بطني، لله ميراث السموات والأرض، قال: فنادى عيسى عليه السلام: تعجبت من ثلاثة أناس: طالب الدنيا والموت يطلبه، وباني القصور والقبر منزله، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه! ابن آدم. لا بالكثير تشبع ولا بالقليل تقنع، تجمع مالك لمن لا يحمدك، وتقدم على رب لا يعذرك، إنما أنت عبد بطنك وشهوتك، وإنما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك، وأنت يا ابن آدم ترى حشد مالك في ميزان غيرك.

هذا حديث غريب جدا وفيه موعظه حسنة فكتبناه لذلك. وقال سفيان الثوري عن أبيه، عن إبراهيم التيمي، قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين. اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب الرجل حيث كنزه. وقال ثور بن يزيد، عن عبد العزيز بن ظبيان قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: من تعلم وعلم وعمل دعي عظيمًا في ملكوت السماء. وقال أبو كريب: روى أن عيسى عليه السلام

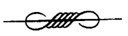
قال: لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ويعبر بك النادي . وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعًا: «أن عيسى قام في بني إسرائيل فقال: يا معشر الحواريين . لا تحدثوا بالحِكَم غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، والأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل» وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن رجل، عن عكرمة قال: قال عيسى: لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئًا، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنزير! . وكذا حكي وهب وغيره عنه أنه قال لأصحابه: أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم، وإن فيكم خصلتين من الجهل، الضحك من غير عجب والصبحة من غير سهر . وعنه أنه قيل له: من أشد الناس فتنة؟ قال: زلة العالِمَ، فإن العالم إذا زَلَّ يزل لزلته عَالَمٌ كثير . وعنه أنه قال: يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رءوسكم والآخرة تحت أقدامكم، قولكم شفاء وعملكم داء، مثلكم مثل شجرة الدقلي تعجب من راها وتقتل من أكلها .

وقال وهب: قال عيسى: يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلونها ولا تدعون المساكين يدخلونها، إن شر الناس عند الله عَالِمٌ يطلب الدنيا بعلمه . وقال مكحول: التقى يحيى وعيسى، فصافحه عيسى وهو يضحك فقال له يحيى: يا ابن الخالة ما لي أراك ضاحكًا كأنك قد أمنت؟ فقال له عيسى: ما لي أراك عابسًا كأنك قد يئست؟، فأوحي الله إليهما: إن أحبكما إليَّ أبشكما بصاحبه

وقال وهب بن منبه: وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يُدْلَى فيه، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال: قد كنتم فيما هو أضيق منه في أرحام أمهاتكم، فإذا أحب الله أن يوسع وسع .

وقال أبو عمر الضرير: بلغني أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دمًا

والآثار في مثل هذه كثيرة جداً . وقد أورد الحافظ ابن عساكر منها طرفًا صالحًا اقتصرنا على هذا القدر . والله الموفق للصواب .



ذكر رفع عيسى عليه السلام إلى السماء في حفظ الرب، وبيان كذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٩].

فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وَشوْا [١] به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان.

قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق: كان اسمه داود بن نورا، فأمر بقتله وصلبه، فحصروه في دار ببلد بيت المقدس، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت، فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسى من روزنة [٢] من ذلك البيت إلى السماء، وأهل البيت ينظرون، ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقى عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له، وسَلَّمَ لليهود عامة النصارى الذي لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبينًا كثيرًا فاحشًا بعيدًا. وأخبر تعالى بقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] أي بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة، فإنه ينزل، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام، كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء، كما أوردنا ذلك مستقصى في كتاب «الفتن والملاحم» عند أخبار المسيح الدجال، فذكرنا ما ورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذى الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلى الضلال. وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلى السماء: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان. حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني فيكون معي في

---

(١) يعني: نموا عليه، وأرادوا تأليب الملوك عليه. وانظر الوسيط ص (١٠٧٨).

(٢) الروزنة: الكوة غير النافذة. الوسيط ص (٣٥٥).

درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سنًّا فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية.

وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدًا ﷺ.

قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤] وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم. ورواه النسائي عن أبي كريب، عن أبي معاوية به نحوه. ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبي معاوية. وهكذا ذكر غير واحد من السلف، وممن ذكر ذلك مطولاً محمد بن إسحاق ابن يسار. قال: وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر أجله، يعني ليُبَلِّغَ الرسالةَ ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول في دين الله، قيل: وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلاً: بطرس ويعقوب بن زبدا، ويحنس أخو يعقوب، وأندراوس، وفيلبس، وأبرثلما، ومتى، وتوماس، ويعقوب بن حلقايا، وتداوس، وفتاتيا، ويودس كريايوطا، وهذا هو الذي دل اليهود على عيسى. قال ابن إسحاق: وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصارى وهو الذي ألقى شبه المسيح عليه فصلب عنه. قال: وبعض النصارى يزعم أن الذي صلب عن المسيح وألقى عليه شبهه هو يودس بن كريايوطا. والله أعلم.

وقال الضحاك عن ابن عباس: استخلف عيسى شمعون وقتلت اليهود يودس الذي ألقى عليه الشبه. وقال أحمد بن مروان: حدثنا محمد بن الجهم، قال: سمعت الفراء، يقول في قوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤] قال: إن عيسى غاب عن خالته زمانًا فأتاها، فقام رأس الجالوت اليهودي فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى فطمس الله عينيه عن عيسى، ثم خرج إلى أصحابه فقال: لم أره، ومعه سيف مسلول. فقالوا: أنت عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه فقال جل ذكره: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد: حدثنا يعقوب القمي، عن هارون بن عنترة، عن وهب بن منبه، قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت أحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم: سحرتمونا ليبرزن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعًا. فقال عيسى لأصحابه من يشترى منكم نفسه اليوم بالجنة؟ فقال رجل: أنا. فخرج إليهم فقال: أنا عيسى. وقد صوره الله على صورة عيسى. فأخذوه فقتلوه وصلبوه فمن ثم شُبِّهَ لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك.

قال ابن جرير: وحدثنا المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثني عبد

الصمد بن معقل، أنه سمع وهبًا يقول: إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه، فدعا الحواريين وصنع لهم الطعام فقال: احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة. فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه. فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال: من رد عَلَيَّ شيئًا الليلة مما أصنع فليس مني ولا أنا منه. فأقروا حتى إذا فرغ من ذلك، قال: أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة، فإنكم ترون أني خيركم فلا يتعظم بعضكم على بعض، وليبذل بعضكم لبعض نفسه، كما بَذَلْتُ نفسي لكم، وأما حاجتي التي استعنتكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي. فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء، فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله. أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها؟ فقالوا: والله ما ندري ما لنا، والله لقد كنا نُسْمِرُ فنكثر السَّمَرَ وما نطيق الليلة سمرًا، وما أن نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه، فقال: يُذْهَبُ بالراعي وتتفرق الغنم! وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعي به نفسه. ثم قال: الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني. فخرجوا وتفرقوا: وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا: هذا من أصحابه. فجحد وقال: ما أنا بصاحبه. فتركوه، ثم أخذه آخرون فجحد كذلك. ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه. فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود، فقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهمًا فأخذها ودلهم عليه وكان شبه عليهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون: أنت كنت تحيي الموتى وتنتهر الشيطان وتبرئ المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟! ويبصقون عليه، ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها، فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم فمكث سبعًا. ثم أن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب، فجاءهما عيسى فقال: علام تبكيان؟ قالتا: عليك. فقال: إني قد رفعني الله إليه، ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شيء شبه لهم. فأمرا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا، فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر، وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه فقالوا: إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه، فقال: لو تاب لتاب الله عليه، ثم سألهم عن غلام كان يتبعهم يقال له يحيى فقال: هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم. وهذا إسناد غريب عجيب، وهو أصح مما ذكره النصارى - لعنهم الله - من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جَذْعَةٍ فأراها مكان المسامير من جسده، وأخبرها أن روحه رُفِعَتْ وأن جسده صُلِبَ. وهذا بُهْتٌ وكَذِبٌ واخْتِلَاقٌ وتحريف وتبديل وزيادة باطلة في الإنجيل على خلاف الحق ومقتضي الدليل.

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب، فيما بلغه، أن مريم سألت من بيت الملك بعد ما صُلِبَ المصلوب بسبعة أيام، وهي تحسب أنه ابنها، أن ينزل جسده، فأجابهم إلى ذلك ودُفِنَ

هنالك، فقالت مريم لأم يحيى: ألا تذهبين بنا نَزُورُ قبر المسيح. فذهبتا فلما دَنَتَا من القبر قالت مريم لأم يحيى: ألا تستترين؟ فقالت: وممن أستتر؟ قالت: من هذا الرجل الذي هو عند القبر. فقالت أم يحيى: إني لا أرى أحدًا، فَرَجَتْ مريم أن يكون جبريل، وكان قد بَعُدَ عهدُها به، فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر، فلما دَنَتَ من القبر قال لها جبريل -وعرفته-: يا مريم. أين تريدين؟ فقالت: أزور قبر المسيح فَأُسَلِّمُ عليه وأُحْدِثُ عهدًا به. فقال: يا مريم. إن هذا ليس المسيح، إن الله قد رفع المسيح وطَهَّرَهُ من الذين كفروا. ولكن هذا الفتى الذي ألقي شبهه عليه وصُلِبَ وقُتِلَ مكانه، وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فُعِلَ به، فهم يبكون عليه، فإذا كان يوم كذا وكذا فائتى غِيضَةَ [1] كذا وكذا فإنك تلقين المسيح. قال: فرجعت إلى أختها، وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغِيضَةِ، فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة فلما رآها أسرع إليها وأَكَبَّ عليها فَقَبَّلَ رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل، وقال: يا أمه. إن القوم لم يقتلوني، ولكن الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك، والموت يأتيك قريبًا فاصبري واذكري الله كثيرًا. ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتي ماتت. قال: وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين، وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة - رضي الله عنها وأرضاها - وقال الحسن البصري: وكان عُمْرُ عيسى عليه السلام يوم رفع أربعًا وثلاثين سنة. وفي الحديث: «إن أهل الجنة يدخلونها جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلِين أبناء ثلاثًا وثلاثين» [2] وفي الحديث الآخر: «على ميلاد عيسى وحسن يوسف» [3] وكذا قال حماد بن سلمة عن على بن يزيد، عن سعيد بن المسيب، أنه قال: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. فأما الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه ويعقوب بن سفيان الفسوي في تاريخه، عن سعيد بن أبي مريم، عن نافع بن يزيد، عن عمارة بن غزية، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، أن أمه فاطمة بنت الحسين حدثته أن عائشة كانت تقول: أخبرتني فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها أنه لم يكن نبي كان بعده نبي إلا عاش الذي بعده نصف عُمْرِ الذي كان قبله، وأنه أخبرني أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة فلا أراني إلا ذاهب على رأس ستين. هذا لفظ الفسوي. فهو حديث غريب.

قال الحافظ ابن عساكر: والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر، وإنما أراد به مدة مقامه في أمته، كما روى سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة، قال: قالت فاطمة: قال لي رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم مَكَثَ في بني إسرائيل أربعين سنة» وهذا منقطع.

وقال جرير والثوري عن الأعمش، عن إبراهيم: مكث عيسى في قومه أربعين عامًا. ويروي عن

(١) الغيضة: مجتمع الشجر في مغيض ماء. القاموس المحيط ص (٨٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٥، ٣٤٣، ٤١٥) من طريق حماد بن سلمة قال: أخبرنا علي بن زيد عن سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة فذكره مرفوعًا، وأخرجه الدارمي (٢٨٢٩)، والترمذي (٢٥٣٩) كلاهما من طريق معاذ بن هشام، عن أبيه، عن عامر الأحول، عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة مرفوعًا: «أهل الجنة جرد مُرْدٌ كُحْلٌ، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم». وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٢٥).

(٣) يعني: أهل الجنة يدخلونها وسنهم سن عيسى، وجمالهم كجمال يوسف ﷺ.

أمير المؤمنين عَلِيّ أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثاني والعشرين من رمضان، وتلك الليلة في مثلها توفي على بعد طعنه بخمسة أيام.

وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن عيسى لما رفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها، وجاءته مريم فودعته وبَكَتْ، ثم رفع وهي تنظر إليه وأَلْقَي إليها عيسى بردًا له، وقال: هذه علامة ما بيني وبينك يوم القيامة وألقى عمامته على شمعون، وجعلت أمه تودعه بإصبعها تشير به إليه حتى غاب عنها، وكانت تحبه حبا شديدًا، لأنه توفر عليها حبه من جهتي الوالدين إذ لا أب له، وكانت لا تفارقه سفرًا ولا حَضَرًا وكانت كما قال بعض الشعراء:

وكنت أرى كالموت من بين ساعة ... فكيف ببين كان موعده الحشر

وذكر إسحاق بن بشر، عن مجاهد بن جبير أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل شبه لهم وهم يحسبونه المسيح وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك، تسلطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم وهو ملك دمشق في ذلك الزمان، فقيل له: إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله وكان يُحْيِي الموتى ويُبْرِئ الأكمه والأبرص ويفعل العجائب، فعدوا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحبسوهم، فَبُعِثَ فجيء بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة، فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه: فبايعهم في دينهم وأعلى كلمتهم وظهر الحق على اليهود، وعلت كلمة النصارى عليهم، وبعث إلى المصلوب فوضع عن جذعه وجيء بالجذع الذي صلب عليه ذلك الرجل فعظمه، فمن ثَمَّ عَظَّمَتِ النصارى الصليب، ومن ها هنا دخل دين النصرانية في الروم. وفي هذا نظر من وجوه:

أحدها: أن يحيي بن زكريا نبي لا يقر على أن المصلوب عيسى، فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق.

الثاني: أن الروم لم يدخلوا في دين المسيح إلا بعد ثلاثمائة سنة، وذلك في زمان قسطنطين بن قسطس باني المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره.

الثالث: أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثم ألقوا بخشبته جعلوا مكانه مطروحًا للقمامة والنجاسة وجِيَفِ الميتات والقاذورات، فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين المذكور فعمدت أمه هيلانة الحرانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك مُعْتَقِدَةً أنه المسيح، ووجدوا الخشبة التي صُلِبَ عليها المصلوب. فذكروا أنه ما مسها ذو عَاهَةٍ إلا عوفي. فالله أعلم أكان هذا أم لا، وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذي بذل نفسه كان رجلاً صالحًا، أو كان هذا محنة وفتنة لأُمَّةِ النصارى في ذلك اليوم، حتى عَظَّمُوا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلئ، ومن ثَمَّ اتخذوا الصلبانات وتبركوا بشكلها وقَبَّلُوها - لعنهم الله -، وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة، وبني مكانها كنسية هائلة مزخرفة بأنواع الزينة، فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التي يقال لها: القمامة باعتبار ما كان عندها، ويسمونها القيامة يعنون التي يقوم جسد المسيح منها. ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قبلة اليهود، فلم تزل كذلك حتى فتح

عمر بن الخطاب بيت المقدس، فَكَنَسَ عنها القمامة بردائه وطَهَّرَهَا من الأَخْبَاثِ والأَنْجَاسِ، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو المسجد الأقصى.

ذكر صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾. قيل: سمي المسيح لمسحه الأرض، وهو سياحته فيها، وفراره بِدِينِهِ من الفتن في ذلك الزمان، لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام. وقيل: لأنه كان ممسوح القدمين. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧] والآيات في ذلك كثيرة جدا. وقد تقدم ما ثبت في الصحيحين: «ما من مولود إلا والشيطان يَطْعَنُ في خاصرته حين يولد فَيَسْتَهِلُّ صارخًا إلا مريم وابنها، ذهب يَطْعَنُ فطعن في الحجاب»[(١)] وتقدم حديث عمير ابن هانئ عن جنادة، عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبد الله ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[(٢)] رواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم.

وروى البخاري ومسلم من حديث الشعبي، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أَدَّبَ الرجل أَمَتَهُ فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران، وإذا آمن بعيسى ابن مريم ثم آمن بي فله أجران، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران»[(٣)] هذا لفظ البخاري.

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا هشام، عن معمر، وحدثني محمود: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المُسَيَّبِ، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «ليلة أُسْرِيَ بي ولقيت موسى قال: فَنَعَتَهُ فإذا رجل حسبته قال: مضطرب، رجل الرأس، كأنه من رجال شنوءة. قال: ولقيت عيسى، فَنَعَتَهُ النبي ﷺ فقال: رَبْعَةٌ أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام - ورأيت إبراهيم وأنا أَشْبَهُ وَلَدِهِ به»[(٤)] الحديث. وقد تقدم في قصتي إبراهيم وموسى.

ثم قال: حدثنا محمد بن كثير، أنبأنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن مجاهد، عن ابن

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الحميدي (٧٦٨)، وأحمد (٤/ ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٠٨، ٤١٤، ٤١٥)، والبخاري (١/ ٣٥)، (٣/ ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦)، (٤/ ٧٣، ٢٠٤)، (٧/ ٧)، وفي الأدب المفرد (٢٠٣)، (٢٠٤)، (٢٠٥)، ومسلم (١/ ٩٣)، (٤/ ١٤٦)، وأبو داود (٢٠٥٣)، وابن ماجه (١٩٩٥٦) والترمذي (١١١٦) والنسائي (٦/ ١١٥) كلهم من طريق أبي بردة به. والروايات مطولة ومختصرة.

(٤) سبق تخريجه.

عمر، قال: قال النبي ﷺ: «رأيت عيسى وموسى وإبراهيم، فأما عيسى «فأحمر جَعْدٌ عريض الصدر. وأما موسى فآدم جسيم سَبْطٌ، كأنه من رجال الزُّطِ»[1] تفرد به البخاري. وحدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا أبو ضمرة: حدثنا موسى بن عقبة، عن نافع، قال: قال عبد الله بن عمر: ذكر النبي ﷺ يومًا بين ظهراني الناس المسيح الدجال، فقال: «إن الله ليس بأعور، إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عِنَبَةٌ طافية، وأراني الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال تضرب لِمَّتُهُ بين منكبيه، رَجِلُ الشَّعر يقطر رأسه ماء، واضعًا يديه على منكبي رجلين، وهو يطوف بالبيت فقلت: من هذا؟ فقالوا: المسيح ابن مريم. ثم رأيت رجلاً وراءه جعدًا قَطَطًا أعور العين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قطن. واضعًا يده على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت: من هذا؟ فقالوا: المسيح الدجال»[2].

ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة[3]. ثم قال البخاري: تابعه عبيد الله بن نافع. ثم ساقه من طريق الزهري عن سالم عن ابن عمر قال الزهري: وابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية. فَبَيَّنَ صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحين: مسيح الهدي ومسيح الضلالة، ليُعرَف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ويُعْرف الآخر فيحذره الموحدون.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن همام ابن منبه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكَذَبَتْ عيني»[4] وكذا رواه مسلم[5] عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق.

وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد الطويل، عن الحسن وغيره، عن أبي هريرة قال: ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال: «رأى عيسى رجلاً يسرق فقال: يا فلان. أَسَرَقْت؟ فقال: لا والله ما سرقت. فقال: آمنت بالله وكذبت بصري»[6].

وهذا يدل على سَجِيَّة طاهرة، حيث قَدَّمَ حَلِفَ ذلك الرجل، فظن أن أحدا لا يحلف بعظمة الله كاذبًا على ما شاهده منه عيانًا، فقبل عذره ورجع على نفسه فقال: آمنت بالله. أي صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك.

وقال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٢٠٢) به، قال أبو ذر الهروي - أحد رواة صحيح البخاري: كذا وقع في جميع الروايات المسموعة عن الفربري مجاهد عن ابن عمر، قال: ولا أدري أهكذا حدث به البخاري، أو غلط فيه الفربري؛ لأني رأيته في جميع الطرق عن محمد بن كثير وغيره عن مجاهد، عن ابن عباس. فتح الباري (٦/ ٤٨٤، ٤٨٥)، وانظر باقي ما فيه، وانظر تحفة الأشراف (٥/ ٦٤١٣). المسند الجامع (١٠/ ٧٥٢) برقم (٨١٧٢).

(٢) أخرجه مالك في موطئه (٥٧٣)، وأحمد (٢/ ١٢٦)، والبخاري (٤/ ٢٠٢)، (٧/ ٢٠٧)، (٩/ ٤٣)، ومسلم (١/ ١٠٧). كلهم من طريق نافع به.

(٣) هو السابق.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٤/ ٢٠٣)، ومسلم كلهم من طريق عبد الرزاق به.

(٥) هو السابق.

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٣) به.

جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤] فأول الخلق يُكْسَى إبراهيم، ثم يأخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقال: إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول: كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١١٧ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٧-١١٨] [(١)] تفرد به دون مسلم من هذا الوجه.

وقال أيضًا: حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي: حدثنا سفيان، سمعت الزهري يقول: أخبرني عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تَطْرُونِي كما أَطْرَتِ النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عَبْدٌ فقولوا عبد الله ورسوله» (٢).

وقال البخاري: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج يصلي إذ جاءته أُمُّه فدعته فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تُمِتْهُ حتى تُرِيه وجوه المومسات. وكان جريج في صومعة فعرضت له امرأة وكلمته فأبى، فأتت راعيًا فأمكنته من نفسها فولدت غلامًا فقيل لها: ممن؟ قالت: من جريج فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسَبَوْهُ فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: فلان الراعي. فقالوا: أَنَبْنِي صومعتك من ذَهَبٍ؟ قال: لا، إلا من طين.

وكانت امرأة تُرْضِع ابنًا لها في بني إسرائيل فمر بها راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يَمُصُّه. قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه «ثم مُرَّ بِأَمَةٍ، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه. فترك ثديها فقال: اللهم اجعلني مثلها. فقالت: لم ذلك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأَمَةُ يقولون سرقت وزنت، ولم تفعل» (٣).

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان: حدثنا شعيب، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة، أن أبا هريرة

---

(١) أخرجه الحميدي (٤٨٣)، وأحمد (١/ ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٥٣، ٢٥٧)، والدارمي (٢٨٠٥)، والبخاري (٤/ ١٦٩، ٢٠٤)، (٦/ ٧٠)، (٧/ ٦٩، ٧٠، ١٢٢)، (٨/ ١٣٦)، ومسلم (٨/ ١٥٦، ١٥٧)، والترمذي (٢٤٢٣)، (٣١٦٧)، والنسائي (٤/ ١١٤، ١١٧)، وفي الكبرى (٥٦٢٢ تحفة) كلهم من طريق سعيد بن جبير به.

(٢) أخرجه مالك في موطئه (٥١٤)، والحميدي (٢٥)، (٢٦)، (٢٧)، وأحمد (١/ ٢٣، ٢٤، ٤٠، ٤٧، ٥٥)، والدارمي (٢٣٢٧)، (٢٧٨٧)، والبخاري (٣/ ١٧٢)، (٤/ ٢٠٤)، (٥/ ٨٥، ١٠٩)، (٨/ ٢٠٨)، (٩/ ١٢٧)، ومسلم (٥/ ١١٦)، وأبو داود (٨/ ٤٤)، وابن ماجه (٢٥٥٣)، والترمذي (١٤٣٢)، وفي الشمائل (٣٣٠) كلهم من طريق الزهري به. في حديث طويل.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٧، ٣٠٨)، والبخاري (٣/ ١٧٩)، (٤/ ٢٠١)، ومسلم (٨/ ٤) كلهم من طريق جرير بن حازم به.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أَوْلَى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد عِلَّاتٍ ليس بيني وبينه نبي». تفرد به البخاري من هذا الوجه.

ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي داود الحفري، عن الثوري عن أبي الزناد، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان - وهو الثوري - عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أَوْلَى الناس بعيسى عليه السلام والأنبياء إخوة أولاد علات وليس بيني وبين عيسى نبي»[(١)].

وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه. وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه، وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه.

قال أحمد: حدثنا يحيى، عن ابن أبي عروبة، حدثنا قتادة، عن عبد الرحمن ابن آدم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لِعلات، ودينهم واحد وأمهاتهم شَتَّى، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، سَبْطٌ كأن رأسه يَقْطُرُ، وإن لم يصبه بَلَلٌ بين مخصرتين، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويعطل الملل حتى تهلك في زمانه كلها غير الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب، وتقع الأَمَنَةُ في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعًا، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضًا فيمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يُتَوَفَّى فيصلي عليه المسلمون ويدفنوه»[(٢)]. ثم رواه أحمد عن عفان، عن همام، عن قتادة، عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة فذكر نحوه. وقال: فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون»[(٣)] ورواه أبو داود عن هُدْبَة بن خالد، عن همام ابن يحيى به نحوه.

وروى هشام بن عروة، عن صالح مولى أبي هريرة عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «فيمكث في الأرض أربعين سنة» وقد بيَّنَّا نزوله عليه السلام في آخر الزمان في كتاب «الملاحم» كما بسطنا ذلك أيضًا في التفسير عند قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١] وأنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين: تقدم يا روح الله فصل. فيقول: لا، بعضكم على بعض أمراء مكرمة الله هذه الأمة، وفي رواية فيقول له عيسى: إنما أقيمت الصلاة لك، فيصلي خلفه، ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال فيلحقه عند «باب لد» فيقتله بيده الكريمة. وذكرنا

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٦٣، ٥٤١) به.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٦، ٤٣٧)، وأبو داود (٤٣٢٤) كلاهما من طريق قتادة به.

(٣) السابق.

أنه قوي الرجاء حتى بُنِيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التي هي من حجارة بِيض، وقد بُنِيت أيضًا من أموال النصارى حين حرقوا التي هُدِّمَتْ وما حولها، فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، وأنه يخرج من فَج الروحاء حاجًا أو معتمرًا أو ليُثَنيهما، ويقيم أربعين سنة، ثم يموت فيُدْفَن فيما قيل في الحُجْرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه.

وقد ورد ذلك فى حديث ذكره ابن عساكر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام في كتابه عن عائشة مرفوعًا، أنه يُدْفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية، ولكن لا يصح إسناده.

وقال أبو عيسي الترمذي: حدثنا زيد بن أخزم الطائي، حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قتيبة، حدثني أبو مودود المدني، حدثنا عثمان بن الضحاك، عن محمد ابن يوسف بن عبد الله بن سلام، عن أبيه، عن جده قال: مكتوب في التوراة: صفة محمد وعيسى ابن مريم عليهما السلام يدفن معه. قال أبو مودود، وقد بقي من البيت موضع قبر. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن. كذا قال: والصواب الضحاك بن عثمان المدني. وقال البخاري: هذا الحديث لا يصح عندي ولا يُتَابَعُ عليه.

وروى البخاري عن يحيى بن حماد، عن أبي عوانة، عن عاصم الأحول، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان قال: الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة، وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة، وقيل خمسمائة وأربعون سنة وعن الضحاك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة. والمشهور ستمائة سنة، ومنهم من يقول ستمائة وعشرون سنة بالقمرية، لتكون ستمائة بالشمسية. والله أعلم.

وقال ابن حبان في صحيحه: «ذِكْرُ المدةِ التي بقيت فيها أمة عيسى على هديه»: حدثنا أبو يعلي، حدثنا أبو همام، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الهيثم بن حميد، عن الوضين ابن عطاء، عن نصر بن علقمة، عن جُبَير بن نفير، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد قبض الله داود بين أصحابه فما فُتِنُوا ولا بَدَّلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتي سنة».

وهذا حديث غريب جدا، وإن صححه ابن حبان. وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق، أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصى الحواريين بأن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وعَيَّنَ كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم.

وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة: لوقا، ومتي، ومرقس، ويوحنا، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة، وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى أخرى، وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما متى ويوحنا، ومنهم اثنان من أصحابه وهما مرقس ولوقا.

وكان ممن آمن بالمسيح وصَدَّقَه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا، وكان مختفيا في مغارة داخل الباب الشرقي قريبًا من الكنيسة المصلبة، خوفًا من بولص اليهودي، وكان ظالمًا غاشمًا مُبْغِضًا للمسيح ولما جاء به، وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد ثم رجمه

حتى مات - رحمه الله - ولما سمع بولص أن المسيح عليه السلام توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقتله، فتلقاه عند كوكبا، فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه مَلَكٌ فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه، فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح فجاء إليه واعتذر مما صنع، وآمن به فقبل منه وسأله أن يَمْسَح عينيه لِيَرُد الله عليه بصره، فقال اذهب إلى ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك، فجاء إليه فدعا فَرُدَّ عليه بصره، وحسن إيمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله وبُنِيَت له كنيسته باسمه، فهي كنيسة بولص المشهورة بدمشق من زمن فتحها الصحابة رضي الله عنهم حتى خَرُبَتْ.

فصل اختلاف أصحاب المسيح بعد رفعه

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال، كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف كما أوردناه عند قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف :١٤] قال ابن عباس وغيره: قال قائلون منهم: كان فينا عبد الله ورسوله فرُفِعَ إلى السماء وقال آخرون: هو الله. وقال آخرون: هو ابن الله. فالأول: هو الحق والقولان الآخران كفر عظيم، كما قال: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم :٣٧] وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل، ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل.

ثم بعد المسيح بثلاثمائة سنة حَدَثَتْ فيه الطامة العظمى والبَلِيَّة الكبرى، اختلف البطاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهبان في المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين باني القسطنطينية وهم المجمع الأول، فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات، فسُمُّوا الملكية، ودَحَضَ من عداهم وأبعدهم، وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أريوس الذي ثَبَتَ على أن عيسى عبد من عباد الله، ورسول من رسله، فسكنوا البراري والبوادي وبنوا الصوامع والديارات والقلايات، وقَنعُوا بالعيش الزهيد، ولم يخالطوا أولئك المِلَل والنِّحَل، وبَنَتِ الملكية الكنائس الهائلة، عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان فحولوا مَحَارِيبها إلى الشرق، وقد كانت إلى الشمال إلى الجدي.

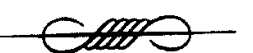
بيان بناء بيت لحم والقمامة

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على مَحَلِّ مولد المسيح، وبنت أمه هيلانة القمامة، يعني على قبر المصلوب وهم يُسَلِّمُون لليهود أنه المسيح. وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام، ومنها مخالف للعَتِيقة التي هي التوراة، وأَحَلُّوا أشياء هي حرام بنص التوراة، ومن ذلك الخنزير، وصَلُّوا إلى المشرق، ولم يكن المسيح صَلَّى إلا إلى صخرة بيت المقدس، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى، ومحمد خاتم النبيين صَلَّى إليها بعد هجرته إلي المدينه ستة عشر شهرا - أو سبعة عشر شهرا - ثم حول إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل. وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك، ووضعوا العقيدة التي يُحَفِّظُونَهَا أطفالَهم ورجالهم ونساءهم التي يسمونها

بالأمانة، وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة. وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني، واليعقوبية أصحاب يعقوب البراذعي أصحاب المجمع الثالث، يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها.

وها أنا ذا أحكيها - وحاكي الكفر ليس بكافر لابث - على ما فيها من رِكَّةِ الألفاظ وكثرة الكفر والخيال المفضي بصاحبه إلى النار ذات الشواظ [1] فيقولون: «نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يرى وكل ما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدُّهُور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مُسَاوٍ للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء، من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتَجَسَّدَ من روح القدس ومن مريم العذراء، وتَأَنَّسَ وصُلِبَ علي عهد ملاطس النبطي، وتألم، وقُبِرَ، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب وصعد إلى السماء وجلس على يمين الأب، وأيضًا فسيأتي بجسده ليُدَبِّرَ الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه، وروح القدُس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب، والابن مسجود له وبمجد الناطق في الأنبياء كنيسة واحدة جامعة مقدسة يُهُولِيَّة، وأعترفُ بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وأنه حَيٌّ قيامة الموتى وحياة الدهر العَتِيدُ كَوْنُهُ. آمين».

(وإلى هنا ينتهي كتاب «قصص الأنبياء» للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، والحمد لله على نعمته)



(١) الشواظ: اللهب لا دخان له. الوسيط ص (٥١٩).

الفهرس

